

قسم اللغة والأدب العربي

معهد الآداب واللغات

لسانيات التراث؛ دراسة في النموذج اللغوي عند
الخليل بن أحمد الفراهيدي.

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه نظام "ل م د"
تخصص: النحو و اللغة العربية

إشراف الدكتور: بغداد بليّة

إعداد الطالب: ياسر أغا

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ	الرتبة	المؤسسة	الصفة
أحمد جلايلي	أستاذ ت العالي	المركز الجامعي النعامة	رئيسا
بغداد بليّة	أستاذ محاضر (أ)	المركز الجامعي النعامة	مشرفا ومقررا
محمد دويس	أستاذ ت العالي	المركز الجامعي النعامة	عضوا مناقشا
صالح بلعيد	أستاذ ت العالي	المجلس الأعلى للغة العربية	عضوا مناقشا
عبد الجليل مرتاض	أستاذ ت العالي	جامعة تلمسان	عضوا مناقشا
طاهر الجيلالي	أستاذ ت العالي	جامعة سعيدة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:

1440 - 1441هـ/2019 - 2020 م

المقدمة

إنّ قراءة التراث ومُحاولة البحث في مضامينه، تُعدّ عملية معرفيّة واعية، تقتضي وجودَ آليات وطرائق تحليل، تسعى من خلالها إتاحة قراءة موضوعيّة، وفق منهج علمي يُحاول

الإجابة عن تساؤلات مطروحة، يسعى إلى تفكيك فرضياتها ومناقشة قضاياها، لأجل الوصول إلى نتائج دقيقة، وهذا المطلب الرئيس لا يتأتى إلا من خلال المعرفة الدقيقة للخصوصية المعرفية، التي أنتجت مفاهيمه وفق نسقٍ فكري معيّن، يُلزم فاعل القراءة أن يختار المقاربة الملائمة، التي تُناسب المدونة المُستهدفة، وذلك لتحقيق مبدأ الاقتصاد والانسجام في هذه الدراسة، كي تستجيب لمنطق المنهج العلمي، وإذا كانت المدونة موضوع الدراسة، هي جملة من الآراء اللغوية لعلم من أعلام العربية، مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي كونه يحتل مكانة لغوية سامقة، يكاد لا ينازعه فيها منازع، نظرا لما عُرف عنه من حذاقة علمه، وموسوعيته وعبقريته التأملية في المسائل اللغوية، فإن ركائز مثل هذه القراءة التأصيلية، ستتحدّد وفق معيار المادة والموضوع، لأجل إجراء مقارنة نموذجية تُقيم هي الأخرى جسرا مشتركا، يلتقي فيه نمط التفكير اللغوي التراثي، مع مناهج الدرس اللساني الحديث والمعاصر، لغاية استشرافية تقوم على إنتاج مفاهيم مُطورة، تُفسّر الظواهر اللغوية وأشكالها الدلالية، علما أنّ اللسانيات أصبحت تُشكّل معلما حضاريا، له سماته النظرية وخصوصياته المعرفية، في الكشف عن قوانين اللغة.

وإنّ إقرارنا بهذا المنجز العلمي لا يجعلنا نتوقّف عند حدود الترجمة، والنقل واستهلاك هذه النظريات اللسانية، بقدر ما يشجّعنا إلى إقامة دراسة علمية عبر إطار نظري، بما يتوافق مع مُعطيات الدرس اللساني وفق انسجام تام، تتوحّد رؤيته في معالجة اللغة، ذلك أنّ هذا الاشتغال أصبح يُشكّل ضرورة حضارية لقيام مشروع معرفي، يجعل من التراث اللغوي مادة وركيزة، لقيام لسانيات عربية لها ركائزها النظرية، وأسسها المنهجية وطرقها الإجرائية.

وبناءً عليه جاء هذا البحث موسوما كالاتي:

"لسانيات التراث؛ دراسة في النموذج اللغوي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي."

أسباب اختيار الموضوع:

لا يُمكن لأيِّ بحث أن يحوز قيمته، إلَّا بحوافزه ودوافع اختياره، ويعود سبب اختيار هذا الموضوع ، إلى أسباب عدّة نذكر منها :

أ- مُحاولة فهم البنية الفكرية للتراث اللّغوي، وتحليل سماتها السوسيوثقافية.

ب- الوقوف على جهود التّفكير اللّغوي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، من حيث استقراء المادّة اللّغوية وتصنيفها وتحليلها، واستنباط القواعد وتحكيمها، وكيفية تعامله مع القضايا اللّغوية، وبيان رؤيته العلميّة وإجراءاته المنهجية لها.

ج- الكشف عن آليات التّحليل اللّساني، في أفكار الخليل بن أحمد الفراهيدي، من خلال تعليقاته للمسائل اللّغوية، وتفسير ظواهرها وأشكالها الدّلالية.

إشكالية البحث:

يتطلّب التعامل مع اللّسانيات في المدوّنة التراثية اللّغوية، الكشف عن الإطار المنهجي الذي يحدّد طبيعة القراءة التحليلية، ومقوماتها النظرية وأبعادها الإجرائية، لاسيما محاولة الوقوف على التّصورات اللّسانية، في نموذج لغويّ محدّد (مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي)، ومن هنا تظهر الإشكالية المحورية التي توطّر، وتوجّه مضامين هذا الموضوع وهي كالآتي:

ما المظهر المعرفي الذي يمكن أن تُقدّمه لنا " لسانيات التراث " في النّموذج اللّغوي عند الخليل ؟

وانطلاقا من هذه الإشكالية تتحدّد هذه التّساؤلات الآتية:

أ-ماذا سنستفيد معرفيا إذا قمنا بإخضاع النّموذج اللّغوي عند الخليل، إلى قراءة لسانية تراثية؟

ب- كيف يُمكننا استثمار مُعطيات هذه القراءة، في مقارنة هذا النموذج الواحد (النموذج اللّغوي عند الخليل)، وما مميّزاتها النظرية وأبعادها المنهجية؟

ج- هل يجوزُ لنا القول إنّ كثيرا من الآراء اللّغوية، في النموذج اللّغوي عند الخليل، قد سبقت النظريات اللسانية الحديثة في تفسيرها للظواهر اللّغوية؟

د- هل نموذج الخليل نموذج ذو خصوصية حضارية خاصّة، أم أنّه قابل لأن يُصاغ في أية نظرية لسانية؟

منهج البحث:

كان لا بُدّ للإجابة عن هذه الإشكالية والتساؤلات المطروحة، الاستعانة بمنهج يعيننا على إيجاد أجوبة، ووضع نتائج تدلّل لنا القضايا الرئيسية، التي يطرحها هذا الموضوع حيث اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي، أثناء مناقشتنا لبعض المسائل المرتبطة بعلاقة اللسانيات بالتراث اللّغوي، وعرضنا لنظرية هذا النموذج اللّغوي وجملته من مفاهيمه، وأفكاره الواردة في مصادر المعرفة، وتصوّراته اللّغوية في المستويات اللسانية (الصّوتي والمعجمي، والنّحوي والصّرفي)، التي احتاجت إلى مُناقشة وتفسير مسائلها وللوقوف عند أهمّ مفاهيمها.

بنية البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع أن نجعله في مُقدّمة، ومدخل تمهيديّ وثلاثة فصول، تتلوها خاتمة مُرفقة بجملته من النتائج المتوصّل إليها، وبعض التوصيات التي خلصنا إلى اقتراحها.

تناولنا في المدخل الذي جاء بعنوان: اللسانيات والتراث اللّغوي؛ الإشكال المنهجيّ ومسوّغات القراءة، علاقة إعادة قراءة التراث اللّغوي بالنظرية اللسانية العامّة، وأبعاد هذه القراءة نظريّا ومنهجيا، حيث عرّجنا على مفهوم التّراث، وأنماط قراءاته المُتباعدة، وسؤال

التأسيس والتأويل، بوصفهما ثنائيتان ذات ممارسة استراتيجية، تسعى كلّ واحدة منها إلى تفكيك بنيات هذا التراث، وإعادة بنائه وفق نسق مُعيّن، ثمّ تحدّثنا عن الاقتراح المنهجي في قراءة التراث اللّغوي، مُتمثلاً في مصطلح " لسانيات التراث " ، حيث كشفنا عن مفهومه ومنهج اشتغاله ومراتب القراءة فيه، وختمنا هذا المدخل بنموذج مُقترح ، رأينا أنّه يتمثّل وفق هذا الاشتغال، في قراءته وتحليله للتراث اللّغوي.

حاولنا في الفصل الأوّل : الخليل بن أحمد؛ معالم شخصيّته ومسيرة حياته، التعرّف بشخصيّة الخليل بن أحمد الفراهيدي، عن نشأته وثقافته وجهوده اللّغوية، وإبداعاته العلميّة كما تطرّفنا في هذا الفصل إلى إجراء قراءة نقدية، في منظومته المعرفيّة وذلك بالبحث في بنيته العلميّة ، التي سعت إلى الكشف عن حقائق اللّغة، وظواهرها وأنساقها المضمرة.

أمّا الفصل الثّاني الموسوم: المُستويات اللّسانية في نظريّة الخليل اللّغوية؛ مُقاربة في أنظمة البنى والدلالات، سعى إلى دراسة المستويات اللّغوية، في المدوّنة الخليليّة (الصّوتي- المعجمي- النّحوي والصّرفي)، وفق سمات المُقاربة التي نقترحها " لسانيات التراث"، حيث افتُتِحَ هذا الفصل بمدخل جاء فيه وصف معالم هذه المُقاربة ، ثمّ تمّ ذلك عبر كلّ مستوى، في وضع مُقاربة ذات معالم محدّدة ، قائمة على مبادئ منهجيّة خاصّة بها خلصت إلى نتائج علميّة وموضوعيّة.

وجاء الفصل الأخير المعنوّن : نحو قراءة لسانية جديدة في الرّؤى اللّغوية عند الخليل، على شكل مُقترح منهجي حاولنا في بدايته إعادة النّظر، في بعض الإطلاقات النّظرية على صنيع الخليل مثل مصطلح " الرّؤى"، وإعطاء وصف علمي جديد لهذا الصّنيع، أمّا المبحث الثّاني من هذا الفصل، فقد اقتصر الحديث عن التّصوّر اللّساني للّغة، ونظام الخطاب عند الخليل وفق مُقاربة وظيفيّة، تمّ من خلالها الكشف عن الآليات والرّؤى، التي استعان بها الخليل في تحليله للظواهر اللّغوية ومجالات الخطاب، وانتهى هذا

الفصل إلى اقتراح مقارنة لسانية جديدة، قصد تطوير النموذج اللغوي عند الخليل، لجعله قادرا على وصف الظواهر اللغوية، وتحليل أنماط استعمالها وأشكالها الدلالية.

الدراسات السابقة:

إنّ رغبتنا الجامعة في الخوض في مثل هذا الموضوع، المتّصل بقضية اللسانيات والتراث اللغوي، الذي تتّجه قراءته إلى دراسة شخصية لغوية عربية قديمة ، مثل شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي، يُدرس فكرها اللغوي وطريقة تصوّرها، وكيفية تناولها لقضايا العربية، لا ينكر وجود دراسات سابقة تستحقّ الذكر والإشادة، نذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

- 1- أعمال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح -رحمة الله عليه-.
- 2- أعمال الندوة الدولية التي عُقدت في جامعة آل البيت بالأردن، يومي: 23-25 تموز 2006م، وقام بإعدادها وتحريرها في مجلدين، الدكتور سعيد جبر أبو خضر والدكتور محمد محمود الدروبي.
- 3- أثر جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي في الدراسات اللغوية الحديثة، ل: محمد تهاني نجم الدين العبيد.

أهمّ المصادر والمراجع:

اعتمدنا في بحثنا هذا على جملة من المصادر والمراجع، ترواحت بين القديم والحديث، وبين العربيّ منها والأجنبيّ، فعلى سبيل المثال اعتمدنا للخليل مُعجمه العين بوصفه مصدرا رئيسا في هذا البحث، كما اعتمدنا على الكتاب لسيبويه، وشرح الكتاب للسييرافي، إضافة إلى بعض المصادر اللغوية مثل الخصائص لابن جني، وتذكرة النّحاة لأبي حيان الأندلسي، وكتب الأعلام مثل طبقات النّحويين واللّغويين للزبيدي، أمّا المصادر الحديثة فنذكر منها على سبيل المثال: كتاب الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ صانع النحو وواضع العروض لرحاب

عكاوي، وكتاب: مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي لجعفر عابنة، إضافة إلى كتاب:
الفرايدي عبقرى من البصرة للدكتور مهدي المخزومي.

الصّعوبات:

من جملة الصّعاب التي واجهتنا في هذا البحث، كثرة المفاهيم التي تزخر بها
نصوص الخليل الواردة في مُعجمه، وأماليه الواردة في كتاب مُريده سيبويه، وتصنيفها عبر
مستويات الدّراسة اللّسانية إضافة، إلى عمق هذه النّصوص وما تحتاجه من وقت، ونظر في
قراءتها واستنباط معانيها، ومحاولة ربطها بمناهج الدّرس اللّساني الحديث والمعاصر، في
ضوء المنهج المعتمد " لسانيات التراث".

وفي الختام أحمد الله تعالى وأشكره على فضله، أن وقّنا على القيام بهذا البحث، كما
أشكر أستاذي المُشرف، الدّكتور بغداد بليّة على حسن إشرافه، وتوجيهاته القيّمة، وإنّي
لأرجو من الله تعالى أن يجزيه خير الجزاء، ولا يفوتني أن أتقدّم بوافر الشّكر والعرفان
لأستاذي الفاضل رئيس المشروع (النّحو واللّغة العربيّة) الأستاذ الدّكتور: محمد دويس
الّذي رافقنا طيلة مشوارنا البحثي، ولم يبخل علينا بتوجيهاته ونصائحه، وإتحاته لنا فرص
البحث، والشّكر موصول لصاحب الفضل، الّذي لولاه لما كان لهذا المركز أن يشهد هذا
الرّقيّ والبهاء في مجال العلم والمعرفة، ولا لطلبته في قسم اللّغة والأدب العربي، أن يقفوا في
مثل هذه المقامات، أستاذي العزيز الأستاذ الدّكتور: أحمد جلايلي، المميّز بحضوره والرّائع
بخبرته، الّذي استفدنا منه وأفدنا مانحا لنا يدَ العون والمساعدة، فاتحا لنا بصائر العلم
والمعرفة، عبر أيام علميّة وملتقيات وطنيّة، أسهمت في تكويننا وتنشئتنا علميّة ومعرفيّة.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلّ اللهم وسلّم على محمّد وعلى آله الطيّبين.

ياسر أغا

النّعمة يوم: 2019/10/21.

المدخل

إنَّ الحديث عن علاقة التراث اللغوي باللسانيات، هُوَ في المقام الأول حديث عن مُدَوَّنَتين معرفيتين لكلٍّ منها إطارها التاريخي الذي وُجد فيه ، والبحث عن هذه العلاقة التي تربط بينهما، سيجعلنا لا شك في موقف تتمخّض عنه كثير من الأسئلة، التي تسعى إلى إيجاد روابط ذات أبعاد وظيفيّة بينهما، بوصفهما خطاباً مُشتركاً يبحث عن اللغة، وأشكال الدلالة.

وعليه وجب الانطلاق من إشكالٍ نبني عليه تحليلنا لهذه المسألة وهو كالآتي:

ما علاقة إعادة قراءة التراث اللغوي بالنظرية اللسانية العامة ؟ وما أبعاد هذه القراءة نظرياً ومنهجياً وما إمكاناتها وحدودها ؟

لا ننكر دورَ التراث وأهمّيته في الحفاظ على هويّة الشعوب، لأنّه يُعدّ جزءاً مهمّاً في بناء المعرفة الإنسانية، " فلا غرابة أن تُعدّ قراءة التراث تأسيساً للمستقبل على أصول الماضي، بما يسمّح ببعث الجديد عبر إحياء المُكتسب"¹، ويمكن الإشارة إلى أنّ " لسانيات التراث " تُعدّ نمطاً من الخطابات اللسانية العلمية، التي حاولت استقراء النّص التراثي بمختلف مستوياته، عبر آليات علمية ومنهجية تستدعيها هذه القراءة المعرفية، والممارسة العلمية الواعية، في ضوء المفاهيم اللسانية الحديثة، وذلك باعتمادها على تأويلٍ للنصوص وفق منهج قراءة معيّن، يطرح مجموعةً من التقديرات قصد البرهنة على نسقَيْن مختلفين، من حيث هي تصوّرات لغوية، لكلٍّ منهما قيمته المعرفيّة وسماته المنهجية، في ضوء مقارنةٍ من شأنها أن تطرح مجموعة من الأسئلة، والإشكالات العميقة لتكشف اللبس، وترفع الصّراع الوهمي بين منظومتين، اشتركتا في دراسة مادةٍ لغويّة واحدة²، ولعلّ من مستلزمات الموقف العلمي أننا حينما ندعو إلى إقامة حوارٍ معرفيٍّ، بين تراث لغويٍّ وعلم ألسنيٍّ حديث ، فإنّنا نسعى إلى تأسيس قراءة واعية، لا يمكن لأيّ معطى حضاريٍّ أن يحجب عنّا متطلّبات

1: عبد السلام المسدي، مباحث تأسيسية في اللسانيات، (ط. 1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2010، ص: 25.

2: المرجع نفسه، ص: 44.

المعرفة العلميّة الرّصينة، وكذا شروط تحقيق الممارسة العلميّة السّليمة ، ومن وجهةٍ علميّةٍ "فإنّنا نصدر عن موقع منهجيّ، هو القراءة المعاصرة الّتي تقتضي ضمناً استيعاباً مزدوجاً طرفه الأوّل في التراث، وطرفه الآخر في العلم الحديث، ومتى توفّرت المعادلة بطرفيّها تسنّى إجراء القراءة الجدليّة، الّتي هي بالضرورة قراءة نقدية واعية تستند أساساً إلى التّفاعل العضوي"³ ، وهو ما اصطلح عليه بالقراءة التّفاعلية؛ الّتي تروم صوغ النّظريات القديمة في قالبٍ جديد، يُتيح المقارنة بينها وبين الحديث من النّظريات، وذلك لخلق نموذج لغويّ عربيّ أو نماذج عدّة، تضطلع بوصف اللّغة انطلاقاً من النّظريات القديمة، بعد أن تُقوّلب وتُحصّص في إطار النّظرية اللّسانية، وأن تحتكّ بما تفرّع ويتفرّع من نماذج لغويّة ، وذلك لتحديد الغاية المنشودة على الصّعيد الفكري والحضاري معاً، ألا وهي إعطاء النّظرية اللّسانية العربيّة القديمة، مكانتها اللائقة بها في إطار مراحل الفكر اللّغوي الإنساني، لخلق نوعٍ من التّفاعل بين الفكر اللّغوي العربي القديم، والنظريات اللّسانية الحديثة، القائمة على الأخذ والعطاء والقرض والاقتراض بينهما، لإنتاج مفاهيم جديدة من شأنها أن تُستثمر، في الحقل اللّساني بشكلٍ عام.

أوّلاً : مقدّمات منهجية:

أ- ما المقصود باللّسانيات؟ :

بإمكاننا القول إنّها أحد المناهج البحثية، الّتي ظهرت منذ الاستقبال الفرونكفوني لكتاب سوسير الشهير "محاضرات في اللّسانيات العامّة-cours de linguistique générale" والّتي تُعنى بدراسة اللّغة البشريّة، وفق معايير علميّة مختصّة، بآليات ورؤى منجسة مع التوجّه العلمي في طرحه الموضوعي، أثناء الاهتمام بالآلة المسؤولة عن التّمظهرات اللّغوية "اللّغة البشريّة" ، ويتحقّق ذلك كلّ من خلال بيان حقيقتها وعناصرها ونشأتها وتطوّرها، ووظائفها، وعلاقاتها وقوانينها، حيث تُعنى باللّغة المنطوقة والمكتوبة، المستعملة

³: مباحث تأسيسية في اللّسانيات، ص:28.

أداة للتخاطب، أو الميَّنة التي لم يعد استعمالها جارياً، كما تُعنى أيضاً باللّهجات البدائية واللّغات المتحضّرة دون تمييز، فهي تدرس اللّغة من كلّ جوانبها دراسةً شاملة، ضمن تسلسل متدرّج، تسعى فيه إلى بناء نظرية لسانية شاملة، تُمكننا من دراسة جميع اللّغات الإنسانيّة من خلال تقديم وصف للغات، وتاريخها وإعادة بناء اللّغة الأم في كلّ منها، إضافة إلى البحث عن خصائص اللّغات كافّة، ثم استخلاص قوانينها العامّة، ولا يتأتى لها هذا المنجز الحضاريّ، إلّا إذا اعتمدت على معايير أساسيّة، منها الشّمول والانسجام والاقتصاد⁴، وقد تعدّدت أقسامها اليوم بحسب اختصاصها واهتمامها، فبرزت اللّسانيات التّعليميّة والنّفسية، والاجتماعيّة، التداولية، الحاسوبيّة... الخ، وهناك تقسيم آخر بالنّظر إلى منهجها، يشمل اللّسانيات التاريخيّة واللّسانيات المقارنة، واللّسانيات الوصفية.

ب- : مفهوم اللّسانيات العربية " توضيح منهجي "

عادة ما يُقصد باللّسانيات العربية " ذلك الخطاب الذي تعكسه الكتابات العربية، التي تستند نظرياً ومنهجياً، إلى المبادئ التي قدمتها النظريات اللسانية، في مختلف اتجاهاتها الأوروبية والأمريكية، في إطار ما أصبح يعرف باللّسانيات العامة "⁵، ومن زاوية منهجية يذهب مصطفى غلفان، إلى الإقرار بأنّه: "إمعانا ممّا في الوضوح النظري والمنهجي المطلوبين، في كلّ مقارنة علمية، وإنصافاً لمجهود بعض اللّسانيين العرب المعاصرين، نُشيرُ إلى مجهودات بعضهم، لتوضيح طبيعة العمل في اللّسانيات العربية، بحيث يتمّ التنصيص على التمييز بين لسانيات العربية واللّسانيات العربية؛ فالأولى تهدف إلى الاشتغال باللّغة العربية، ووصفها في نسقها القديم أو نسقها الحديث، أو نسقها الوسيط وكذلك العمل على الفكر المتّصل بهذه اللّغة، ولسانيات العربية لا تتحدّد باللّغة المكتوب بها، إذ يمكن أن تكون

⁴ : خليفة بوجادي، اللّسانيات النظرية دروس وتطبيقات، (ط.1)، بيت الحكمة، الجزائر، 2012، ص: 12، 09.

: مصطفى غلفان، اللّسانيات العربيّة الحديثة، دراسة نقدية في المصادر والأسس النظريّة والمنهجية، جامعة الحسن الثاني، كلية ⁵

الأدب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم: 04، ص: 90.

لغة غير العربية ، بقدر ما تحدّد باللّغة موضوع الوصف، أمّا اللّسانيات العربية فهي ذات مجالٍ مختلف وأوسع، إذ يُمكن أن تشمل ما هو مكتوب من اللّسانيات الأجنبية، وقد نقصد أيضاً باللّسانيات العربية، ما هو موجود من تصوّر عربيّ للظاهرة اللّغوية ...، وواضح بين التقسيمين أنّ بين اللّسانيتين فرقاً جوهريّاً، بين ما هو من صميم البحث اللّساني، وما ليس من صميمه، بين ما يمكن أن يفيد اللّغة العربية، ويخدمها بتجديد وصفها وتفسير بنياتها، وبين ما لا يفيدها ولا يضيف لها أيّ جديد ، والفرق بين لسانيّات العربيّة واللّسانيات العربيّة ، فرق في الموضوع المشتغل به ؛ فلسانيات العربيّة تشغل مختلف مستويات التحليل باللّغة العربيّة موضوعاً لها، أمّا اللّسانيات العربيّة فتتناول كلّ ما يكتب في اللّسانيات باللّغة العربيّة، سواء أعلّق الأمر باللّسانيات العامّة أم لسانيّات العربيّة، أو لسانيّات أيّة لغة من اللّغات الطّبيعية⁶، وانطلاقاً من هذه الرّؤية التي يذهب إليها مصطفى غلفان، في تحديد مفهوم اللّسانيات العربيّة، يُمكننا تحديدها أوليّاً أنّها تمثّل تصوّراً منهجياً للظاهرة اللّغوية، في شكلها العام دون اقتصارها على أيّ مستوى أو اختصاص معيّن، ويتحدّد اشتغالها وفق المنهج وموضوع الدّراسة.

ج- : التصنيف المنهجي لأنماط الخطاب اللساني في اللسانيات العربية:

أ-ج : الخطاب اللساني؛ مفهومه وأنماطه :

أ-ج-1: مفهوم الخطاب اللساني :

إنّ الخطاب اللساني في جملته، هو تلك المحاولات البحثية التي تقتضي مجموعة رؤى علمية، مدعّمة بمنهج وآليات لشرح وتفسير مسائل اللغة، وكل أشكال الدلالة تفسيراً علمياً وفق جهاز واصف لهذه العملية، وذلك لإنتاج نماذج لسانية جديدة، تروم البحث والمعالجة

⁶ : مصطفى غلفان، اللّسانيات العربية أسئلة المنهج ،(ط.1)، دار ورد للنّشر والتّوزيع ، الأردن، 2013، ص:46.

البديلة لما تتطلبه المسائل الراهنة، كحلول مأمولة تجيب عن كم هائل من التساؤلات المطروحة، في مدونة الخطاب اللساني بوجهه العام.

ب -ج: أنماط الخطاب اللساني⁷:

ب-ج-1: مفهوم النمط في الخطاب اللساني:

عادةً ما يُقصد بالنمط في الخطاب اللساني، تلك القراءات المتفاوتة التي تسعى إلى تحقيق هدف معين، تفرضه طبيعة التحليل ،أومجموعة النماذج من الكتابة اللسانية، التي تحددها وتضبطها وتتحكم فيها مجموعة من الأطر، مثل الموضوع والغاية والمنهج .

ب-ج-2: الأنماط⁸:

1- الخطاب اللساني التمهيدي:

يُصطلح عليه أيضاً بالخطاب التأسيسي أو التعليمي،حيث يهدف هذا النمط إلى تبسيط المعرفة اللسانية، وتقديمها للقارئ المبتدئ في صيغة مبسطة، تُعينه على فك مستغلات بعض المفاهيم اللسانية، وهو في المقام الأول خطاب ذو غاية تعليمية ، ونُمثل لهذا النمط بهذه المؤلفات على سبيل التمثيل لا الحصر:

- علم اللغة؛ مقدمة للقارئ العربي ، لمحمود السعمران.
- مبادئ اللسانيات، لخولة طالب الإبراهيمي.
- اللسانيات الوظيفية؛ مدخل نظري ، لأحمد المتوكل.

2-الخطاب اللساني التراثي :

⁷ : اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية ،ص:90-98.

⁸ : المرجع نفسه،ص:98.

يُقصد به الخطاب اللساني الذي يسعى إلى استقراء المدونة التراثية، باختلاف مستوياتها"اللغوية، البلاغية، الأصولية...الخ"، وفق المناهج اللسانية الحديثة، عبر منهج علمي ومقاربة معرفية، بآليات ورؤى تستدعيها هذه الممارسة قصد تحيين المنظومة المفاهيمية لهذا الخطاب، وجعلها في الأخير خطابا لسانيا مُعاصرا له، من القدرة في تحليل ظواهر لغوية وأشكال دلالية، ويظهر هذا النمط في هذه العناوين تمثيلاً :

- التفكير اللساني في الحضارة العربية ، لعبد السلام المسدي.
- بوارد الحركة اللسانية عند العرب ، لعبد الجليل مرتاض.
- التفكير اللساني في رسائل إخوان الصفا ، لعبد الرحمن علي مشنّتل.

2- الخطاب اللساني المتخصص :

يُقصد به الخطاب اللساني الذي يدرس أحد المستويات اللغوية المعروفة، كالصوتي والصرفي والتركيبية والدلالي والمعجمي، في ضوء مناهج البحث اللساني الحديث، ويكون ذلك من خلال آليات نظرية وأدوات منهجية ، ومنظومة مُصطلحية واصفة ، ويمكن إدراج هذه المؤلفات تحت هذا النمط:

- الوظيفية بين الكلية و النمطية ، لأحمد المتوكل.
- اللسانيات العربية والإضمار؛دراسة تركيبية دلالية ، لمحمد الغريسي.
- في بنية الحدث التركيبية والدلالية، لأحمد بريسول.

3- الخطاب اللساني النقدي :

يمثل أحد الأنماط الخطابية اللسانية قليلة التداول على الساحة العربية ، فمن النادر أن تعثر على مؤلف مخصص، يتناول هذا الجانب اللهم في مجموعة من المقالات التي تُضمّ في كتاب واحد لمعالجة بعض القضايا، ومن جُملة ما أنجز في هذا النمط تمثيلا لا حصرا :

- اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، لمصطفى غلفان.

- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة؛ دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته ، لحافظ إسماعيلي علوي.
- قضايا لسانية وحضارية لمنذر عياشي.

" لسانيات التراث " ؛ المفهوم واتجاهات القراءة:

أ- المفهوم:

هو مصطلح أطلقه اللساني المغربي مصطفى غلفان ، إذ يرادُ به : "اللسانيات التي تهتم بدراسة الدرس اللغوي القديم، من حيث هو تصوّرات ومفاهيم وطرائق تحليل في ضوء النظريات اللسانية الحديثة ، والمنهج المعتمد فيها يسمى بمنهج القراءة أو إعادة قراءة التراث"⁹

ب- اتجاهات القراءة¹⁰:

تُميز في لسانيات التراث ثلاث مراتب، أو اتجاهات من القراءة باعتبار :

ب-1: الموضوع: وفي هذا المستوى نميز بين القراءات التالية:

ب-1-أ: القراءة الشمولية: يتمحور هذا النوع من القراءة، حول التراث اللغوي العربي في كليته وما يتصل به من قضايا¹¹، وتعكسها على سبيل المثال العناوين الآتية:

- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث - لنهاد موسى.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية - لعبد السلام المسدي.

⁹ : اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ص:92.

¹⁰ : المرجع نفسه ، ص:185-188.

¹¹ : حافظ إسماعيلي علوي، اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، (ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2018، ص:153.

ب-1-ب: القراءة القطاعية: يرتكز هذا النمط من القراءة، على قطاع معيّن من التراث اللغوي، كأن يتناول المستوى النحوي أو الصرفي أو الدلالي، باعتبارها مستويات تحليل تُشكّل في حدّ ذاتها نظرية محدّدة المعالم، تقوم على مبادئ منهجية خاصة بها¹²، ومن أهمّ الدّراسات التي يمثلها هذا النمط:

- مصطلح التعليق، مفهومه وأثره في الدّراسات اللغوية الإنسانية.
- مفهوم الجملة في النحو العربي ونظرية الكلّيات اللّغوية.

ب-1-ج: قراءة النموذج الواحد: تتّجه هذه القراءة إلى دراسة شخصية لغوية عربية قديمة، يُدرس فكرها اللّغوي وطريقة تصوّرها، وكيفية تناولها لقضايا اللغة العربية، في مجال من مجالات البحث اللغوي¹³، كأن يُتناول فكر الخليل أو سيبويه، أو ابن جنّي أو الجرجاني أو غيرهم من النّحاة واللّغويين العرب¹⁴، ونمثّل لهذا النمط من القراءة بهذه الأعمال:

- نظرية الإمام الجرجاني - لجعفر دك الباب.
- ابن قيم الجوزية وجهوده اللغوية - لطاهر سليمان حمودة.
- الفراهيدي عبقرى من البصرة - لمهدي المخزومي.

ب-2: الغاية: تنقسم لسانيات التراث من حيث الغاية إلى:

ب-2-أ: قراءة مُمَجّدة: يمكن القول إنّها قراءة تقديسية، تُنوّه بالتراث اللّغوي وتحيط به هالة من الإعجاب المفرط، كأن يُقرّر أحد الباحثين في ذكره لبعض المصادر العربية، من أمّات الكتب قائلاً: "يظهر في شيء غير قليل، من قضاياها سبق بعض علمائنا القُدّامى، لأحدث

¹² : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته، ص:153.

¹³ : المرجع نفسه ، ص: 154.

¹⁴ : اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، ص:185.

النظريات اللغوية بألف عام أو يزيد.¹⁵، وهذا التصريح في رأينا قد ألغى الخصوصية المعرفية لكل مُدونة.

ب-2-ب: قراءة إصلاحية: هي قراءة تسعى إلى إيجاد صيغة جديدة، تسمح بفهم أفكار اللغويين ، وتخليصها من الشوائب والمُعوقات العالقة بها، انطلاقاً من إعادة قراءة شاملة تعيد ترتيب الأفكار اللغوية، المبنوثة في المصادر العربية، وعلى سبيل المثال نُشير لجهود تَمَام حَسَان، في أبرز كتاباته " اللغة العربية معناها ومبناها " ¹⁶.

ب-2-ج: قراءة تفاعلية: تسعى هذه القراءة إلى تحقيق ثلاثة أهداف، وذلك لخلق نوع من التفاعل بين الفكر اللغوي العربي القديم ، والمناهج اللسانية الحديثة حيث تسعى إلى صوغ النظريات القديمة في قالب جديد، وتطعيمها بروافد نظرية جديدة، يجعلها قادرة على وصف الظواهر اللغوية، وتُمثل لهذا النمط من القراءة أبرز أعمال أحمد المتوكل رائد المنحى الوظيفي في العالم العربي:

- تأملات في نظرية المعنى في الفكر اللغوي العربي القديم.
- مسائل النحو العربي في قضايا الخطاب الوظيفي.

ب-3: المنهج: يُقصد به طريقة التصور المُتبعة في عملية القراءة، والتي يسير عليها كل باحث، والملاحظ على الدراسات المندرجة تحت هذا الإطار، يرى بأنها لا تقدّم أيّ تصوّر للمنهج المتّبع في القراءة، بل إنّ لكل باحث منحاها ورؤيته وآلياته الخاصة، التي يسير عليها في قراءته الجديدة، للتراث اللغوي العربي في ضوء اللسانيات ، ونستثني هنا بعض الدراسات الجادة والمتميزة في مجالها، مثل أعمال عبد الرحمن الحاج صالح، خصوصاً في دراسته المُسمّاة " الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية".

¹⁵ : المرجع نفسه ، ص: 186.

¹⁶: اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، ص: 187.

رابعاً : إشكالية المنهج في " لسانيات التراث"، بين مُسوِّغات القراءة ومآزق الإقصاء :

إنّ الحاجة إلى التراث لا تكمن في اختزاله إلى حلبة للصراع ، تُستباح فيها مختلف وسائل العنف وفنون المجابهة، من أجل السعي القويّ إلى تملكه وبسط النفوذ عليه، فالتراث مهما بلغ الصراع بين من يتنازعون على شرعية ملكيّته واحتوائه، سيبقى حيث هو أرضية لتفكيرنا ، وحصيلة متلاحقة لما مضى من كينونتنا، لا تقبل حلقاتها المتأخذة أن تكون عُرضةً للاجتثاث ، ولا لأيّ شكلٍ من أشكال البتر والاستبعاد ¹⁷ ، وحاجتنا أيضاً إلى اللّسانيات ينبغي ألا تُبقي فينا هاجس الشك والريبة ، أو ذلك المجهول الذي يثير فينا توجساً وخوفاً، أكثر ممّا يثيرُ فينا نزعة ولو فضولية، لمعرفة موقعنا من واقع الثقافة والعلم والمعرفة في العالم ¹⁸، إذ يمكننا القول إنّ الصراع القائم بين التّراث واللّسانيات، يرجع بالأساس إلى أسبابٍ سطحية حيث نلاحظ عند الأول "التراشي" هوس الأسبقية التاريخية ، وعند الثاني "اللساني" ممارسة لعبة الإغواء النصّي، بلغةٍ يدّعي أنّها تستوفي قيم المعاصرة ينعتها باللّغة الواصفة وهي عكس ذلك ، لا يفقه لها المُتلقي النموذجي شيئاً ، إلا بعد تمرّس عميق يُساعده على فك مستغلقات مفاهيمها، فما بالكَ بالقارئ العادي، فُمعادلة التراث واللّسانيات في هذا الجانب، أصبحت في كثير من الأحيان تطرُح سؤال الفتنة المعرفية بين المُدوّنتين "القديمة اللّغوية، ونظريتها الحداثيّة اللّسانية"، حيث أضحت تفسح الطّريقَ نحو المُتاجرة الإيديولوجيّة بوسائل المعرفة العلميّة الموضوعيّة، التي ينبغي أن تخلو من أسئلة الهوامش الذاتيّة، التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع .

¹⁷ : محمّد الحيرش ،النّص وآليات الفهم في علوم القرآن ، (ط.1) دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2010، ص:36-

37.

¹⁸ : منذر عياشي ، قضايا لسانية وحضارية ، (ط.1) دار طلاس، دمشق ، 1995، ص:11.

في نظرنا وبسطنا القول، إنّ اختلاق نار الفتنة العلميّة، والمواجهة بين التراث واللّسانيات" ينمّ عن خبث معرفيّ لاقيمة له من النّاحية المنهجية " 19 ، وإلى هذا يُشير مازن الوعر- رحمه الله -بقوله:"إنّ أساس الصراع بين الأصالة اللغوية والمعاصرة اللسانية، ليس صراعاً بين الأعمال اللغوية التراثية، التي وضعها العرب القدماء، وبين الأعمال اللسانية المعاصرة، التي وضعها علماء اللسانيات المحدثون في الغرب، إنّ الصّراع في جوهره يكمن بين الباحثين العرب أنفسهم، (امتداداً للأزمة النفسيّة الفرديّة، التي يعاني منها إنساننا العربي)، بين الباحثين الذين يشدّهم التّاريخ القديم ، إلى أقصى مسافات اليمين، وبين الباحثين الذين يشدهم التاريخ الحديث والمعاصر، إلى أقصى مسافات اليسار، وبهذا فإنّ المعادلة الثقافية ستكون عرضة للاهتزاز والتفكك، وستحقق معاناة إقامة التوازن بين الأصالة والمعاصرة "20 ، ويجوز لنا القول إنّ اللسانيين العرب بمختلف مشاربهم وتوجّهاتهم "لو امتثلوا لوصايا العلم الكلّي، لبانَ لَهُم أنّ من أشدّ ما يقترن بوظائفهم، تعقّب الطّرق التي تقدمها معارفهم، إلى من يعرفها من النّاس ومن لا يعرفها"21، وهذه الإشارة تعدّ متطلباً معرفيّاً وجب الأخذ به لتطوير البحث اللّساني العربي.

1 - العلاقة بين " النّحو " -و- " اللّسانيّات " مثلاً :

كثيراً ما ينحرف حرف العطف " الواو"، المُدوّن أعلاه في العنوان الفرعي عن وظيفته في الرّبط بين الشيئين، بين ما يُدعى "النّحو" ونظيره الثاني "اللّسانيات"، إذ العلاقة بينهما تُثير في كثيرٍ من موقف، التباساً وغموضاً يطرحُ جملةً من التّصورات الخاطئة، التي قادت إلى مُواجهة مفتوحة، بين نسقين مختلفين من التفكير اللّغوي ، بين منظومة نحوية ونظرية لسانية، لكلّ منهما قيمته الحضارية والمعرفية وسمائهُ المنهجية، ولتوضيح طبيعة العلاقة بينهما، والوقوف على حقيقتها وما يعترضها من نقص، نتيجة المواقف والأحكام الجاهزة قبلياً،وجب علينا طرح التساؤل الآتي:

19 : حافظ إسماعيلي علوي ،أسئلة اللّغة أسئلة اللّسانيات، (ط.1)، منشورات الاختلاف،الجزائر، 2009، ص:257.

20: مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللّسانيات الحديث، (ط.1) ، دار طلاس ، دمشق، 1988، ص:354-355.

21 : عبد السلام المسدي، اللّسانيات وأسسها المعرفية ، (ط.1)، الدار التونسية للنشر ، 1986، ص:18.

ما الذي يُمكن أن يقدّم كلّ منهما للآخر ؟ و على أيّ أساسٍ نظري و منهجي يمكن أن نخلق بينهما نوعاً من التكامل المعرفي ؟

أ - منزلة النحو العربي :

يحتل التراث النحويّ العربيّ مكانة متميّزة، في الثقافة العربيّة لحجمه الهائل، وكثرة العلماء الذين أقبلوا على دراسته والتأليف فيه، وخاصّة لحضوره الدائم في ذاكرتنا الجماعية، وتوجيهه لكثير من اختياراتنا مهما تنوّعت أشكال هذا الحضور والتوجيه²²، إذ يُعدّ في ميدان الثقافة العربيّة، نشاطاً عقلياً له ما يُميّزه في مجاله التداولي الذي وُجد فيه، بمنهجه الخاص في استقراء النصوص، واستنباط الأحكام والتععيد لها عبر قواعد مُعيّنة، تقتضيها أدلّة نصيّة باختلاف مستوياتها وحُجّيتها، وهذه العملية تُعدّ في الوقت نفسه ممارسة علميّة، لشكل من الأشكال المعرفة الإنسانيّة، في مقام تواصلٍ وثقافيّ معيّن، كما تبرز مكانته أيضاً بوصفها مقوماً يخدم لسان حضارة القرآن، وذلك بكفّ مستعملٍ العربيّة الناطق بها عن اللّحن في الكلام، لارتباط العربيّة بالنّص المقدّس " القرآن الكريم"، كما تجلّى هذا البُعد في طابعه العلميّ ببروز الحركة اللّغوية - النحوية خصوصاً-، التي شهدتها الثقافة العربيّة، حيث ظهرت اتّجاهات عديدة يمكن التّأشير لها بظهور كتاب سيبويه، بوصفه مدوّنّة علمية حاولت تفسير عديد من قضايا اللسان العربي، أنتجت لنا مسائلها فرقا مُتكلّمة في قضايا النحو، انبرت أصوات منها لخدمة ما هو تعليمي ، في حين أسهمت الأخرى بطرق ما هو علمي.

ب - توضيح حقيقة العلاقة :

يقول عبد السلام المسدي: " إنّ النّحو واللّسانيات ليسا ضدّين، بالمعنى المبدئي للتضاد كيف والنحو نفسه منذ القديم مفهوم مزدوج، إذ هو يعني في نفس الوقت جملة النواميس الخفية المحرّكة للظاهرة اللغوية، كما يعني عملية تفسير الإنسان لنظام اللّغة، بمعطيات

22 : اللسانيات في الثقافة العربيّة المعاصرة دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته ، ص:77-78.

المنطق من العلل والأسباب والقرائن، ويتجلى هذا الفرق المفهومي في الصياغة المزدوجة، تبعاً لقولك: نحو العربية أو نحو الفرنسية... فأنت تعني نظامها، أو لقولك: النحو العربي أو النحو الفرنسي؛ فالمقصود عندئذ عملية استخراج النظام الداخلي، في تلك اللغة²³ فاللّسانيات من هذه الزاوية لا تنفي علم النّحو، ولا تنقضه بل إنّ وجودها متوقف قطعاً على وجوده، إذ لا معنى للبحث اللّساني ما لم نستتب نظام اللغة، عن طريق استخراج مؤسّستها النحويّة، فنسبة ما بين النّحو واللّسانيات، كنسبة ما بين علم الأخلاق وعلم الاجتماع في شجرة الفلسفة، فالنّحو قائم على ما يجب أن يكون، واللّسانيات قائمة على ما هو كائن²⁴، فلا تعارض بين اللّسانيات والنّحو، ذلك أنّها تسهم في تطوير قضاياها وتحديثها، حيث إنّ اللّسانيات تُعدّ الأرضية المنهجية لبناء الأنحاء، وتبرير اختيارها من حيث صياغتها وأشكالها وعلاقتها باللغات، انطلاقاً من الشروط الداخلية والخارجية اللازمة في الأنحاء، مثل التعميم والبساطة والوضوح، كما تساعد أيضاً في الكشف عن حقيقة البنيات النحوية، بشكل أعم وأوضح وأبسط، وبالتالي يمكن للنحو إعادة صياغة القواعد المعيارية، صياغة تتحقق فيها درجات عالية من التعميم، والشمول والبساطة والدقة والوضوح، إضافةً إلى فهم أعمق للغة ذاتها، مما يُمكن من إعادة النظر في كثير من الأفكار الموروثة، مثل تركيب اللغة²⁵. فما أحوج النّحو العربي للّسانيات حتى ينتعش ويتجدد، وما أحوج اللّسانيات للنّحو العربي، حتى تستحضر الواقع اللغوي العربي، وتُعانقه ليلعبا معاً دورهما في تطور واقع الإنسان العربي، بعيداً عن اللّغظ في قضايا مُفتعلة، مثل المواجهة بين القديم والجديد واجترار التحاليل، وبالتالي علينا أن ننتقل نحويًا ولسانيًا، من السرد النظري إلى الفعل اللّغوي

²³ : اللّسانيات وأسسها المعرفية، ص: 15.

²⁴ : مباحث تأسيسية في اللّسانيات، ص: 120.

²⁵ : المرجع نفسه، ص: 93-94.

المؤثر، في الواقع الاستعمالي للغة العربية²⁶، وذلك لخلق نموذج تفاعلي من شأنه أن يطور نظريته ورؤيته للأنظمة الدلالية وواقع الاستعمال اللغوي.

1- المآزق المنهجي لقراءة النموذج اللغوي الواحد في لسانيات التراث ؛ محاولة تقييمية.

لا شك أن القراءة التي تقدّمها لسانيات التراث، لا تخرج عن الرغبة في مواكبة الحداثة اللسانية بمفهومها العلمي الدقيق، فهي بذلك موقف حضاري غايته إبراز مظاهر المعاصرة في التراث اللغوي، ثم تحقيق التواصل بالنسبة إلى العرب بين الماضي والحاضر، إلا أن ما يمكن ملاحظته، بخصوص بعض القراءات التي حاولت إجراء التقريب المفاهيمي بين المدوّنتين، تغليبها للأطروحات اللسانية على المعطيات اللغوية القديمة، ووقوعها في فخّ الإسقاط الذي يعدّ أزمةً منهجية في إعادة القراءة، واتّخاذها أيضاً للمنظور اللساني نموذجاً وأصلاً ، تُقام به القراءة التماثلية بين مفاهيم لسانية وأخرى لغوية ، وهو إجراء يتأسس على قاعدة "جذب الأصل إلى الفرع" وهذا قياسٌ فاسد، وما يدعو إلى الاستغراب أيضاً عدم مراعاة الأسس، التي يقوم عليها التوجّه العلمي حيث نجد تجاوزات، ليس لها أيّ مبرّر منهجي داخل إطار الاشتغال ذلك أن هذه القراءات لا تقيم وزناً للوضع المعرفي للقراءة، فهي تجمع بين خطابين متباعدين منهجاً وغايةً، وهذا ما يجعل القراءة تُعاني خللاً في المنهج²⁷، وبالتالي فإنّ النتائج المتحصّلة عليها لا تمتّ بصلة إلى البحث اللساني، بمعناه العلمي الدقيق.

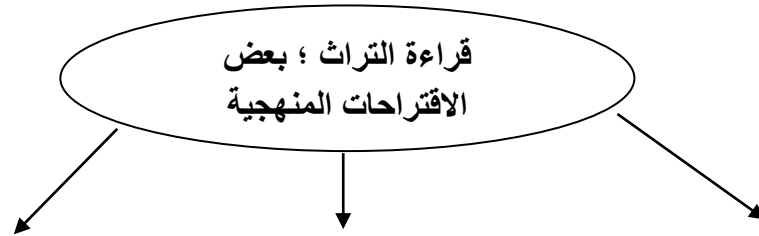
خامساً: نحو منهج قرائي نموذجي وفق معطيات لسانيات التراث ؛ المقاربة الوظيفية لأحمد المتوكّل نموذجاً:

يقترح أحمد المتوكّل منطلقاً منهجياً، يسعى من خلاله إلى قراءة التراث اللغوي، كونه هذا العمل يعدّ أولى خطوات الممارسة اللسانية، والمقومات المنهجية لإقامة حوارٍ علمي، بين

²⁶ : اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، ص: 181.

²⁷ : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ، ص: 184-190.

مُدَوِّنَتَيْنِ أَثْنَاءَ تَحْكِيمِ النَّظَرِيَّةِ اللَّسَانِيَّةِ ، وَبَنَائِهَا وَفَقَ مَقَارِبَةَ لظَوَاهِرِ لُغَوِيَّةٍ مَا وَعَلَيْهِ يَقْتَرِحُ
الْمَتَوَكِّلُ نَمُودَجًا مَعْرِفِيًّا لِمَقَارِبَةِ التَّرَاثِ ، تَخْتَزِلُهُ الْخُطَاطَةُ التَّالِيَةُ :



1/ توحد المفهوم في تعدد العلوم 2/ تطوّر لا قطيعة 3/ "نظرية مثلى للتواصل".

يرى أحمد المتوكّل بأنّ المفاهيم المُعتمدة في "علوم اللغة العربية" ، مِنْ نَحْوِ وَصَرَفٍ وَبَلَاغَةٍ ، وَفَقِهِ اللُّغَةِ وَأَصُولِ الْفَقْهِ وَالتَّفْسِيرِ ، تُنَزَّعُ إِلَى التَّوْحُدِ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ ، إِذِ الْهَدَفُ لَيْسَ التَّعْرِيفُ بِهَا ، بَلْ لَاسِكْتِشَافِ النَّسَقِ النَّظَرِيِّ الَّذِي يُوطِّرُهَا جَمِيعُهَا ، وَيُؤَالِفُ بَيْنَهَا مَهْمَا اخْتَلَفَتْ مَوْضُوعًا وَمَنْهَجًا ، بِوَصْفِ مَوَادِّهَا الَّتِي تَخْصُّهَا وَأَدَوَاتِهَا وَمَفَاهِيمُهَا مُكَوِّنَاتٍ لِمَقَارِبَةٍ وَاحِدَةٍ لِلخَطَابِ ، تَسْتَمِدُّ مَفَاهِيمُهَا وَمَنْهَجُهَا مِنْ جِهَازٍ نَظَرِيٍّ وَاحِدٍ ، عُنِيَتْ كَتَبَ فَقَهُ اللُّغَةِ عَلَى الْخُصُوصِ بِرَصْدِهِ وَتَبْيَانِهِ ²⁸ ، أَمَّا الْمُقْتَرَحُ الثَّانِي فَيَقْصِدُ بِهِ "رَفْعَ مَفْهُومِ الْقَطِيعَةِ الْمَعْرِفِيَّةِ ، عَنْ عِلَاقَةِ اللَّسَانِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ بِالْفِكْرِ اللُّغَوِيِّ الْقَدِيمِ ، وَاعْتِبَارِ الْمَنْحَى الْوُظَيْفِيِّ الْعَرَبِيِّ الْحَدِيثِ ، امْتِدَادًا طَبِيعِيًّا لِلدِّرَاسَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ ، وَالْأَصُولِيَّةِ وَالنَّحْوِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ

²⁸: أحمد المتوكّل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي القديم. الأصول والامتداد ، (ط.1) ، دار الأمان ، الرباط ، 2006
ص: 166-167.

القديمة"²⁹، وقد بين أحمد المتوكل أنّ فكرة القطيعة، لم تلبث أن فندتها دراسات لسانية مثل أعمال اللساني الأمريكي نعوم تشومسكي 1966-، وكورودا 1972-وسيميائية غريماس 1966، فحقائق مثل هذه تُبين أنّ اللسانيات الحديثة، ليست إلاّ حقبةً من حقبة تطوّر فكر لغويّ واحد، بدأ حين بدأ الإنسان يُفكر في اللغة، وسيتمّد امتداد التفكير باللغة³⁰، أمّا المقترح الثاني الذي يؤكّد على أطروحة التطوّر في مقابل أطروحة القطيعة، فقد حاول فيه المتوكل استكشاف إمكانات عقد حوار معرفي، بين النظرية الدلالية العربية المستخلصة، بعد استخلاصه لمقومات التنظير، وتحديد له معالم منهجية عامة، مع نظريات لسانية حديثة، خاصة تلك النظريات الموجهة تداولياً، مثل نظرية الأفعال اللغوية ونموذج الفرضية الإنجازية، وذلك لإتاحة استثمار نتاج لغوي قديم، في ضوء نموذج لساني حديث على وجه التنظير³¹، أمّا عن المقترح الأخير فيمكن القول بأنّه: اقتصار دراسة ما، في ممارستها النظرية أثناء البحث في مدونة لغوية، قد تسبق فترة الدراسة نفسها بفترة من الزمن، حيث تقتصر هذه الدراسة على البحث في تلك المدونة "نعني به النصوص التراثية"، مُحاولَةً منها تحمّله ما لا يحتمل في الدرس اللساني الحديث، وهذا هو النمط الغالب والمشهور في عملية الإسقاط، وهو ما اصطلح عليه المتوكل بـ"إسقاط وجود"، والمتوكل نفسه يوضّح مفهوم الإسقاط إذ يقول: "أمّا الإسقاط بحسب فهمنا له في حقل اللغويات؛ فهو قراءة نظرية ما من خلال نظرية أخرى"³² ويميّز بين نوعين من الإسقاط "إسقاط وجود" و "إسقاط تقويم"، أمّا الأوّل فقد عرّجنا عليه قبل قليل، ومن أمثلة ذلك كأن يُقال مثلاً إنّ مفهوم تحوّل النمط الذي

²⁹: أحمد المتوكل، مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، (ط. 1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2009 ص: 7.

³⁰: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ص: 39.

³¹: المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي القديم. الأصول والامتداد، ص: 167.

³²: المرجع نفسه، ص: 168.

تحدّث عنه بوسطوييفسكي³³ ، موجود بالخصائص الصّورية نفسها في المدوّنة اللّغوية القديمة، أو كأن نُقابلَ مفهومَ توزيع النّعت الظّرْفِي الَّذِي تحدّث عنه فيرنانديز لاغونيا³⁴، هُو نفسه مفهوم الوضع والاستعمال والحمل على الترتيب، عند شهاب الدّين القرّافي في تفرّيقه بين الدّلالة باللفظ ، ودلالة اللفظ وذلك أثناء حديثه عن عمليّة التّخاطب³⁵، أمّا إسقاط التّقويم: "فأن تُنتقد نظريّة ما سلباً أو إيجاباً، انطلاقاً من نظريّة أخرى، مثال ذلك أن يُعاب على نظريّة صوريّة أنّها لا تعتمد الدّلالة، والتداؤل في رصد البنية الصرفيّة-التركيبية، أو أن يُعاب في المقابل على نظريّة وظيفية الأخذ بهذين البُعدين، في وصف خصائص العبارات اللّغوية وتفسيرها".³⁶، ووفق هذا المقترح المنهجي الَّذِي يقترحه أحمد المتوكّل، في قراءته للتراث اللّغوي، لا شكّ أنّه سيعيننا على بناء نموذج لسانيّ لغويّ عربيّ، يضطلع بوصف اللّغة العربيّة انطلاقاً من النظريّات اللّغوية القديمة، ودمجها في المعطيات اللّسانية الحديثة، مع الإبقاء على هويّة البحث اللّساني العربي القديم، وكاينه بوصفه نظريّة لسانية ذات خصائص متميّزة، تُقدّم هي الأخرى خطاباً علميّاً، حول اللّغة وأشكال دلالتها، وليست عالماً مُغلِقاً بتاريخيّته ، منقطعة عن الفكر الألسنيّ الحديث.

³³ : جان بيير ديكلي وآخرون، في بنية الحدث التركيبيّة والدّلالية، ط1، تر: أحمد بريّسول، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2013، ص: 26.

³⁴ : المرجع نفسه، ص: 51.

³⁵ : القرّافي شهاب الدّين، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، تح: مكتب البحوث والدراسات، (دت) دار الفكر، بيروت، 1997، ص: 25.

³⁶ : المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي القديم.الأصول والامتداد ، ص: 169.

الفصل الأول

الخليل بن أحمد الفراهيدي

معالم شخصيته ومسيرة حياته

إنَّ المتأملَ الحاذقَ وَهُوَ يُقَلِّبُ صَفَحَاتِ "العَيْنِ" على سبيل المثال، لا بُدَّ له أن يتساءل عن العَقْلِيَّةِ الفَدَّةِ التي أَبْدَعَتْ هذا الكتاب، وهي عقلية عَلمٍ مِنْ أعلامِ العَرَبِيَّةِ ، وأبنائها البررة الَّذِينَ قَامُوا على خِدْمَتِهَا وأخلصوا في التَّعْيِيدِ لَهَا ، وَالَّذِينَ جَادَتْ بِهِمْ مَشِيئَةُ اللَّهِ فَأَبْدَعُوا مُؤَلَّفَاتِ ذاتِ قيمة ، أَضَفَتْ بِذَاتِهَا أَصَالَةً على التُّرَاثِ العَرَبِيِّ في صِبْغَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ، لِتَكُونَ بِذَلِكَ آثَارَ عَلمٍ مِنْ صَفْوَةِ ، وعلماء وشيوخ العَرَبِيَّةِ، ذلك هو الخليل بن أحمد الفَرَاهِيدِي نادرة من نواذر الزَّمانِ ،عَبَقَرِيٍّ مِنَ البَصْرَةِ و إِمَامٌ من أئمَّةِ العَرَبِيَّةِ، " ولا يَخْتَلِفُ اثْنَانِ في أَنَّ الخليلَ كَانَ طِفْرَةً من طُفَرَاتِ الحضارة العربية الإسلامية الناشئة آنذاك، وَهُوَ ظاهرة علمية متميزة أثارت على مَرَّ العصورِ كثيراً من علاماتِ التعجُّبِ والاستفهام، فقد استطاعَ هذا العالمُ الفَذَّ الزَاهِدُ التَّقِيَّ بمواهبِهِ المتعدِّدة أن يحفرَ اسمه بقوةٍ وجِدَارَةٍ في تاريخِ الثقافة العربية الإسلامية ، الَّتِي تَدِينُ له بما أَسَّسَ في العلومِ الَّتِي تَفْتَحُ عنه عبقرِيَّتَهُ الفَدَّةَ فأَصَلَ أصولها، ووطَّدَ أركانها وشادَ صرحها، وسَلَّمَهَا لمن خلفَهُ آية في التنظيم والتبويب والإحاطة والاستيعاب.³⁷

أَوَّلًا : مَوْلِدُهُ وَنَشَأَتُهُ.

أ- اسمه :

هو أَبُو عبد الرَّحْمَنِ بن أحمد الفَرَاهِيدِي الأَزْدِي اليَحْمُدي³⁸ وَهُوَ رَجُلٌ من الأَزْدِ من فَرَاهِيدٍ ، وَيُقَالُ رَجُلٌ فَرَاهِيدِيٍّ ، وكان يُونس يقول: فرهودي مثل قردوسي³⁹، والفرهودي

³⁷ : خير الدِّين معوش، الخليل بن أحمد وأصول اللُّغة دراسة وصفية تحليلية لأعمال الندوة الدولية حول الخليل بن أحمد، منشورات مخبر الممارسات اللغوية -جامعة مولود معمري، الجزائر، ص: 05.

³⁸ : ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمانِ ، (د.ط) ، تح: إحسان عباس ،دار الصادر، بيروت، 1972، 244/2.

3: الأزهرى أبو منصور، تهذيب اللُّغة ، (د.ط) تح: عبد السلام هارون، مر: محمَّد علي النِّجار ، الدَّار المصرية للتأليف والترجمة، 1967، 10/1.

هذه نسبةً إلى فراهيد بن مالك بن عبد الله بن مُضَرّ الأزدي البصري⁴⁰، وقيل إنّ فرهود هو اسم جدّه من أزد عمان⁴¹ والفراهيد بفتح الراء وبعْدَ الألفِ هاء مكسورة ، ثمّ ياء ساكنةً مُتّاة من تحتها وبعدها دال مُهملة، هذه نسبةً إلى فَرَاهيد وهي بَطْنٌ من الأزد والفَرُهودي واحدُها ، والفَرُهود : وَلَدُ الأسدِ بلُغةِ أزدِ شُوءة ، وقيل إنّ الفراهيد صِغارُ الغنم واليَحْمُدي بِفَتْحِ الياءِ المُتّاة من تحتها، وسكون الحاء المُهملة نسبةً إلى يَحْمُد وهو أيضًا بَطْنٌ من الأزد ، حَرَجَ مِنْهُ خُلُقٌ كثير⁴². قال بنُ أبي حُثَيْمَةَ : "أحمد أبو الخليل ، أوّل من سُمي في الإسلام بأحمد، وأصلُه من الأزد من فراهيد."⁴³، واختلفوا في أصلِ الفراهيد فقال أبو حاتم: "الخليلُ بن أحمد الفرهودي من الفراهيد من اليمن، وجعلَ المرزبانيّ الفراهيد من أهل عُمان، وهذا الخلافُ يسير، لأنّ كلمة "فرهود" عُمانية بمعنى ولد الأسد وهم يسكنون منطقة الباطنة في عُمان، وهي في المفهوم التاريخي قريبة من اليمن، ذلك أنّ الخليل بن أحمد قد وُلد في بلدة وِدَام الساحل بولاية المصنعة-منطقة الباطنة-في سلطنة عمان، ومع أنّ قبيلة الأزد مُمتدة بفروعها في المنطقتين، إلّا أنّ الخليل نفسه صرّح بأنّه من عمان، فقال: قدمتُ من عمان على رواية المرزباني في نُورِ القبس، وعندما افتخر العوتبيّ العمانيّ بأعلام عُمان في كتابه الإبانة عدّ الخليل منهم"⁴⁴. وكثير من الروايات الواردة في ترجمته تتفق على ذلك.

1: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، 126/3.
⁴¹ : رحاب عكاوي ، الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض،(ط.1)، الأنيس للنشر والطباعة، الجزائر، 2013، ص:18.
⁴²: وفيات الأعيان، 247/02.
⁴³ :ابن النديم محمد بن إسحاق ، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، (د.ط) ، تح:رضا تجدد ، طبعة طهران، 1971، 47/01.
⁴⁴ :حسن خميس الملح، شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي في كُنْبِ التراجم دراسة تحليلية مُلحقة بترجمتين له، (ط.1)، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018، ص: 30-31.

ب- ولادته :

أما عن ولادته فقد تَصَارِبَتِ الآراء واخْتَلَفَتِ الرِّوَايَات في ضَبْطِ ، وتحديد الزَّمنِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ولكنَّ أَكْثَرَ الرِّوَايَاتِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا تَذَكُّرُ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ "مائة للهجرة" ، في زمن الخليفة الأموي العادل عُمَر بن عبد العزيز ⁴⁵ ولا يُعْلَمُ على التَّحْقِيقِ أَيْنَ كَانَ مَوْلَدُهُ ، فبَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّهُ وُلِدَ بِمَدِينَةِ عَمَانَ عَلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ الْعَرَبِيِّ ⁴⁶، وَيَذْهَبُ آخَرُونَ إِلَى الْقَوْلِ بِمَوْلَدِهِ فِي الْبَصْرَةِ ، حَيْثُ نَجَدُ أَكْثَرَ الرِّوَايَاتِ فِي أَغْلَبِ كُتُبِ التَّرَاجِمِ تَجْمَعُ عَلَى أَنَّ وَلادَتَهُ كَانَتْ فِي الْبَصْرَةِ، عَلَى رَأْسِ الْفَرْنَ الْأَوَّلِ الْهَجْرِيِّ ⁴⁷ . وفي مقام الاختلاف هذا حول مسقط رأس الخليل، نجد رأياً آخر لسعيد الصقلاوي حيث يقول : " وأما مولده ونشأته فمسألة دار حولها خلاف كثير، حيث قيل إنَّه ولد بعمان سنة 86هـ أو 96هـ أو 100هـ أو 101هـ في منطقة ودام من ساحل الباطنة، وهاجر إلى البصرة طلباً في العلم والاستزادة منه، وهو في مراحل طفولته حيث كانت البصرة محطة العلم والأدب والفكر، وهناك شبَّ الخليلُ بن أحمد وتشربَّت عروقه وحواسه به حتى صارَ علماً من الأعلام وحُجَّةً في الأَقْوَامِ، وسُمِّيَ بالبصريّ؛ لأنَّ مذهبهُ النحويَّ كان بصرياً. ⁴⁸

ج- مذهبه وعقيدته

بخصوص مذهبه وعقيدته فقد كانت الخارجيَّة رأي قَوْمِهِ في بداية الأمر، وقد انتَقَلَ مع أَهْلِهِ صَغِيرًا وَسَكَنَ فِي ظَاهِرِ الْبَصْرَةِ ، وَشَبَّ وَهُوَ خَارِجِيٌّ ، إِبَاضِيٌّ أَوْ صَفَرِيٌّ ، إِلَى أَنَّ لَقِيَ أَيُّوبَ بْنَ أَبِي تَمَامَةَ السُّخْتِيَّانِي ؛ فَقِيهِ الْبَصْرَةِ وَمُحَدِّثُهَا فَتَأَثَّرَ بِهِ، كَمَا تَحَدَّثَ الْخَلِيلُ عَنْ نَفْسِهِ قَائِلًا: " قَدِمْتُ مِنْ عَمَانَ وَرَأَيْتُ رَأْيَ الصَّفَرِيَّةِ ، فَجَلَسْتُ إِلَى أَيُّوبَ بْنَ أَبِي تَمَامَةَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِذَا أُرِدْتَ تَعَلَّمَ عِلْمَ أَسْتَاذِكَ فَجَالِسْ غَيْرَهُ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَغْنِينِي ، فَلَزِمْتُهُ وَنَفَعَنِي

⁴⁵: رحاب خضر عكاوي، موسوعة عباقرة الإسلام، (ط.1) ، دار الفكر العربي ، بيروت، 1990 ، 118/3.

⁴⁶: المرجع نفسه ، 119.

⁴⁷ : معجم الأدباء : 73/11.

⁴⁸: سعيد الصقلاوي، شعراء عمانيون، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1996، ص:115.

الله به .⁴⁹ وَذَكَرَ الزَّيْدِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مروان قال : حَدَّثَنَا العباس بن الفَرَج عنِ الأَصْمَعِيِّ قَالَ : " كَادَتِ الإباضِيَّةُ تَغْلِبُ على الخليل، حتى مَنَّ اللهُ عليه بمجالسةِ أيُّوب ."⁵⁰ وهذا يعني أَنَّ الخليل سلكَ مذهبَ أهلِ السُّنَّةِ باتباعه لأَيُّوبِ السَّخْتِيَانِيَّ، لأنَّ أَيُّوبَ كان سُنِّيًّا شديدَ الاتِّباعِ لهذا المذهب⁵¹، فسلكَ الخليل مسلكَ شيخه في المذهبِ، بقي عليه طيلة عُمُرِه لم يتحوَّل عنه⁵²، ويُزَكِّي هذا القول شهادة تلميذه النَّضْر بن شُمَيْل فيه، حين قال مُتَحَدِّثًا عن شيخه : " ما رَأَيْتُ رَجُلًا أَعْلَمَ بالسُّنَّةِ بعد ابنِ عَوْنٍ من الخليل بن أحمد."⁵³

ثَانِيًا : مكانته العلمية وإبداعاته اللغوية .

الخليلُ بن أحمد الفراهيدي شَخْصِيَّةٌ اعْتَرَفَ الدَّهْرُ بنبوغها النادر وعطاؤها الوافر ، فقد سَطَّرَ التَّارِيخُ كُلَّ ما اسْتَطَاعَ أَنْ يُسَطِّرَه، لِيَرْسُمَ لَنَا مَعَالِمَ هذه المنارة، الَّتِي كانت مَحْوَر صَنِيعِ الحَيَاةِ العقليةِ العلمية ، العربيةِ الإسلامية ، فالخليل بن أحمد يُشْهَدُ له بِذِكَائِهِ الوَقَادِ،وَعَبْقَرِيَّتِهِ الفَذَّةِ الَّتِي رُصِّعَتْ بعقليةٍ رياضيَّةٍ، اتَّسَمَتْ بالدَّقَّةِ والشَّمُولِ، ويكفيه فخرًا أَنَّهُ جاءَ بالجديد الذي لم يَأْلَفْهُ العَرَبُ مِنْ قَبْلُ .

أ - شيوخه:

⁴⁹: مهدي المخزومي ، الفراهيدي عبقرى من البصرة ، (ط.2)، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد، 1989،ص:25.
⁵⁰: الزبيدي محمد بن الحسن أبو بكر ، طبقات النحويين واللغويين، (ط.2) تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف،مصر، 1984،ص:47.
⁵¹ : الذَّهَبِيُّ شمس الدِّين محمد بن أحمد بن عثمان ، سِيَرُ أعلام النُّبَلَاءِ، (ط.11) ،اعتنى به: محمد بنُ عيادي بن عبد الحليم ، مكتبة الصِّفا ، دار لبنان الحديثة، 2006، 21/6.
⁵² : جعفر عابنة، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، (ط.1)، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 1984، ص:26.
⁵³ : ابن الأَثيري أبو البركات عبد الرَّحْمَنِ ، نزْهَةُ الأَنبَاءِ في طبقات الأَدباءِ، (ط.3)، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، 1985، ص:47.

لَزِمَ الخليل علماء أَجَلَاءَ وَلَهُ مِنْ شُيُوخِهِ الَّذِينَ حَدَّثَ عَنْهُمْ أَسَانِيدٌ عَالِيَةٌ، فَقَدْ حَدَّثَ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ وَعَاصِمَ الْأَخْوَلِ، وَعَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، وَغَالِبِ الْقَطَّانِ⁵⁴، وَتَلَقَّى عَنْ أَبِي عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ وَأَبِي عَمْرٍو الثَّقَفِيِّ وَغَيْرِهِمَا.⁵⁵ وَعَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ ثِقَاتِ الْأَعْرَابِ وَعِلْمَائِهِمْ مِنْ مِثْلِ أَبِي مَهْدِيَةَ، وَأَبِي طَفِيلَةَ وَأَبِي الْبَيْدَاءِ، وَأَبِي خَيْرَةَ أَيَادٍ بْنِ لَقِيطٍ، وَأَبِي مَالِكِ بْنِ كَرْكَرَةَ وَأَبِي الدَّقِيشِ⁵⁶، وَمِنْ جُمْلَةِ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخِ الْأَعْلَامِ الَّذِينَ تَمَّ ذِكْرُهُمْ كَانَ (أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ) صَاحِبَ فَضْلٍ كَبِيرٍ عَلَى الْخَلِيلِ، وَمِفْتَاحِ فَهْمٍ لَشَخْصِيَّتِهِ، " فَقَدْ تَوَصَّلَ مَهْدِي الْمَخْزُومِي، وَجَعَفَرُ عِبَابَنَةَ إِلَى أَنَّ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ أَكْثَرَ شُيُوخِ الْخَلِيلِ تَأْثِيرًا فِي سُلُوكِهِ وَمَذْهَبِهِ، حَيْثُ يَقُولُ مَهْدِي الْمَخْزُومِي: " فَنَحْنُ إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الْخُطُوطِ الْأَسَاسِيَّةِ، الَّتِي رَسَمَتْ حَيَاتَهُ الْخَلْقِيَّةَ وَجَدْنَاهَا أَثَرًا مِنْ آثَارِ أَيُّوبَ، فَقَدْ تَأَثَّرَ بِهَا وَتَمَثَّلَهَا فِي نَفْسِهِ، تَمَثُّلاً حَمَلَهَا عَلَى النَّسْكِ وَالزَّهْدِ وَالتَّوَاضُعِ وَالْعِفَّةِ، وَالْإِنْصِرَافِ عَنِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ، وَيَرَى جَعْفَرُ عِبَابَنَةَ: أَنَّ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ كَانَ لَهُ كَثِيرٌ الْأَثَرِ، عَلَى مُرِيدِهِ الْمُمَيِّزِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، فَأَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيَّ هُوَ الْمِفْتَاحُ الرَّئِيسُ لِفَهْمِ شَخْصِيَّةِ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ فِي سُلُوكِهِ وَمَذْهَبِهِ، ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ بِطَبْعِهِ يَبْحَثُ عَنْ أَنْوَاجٍ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِ، يَرْتَضِيهِ قُدْوَةً فِي السُّلُوكِ أَوْ الْعِلْمِ أَوْ فِيهِمَا مَعًا، وَشَخْصِيَّةُ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ شَخْصِيَّةٌ جَادِبَةٌ، لَافِتَةٌ تَصْلُحُ أَنْوَاجًا لِلْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ."⁵⁷

ب - مُرِيدُوهُ:

بِالنَّسَبَةِ لِتَلَامِيذِهِ ، كَانَ الْخَلِيلُ يَعْزُدُ حَلَقَةً عِلْمِيَّةً فِي مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ، يَتَوَافَدُ إِلَيْهَا طُلَبَةُ الْعِلْمِ فَقَدْ أَخَذَ عَنْهُ سَبِيحُوه النَّحْوِ ، وَالنَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ ، وَهَارُونَ بْنُ مُوسَى النَّحْوِي ، وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ ، وَالْأَضْمَعِيُّ وَآخَرُونَ، وَمِنْ أَشْهُرِ تَلَامِيذِهِ غَيْرِ سَبِيحُوه النَّحْوِيِّ وَالنَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ وَالصَّفْوَةُ الَّتِي تَمَّ ذِكْرُهَا، نَجْدٌ كَذَلِكَ : مُؤَرِّجُ السَّدُوسِيِّ، وَعَلِيٌّ بْنُ نَضْرٍ الْجَهْضَمِيِّ، وَالْوَلِيدُ بْنُ

⁵⁴:بَسِيرُ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ ، 129/5.

⁵⁵: مُحَمَّدُ الطَّنْطَاوِيُّ ، نَشْأَةُ النَّحْوِ وَتَارِيخُ أَشْهُرِ النَّحَاةِ (ط.2) ، دَارُ الْمَعَارِفِ ، الْقَاهِرَةِ ، 1995، ص:77.

⁵⁶ : الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ صَانِعُ النَّحْوِ وَوَاضِعُ الْعُرُوضِ، ص:23.

⁵⁷ : شَخْصِيَّةُ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيِّ فِي كُتُبِ التَّرَاجِمِ، ص:36.

محمد التميمي المصادري، إضافةً إلى عيينة بن عبد الرحمن المهلب⁵⁸ ، ويُقال إنَّ أبا الحسن الأخفش قد صحب الخليل وأخذ عنه، وأنكر ذلك المبرد، وأبو عليّ الفارسي وابن جني ويبدو أنَّ الأخفش قد أَلَمَّ الإمامةَ يسيرةً بحلقة الخليل ولم يصحبه⁵⁹ وله من المریدين غير هؤلاء الصفوة نجد: سعيد بن مسعدة الأخفش، وحنين الطيب النصراني الذي لازمه في بيته لا يبرحه حتى تعلّم العربية، والأصمعي، والليث بن المظفر، وأبو محمد اليزيدي وغيرهم⁶⁰ .

ج- عطاءاته العلمية :

للخليل بن أحمد جهود عظيمة تبلّورت أعظمها على صعيد اللغة والأدب، وعُدّت من الآثار القيّمة التي برهنت على ما وُصف به هذا العالم الجليل ، من ذكاءٍ وعِلْمٍ فقد كان غايةً في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه⁶¹ ، قال الزبيدي : " وهو الذي بسط النحو ومدّ أطنا به وسبب علّله ، وفتق معانيه أن يؤلّف فيه حرفاً، أو يرسم منه رسماً ترتفعاً بنفسه وترتفعاً بقدره ، إذ كان قد تقدّم على القول عليه ، والتأليف فيه فكرة لمن تقدّمه تالياً وعلى نظره من سبقه مُحْتَذِياً ، واكتفى بذلك بما أوحى إلى سببويه من علمه ، ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره، ولطائف حكمته ، فحمل سببويه ذلك عنه ، وتقلّده وألّف فيه الكتاب الذي أعجز من تقدّم قبله ، كما امتنع على من تأخّر بعده"⁶²، ويرجع إلى الخليل الفضل في وضع علم العروض ، حيث قال ياقوت الحموي : " الثانيةُ اختراعه لأشعارهم ميزاناً حداه على غير مثال وهو العروض؛ التي إليها مفرغ من خذله الطبع، ولم يُساعدهُ الدوق من الشعراء

⁵⁸ : فخر صالح سليمان قدرة ، مسائل خلافة بين الخليل و سببويه، (ط.1) ، دار الأمل، الأردن، 1990، ص:20-22.

⁵⁹: مسائل خلافة بين الخليل وسببويه، ص:22.

⁶⁰ : مُعْجَمُ الْأَدْبَاء ، 11 / 83.

⁶¹ السيرافي أبو الحسن بن عبد الله ، أخبار النحويين البصريين ، تح: طه محمد الزيني، محمد عبد المنعم خفاجي، (ط.1)، مطبعة مصطفى الحلبي و أولاده، مصر، 1955، ص:30.

⁶²: نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة ، ص: 77-78.

ورواة الأشعار ، فصار أثره لاختراع هذا العلم كأثر الفيلسوف أرسطاطاليس في شرح علم حدود المنطق⁶³، ويُقال إنه دعا الله أن يرزقه علم لا يسبق إليه؛ ففتح له بالعروض، فهو واضع علم العروض أخذه من الموسيقى وكان عارفاً بها⁶⁴، ويرجع إليه الفضل أيضاً في تصنيفه لأول معجم لغوي، رصد فيه أصول المفردات العربية، فأخذ بذلك رتبة الصدارة في سبق التصنيف إلى جمع اللغة، وتمثل جهده العظيم هذا في كتابه الذي سماه "العين"، قال الإمام فخر الدين: "أصل الكتب المصنفة في اللغة كتاب العين".⁶⁵ وقال ياقوت الحموي: "الثالثة ما منحهم في لغتهم من حصره إياها في الكتاب الذي سماه كتاب العين، فبدأ فيه بسياقة مخارج الحروف، وأظهر فيه حكمة لم يقع مثلاً للحكماء من اليونانيين، فلما فرغ من سرد مخارج الحروف، عدل إلى إحصاء أبنية الأشخاص وأمثلة أحداث الأسماء، فزعم أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل، على مراتبها الأربع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، من غير تكرير ينساق إلى اثني عشر ألف ألف، وثلاثمائة ألف ألف وخمسة آلاف وأربع مائة واثنى عشر، والثنائي منها ينساق إلى سبع مائة وستة وخمسين، والثلاثي إلى تسعة عشر ألف، وست مائة وستة وخمسين، والرباعي إلى أربع مائة وواحد وتسعين ألفاً وأربع مائة، والخماسي إلى أحد عشر ألف ألف، وسبع مائة وثلاثة وتسعين ألفاً وست مائة".⁶⁶، ومما يُضاف إلى هذا الصنيع إقامته صرح النحو والتصريف، فقد كان عقل الخليل عقلاً فذاً كلما مس شيئاً نظمه واستنبط قوانينه ودقائقه، وقد سلط هذا العقل على قوانين العربية في النحو والتصريف، فإذا هو يكتشفها اكتشافاً دقيقاً وحقاً لم يترك فيها كتاباً جامعاً، إنما ترك إن صح ما ذكره المترجمون له كتابات فرعية، كرسالة في معنى الحروف، وثانية في جملة آلات الإعراب، وثالثة في العوامل يظن القفطي أنها منتحلة عليه، ورابعة لها

⁶³: معجم الأدباء، 84/11.

⁶⁴: سير أعلام النبلاء، 314/2.

⁶⁵: السيوطي؛ جلال الدين أبو بكر، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك، ومحمد

أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، (ط.3)، مكتبة دار التراث، مصر، 2008، 76/1.

⁶⁶: معجم الأدباء، 84/11.

من عمل غيره إذا تُسمّى " شرحُ صرف الخليل " ⁶⁷، وإذا بحثنا عن بصمة الخليل في النحو والتصريف، فلا شك أننا نجد لها على شكل " أمالي " في كتاب تلميذه ومُريده الأول سيبويه في مصنّفه المشهور " الكتاب " حيث " عقدَ سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل " ⁶⁸، فعامّة الحكاية في الكتاب لسيبويه هي للخليل، كما صرّح بذلك الصّيرافيّ قائلاً: " وعامّة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلّما قالَ سيبويه : " وسألته "، أو " قالَ "، من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل " ⁶⁹، وقد ذكرت بعض كُتب الطّبقات والتّراجم ممن أرخت لهذه الشّخصية العبقرية، التي وُصفت بالموسوعية أنّ للخليل مصنّفات أخرى تميّزت بتأصيلها العلميّ للموروث العربي، وفي هذا الشأن يحدثنا جمال الدّين القفطيّ قائلاً: " والذي تحقّق أنّ الخليل صنّفه " كتابُ العين " في اللغة مشهور، " كتابُ العروض "، " كتابُ النّقط والشّكل " كتاب النّغم "، " كتابُ في العوامل " منحول عليه ⁷⁰

د - مُصنّفاتُه:

- لا بأس هنا أن نعيد ذكر تصانيفه مُرتبة ما وقعَ لنا ممّا دونه الخليل من كُتب: ⁷¹
- 1- كتابُ الإيقاع ذكره ابنُ النّديم في الفهرست وابن خلكان في وفيات الأعيان، وهو من ثمرات ثقافة الخليل الموسيقية.
 - 2- كتابُ تصريف الفعل، ومنه قطعة بمكتبة بودلينا.
 - 3- كتابُ التفاحة في النحو، وقد صوّرتُه البعثة المصرية لتصوير مخطوطات اليمن.
 - 4- كتابُ جملة آلات الإعراب، ومنه نسخة بمكتبة أيا صوفيا.

⁶⁷: شوقي ضيف، المدارس النحوية، (ط.7) دار المعارف، مصر، 2011، ص: 33-34.

⁶⁸: شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص: 34.

⁶⁹: سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تح: محمد عبد السلام هارون، (د.ط)، دار التاريخ، بيروت، 2011، 24/1.

⁷⁰: القفطيّ جمال الدّين أبي الحسن عليّ بن يوسف، إنباهُ الرواة على أنباء النحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، (ط.1)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، 1 / 381.

⁷¹: الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض، ص: 26، 27.

- 5-كتاب شرح صرف الخليل، ومنه قطعة بمكتبة برلين.
- 6- كتابُ الشواهد، ذكره ابن النديم وابن خلكان.
- 7- كتابُ العروض ذكره ابن النديم وابن خلكان، ويبدو أنه ضمّنه ما توصّل إليه في علم العروض.
- 8-كتاب فائت العين، ذكره ابن النديم، ويتبيّن من عنوانه أنه استدراك لما فاتته في العين.
- 9- كتاب في العوامل، ذكره ابن خلكان ويظهر أنه اختصّ فيع بالعوامل النحوية ولكن القفطي في إنباه الرّواة شكّ في نسبته إليه وزعم أنه منحول.
- 10- كتاب في معنى الحروف، ومنه نسخة بمكتبة ليدن وثانية بمكتبة برلين.
- 11- كتاب النغم، ذكره ابن النديم وابن خلكان، وهو ينهض دليلاً على معرفة الخليل بعلم الموسيقى معرفة تامّة، وقد احتذاه فيه من جاء بعده، فروي أنه " لما صنع إسحاق بن إبراهيم كتابه في النغم واللحن، عرضه على إبراهيم بن المهدي، فقال: أحسنت يا أبا محمّد، وكثيراً ما تحسن، فقال إسحاق: " بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل إلى الإحسان".
- 12- كتاب النقط والشكل، ذكره ابن النديم وابن خلكان وقد ذكر أنّ الخليل هو أوّل من صنّف النقط ورسمه في كتاب وذكر الله، وأنّ جماعة من النحاة والمقرئين الذين صنّفوا في النّقط والشّكل من ابتكارات لم يُسبق إليها، وهي ابتداعه الشّكل المعروف وقد أخذه من صوّر الحروف.
- 13- كتاب الجمل، وأوّل ما يتبادر إلى الذّهن أنه مصنّف في الجملة العربية وصورها.
- 14- كتابُ الشّواهد، وأغلب الظنّ أنه يتضمّن بعضَ الشّواهد التي ساقها عن الأعراب.⁷²

⁷² : الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض، ص: 27.

15- كتابُ المعَمَى ويتَّضحُ من عنوانه أنَّه في الألغاز، قال ابن نباتة في "سرح العيون": "عَمِيَ الأمرُ إذا التبس، وعَمَّيت معنى البيت من الشَّعر إذا أخفيتَه، ومنه المعَمَى اللغزُ، والمرادُ هُنا حروف يصطلحُ عليها الكاتب مع نفسه ويُكاتب بها، ويُسمَّى الآن المترجم، ولها طرائق مذكورة تُعين على استخراجها وأوَّل من وضعها الخليل"

16- كتابُ العين ، وهو أهمُّ مؤلفات الخليل.⁷³

هـ- شِعْرُهُ وَحِكْمُهُ الْمَنْثُورَةُ:

إضافةً إلى هذا كانَ الخليل صاحبَ صنعةٍ شعريَّةٍ بهيَّة، ينتقي أنصَحَ الكلمات في مقامات قولِيَّة يركبها أصفى البحور، ويختارُ لها أجودَ القوافي، وقد أشار ابن المُعْتز في طبقاته أنَّ شِعْرَهُ لم يكن بالكثير، ولم يتجاوز القصيدة تامَّة كما هي معروفة، وإنَّما كانت عبارة عن أبيات، يستحضرها الخليل في مقامات معيَّنة، والسَّبب في ذلك انشغاله بالمسائل العلميَّة⁷⁴ وفي رواية أخرى ينقلها لنا محمَّد باقر الموسوي الأصبهاني، عن الخوانساري يقول فيها عن الخليل: إنَّ له "أشعاراً رائعة كثيرة"⁷⁵ فهو القائل⁷⁶:

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَلَا تَنْتَظِرْ إِلَى عَمَلِي *** يَنْفَعُكَ عِلْمِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي.

هـ-1- شِعْرُهُ فِي الْحِكْمَةِ:

يقول مُمتطياً البحرَ الطَّويل⁷⁷ :

⁷³ : الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض، ص: 27.

⁷⁴ : ابن المعتز عبد الله أبو العباس، طبقات الشعراء، تح: صلاح الدِّين الهواري، (ط.1)، مكتبة الهلال، بيروت، 2002، ص: 89.

⁷⁵ : الميرزا محمَّد باقر الموسوي الأصبهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، (ط.1) الدار الإسلاميَّة، بيروت، 1991، 284/3.

⁷⁶ : طبقات النحويين واللغويين، ص: 47.

⁷⁷ : شهاب الدِّين العناني أحمد بن محمد بن محمد بن علي، نزهُة الأبصار في محاسن الأشعار، تح: مصطفى السنوسي، وعبدُ اللطيف أحمد لطف الله، (ط.1)، دار القلم، الكويت، 1986، ص: 48.

يُعْدُ رفيع القوم من كان عاقلاً ***** وإن لم يكن في قومه بحسيب
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله ***** وما عاقلٌ في بلدة بغريب.

هـ-2- شعره في الزهد:

يقول مُمتطياً البحر الكامل⁷⁸:

عش ما بدا لك فقصرُك الموت ***** لا مَرَحَلٌ عنه ولا قَوْتُ
بيننا غني بيت وبَهَجَتَه ***** زال الغنى وتقَوَّض البيت
يا لَيْتَ شعري ما يُراد بنا ***** ولَقَلَّما تُغني إذا لَيْتُ.

هـ-3- شعره في المدح:

يقول مُواصلاً في البحر الكامل⁷⁹:

الله ربي والنبى محمد ***** حييا الرسالة بين الأسباب
ثم الوصي وصى أحمد بعده ** كهف العلوم بحكمة وصواب
فاق النظر ولا نظير لقدره *** وعلا عن الخلان والأصحاب
بمناقب ومآثر ما مثلهما ***** في العالمين لعابد تَوَّاب
وبنوه أبناء النبي المرتضى *** أكرم بهم من شيخة وشباب
ولفاطم صلى عليها ربنا ***** لتقديم أحمد ذى النهى الأَوَّاب

⁷⁸ : المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران، نُور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تح: رودلف زلهام، (د.ط)، فارنتس شتاينر للنشر، ألمانيا، 1964، ص:64.

⁷⁹ : رشيد الدين ابن شهر آشوب أبو عبد الله محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، (ط.1) المطبعة الحيدرية، بغداد، 1956، 24/3.

- حِكْمُهُ الْمَنْثُورَةُ:

ذكر أبو الطَّيِّب في طبقاته أثرا للخليل بن أحمد، عن بعض حِكْمِهِ، فيما رواه قال⁸⁰:

1- تَرَبَّعَ الْجَهْلُ بَيْنَ الْحَيَاءِ وَ الْكِبَرِ.

2- نَوَازِعُ الْعِلْمِ بَدَائِعُ، وَ بَدَائِعُ الْعِلْمِ مَسَارِحُ الْعَقْلِ.

وفي هذا المقام لا بأس أن نستأنس بما قاله الدكتور هادي حسين حمودي في حقّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، قائلا: "حقّا إنّ أعمالَ الخليل كانت نهضةً بكلّ ما في كلمة النهضة من معانٍ، فهو الذي أنهضَ الأُمَّةَ ونقلها من حالٍ إلى حالٍ، وأخذَ بيدها في مدارج العلم والعمل النَّافع، فكَوّنَ مجموعة من الطُّلاب الذين أصبحوا علماء رأسوا الأمصار في العلم، والتّفَّ حولهم المُريدون يأخذون عنهم، ويتطوِّرون إلى يومِ النَّاسِ هذا، وفي جميع البلدان العربية أو المتهمة بلغة العرب وتراثهم، وهم ما أخذوا إلا غلالة من علم الخليل بن أحمد الأزدي، وما تطوّرا إلا بنهجه الذي سنّه لهم."⁸¹

ثالثاً : وفاته وثناء العلماء عليه:

أ- وفاته:

توفّي الخليل رحمه الله سنة سبعين ومائة، وقالوا سنة خمس وسبعين وهو ابن اربع وسبعين سنة⁸²، قال ابنُ قانع: "إنّه توفّي سنة ستين ومائة"، وقال ابنُ الجوزي: "إنّه مات سنة ثلاثين ومائة، وهذا غلط قطعاً، لكن نقله الواقدي، ومات بالبصرة"⁸³

ب- سبب موته:

⁸⁰: طبقات النحويين واللغويين، ص:48.

⁸¹: هادي حسين حمودي، الخليل وكتاب العين، (د.ط)، التراث العماني، لندن، 1994، ص:16.

⁸²: طبقات النحويين واللغويين، ص:51.

⁸³:وفيات الأعيان، ص:247.

كان سبب موته أنه أُريدَ أن يقرب نوعاً من الحساب، تمضي به جارية إلى البيع فلا يمكنه ظلمها، ودخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك فصدمة سارية، وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره فكانت سبب موته وقيل: بل كان يُقَطَّع بحراً من العَرُوض.⁸⁴

ج- ثناء العلماء عليه:

للخليل بن أحمد الفراهيدي منزلة عظيمة عند المتقدمين والمتأخرين، شرفته بها عبقريته الفذة، مما أكسبته مساحة واسعة من الثناء في كتب التراجم والأعلام.

قال فيه حمزة بن الحسن الأصبهاني: "وما ظنكم برجل تولاّه كلّ جيلٍ، ومالت إليه كلّ فرقة، حتّى حلّ في صدورهم، فمنحوه الذّكر الجميل بالسنتهم."⁸⁵

وعنه قال الإمام جلال الدّين السيوطي: "أنّه ثقة ثبت"⁸⁶

قال في حقّه الفيروزآبادي: "وكان رحمه الله يمتنع عن قبول عطايا الملوك، فكان قوته من بستانٍ ورثه أبيه، وكان يحجّ سنة ويغزو سنة إلى أن مات."⁸⁷

وذكره السّيرافي في كتاب أخبار النّحويين البصريين قائلاً: "كان الغاية في استخراج مسائل النّحو، وتصحيح القياس فيه، وهو أوّل من استخرج العروض، وحصر أشعار

⁸⁴: وفيات الأعيان ، ص:247.

⁸⁵ : حمزة الأصهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، تح: محمد أطلس، وعبد المعين الملوح، وأسماء الحمصي، (ط.2) دار الصادر، بيروت، 1992، ص:129.

⁸⁶ : المزهر في علوم اللغة، 405/2.

⁸⁷: الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، (ط.1) دار سعد الدين للطباعة والنشر، 2000، ص:33.

العرب، وعمل كتاب العين المعروف المشهور الذي به يتهيأ ضبط اللغة، وكان من الزهاد في الدنيا والمنقطعين إلى العلم.⁸⁸

وكان سفيان بن عيينة المحدث يقول: "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد."⁸⁹

وقال أبو الطيب واصفاً صنيع الخليل وإبداعه قائلاً: "وأبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها، فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمى العين، واختراعه العروض، وأحدث أنواعاً من الشعر ليست من أوزان العرب."⁹⁰

وقال فيه حقه ابن عماد الحنبلي في كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب": "كان من الزهد في طبقة لا تدرك حتى قيل إن بعض الملوك طلبه ليؤدب أولاده، فأتاه الرسول وين يديه كسر يابسة يأكلها فقال له: قل لمرسلك ما دام يلقي مثل هذه لا حاجة به إليك."⁹¹ وكتب إليه شعراً يقول فيه⁹²:

أبلغ سلميان أنني عنه في سعة ***** وفي غنى عنه أنني لست ذا مال

شحاً بنفسي أنني لا أرى أحداً ***** يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر في النفس لا في المال نعرفه * ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه *** ولا يزيدك فيه حول محتال

⁸⁸ : أخبار النحويين البصريين، ص: 54، 55.

⁸⁹ : الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص: 24.

⁹⁰ : المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ص: 401.⁹⁰

⁹¹ : عبد الحي بن أحمد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط،

(ط.1)، دار ابن كثير، 1986، 1/ 276.

⁹² : الخليل بن أحمد الفراهيدي ؛ صانع النحو وواضع العروض، ص: 19.

وقد مدحه شوقي ضيف في مقولته الرائعة: "إنَّه لما لمس اللغة بعصاه السحرية انفتحت أمامه أغلاقها وفارقتها طلاسها".⁹³

وتابعه الدكتور أحمد عفيفي قائلاً: "كان الخليلُ زاهداً متقشفاً عن متاع الدنيا الزائل، لا يُلقي لمباهجها بالاً ولا يُقيم لزخارفها وزناً، يرفض أن ينغمس في ترك الدنيا ومساوئ نعيمها، مؤمناً بزوال لذائذها وانقطاع أسبابها، يرغب عنها خداعاً زائفاً ومتعة عاجلة عابرة وحطاماً فانياً".⁹⁴

وقال فيه عبدُ الصاحب عمران الدجيلي: "انقطع الخليلُ إلى العبادة والزهد فاكتفى من العيش بالقليل حتى قال النضر بن شميل عنه: (أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه، وهو في خص لا يشعر به)".⁹⁵

ونختم جُملةَ الثناء بهذه المقامة القولية على لسان ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار واصفاً الخليل بأنه "من أغصان الأدب ووريقها، ورشف السنة العرب وريقها، وهو إمام القوم ولسان القول، رأس أهل التعليم، مؤسس القواعد ومُستنبط العلم الذي ما سبق إليه، ولا وقع على خاطر امرئ قبله، اقترع منه العذراء واخترع منه ما ضبط به الشعراء، أتى منه بعلم جليل، وأحسن إحساناً أصبح فيه الناس ضيوف الخليل".⁹⁶

⁹³ : المدارس النحوية، ص:31.

⁹⁴ : أحمد عفيفي، المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي دراسة وتحقيق، (ط.2)، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2015، ص:23.

⁹⁵ : عبدُ الصاحب عمران الدجيلي، أعلام العرب في العلوم والفنون، (ط.2)، مطبعة النعمان، العراق، 1966، ص:69.

⁹⁶ : ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، مهدي النجم، (ط.1) دار الكتب العلمية، 2010، 7/ 81.

رابعاً: قراءة نقدية في المنظومة المعرفية للفرايدي⁹⁷:

إنّ البحث في البنية العلميّة تحديداً التي وجّهت آراء الخليل بن أحمد الفرايدي، وهو يتقصى حقائق اللّغة محاولاً سبر أغوارها، كاشفاً عن تلك الأنساق الضمنية والمُضمرة، ستجعل القارئ المتبصّر في مساءلة مع شبكة من الأنظمة المعرفية المتميّزة، التي صحت هذه الممارسة المعرفية الواعية، من فرضيات مُمكنة إلى مقولات كائنة ، قام بصياغتها الخليل وفق مُعطيات منطقية ، يعقدُ صلتها في المقام نفسه، موجود حادث " أنظمة المعيش اليومي " صُحبة عقل مُدرك لمضمون دلالة وظيفتها وماهيتها.

يقول محمّد سالم سعد الله : " لقد عمل الخليل على الاشتغال على مُمكنات المنظومة المعرفية، وقد نظر إليها أنّها كلّ مُتماسك في إطار واحد، ولم ينظر إليها على أنّها وحدات معرفيّة مُنفصلة-وبها ارتسمت خصوصيّة- ، فقد عمد إلى تتبّع الاستقراء العلمي الدقيق في معرفة منهجيّة الدّرس، أو العلم الإسلامي في مراحل علميّة مُختلفة، وفي امتداد زمنيّ مُعيّن، ومحاولة توظيف تلك المنهجية في بناء جدول معرفي ، لاختصار الجهود والطّاقات وتكثيفها، فجاءت اكتشافاته على صعيد البحور الشعريّة، ونظريّة النحو العربي الذي ضمّ في البدء الصرف والبلاغة والأسلوب، ودراسة تطوّر اللغة، وكيفية تطوّرهما، وضمّ المنطق، والجانب العقديّ في النّحو العربي، والحديث غير المفتعل عن بعض علل النّحو وانتقل إلى الممكنات العلميّة على صعيد الرياضيات والموسيقى، ونحو ذلك، ولا بدّ أن نُبيّن حقيقة أنّ علم الخليل، ومنظومته المعرفية لا تزال غير معروفة، لأنّ نتاجات الخليل

⁹⁷ : اعتمدنا معالم هذه القراءة وفق التحديد المنهجي الذي ذهب إليه الباحث محمد سالم سعد الله، ينظر، الخليل بن أحمد الفرايدي، أوراق الندوة الدولية التي عُقدت في جامعة آل البيت 23-25 تموز 2006، منشورات جامعة آل البيت، 2، 654/2008.

وطروحاته لم تصل إلينا كاملة، ولذلك تبقى الآراء النقدية أو المناقشة، أو المُحاورَة لمنظومة الخليل نسبيّة غير مُطلقة.⁹⁸

لا شك أنّ إقامة قراءة تأصيليّة، تبتغي بيانَ أسس تشكّل منظومة معرفية مُتّزنة، أسهمت في بناء هذا الصّرح العلمي " العقل الخليلي " لرصد سبق علمي ، لا بُدّ لها أن تقيم عرضاً معرفيّاً للإعراب عن مظهر من مظاهر الوعي، وذلك للكشف عن البنيات المحرّكة لهذه الذات المُنتجة ، ولعلّ أسس هذه المنظومة المعرفيّة تُوجّهها هذه البُنَيَات الرّكائز وهي كالآتي:

أ- البنية العقلية (مرحلة التكوين المعرفي):

منّ المعلوم أنّ البداية الفعلية لتعاطي أيّ نوع من الممارسة المعرفية في مُحيط ما، أيّا كانت بؤرته السوسيوثقافية التي تتحكّم في مفاهيمه ، لا بُدّ أن تسبقها مرحلة قبلية تتمثّل لمعطياتٍ ثرائية (تكوينيّة)، في سياقٍ حاضِرٍ يعمل على مُقاربة هذه المعطيات القارّة في مرحلتها الأولى ، لبناء أولى الدّلالات وتحويلها من حقيقة غائبة، إلى حقيقة حاضرة، عبر مسالك عقلية غايتها بناء أنموذج مُحدّد، تحكمه منظومة معرفيّة مُتّسقة المعايير في الوصف والتحليل والاستنباط.

إنّ تعامل الخليل بن أحمد الفراهيدي مع الموجود اللّغوي ، برؤية خاصّة مُمايزة لمقوّمات الكلام بشكل مُتوالٍ منتظم، وقدرته في تناول البنية العامّة لجهازِ التخاطب، بوصفها مُدركاً في صورته الإنجازية وفقاً لأطر منهجيّة معيّنة، تفرضها في المقام نفسه ذاكرة ثقافية مُكتسبة " الثقافة العربيّة "، في مقام علميّ مخصّص يكمن في مُساءلة الموجود اللغوي "المُدونة المسموعة من كلام العرب الفصيح"، مَكْنَهُ من رسم أفق معرفيّ يرصد مسيرة الظاهرة اللغوية، عبر أنساق استنباطية مُتمايزة انتقلت من الوصفي والحسيّ المُدرك " المادّة

⁹⁸: الخليل بن أحمد الفراهيدي، أوراق الندوة الدولية، 654/2.

الصّوتية "، إلى العقلي الحسابي في الكشف عن الأنماط المتحرّكة، والمتغيرة داخل نظامٍ لسانيّ يُحدّده نسقٌ رياضيّ محض، " وبهذا يُمكن القول إنّ الخليل استطاع أن يحوّل الدّرس العربي الإسلامي من الوصف إلى التحليل، ومن دراسة الناتج إلى دراسة المنتج، ومن كَوْن اللغة قوالب ومعايير إلى مجموعة أساليب حيوية، في فهم الإبداع العربي الإسلامي ، ولعلّ مقاربات التكوين المعرفي لل خليل في نتاجاته التي وصلت إلينا- ورأى بعضها النّور هي مقاربات، ذات طبيعة رياضية بشكل دقيق وذلك من خلال تحليله، الذي أسند لنفسه مهمّة كشف سرّ الطّبيعة الرياضيّة التي الظواهر اللّغوية.⁹⁹

لا شك أنّ هذه المرتبة البنائية العقلية في مرحلة التكوين، التي حظي بها الخليل سبقاتها ولادات معرفية، في ظلّ سياق علميّ، منحها ممارسة علمية واعية لمختلف الظواهر والقضايا المطروحة، فعِلْمِيَّة الخليل في سلّم التكوين المعرفيّ، ما هي إلّا امتداد ومحاكاة لسلسلةٍ من أعلام، وجهابذة اللغة في مرحلتها الأولى وهذا أمر طبيعيّ " مرحلة المريد " وفي المقام الثّاني نتائج مُميّز غير مُستنسخ، برؤى علمية مُمنهجة ومُدركات ثقافية عالية " مرحلة المشيخة".

ب- بنية الاشتغال (مرحلة التأسيس العلمي):

إنّ الانتقال بين أطوار المعرفة اللغوية، وُصولاً إلى حقيقتها العلمية، بوصفها ظاهرة لها كلّ مميّزات الوجود الموضوعي، الذي لاينغلقُ منه شيء على سؤال العقل¹⁰⁰ يستحيل عليها أن تتأسّس في شكل نهائيّ، دُونَ أن تمرّ بحلقات من الاشتغال المعرفيّ، فعناصر التأسيس العلمي في " بنية الاشتغال"، وما تفرزه من تقديرات علمية وطرائق في الاستنباط، مرّدها إلى محدّدات من التوصيفات المعرفيّة، التي يتميّز بها حقل عن آخر، والمقاربة التي يمكن لنا تمثّل عناصرها، عند الخليل في هذه المرحلة المهمّة في هذا المسار التأسيسي، هو منهجه

⁹⁹ : الخليل بن أحمد الفراهيدي، أوراق الندوة الدولية 656-657.

¹⁰⁰ : مباحث في اللسانيات التأسيسية، ص:10.

الشمولي في عتبة التأسيس الأولى، محاولاً جمع سمّت العرب في معهودها المنطوق "السماع اللغوي"، وتختصره العبارة الآتية: "سمعتُ قوماً من العرب يُنشدون هذا البيت .." - وغيرها من الصيغ - وهذا المسموع يمثل الأصل الأول والأساس في الحكم على الظاهرة اللغوية، فلا صحة لحكم دون حُجّة من هذا "المنقول"، كما اصطَلَح عليه ابن الأنباري¹⁰¹، ولا بُدّ من ضبطٍ منهجيٍّ على الخليل القيام به في دراسة اللغة، إذ يُعدّ شرطاً مهماً في هذه الممارسة العلمية "هُوَ أن يجمع المادّة المدروسة، جمعا واعيا وافيا وإلا كان عمله ناقصا، وكانت قواعده منقوضة، وسُتُهديه نظراته الأولى فيها إلى ما تحويه من أوجه الاختلاف، وتتوّع الظواهر، فيرى نفسه مضطراً إلى تصنيفها وتقسيمها، لتكون نتائج دراسته أكثر صحةً ولتكون قواعده أكثر اطراداً".¹⁰² حينئذٍ تنتهيّ له مرحلة أخرى، من معطيات التنظيم المنهجي وهي مرحلة "الاستقراء"، تُلَفّي فيها الخليل يستدلّ بعقل حسابيّ بالخاصّ على العام، يفحص جزئيات الظاهرة اللغوية المدروسة، على نحوٍ من الوصف والتحليل والتعليل، ويظهر لنا هذا الأمر في طرقه العقلية في وصف "الصوت"، وتشرح الجهاز النطقي، وما للمكوّن الصوتي من اعتبارات وظيفية، على مستوى التركيب اللغوي للملفوظ العام، في شكله النهائي عبر سياق تلفظ مخصوص، زهذه المتوالية المعرفية أسهمت للخليل في فتح أفق معرفيّ آخر، تشكل له وفق منظومة متسلسلة من المُعطيات العلمية، تجاوزت اللغة في قالبها التداولي المعروف، لتقتحم أنساقاً أخرى كان للعنصر الموسيقي الفضل في ذلك، مُتمثّلة في المستوى التنغييمي، تتحكم فيها قاعدة الحركة والسكون، حيث توصّل من خلالها الخليل إلى وضع خريطة فنيّة مُبدعة، انطلاقاً من دراسة متسويات الإدراك الموسيقي، إلى معرفة البحور المؤسسة للشعر العربي.

¹⁰¹ : يعرفه الأنباري اصطلاحاً: "النقلُ هُوَ الكلامُ العربيّ الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة". يُنظر كتابه؛ الإعراب في جدل الإعراب ولُمع الأدلّة، تح: سعيد الأفغاني، (ط.2)، دار الفكر، 1971، ص:81.

¹⁰² : محمّد خير الحلواني، أصول النحو العربي، (د.ط) دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص:23.

إنَّ طبيعة العقليّة التأسيسية للخليل، تُمثّل صورة ناصعة لمتوالية البناء العقلي عند علماء العرب، التي اعتمدت على بيان كنه الأشياء وميزات الظواهر، وتقديم معطيات الإجراءات التنظيرية المنضبطة، بمسيرة من البحث والاستقصاء، ومعرفة تتسم بالتأصيل ويمكننا القول بناء على ما سلف، إنَّ مرحلة التأسيس العلمي عند الخليل اتّسمت بمنهجية منضبطة قائمة على اعتبارات معرفية، مثل اعتماده على السّماع والاستقراء، بوصفها أدوات مهمّة وناجعة في بيان الظاهرة العلمية، إضافة إلى استخداًمه لأساليب تحليلية في دراسة العلاقات البانية لنظم الكلام¹⁰³، واعتماده على المكوّن الصوتي بوصفه المحرّك الاستدلالي الأوّل، في بيان المعطيات اللغوية والدلالية الجديدة.

ج- البنية الحضارية (مرحلة الإنتاج والفاعلية):

إنَّ الحديث عن هذا المسار في هذه البنية بالتحديد، هو حديث عن مرحلة من الإفراز العلمي المُتّزن والمُنهَج، والذي أسهم في بلورته سلسلة من التراكمات المعرفية، التي سعت إلى البحث عن ظواهر معيّنة، لبيان حقيقتها وعناصرها ، وقوانينها ووظائفها ضمن نظام علميٍّ موحد، غايته دراسة اللّغة والبحث عن أشكالها الدلالية.

يتضح لنا هذا الأمر في نتاج الخليل بن أحمد الفراهيدي، من خلال منظومته اللّغوية الكليّة، بوصفها ابتكاراً عقلياً يستند إلى معطيات نظرية وتصوّرات إجرائية، من حيث هي رصيد فكري يتحقّق في عناصر فردية، دالّة في أنسجة بنائها التركيبيّ عبر مستوياته المعروفة ، وتتضح هذه الفاعليّة بدرجة أشدّ في مدح الأوائل لصنيعه بقولهم: " كان عقل الخليل أكثر من علمه".¹⁰⁴ وفي إسنادٍ رُتِبَ " الأولويّة" له في ابتكار ما لم تعهده العرب من قبل، وهو الذي "يُلقب بصاحب العروض"¹⁰⁵ ، ويمكننا القول إنَّ الخليل عقل حازّ قصب

¹⁰³ : ، الخليل بن أحمد الفراهيدي، أوراق الندوة الدولية، ص: 661، 662.

¹⁰⁴ : المدارس النحوية، ص: 30.

¹⁰⁵ : عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (د. ط)، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص: 207.

السبق في كلِّ فنٍّ قصده وتأمّله ، " فقد كانَ رحمه الله من أذكّاء التاريخ وعباقره العلماء، صنعَ للعربيّة كثيرا وأتاها من الفضل، ما لم يؤتِها أحدٌ من العلماء ؛ فقد ابتكرَ العروض، وخرجَ به إلى النَّاسِ علما كاملا، فضبط به الشَّعر العربيَّ وحفظه مِنَ الاختلالِ، وابتكرَ طريقةً أحصى بها مُفرداتِ اللّغة، وميَّز بها المهمل دون المستعمل، ثم دَوَّن على هُداها معجم العين.¹⁰⁶ إضافة إلى فكرته البديعة الّتي بنى عليها أوّل معجم، أخرج للنَّاس وعي فكرة رياضية محضة سابقة لأوانها¹⁰⁷ فهو بحق " نابغة العرب وسيّد أهل الأدب.¹⁰⁸، ومن سماتِ هذه المرحلة الّتي تمثّل النتاج الإبداعي عنده، " إتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره علما وفقها وتحليلا، ونظريتي والتبادل والتوافق خاصة، فقد اشتق له تفاعيل خاصة وأدارها في دوائر كدوائر المهندسين، مستخدما إشاراتٍ من النّقط والحلقات وتصور ما يجري في التّفاعلات، من زحافات.¹⁰⁹، يمكننا القول إنّ الفاعلية الإنتاجية للخليل بن أحمد الفراهيدي، كانت تمتازُ بنتجاها التركيبيّ الذي لا يعرف التجزئة أو التقسيم، حيث يمكن وصفها إنّها فاعلية مرصّعة بمدركاتٍ علميّة، لا تمنحُ نفسها للجميع إطلاقا، كونها نتاجا يدّل على إبداعٍ حضاريّ إسلاميّ موسوعيّ، وعلى عقلية متّقدة تتجّه نحو الابتكار، لم تكتفِ بتحليل الوقائع وبيان مُمكناتٍ تشكّلها، بل عمدت إلى واقع افتراضيّ ناقشت فيه المسائل العلميّة، كما لو أنّها واقعة فعلا¹¹⁰، وإنّ مساءلتنا لفكر الخليل في هذه البنية الّتي نطرقها على شكل مقارنة معرفيّة يمكن لنا تمثّل عناصرها، في نقاطٍ عدّة يجوزُ لنا وصفها بـ: (مرحلة العطاء والابتكار) كونها معطى حضاري، يُترجم لنا معرفة عقلية شهدتها الحضارة العربيّة، مُتمثّلة في شخص الخليل بن أحمد الفراهيدي، واحد من جملة المبدعين الذين غيّروا مسار الحركة

¹⁰⁶ :علي النجدي ناصف، سيبويه إمّا النحاة، (ط.2)، عالم الكتب، القاهرة، 1979، ص:19.

¹⁰⁷ :بحوث ودراسات في اللسانيات العربيّة، ص:208.

¹⁰⁸ : التواتي بن تواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، (ط.1) دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص:80.

¹⁰⁹ : رابح بوحوش، المناهج النقدية وخصائص الخطاب اللساني، (ط.1) دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص:140.

¹¹⁰ : الخليل بن أحمد الفراهيدي، أوراق الندوة الدولية، ص: 664، 665.

الثقافية والعلمية للأمة العربية، ومن نتاج هذه المرحلة (مرحلة العطاء والابتكار) يمكن اختصارها في هذه العناصر الآتية:

1- عملية الاستقراء لكلام العرب ووضعه لمنهجية علمية، تحدّد أصول العربية تُعرف بها أدلة النحو لإثبات صحّة الأحكام، ومعرفة ما يتألف منه الكلام العربي من خلال حصره دائرة السّماع، في الموثوق بفاصحته من العرب، وجعل القياس على الكثير مرتبة ثانية، ومُعاملته للشاذّ الذي يُحفظ ولا يُقاس عليه عن طريق عمليات تأويلية.

2- تركيزه على المكوّن الصوتي كأداة معرفيّة في بناء منظومته العلمية ، لاسيما نظراته الأولى في الأصوات المنطقية (الإنسانية) في مُستواها الموضوعي (الطبيعي).

3- نزعه الرياضية في معالجة الظواهر اللّغوية، ومحاولة تفسيرها ووصفها وتحليلها وفق منهج حسابي يمتاز بالدّقة، يتّضح لنا هذا في ثنائية (التبادل و التوافق).

4- اختراعه لنظام خاص لم يألفه العرب من قبل، أحصى فيه أوزاناً عروضية ينتظم فيها شعر العرب، وأخرى جديدة لم يعرفوها، واجتهاده في وضع أبجدية عروضية تختصرها إشارات معيّنة [0، /] تُسمّى بلغة السّاكن والمتحرّك، ترسم ما يجري في التفعيلات.

5- تأسيسه لأوّل نواة معجمية (مُعجم العين)، سعت إلى حفظ اللّغة وحصرها، عن طريق مُتواليات علمية وضعت اللّبنة الأولى في التّبويب المنهجي، للمادة اللّغوية مرتبة على أساس علمي (اختيار صوتي)، تستقصي الكلم العربي في شتّى تبدّلاته وتقلّباته، ومنحه هذا الأمر لقب (المدرسة المعجمية المتقرّدة).

6- وضعه لميزان صرفي يُعرف به أصل الكلمة، وجذرها وصيغتها وما ألحق بها من زوائد، وابتكاره لتقنية تُعرف بها الكلمة العربية، أهي عربية فصيحة أم دخيلة، من خلال أحرف الذلاقة المجموعة في قولهم (فر من لب)، فإن وُجدت كانت الكلمة فصيحة وإن خلت منها كانت دخيلة.

7- ابتكاره لجملة من المصطلحات العلمية، التي تخدم الفنون اللغوية المختلفة كالرفع والنصب، والخفض في النحو مثلا على علامات الإعراب، والحيّز والمدرج والصّفة في الأصوات، والعمود والسبب والوتد، وأسماء البحور الشعرية مثلا في العروض.

خَوْصَلَة واستنتاج

نخلص من خلال هذا العرض الوصفي لفكر الخليل بن أحمد الفراهيدي، أنّه كان عقلاً متميّزاً، سلك طرقاً خاصّة في طرق ظواهر لغوية، وجّهت سبيلها مُمكنات معرفية ورؤى علميّة، بمنهجية سليمة راعت الخصوصية المعرفيّة، للنسق الموضوع بالدرس والتحليل "التركيبى" عبر مُستوياتها المختلفة المعروفة (النحويّة - الصوتيّة - المعجميّة والدلاليّة)، وهذا يدلّ على منزلته العلميّة والعقليّة، التي منحتّه صفة العبقرية المعروف بها عند طبقته من النّحاة واللّغويين، وهذه القدرة جعلت منه " شخصية عبقرية؛ ذلك أنّ الإبداع في المعرفة لا يكون في تطبيق قوانين العلم، بل الوصول إلى القوانين نفسها، بعد الاهتمام إلى منهج الوصول إليها، والخليل بن أحمد مُقنّن ومُمنهج؛ لهذا قامت مُنظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم -اليونيسكو- باختياره من بين العقول المُبدعة، في التاريخ الإنساني ليكون الشخصية العالمية للإنسانية لعام 2006م، تقديراً عالمياً منها لهذا العقل العربي المُسلم المُبدع على بصيرة وهُدًى، الذي ما عابت سيرته شائبة، ولا لحقت به مذمة، ولا أُنزلت من مرتبته العليا في حضارة المُسلمين، عُقول المُفكرين في شتى العلوم، والمُبدعين من مختلف الفنون، مع تفتّق البحث في كلّ يوم عن جديد هُنا، وهُنَاكَ في دُنيا المعرفة ¹¹¹ وفي مقام

¹¹¹ : شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي في كُتُب التراجم، ص: 20.

آخر يجوز لنا القول إنّ زادا معرفيا مثل مشروع الخليل، يمثّل في حقيقته منصّة معرفية تستدعي من القراء الباحثين، التفاتة ثقافية علمية، لإعادة قراءة هذا المضمون العام قراءة نقدية واعية، مُراعية في ذلك الخصوصية المعرفيّة لهذا التراث، ومحاولة مقاربته مع المعطيات اللسانية المعاصرة ، وذلك لإخراجه من الحلة المحليّة إلى العالميّة.

الفصل الثاني

المستويات اللّسانية

في الرّؤى اللّغوية عند الخليل

(مُقارَبة في أنظمة البنى والدّالات)

مدخل : وَصْفُ الدّراسة

1- المُعطيات الأولى:

يسعى هذا الفصل البحثي إلى تفكيك المُعطيات اللّغوية ، وإعادة بنائها وفق نظام لساني خاص، يقوم على الوصف والتحليل، استنادا على مُمارسة تفاعلية، تبعا للمستوى الذي تنتمي إليه المفاهيم اللّغوية، المُنتظمة وظائفا في نسقها المحدّد الذي تشتغل فيه عناصرها اللّسانية المركّبة، ولعلّ مفهوم المستوى (the level) في هذه الدّراسة يأخذ في حد ذاته مفهوما علميا، يتّصف بمعيار الدقّة في انتظام السّمات أو المكوّنات اللسانية، بدءا بالصوتي ومرورا بالمعجمي إلى النحوي والصرفي، ضمن حقل اشتغال موحّد يمكن لنا وصف صيغته العامّة بالبنية الكبرى (Macro Structure)، حيث يتمّ فيها تحديد هذه المستويات ضمن علائق داخلية، مبنية على هَرَمِيّة المكوّنات اللّغوية (Hierarchical linguistic components)، ولا يتمّ هذا العمل من منظور لسانيات التراث، إلا من خلال مُقاربة معرفيّة في أنظمة البنى والدّالات، تقودنا إلى مُطارحة معرفيّة ولّود تُجلي

فيها قيمة المُكَاشَفَة، بين المُعْطِيَّات اللِّسَانِيَّة والمُدَوَّنَة اللِّغَوِيَّة التَّرَاثِيَّة الْخَلِيلِيَّة، إِلَى مَفَاهِيم مَعْرِفِيَّة مُطَوَّرَة يَتَمَّ بِهَا اسْتِخْلَاص السَّمَات المُمَيَّزَة دَلَالِيًّا، فِي تَشكُّل نِظَام لِسَانِي جَدِيد يَعِي قِطْعًا قِيَمَة المُدَوَّنَة (مَوْضُوع المَصَادِرَة الْعِلْمِيَّة) فِي سِيَاقِهَا المَعْرِفِي الْعَام.

2- آليَّة الاشتغال:

مَا دُمْنَا نَشْتَغِلُ عَلَى آليَّات " لِسَانِيَّات التَّرَاث " ، بِوَصْفِهَا مِنْهَا قِرَائِيًّا يُتِيحُ لَنَا فُرْصَة لِنَتَفَكَّيْكَ الْبَنِيَّة الْعَامَّة، لِلْمُدَوَّنَة اللِّغَوِيَّة الْمَقْصُود دِرَاسَتَهَا وَتَحْلِيلَهَا (الْمُدَوَّنَة الْخَلِيلِيَّة)، وَمِنْ ثَمَّ إِعَادَة بِنَائِهَا وَفَق مُقَارَبَة مَعْرِفِيَّة، تَتَفَاعَل فِيهَا الْمَعْطِيَّات اللِّسَانِيَّة مَعَ نَظِيرَتِهَا اللِّغَوِيَّة الْقَدِيمَة دُونَ أَيِّ إِسْقَاط يَخْلُ بِهَذِهِ الْمُقَارَبَة الْوَاعِيَّة، فَمِنْ دُونِ أَدْنَى شَكٍّ سَنَجِدُ هَذَا الْاِشْتَغَالَ يَحْتَكِمُ إِلَى مُسَاءَلَةِ الْآلِيَّة الْأَصْل الَّتِي تُوجِّه أَحْكَامَنَا " لِسَانِيَّات التَّرَاث "، إِلَى فُرُوعِهَا الْمَنْهَجِيَّة الْمُقْتَرَحَة، وَالَّتِي تُعَدُّ اتِّجَاهًا بِاعْتِبَارِ الْمَوْضُوعِ أَلَا وَهِيَ "الْقِرَاءَة الْقِطَاعِيَّة"¹¹²؛ وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي تُرَكِّزُ عَلَى قِطَاعٍ مَعْيَّنٍ مِنَ التَّرَاثِ اللِّغَوِيِّ، كَأَن يَتَنَاوَلُ الْمُسْتَوَى النُّحَوِيَّ أَوِ الصَّرْفِيَّ أَوِ الدَّلَالِيَّ، بِوَصْفِهَا مُسْتَوِيَّاتِ تَحْلِيلٍ تَشكُّلُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا (نَظَرِيَّة)، مُحَدَّدَة الْمَعَالِمِ تَقُومُ عَلَى مَبَادِيٍّ مَنْهَجِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِهَا.

3- سَمَاتُ الْمُقَارَبَة:

إِنَّ تَنَاوُلَنَا لِهَذِهِ الْمُسْتَوِيَّاتِ مَوْضُوعِ التَّحْلِيلِ وَالْمُقَارَبَةِ، سَتَكُونُ ضَمْنِ قِطَاعٍ عَامٍ مُوَحَّدٍ عَلَى تَسْلُسَلٍ تَرَاتِبِيٍّ، دُونَ إِقْصَاءِ أَيِّ مِنْهَا كَيْ تَتَحَدَّدَ لَنَا الْمَعَالِمُ اللِّسَانِيَّة، لِلنَّظَرِيَّةِ الْخَلِيلِيَّةِ فِي مَظْهَرِهَا الْمَعْرِفِي " اللِّسَانِي " الْمَنْشُود.

وَلَا يَخْفَى عَلَى أَيِّ بَاحِثٍ مُشْتَغَلٍ بِالتَّرَاثِ اللِّغَوِيِّ، لَا سِيَّمَا مَرَاكِلَ التَّفَكُّيرِ اللِّغَوِيِّ الْعِلْمِيِّ فِي بَدَايَةِ نَشَأَتِهِ، أَنَّ الْمُسْتَوَى الْأَهَمَّ الَّذِي أَدَّى إِلَى بَزْوُغِ هَذَا الْمُنْعَطَفِ الْعِلْمِيِّ، فِي مَسَارِ الْحَرَكَةِ الثَّقَافِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ عُمُومًا، هُوَ الْمَكُونُ الصَّوْتِي/ الْإِيْقَاعِي " نَقْصِدُ بِذَلِكَ مُشْكَلَة

¹¹² : اللِّسَانِيَّاتِ فِي الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَعَاوِرَةِ دِرَاسَة تَحْلِيلِيَّة نَقْدِيَّة فِي قِضَايَا التَّلَقِّي وَإِشْكَالَاتِهِ ، ص:153.

اللّحن" حينما اختلت الأوزان بالنّاطقين الأعاجم، وهُم يتلون أشرف كتاب أنزل على الأُمّة العربية، هذا الخلل الفيزيولوجي المركّب، سيتحوّل من ميتافيزيقا وضعيّة إلى كينونة دلالية، ليصبح بعدها هُو المفتاح المعرفيّ الأوّل، الذي عقدَ به الخليل مسيرته اللغوية في تشخيص الصّوت الإنساني، في مُستواه الطّبيعي " حرف العين" من أدخِل الحروف وأعمقها، هكذا صرّحت ذائقة الخليل المخبرية في إعطاء التحاليل الأولى، لعينة هذا الحرف الذي سيصبح عُنواناً، وعتبة نصّية أولى يُبنى عليها كتابٌ لم تعهده العرب، ويعدّ سابقة أولى في عهدها، وهُو بذلك خُطوة أولى لتراكم علميّ صنعه مُستوى مُفرد [المستوى الصّوتي]، لينتج لنا فيما بعد مستوى آخر ألا وهُو "المستوى المُعجميّ"، في هندسة مُتوالية يعقد فيها الخليل أبواباً مُنظمة، يحمل كلّ منها حرفاً مُعيّناً تأتي درجته مُنظمة، على منهج صوتيّ "منهجيّة الأحرف الصوتيّة لأبواب معجم العين"، يتنزّل فيه الكلم العربي الفصيح من منثور ومنظوم، كشاهد أصل له درجة عُليا من الفصاحة، يُستثمر كدليل لاستنباط قاعدة ما، أو مناقشة مسألة من المسائل الّتي وقع فيها الخلاف.

في هذا المُستوى وهُو يخطو في عرض منهجيّ دقيق، سيكون ضمن مسأله الجدلية مفاهيم مُتخصّصة، يتدخّل فيها الخليل ليُبدي ملاحظات ورؤى، قد تكون ذات مساحة قصيرة من الشرح، تتعلّق بمسائل تركيبية عادةً ما يكون الجدل فيها، هُو خرقٌ لمعيارية الكلم العربي، بوصفها استراتيجية يستعينُ بها مستعمل اللّغة، فتراهُ ينصب ما يجبُ رفعه أو يُبدل ما يجبُ إعلاله على سبيل المثال، وفي هذا المقام سترى الخليل مُعلّقاً على مثل هذه المسائل، يمثّل لا شكّ المنهج البصريّ في تعامله مع هذه الطّوائف اللغوية، وإن اقتضى الأمر تعليلاً ومطارحة تستدعي مساحة واسعة، سترى شخص الخليل فيها إمّا ضميراً حاضراً باسمه أو يُروى عنه في أسلوب " وسمعت الخليل يقول، حدّثني الخليل وغيرها..." في أماليه الّتي حواها كتابٌ مُريده المتميّز " سيبويه"، فبدون أدنى شكّ أنّ هذا المستوى هُو المستوى التركيبيّ، متمثلاً في المستوى النّحوي والصّرفيّ، ولا ريب أنّ هذا

المستوى سيقدم لنا دلالة عن النص المُجادل فيه أيا كان جنسه ، هُنا يجوزُ للخليل تركُّ أوامر مدرسته البصرية في بعض الآراء العلميّة في مسائل النحو والصّرف، ليستعين بذائقته العبقرية المتفردة في معالجة النصوص، دلاليا وتخريجها تخريجا عجيبا، يجعل من المستوى اللفظي مستوى مفتوح المعنى، وهي فكرة سنجدها باعتبار ما سيكون من الزمن القادم في مدارس تحليل الخطاب الأوروبية المعاصرة، المُعبر عنها بفكرة (انفتاح المعنى وتعدده/L'ouverture et la multiplicité du sens)، فانفتاح المعنى وتعدديته الدلالية يغدو صنفا من الدلالات التمييزية عند الخليل، بل ورؤية سيميولوجية إن صحّ لنا القول، تتحوّل فيها المفاهيم اللغوية من حقيقة حاضرة، بوصفها المستوى المرسوم من مكونات صوتية، مُنظمة معجميا بطريقة تركيبية مخصّصة، حسب الجذر اللساني الذي ينتمي إليه، إلى حقيقة مُستحدثة عن طريق مسلكٍ عقليّ، يختبر لنا فيها العقل الخليلي ضبط المعايير البرهانية، لهذا الدال الجديد المُدرَك دُوقيا، من خلال نسقٍ منطقيّ وآخر عُرفي.

هذه المتتالية مُتسقة الأنظمة المُتشكلة، من جهازٍ مُتكامل البنى مُركّز الدلالات، تتيح لنا في مقام الاشتغال الذي نحنُ بصدده، إجراء مقاربة مُتفاعلة المُعطيات ، نُمكن فيها آليات لسانيات التراث من مُستندات ومفاهيم إجرائية، لإجل وضع قراءة نتوسم بجديتها في الطّرح والرؤية والمفهوم.

4- المُدونة الهدف ؛ قراءة تقديمية.

أ- (مُعجم العين):

يتأسس اشتغالنا بدرجة كبيرة في هذه المُستويات (الصوتي والمُعجمي خصوصا)، على أهمّ مُدونة معرفية عند الخليل ألا وهو مُعجم "العين"، فلا بدّ لنا من وجهة منهجية أن نقف عند هذا المصدر العلميّ، نتبين منظومته المعرفية بشكل عام، من حيث تأليفه، وموقف العلماء منه، ومنهجية الخليل في وضعه، والأسس الرئيسة التي قام عليها هذا المُعجم.

ولا يخفى على أي باحث مُشتغل في حقل الممارسات اللغوية، أنّ مُعجم العين يُعدّ مادّة عظيمة تدلّ على غزارة علم الخليل، وسعة حفظه ودقّة ابتكاره، ومن وجهة موضوعيّة يجوز لنا القول، بأنّ لمعجم العين أهميّة علميّة كبيرة، حاول فيه مُبدعه أن يؤصّل منها علمياً مُبتكراً، جمع من خلاله بطريقة إحصائية شتات اللّغة، مُستوعبا ألفاظ العربيّة.

هذا الكتاب الذي يُعدّ بحق مدرسة مُتفرّدة، قد شغل عُقول العلماء منذ ظهوره، وتشيّعت الآراء فيه، ما بين مُنكرٍ ومؤيّدٍ في نسبته لصاحبه .

أولاً : عنوان الكتاب وسبب تأليفه.

يُعدّ العنوان في الثقافة العربيّة أحد أهمّ البنيات السيميائية، في أطرها الثقافية بوصفه استراتيجية اختزاليّة، تُحدّد هويّة النصّ ومقصديّته الكليّة، حيث يُعدّ " في نظريات النصّ الحديثة عتبة قرائية، وعنصراً من العناصر المُوازية، التي تُسهم في تلقّي النصوص وفهمها وتأويلها، داخل فعل قرائي شموليّ يفعل العلاقات الكائنة والمُمكنة بينهما، وهوّ عند جيرار جينيت مجموعة منّ العلامات اللسانية، التي يمكن أن تُوضع على رأس النصّ لتحدّده، وتدلّ على محتواه لإغراء الجمهور المقصود بقراءته.¹¹³ كما أنّ المادّة اللغوية التي يتشكّل منها باختلاف رسمها ونحتها ووضعها، " تُكوّن لدى المُتلقي فروضا استكشافية، بناء على ما تُثير لديه من تخمينات وحدوس؛ فكلّ كلمة تخلق فضاءً تصوّرياً وأفقاً للتوقّعات، لا تتحدّد مساحته إلّا بعد النّظر في مُحتويات الكتاب، أو العمل ككلّ".¹¹⁴ ولعلّ مقارنة مادّة العنونة التراثية في مظهرها التشكيليّ، ستُحلينا إلى محمولات من الدّوال المُمكنة، في عوالم المعنى الصّريح

¹¹³ محمد بازي، العنوان في الثقافة العربيّة التشكيل ومسالك التأويل، (ط.1) ، منشورات الاختلاف ، الجزائر،

2012، ص:15.

¹¹⁴ : المرجع نفسه، ص:19.

أو الضمني من جهة ، وبحسب هذا الأخير (الضمني) سيفتح لنا قائمة اختيارات عديدة متباينة داخل نسق شامل، ينتج فيه عقل المتلقي مسالك من التأويل من جهة أخرى.

" العين " هذه العتبة النصية الرئيسية ، ارتضاها الخليل بأن تكون عنوانا لمعجمه لاعتبارات ذاتية، تتصل بالذوق العلمي عنده، ولا يخفى علينا أن الخليل هو أول من وضع معجما للعربية، لم يستطع أحد ممن تقدمه أو ممن عاصره أن يهتدي إلى شيء من ذلك¹¹⁵ وإن اعتبر هذه الأولية في وضع مثل هذا المصنف المعرفي، الذي لم تعهده الثقافة العربية استدعى من الخليل أن يجد له اسما، يحدد هويته ومضونه كي يظل سمة مميزة لهذا الكتاب.

أطلق الخليل اسم " العين " على معجمه لأنه أول باب من أبوابه، وفي هذا الشأن يصرح ابن خلدون قائلاً: " وبدأ من حروف الحلق بالعين لأنه الأقصى منها، فلذلك سمى كتابه بالعين، لأن المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم إلى مثل هذا، وهو تسمية بأول ما يقع فيه من الكلمات والألفاظ"¹¹⁶ ، وابتداء الخليل بالعين جاء وفق اعتبارات ذاتية عنده، حيث رأى أن العين لا تمثل أول الأصوات مخرجا، بل هي عنده أول الأصوات مخرجا، ونساعة وثباتا، والهمزة هي أول الأصوات مخرجا لأنها نبرة في الصدر، تخرج باجتهاد على حد تعبيره في الكتاب، ولم يبدأ بها لأنها حرف مضغوط مهتوت، إذا رُفِعَ عنه انقلب ألفاً أو واواً أو ياءً، ولم يجعل البدء بالألف لأنها ساكنة أبداً، ولا بالهاء لأنها خفائها، فهي كالألف ولكنها أقوى منها في التأليف، لأنها تقبل الحركة ويبدأ بها، ومن أجل ذلك أخرها عن العين لأن العين عنده أنصع الحروف¹¹⁷، وذكر الصاحب بن عباد أن الهمزة والهاء وإن كان لهما

¹¹⁵ : الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق : مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، (ط.1)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003، 8/1.

¹¹⁶ :ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، (ط.1) دار يعرب، سوريا، 2004، ص:472.

¹¹⁷ : العين، 18/1.

تقدّم في المخرج، على أخواتهما من الحروف الحلقية فإنّ الخليل عدل عن الابتداء بهما، لأنّ الهمزة مهتوتة مضغوطة فإذا رفعها عنها لانت، فصارت ياءً أو واواً أو ألفاً، والطريقة تُخالف الصحيح من الأصوات، ثمّ إذا تسلّط عليها من نقل الحركات، والانقلاب والحذف مثل ما يتسلّط على حروف العلة، أو أكثر حتى عدّت من جملتها، والهاء فيها هتة وخفاء، وتبدل من الهمزة وتشركهما.¹¹⁸، ولهذه الأسباب أخر الخليل الهمزة والهاء، وبدأ بالعين لأنّ العين عنده من أنصع الحروف ولأنّ أكثر صوت يدور عليه كلام العرب، قال ابن كيسان: "سمعت من يذكر عن الخليل أنّه قال: لم أبدأ بالهمزة لأنّه يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنّها لا تكون في ابتداء كلمة، ولا في اسمٍ ولا فعلٍ إلا زائدة أو مُبدلة، ولا بالهاء لأنّها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحروف فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف".¹¹⁹، ومما لا شكّ فيه أنّ هدف الخليل بن أحمد الفراهيدي، من وراء هذا التأليف محاولته لاستيعاب جميع ما تكلمت به العرب، وجَمع ألفاظ اللّغة بشتّى ألوانها؛ من الألفاظ الواضحة والغريبة، على نطاق واسع وشامل مُنظّم ودقيق، ارتأى من خلاله استيفاء العربيّة بصنعة مُحكمة، قائمة على الاستقراء الوافي، مخالفاً في ذلك النّصانيف والرّسائل الموجزة، والمُصنّفات المختصرة التي عُنيّت بتناول موضوع من الموضوعات، مُحاولاً في الأخير من خلال تسخيرهِ لعبقريته الحسابية الرياضيّة الفدّة، إقامته وتأصيله لمنهجٍ علميٍّ أثبت بجلاء عبقريةً وذكاءً الشّديدين، فقد وردَ في مقدّمة (العين) ما يلي: "هذا ما ألفه الخليل بن أحمد البصري رحمة الله عليه من حروف؛ ا، ب، ت، ث، مع ما تكلمت به فكان مدار كلام العرب، وألفاظهم، فلا يخرج منها شيءٌ أراد أن تعرف به العرب أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، فلا يشدّ عنه شيء من ذلك".¹²⁰

¹¹⁸ : صاحب بن عبّاد، المحيط في اللغة، تح: محمد آل ياسين، (ط.1) عالم الكتب، القاهرة، 1994، ص: 64.

¹¹⁹ : إبراهيم السامرائي، الإبداع والمحاكاة في كتاب العين، (ط.1)، دار الكرمل، عمان، 2005، ص: 81.

¹²⁰ : العين، 47/1.

ثانيا : الأسس الرئيسة التي قام عليها المُعجم

قام مُعجم العين على أسسٍ رئيسة تمثلت في :

• 1- الترتيبُ الصوتي:

يُقصد به ذلك النظام الذي بدأ به الخليلُ مُعجمه، مُنطلقاً من أساسٍ صوتيٍّ لاعتبارات علمية في نظريته الشخصية وخبرته بالحروف وأحيازها ومدارجها وصفاتها وكان هذا الترتيب كالاتي: (ع. ح. هـ. خ. غ. ق. ك. ج. ش. ض. ص. س. ز. ط. د. ت. ظ. ذ. ث. ر. ل. ن. ف. ب. م. و. ا. ي. ء) وهذا الترتيب المبدوء بصوتِ " العين " إنما كان اختياراً أملتُه ضوابطُ معرفية ذاتية، فقد "دبرَ ونظرَ إلى الحروف كلها وذاقها فوجدَ مخرجَ الكلام كله من الحلق فصيرَ أولَها بالابتداء، أدخلَ حرف منها في الحلق"¹²¹ تبينَ له أنَّ أَدْخَلَ هذه الحروف هو صوتُ العين، فابتدأ به نظامه المعجميَّ وعقدَ به كتابه، وعليه أطلقه عنواناً جامعاً يسمُّه به.

• 2- نظامُ الأبنية:

يُقصد به في عرفِ الخليل ومن سبقه ومن أتى بعده، ما تتألف منه الكلمة من حروف ما هو أصلٌ فيها وما هو زيادة، ورؤية الخليل لهذا النظام أنَّ كلامَ العرب مبنيٌّ على أربعة أصناف: من ثنائيٍّ وثلاثيٍّ ورباعيٍّ وخماسيٍّ، لا يتجاوزُه إلى صنفٍ آخر، وقد اتَّخذَ الخليل هذا النظامَ منهجاً له في رسمِ خُطاطته التي بنى بها مُعجمه لاستقصاء " بنية المُفردة العربية " ، على شكلٍ منهجيٍّ إحصائيٍّ.

• 3- نظامُ التقاليب:

إضافةً إلى النظامين السابقين ، يتمثّل هذا الأخيرُ بُعداً منهجياً أرادَ من خلاله الخليل حصرَ ألفاظ اللغة، بطريقةٍ رياضيةٍ تسمحُ له بعدد الاحتمالات، التي تنتجها أبنية المُفردة الواحدة، والمُراد بالتقليب عنده ؛ تغييرُ رُتبة الحرف في بينة النظام

وتقديمه، وتأخيره واستخراج ما يتفرّع عنه من بناءات جديدة ، كالجذر (فَعَلَ) مثلاً
يُمكن تقلّيبه إلى : فلع، وعفل، علف، لفع، لعف.

ثالثاً : مَوْقفُ العُلَماءِ مِنْ نِسْبَةِ كِتَابِ العَيْنِ .

مِنَ السُّنَنِ الكَوْنِيَّةِ فِي إِبْدَاعِ الْأَشْيَاءِ، تَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ هَذِهِ الْبِدْعِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي لَمْ
يَأْلَفُوهَا، وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهَا أَوْ حَدَّثُوا عَنْهَا، وَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ مُعْجَمُ الْعَيْنِ هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي مَلَأَ
الدُّنْيَا، وَشَغَلَ النَّاسَ وَمَكَّنَ الْعُلَمَاءَ يَطَالَعُونَهُ، وَيَتَدَارَسُونَهُ لِمَدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ، وَبَعْدَهَا بِدَأَ اللُّغَوِيُّونَ
يَقْلَدُونَهُ لَا يَتَمَرَّدُونَ عَلَيْهِ، رَغْمَ الْمَنْهَجِ الَّذِي نَهَجَهُ وَأَخَذَ بِهِ، فَقَدْ شَغَلَ هَذَا الْمُعْجَمُ عُقُولَ
الْعُلَمَاءِ مُنْذُ ظَهُورِهِ، وَقَدْ " اَخْتَلَفَتِ الْأَرْأُ فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافًا وَتَعَدَّدَتِ فِيهِ الْأَقْوَالُ تَعَدُّدًا وَشَكَّكَ
فِيهِ الْمُشَكِّكُونَ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ الْمُتَحَامِلُونَ، وَأُلْفَتِ كُتُبٌ عَدِيدَةٌ فِي نَقْدِهِ وَالِاسْتِدْرَاكِ عَلَيْهِ،
وَكُتِبَ أُخْرَى فِي الرَّدِّ عَلَى تِلْكَ الْكُتُبِ، وَأَصْبَحَ الْكِتَابُ مُشْكَلَةً مِنْ مَشْكَلاتِ الْمُعْجَمِ الْعَرَبِيِّ
شَغَلَ بِأَلْ كَثِيرٍ مِنَ الدَّارِسِينَ " ¹²²، كَمَا تَشِيعَتِ الْأَرْأُ فِيهِ مَا بَيْنَ مُنْكَرٍ وَمُؤْيَدٍ، فِي نِسْبَتِهِ
لصاحبه ومؤلفه، فَمَنْ قَائِلٌ بِأَنَّ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيَّ هُوَ صَاحِبُ الْكِتَابِ، وَقَائِلٌ آخَرُ
يَصْرِّحُ أَنَّ الْخَلِيلَ لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِهَذَا الْمُعْجَمِ، وَرَأْيَانِ يَتَأَرْجِحَانِ وَيَتَذَبَّذَانِ بَيْنَ الرَّأْيِ الْأَوَّلِ
وَالرَّأْيِ الثَّانِي، أَحَدُهُمَا يَقُولُ: إِنَّ الْخَلِيلَ صَاحِبُ الْفِكْرَةِ وَلَيْسَ صَاحِبُ الْكِتَابِ، وَالرَّأْيِ الْآخَرُ
يَقُولُ إِنَّ الْخَلِيلَ بَدَأَ بَكِتَابَةِ شَيْءٍ مِنْهُ، ثُمَّ أَكْمَلَهُ عَنْهُ آخَرُونَ وَعَلَى رَأْسِهِمُ اللَّيْثُ بْنُ الْمُظَفَّرِ.

• أ- الرَّأْيِ الْأَوَّلُ : الْخَلِيلُ لَمْ يُؤَلِّفْ كِتَابَ الْعَيْنِ وَلَا صِلَةَ لَهُ بِهِ:

أَصْحَابُ هَذَا الرَّأْيِ كَمَا حَدَّدَهُمُ الدُّكْتُورُ عَبْدِ الْحَمِيدِ هَنْدَاوِي، فِي مَقَدِّمَةِ تَحْقِيقِهِ لِلْعَيْنِ
هُمُ: "أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي" وَأُسْتَاذُهُ " أَبُو حَاتِمِ السَّجِسْتَانِي"، وَحُجَّتُهُمَا فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ
(العين) لَيْسَ لَهُ إِسْنَادٌ مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ أَيِ لَيْسَ لَدَيْهِ رُؤَاةٌ مَعْرُوفُونَ مِمَّنْ تَنْتَهِي
سِلْسِلَتُهُمْ إِلَى الْخَلِيلِ، وَحُجَّتُهُمُ الثَّانِيَّةُ حَسَبَ رَأْيِهِمْ أَنَّ الْكِتَابَ، لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا لِتَلَامِيذِ الْخَلِيلِ

¹²² : نعيم سليمان البدری، کتابُ العین فی ضوء النقد اللغوي، (ط.1)، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن،
2000، ص: 09.

بعد موته، وأنّ اللّغويين في البصرة التي نشأ فيها الخليل، لم يقتبسوا من كتاب العين في كتبهم¹²³، ويروي لنا الإمام السيوطي عن أبي علي القالي يقول: " وحدثنا إسماعيل بن القاسم البغدادي وهو أبو علي القالي، قال: لما ورد كتاب العين من بلد خراسان في زمن أبي حاتم أنكره أبو حاتم، وأصحابه أشدّ الإنكار ودفعه أبلغ الدّفع¹²⁴، وقد شكك بعض الباحثين فيما رواه أبو علي القالي عن أبي حاتم، من إنكاره لكتاب العين بسبب لبس حصل في فهم النص السابق، ولكنّ تحقيق الدكتور عبد العليّ لمقدّمة استدراك الغلط، أزال هذا اللبس فليس ثمّ ما يدعّو إلى الشكّ، في إنكار أبي حاتم لنسبة الكتاب ودفعه له، وقد حمّله إلى البصرة وراق من خراسان، ولم يره أبو حاتم من قبل ولم يتلقّه رواية عن أستاذه، كما هو شائع في تلك المرحلة¹²⁵، وهذا الرأى الذي ذهب إليه السجستاني وتلميذه أبو علي القالي، لا يكاد يصمد أمام النّقد، لأنّ أبا عليّ القالي الذي يرفض أن يكون هذا الكتاب للخليل بن أحمد، سنجده ينقل موادّ معجميّة في " بارعه "، من العين على أنّها للخليل بن أحمد، ثمّ ينفي عن الخليل أن يكون صاحب هذا الكتاب، فلو نظرنا في ثانيا كتابه البارع، لوجدنا عبارات كثيرة مثل: قال الخليل، وذكر الخليل، وهذا مثال من بارعه الذي ينقل فيه عن الخليل حيث يقول: "وقال الخليل: الهميسع من الرجال القويّ الذي لا يصرع جنبه¹²⁶."

ب- الرأى الثاني: الخليل لم يصنع نصّ كتاب العين ولكنّه صاحب الفكرة في تأليفه:

الآخذون بهذا الرأى يروّون أنّ الخليل صاحب الفكرة، وليس صاحب تنفيذ لهذه الفكرة، وممن أخذ بهذا الرأى نجد الأزهرى صاحب التهذيب، حيث يقول: " اللّيث بن المظفر نحل عن الخليل بن أحمد، تأليف كتاب العين جملةً لينفقه باسمه، ويرغب فيه من حوله، وأثبت

¹²³ : العين، 11/1.

¹²⁴ : المّزهر في علوم اللغة وأنواعها، 1/ 73، 74.

¹²⁵ : كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، ص: 13.

¹²⁶ : أبو عليّ القالي إسماعيل بن القاسم البغدادي، البارغ في اللّغة، تح: هاشم الطّعان، (ط.1)، دار الحضارة العربيّة، بيروت، 1975، ص: 186.

لنا إسحاق بن إبراهيم الحنظليّ الفقيه أنّه قال: " كَانَ اللَّيْثُ بْنُ الْمُظَفَّرِ رَجُلًا صَالِحًا، وَمَاتَ الْخَلِيلُ، وَلَمْ يَفْرَغْ مِنْ كِتَابِ الْعَيْنِ، فَأَحَبَّ اللَّيْثُ أَنْ يُنْفِقَ الْكِتَابَ كُلَّهُ فَسَمَّى لِسَانَهُ الْخَلِيلَ، فَإِذَا رَأَيْتَ فِي الْكِتَابِ (سَأَلْتَ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ) أَوْ (أَخْبَرَنِي الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ) فَإِنَّهُ يَعْنِي الْخَلِيلَ نَفْسَهُ، وَإِذَا قَالَ: (قَالَ الْخَلِيلُ) فَإِنَّهُ يَعْنِي لِسَانَ نَفْسِهِ، قَالَ: وَإِنَّمَا وَقَعَ الْاضْطِرَابُ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِ خَلِيلٍ عَلَى رِوَايَةِ اللَّيْثِ¹²⁷، وَهَذَا صَحِيحٌ عَنْ إِسْحَاقَ وَرَوَاهُ الثَّقَاتُ عَنْهُ.¹²⁸ وَلَقَدْ افْتَرَضَ الْأَزْهَرِيُّ هَذَا الْفَرَضَ، ثُمَّ أَخَذَ يُؤَيِّدُهُ بِمُخْتَلَفِ الْحُجَجِ الَّتِي تُرْضِيهِ، وَالْمَتَأَمَّلُ فِي مُقَدِّمَةِ كِتَابِهِ سَيَجِدُ أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ اسْتِعْرَاضًا لِلْغَوِيَّيْنِ، الَّذِينَ قَسَمَهُمْ إِلَى مَجْمُوعَتَيْنِ، الثَّقَاةَ وَغَيْرِ الثَّقَاةَ، وَقَالَ فِي الْمَجْمُوعَةِ الثَّانِيَةِ إِنَّهُمْ أَخْلَطُوا فِي كُتُبِهِمْ، بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ لَدَرَجَةٍ أَنْ يَصْعَبَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ النَّوعَيْنِ، وَقَدْ عَدَّ الْأَزْهَرِيُّ فِي قَائِمَةِ هَؤُلَاءِ " اللَّيْثُ "، الَّذِي وَصَفَهُ بِأَنَّهُ وَضَعَ كِتَابَ الْعَيْنِ، وَنَسَبَهُ لِلْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ، وَيَذَكِّرُ الْأَزْهَرِيُّ أَنَّ كِتَابَ الْعَيْنِ مِنْ ضَمَنِ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدَهَا، وَلَكِنَّهُ سَيَقْتَبِسُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّحْقِظِ، نَظَرًا لَوْجُودِ بَعْضِ الْأَخْطَاءِ فِيهِ بِسَبَبِ اللَّيْثِ¹²⁹، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ الْأَزْهَرِيَّ قَدْ نَقَلَ عَنْ كِتَابِ الْعَيْنِ تَحْتَ تَعْبِيرِ (قَالَ اللَّيْثُ)، فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَمَا لَوْ كَانَ مُوثِقًا بِهِ، إِلَّا فِي النَّادِرِ الْيَسِيرِ فَإِنَّهُ تَعَرَّضَ لِتَخْطِئَتِهِ، كَمَا خَطَّأَهُ غَيْرُهُ مِمَّنْ وَثَقَهُمْ¹³⁰، فَالْأَزْهَرِيُّ لَمْ يَسْتَطِعْ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنْ كِتَابِ الْعَيْنِ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ تَهْذِيبُ اللَّغَةِ عَنْ كِتَابِ الْعَيْنِ وَيَنْسِبُهُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ.

ج- الرَّأْيُ الثَّالِثُ: الْخَلِيلُ لَمْ يَنْفَرِدْ بِكِتَابَةِ الْعَيْنِ وَلَكِنْ كَانَ لغيره عوناً في ذلك.

انفرد بهذا الرأي أقطاب ثلاثة ألا وهم: الخليفة العباسي الشاعر عبدُ الله بن المُعْتَز، وأبو الطَّيِّبِ اللَّغَوِي صاحب المراتب، وأبو بكر الزَّيْدِي صاحب الطَّبَقَات.

¹²⁷ : تَهْدِيبُ اللَّغَةِ، 28/1، 29.

¹²⁸ : الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، 29/1.

¹²⁹ : الْعَيْنُ، 11/1، 12.

¹³⁰ : الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ، 18/1.

قال ابنُ المُعْتَرِّ: " كَانَ الْخَلِيلُ مُنْقَطِعًا إِلَى اللَّيْثِ فَلَمَّا صَنَّفَ كِتَابَ الْعَيْنِ ،خَصَّهُ بِهِ فَحَظِي عِنْدَهُ جَدًّا، وَوَقَعَ مِنْهُ مَوْقَعًا عَظِيمًا وَوَهَبَ لَهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَقْبَلَ عَلَى حِفْظِهِ وَمُلَاءَمَتِهِ فَحَفِظَ مِنْهُ النِّصْفَ، وَكَانَتْ تَحْتَهُ ابْنَةُ عَمَّةٍ وَاتَّفَقَ أَنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً نَفِيسَةً فَغَارَتْ ابْنَةُ عَمَّةٍ وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا أَغِيظُنَّهُ وَإِنْ غَضِبْتَهُ لِأَفْجَعْتَهُ بِهِ فَأَحْرَقْتَهُ " أَي كِتَابَ الْعَيْنِ " فَلَمَّا عَلِمَ اشْتَدَّ أَسْفُهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ غَيْرُهُ مِنْهُ نَسْخَةً، وَكَانَ الْخَلِيلُ قَدْ مَاتَ فَأَمْلَى النِّصْفَ مِنْ حِفْظِهِ، وَجَمَعَ عُلَمَاءُ عَصْرِهِ وَأَمْرَهُمْ أَنْ يُكْمَلُوهُ عَلَى نَمَطِهِ، وَقَالَ لَهُمْ: مَثَلُوا عَلَيْهِ وَاجْتَهِدُوا فَعَمَلُوا هَذَا التَّصْنِيفَ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ.¹³¹، وَمِمَّا يُلَاحِظُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ الْأُمُورَ الْآتِيَةَ¹³²:

- أ- إِنَّ ابْنَ الْمُعْتَرِّ أَوَّلَ مَنْ نَسَبَ إِلَى اللَّيْثِ إِتِمَامَ الْكِتَابِ.
- ب- مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ أَنْ تَتَوَاطَأَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، عَلَى ذَلِكَ الْعَمَلِ فَيُنَسِبُوا إِلَى الْخَلِيلِ مَا لَمْ يَقُلْهُ.
- ت- إِنَّ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمُعْتَرِّ مِنْ أَخْذِ الْخَلِيلِ الْمَالَ، يُخَالِفُ مَا عُرِفَ عَنِ الْخَلِيلِ مِنْ عَقَّةِ النَّفْسِ، الَّتِي دَعَتْهُ أَنْ يَرْفُضَ عَطَايَا الْآخَرِينَ وَهَبَاتِهِمْ، وَتُسْتَبْعَدُ صِحَّةُ مَا رَوَاهُ ابْنُ الْمُعْتَرِّ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ ضَرَبَ مِنَ الْقِصَصِ أَوْ الْحِكَايَاتِ، الَّتِي اخْتَلَفَتْ وَكَانَ لَهَا بَعْضُ الْأَثَرِ فِي حَمْلِ اللَّغَوِيِّينَ، وَالْإِخْبَارِيِّينَ الطَّعْنَ فِي الْكِتَابِ.

أَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ اللَّغَوِيُّ فَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْخَلِيلَ بَدَأَ كِتَابَ الْعَيْنِ، فِي حَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يُتِمَّهُ، وَقَدْ نَصَّبَ تَلْمِيذَهُ اللَّيْثَ نَفْسَهُ، فِي تَأْدِيَةِ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ فَأَتَمَّ بَقِيَّةَ الْكِتَابِ¹³³، حَيْثُ قَالَ: "وَأَبْدَعَ الْخَلِيلُ بَدَائِعَ لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ تَأْلِيفُهُ كَلَامَ الْعَرَبِ عَلَى الْحُرُوفِ فِي

¹³¹ : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص: 77.

¹³² : كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، ص: 20.

¹³³ : العين، 13/1.

الكتاب المُسمّى بكتاب (العين)، فإنّه هو الذي رتب أبوابه وتوفّي من قبل أن يحشوه¹³⁴، ثمّ يُواصل كلامه بسند آخر قائلاً: " أخبرنا مُحَمَّد بن يحيى قال: سمعتُ أحمد بن يحيى بن ثعلب يقول: إنّما وقع الغلطُ في كتاب العين لأنّ الخليل رسمه ولم يحشه، ولو كان حشاه ما بقي فيه شيء، لأنّ الخليل رجلٌ لم يُر مثله.¹³⁵، أمّا الزبّيدي فيرى أنّ الخليل وضع أصول الكتاب، ثمّ وضع النصّ من بعده، أي أنّه ليس هو الوحيد من ألف الكتاب، ونظّم أبوابه وحشاه وإنّما كانت عمليّة الحشو من عند أقوام آخرين¹³⁶، ويقصد هنا شخص " اللّيث بن المُظفر "، وتبعه في معنى العبارة نفسها النوويّ، في تحرير التنبيه قائلاً: " كتابُ العين المنسوب إلى الخليل، إنّما هو من جمع اللّيث عن الخليل.¹³⁷، هذا فيما يخصّ أصحاب هذا الرّأي، الذين اتّفقوا وأجمعوا على أنّ كتاب العين ليس من عمل الخليل وحده، وقد بقي لنا رأي آخر وأخير يرى فيه أصحابه، أنّ الخليل هو المؤلّف الحقيقي لكتاب العين، والعمل والجهّد فيه كلّهُ يرجعُ إليه، سنعرضُ إجماعهم وهو كالآتي:

د - الرّأي الرّابع: كتابُ العين كلّهُ من عمل الخليل.

أهل هذا الإجماع الذين يروون أنّ كتاب العين، هو جهد خالص تفرّد به الخليل لوحده، هم ابن النّديم صاحب الفهرست، وابنُ دريد صاحب الجهرة، والفقّطي جمال الدين صاحب الإنباه، وابن فارس المشهور بمقاييسه.

يقول ابن النّديم: " قال أبو بكر بن دريد: وقع بالبصرة كتابُ العين سنة ثمان وأربعين ومائتين، قدّم به ورّاق من خراسان كان في ثمانية وأربعين جزءاً، فباعه بخمسين ديناراً، وكنا نسمّعُ هذا الكتاب إنّّه بخراسان، في خزائن الطّاهريّة حتى قدم به هذا الورّاق وقيل إنّ الخليل

¹³⁴ : أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط.1)، المكتبة العصرية، بيروت، 2002، ص:30.

¹³⁵ : مراتب النحويين ، ص:30.

¹³⁶ : ، العين، 13/1.

¹³⁷ : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص:79.

عمل كتاب العين، وحجّ وخلف الكتاب بخراسان فوجّه به إلى العراق من خزائن الطاهريّة، ولم يرو هذا الكتاب عن الخليل أحد، ولا روى في شيء من الأخبار أنه عمل هذا البتة.¹³⁸

أمّا بالنسبة لابن دُرَيْد فنجدُ أنّه قد تأثّر تأثراً واضحاً بالخليل في سائر المواضع، إذا استثنينا بعض جزئياتها ولا سيما أوائلها المُسجّعة وإهدائها، لا تتعدى الموضوعات التي ذكرها الخليل في مقدّمة العين، كالأصوات العربيّة ومخارجها، وأقسامها وائتلافها والتفرقة بين العربيّ والأعجميّ، والأبنية الناشئة عن الأصوات، ومبلغ أصولها في الصّيغ ومعرفة الزوائد في مواقعها¹³⁹، ولعلّ من أعلام التراجم البارزين الذين نادوا بأحقّية كتاب العين للخليل، نجدُ جمال الدّين بن يوسف القفطي إذ يقول في جُمْلته المشهورة: "والذي تحقّق أنّ الخليل صنّفه (كتابُ العين) في اللّغة مشهور"¹⁴⁰، ومن خلال ما سبق في عرضنا وتحليلنا لهذه الآراء حول أحقّية الخليل لمعجم العين، نرى أنّ هذا الصّنيع له، وحجّتنا في هذا أنّ شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي كما أرخت لها كُتب التراجم، كانت شخصية علميّة مشهودا لها بالعبريّة والحداقة، وعلى قول المُستشرق براونلتش: "ليس غريباً أن يُنسب كتاب العين للخليل، بل الغريبُ ألا يكونَ منسوباً إليه".¹⁴¹ وما هو بين أيدينا الآن من مادّة علميّة في معجم العين، إنّما تدلّ بشكل منطقيّ وبصدق على عبقرية صاحبها، وما أبدعه وأجاده من نظام ومنهج يبحث ويستقصي الكلمة العربيّة، برؤية علميّة متفرّدة من نوعها أُجيز لها ولمجهوداتها، أن تتّصف بمصطلح "المدرسة" مع ما تحمله هذه اللفظة من حمولة معرفيّة وعلميّة.

-ج- (الكتابُ لسيبويه):

¹³⁸ : الفهرست، ص:48.

¹³⁹ : ابنُ دُرَيْد أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تح: رمزي مُنير بعلبكي، (ط.1)، دار العلم للملايين، 1987، ص:21.

¹⁴⁰ : إنباه الرواة على أنباء النحاة، 381/1.

¹⁴¹ : إبراهيم محمد نجا، المعاجم اللغوية، (ط.1)، مطبعة السعادة، مصر، 1970، ص:29.

ليس غريباً أن يستقيم لسانُ العرب في لُغَتِهِمْ، ولكن أن تُوضَعَ أُسُسُ النَّحْوِ بِجُهِدِ الأَعْجَمِيِّ، فتلك هي الغرابة وَوَجْهُ المِفَارِقَةِ، فلم يكن يخطر ببال أحدٍ أن رجلاً فارسياً سيؤسّس النّحو العربيّ، ويضع علمه وقواعده الّتي صارَ بها ما يُعرف بعلم النّحو الآن، فمن هُوَ يا تُرى هذا الفارسيّ صانعُ المِفَارِقَةِ ؟

هذا الرّجل صانع المِفَارِقَةِ هُوَ: عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث بن كعب بن عمرو، بن عُلّة بن جلد بن أدَد ، ويُكنّى أبا بَشر¹⁴²، وهُوَ أعلمُ النَّاسِ بالنّحو بعد الخليل، وألّف كتابه الذي سمّاه النَّاسُ بقرآن النّحو، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل¹⁴³ يُقالُ إنّه نجمٌ من أصحاب الخليل أربعة هُم: النَّضْر بن شَمِيل ، وعليّ بن نصر الجَهْضَميّ ، ومؤرّج السدوسي ، فكانَ سيبويه أبرعهم في النّحو ، وغلب على النَّضْر اللّغة وعلى مؤرّج الشعر واللّغة ، وعلى عليّ بن نصر الحديث¹⁴⁴. وكانَ سيبويه لا يبرُحُ يرتادُ كبارَ الشّيوخ والأئمّة يستكمل علمه مِنْهم ، ولعلَّ مِنْ أَلَمَع شيوخه : حمّاد بن سلمة بن دينار البصري ، أوّل رجل صنع الهمة في سيبويه، مُريده المتميّز في علم الحديث، والقصة يرويها لنا يوسف الققطي قائلاً : قال ابن هشام: إن سيبويه جاء إلى حماد بن سلمة لكتابة الحديث، فاستملى منه قوله صلى الله عليه و سلّم : "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء"، فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء فصاح به حماد: لحت يا سيبويه إنما هذا استثناء، فقال سيبويه: لا جرم؛ لأُطلبنَ علماً لا تلحنني فيه أبداً، فطلب النّحو ولم يزل يلازم الخليل¹⁴⁵، ومن شيوخه أيضاً نجد :الأخفش الأكبر ،إسحاق الحضرمي ،عيسى بن عمر النّقفى،يونس بن حبيب الضبّي،الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وغيرهم، وأمّا تلاميذ سيبويه فلا يكادُ يعرف منهم التاريخ إلا ثلاثة وهُم : أبو الحسن الأخفش ، قُطرب ، والنّاشي ، أمّا عن

142 : أخبار النحويين البصريين، ص:37.

143 : مراتب النحويين ، ص: 65.

144 : الكتاب، 11/1

145 : إنباه الرواة على أنباه النحاة، 2 / 350.

وفاته فقيل إنه مات بشيراز مسقط رأسه سنة 180هـ¹⁴⁶، ويُعدّ الكتاب لسيبويه من أهمّ المصادر العلميّة التي لعبت دوراً مهمّاً، وشكّلت مُنعطفاً فكرياً في الحياة الثقافيّة المعرفيّة -اللّغويّة خصوصاً- في تاريخ الأمّة العربيّة، وقد وُصف في زمانه بقرآن النّحو، نظراً للمكانة العلميّة التي اختصّها ونالها آنذاك، ونرى كثيرين من النّحاة وغيرهم ينوّهون به تنويهاً عظيماً، من ذلك العبارة الشهيرة للمازني تلميذ الأَخفش حيث يقول: "من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النّحو بعد كتاب سيبويه فليستح"¹⁴⁷، ومن ذلك أيضاً قول المُحدّثين في شأن هذا الكتاب، ما جاء على لسان الدكتور أحمد البدوي قائلاً إنّ كتاب سيبويه: "سجّل لقواعد النّحو، وقف العلماء عندها ولم يزيّدوا عليها، وكلّ ما جاء بعده جعل الكتاب أساساً دراسته"¹⁴⁸، وهذه المُدوّنَةُ العلميّة تُمثّل نظاماً مفاهيميّاً بُني على منهجٍ خاص (منهج عقلاني)، مُوزّعة على مُستويات تركيبية، عُولجت فيها البنية اللّغويّة (الكلم وأجزأؤه في المنظومة اللّغويّة) عبر إجراءات وظيفيّة، مُمثّلة في أبواب علميّة حاول فيها مؤلفها (سيبويه) أن يرصد الظّاهرة اللّسانية، ويحلّلها ويُفسّرها وفق رؤية ومنهج خاص (وفق مقولات المنحى البصريّ عموماً)، ومساحة الخليل المعرفيّة وحضوره العلميّ واضح جليّ، فلا يخفى على أيّ باحث أنّ هذا الكتاب الفريد لمُريده الأوّل وطالبه الأئمعيّ سيبويه¹⁴⁹، ما هو إلّا أُمالي الخليل التي كان يُملّيها عليه في مجالس مُتفرّقة، وشخصُ الخليل مُصرّح به قولاً في عبارة سيبويه مثل: قال الخليل، ذكر الخليل... إلخ، أو ضمناً مثل صيغة: "قال بعضهم".

أمّا عن منهجه التّصنيفيّ، فلم يذكر سيبويه طريقته في ترتيب المادّة النّحويّة لكنّنا نلاحظ أنّه يقسّم الكتاب كلّهُ إلى أبواب، ويعني بالباب المسألة، فيذكر كل الموضوعات

¹⁴⁶ : الكتاب 1/ 8، 15.

عبد الرّاجحي، دروس في كتب النّحو، (ط.1)، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر، بيروت، 1975، ص: 12. ¹⁴⁷

¹⁴⁸ : أحمد البدوي، سيبويه حياته وكتابه، (ط.1) مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1960، ص: 38، 39.

¹⁴⁹ : كان لسيبويه منزلة خاصّة عند شيخه الخليل، حتّى ذُكر أنّ الخليل كان يختصّ سيبويه بعبارة يقولها له دون غيره قائلاً: "مرحباً بزائر لا يُملّ"، أنظر الكتاب لسيبويه، ص: 09/01.

تحت عنوان : "هذا باب كذا"، فبيدأ بالحديث عن علم ما الكلم من العربية ، ثم عن باب المسند والمسند إليه، ثم عن باب الفاعل وما يتعلق به، والفعل والمفعول وغيرها من الأبواب النحوية الكثيرة التي ذكرها، وبينَ هذه الأبواب "ترابط قويّ يشدّ بينها منهج واضح مُنظّم لا يمكن معه تقديم باب على باب آخر، أو وضع موضوع في مكان غيره".¹⁵⁰ ومن ناحية تقييميّة لهذا المُصنّف، فسيظهر " أنّ الكتاب أفضل ما أُلّف في النّحو من الناحية التعليميّة؛ لأنّه يندرج في دراسته أساليب الكلام، وبناء الأبواب في اتجاه تركيبّي، يكشف عن العلاقات بين أنواع الكلم في إسناد الفعل، وإسناد الاسم، والإسناد الذي يعتمد على الأداة، حيث تنضمّ كلّ مجموعة من الأبواب في أسلوب واحد، يُشركها في خصائص واضحة بحيث تجري الأبواب النحوية فيه، على وجه يتعلّق ثانيها بسبب من أولها، فيكونُ الأول تمهيدا يتّضح به الآخر، إضافة إلى أنّ هذه الأبواب التي تتوالى في أنواع الأساليب المُتتالية، تتناول أنواع الكلم الوظيفية منها والتحليلية".¹⁵¹

د- (أعمال الخليل المنسوبة إليه):

1-د: المنظومة النحوية المنسوبة للخليل :

هذه المنظومة النّحوية تُعدّ من جملة ما ضاعَ من كُتب الخليل، وقد اعتمدناها مصدرا للدراسة لما تحمله من دلائل قويّة، في نسبتها لمؤلّفها الحقيقيّ الأوّل (الخليل بين أحمد الفراهيدي)، اعتمادا على دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور أحمد عفيفي، ومن أبرز أدلّته التي أوردها في إثبات هذه المنظومة للخليل، إشارة خلف الأحمر إلى الخليل بن أحمد، في حديثه عن حروف العطف قائلاً : وحروف النّسق خمسة وتُسمى حروف العطف وقد ذكرها الخليل

¹⁵⁰ عبد الرحمن بودرع، محمد الحافظ الروسي، مركزية سيبويه في الثقافة العربية، (ط.1)، مطبعة الهداية، المغرب،

2017، ص:87.

¹⁵¹ : مركزية سيبويه في الثقافة العربية ، ص:87.

بن أحمد في قصيدته في النحو، وهي قوله :¹⁵²

وأنسق وقل بالواو قولك كله ***** وبلا وثم وأو فليست تعقب

والفاء ناسقة كذلك عندنا ***** وسبيلها رجب المذاهب مشعب.

ومن الأدلة التي يوردها الأستاذ الدكتور أحمد عفيفي، إثباتاً لصحة نسبة هذه القصيدة إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، ما قاله صاحب كتاب إتحاف الأعيان، من أن للخليل عدة أشعار منها البيتان، والثلاثة ومنها أكثر من ذلك ، ويذكر على لسان الخليل أبياتا من قصيدته النحوية ¹⁵³:

النحو بحر ليس يدرك قعره ***** وعز السبيل عيونه لا تنضب

فاستغن أنت ببعضه عن بعضه *** وصن الذي غلّمت لا يتشعب.

أما عن منهج الخليل في منظومته، فقد ذكر المحقق الدكتور فخر الدين قباوة ¹⁵⁴، أنها جاءت بعيدة عن المسائل الخلافية، التي كانت مثار حوارٍ وجدل كبير بين النحويين، وقد اهتم الخليل فيها بالقاعدة النحوية والتمثيل لها، ولم يهتم الجزئيات النحوية، بل انصب اهتمامه على ذكر القاعدة العامة دون ذكر تفصيلاتها، بأسلوب سهل ميسر بعيدا عن الغموض والتعقيد.

2-د: كتاب الجمل في النحو:

يذهب مُحقق الكتاب الدكتور فخر الدين قباوة، أن حياة هذا الكتاب يشوبها الغموض والإهمال، وأول ما يُصادفك في هذا الكتاب هو ذلك الاختلاف الذي وقع في اسمه وعنوانه الذي عُرف به، حيث وقع تضارب في المصادر التي أرخت له، فتنوّعت تسميتها له فتجد

: المرجع نفسه، ص: 88.152

: نفسه، ص: 88¹⁵³

: مركزية سيبويه في الثقافة العربية ، ص: 88.154

من يُسمّيه بالجُمْل ، وجُمْل الإعراب، ووجوه النّصب، والمُحَلّى، وجُملة آلات الإعراب، وغيرها من الأسامي التي أُطلقت على هذا الكتاب ولكلّ روايته في ذلك، أمّا موقف المتقدّمين من نسبته فيورد لنا الدكتور فخر الدّين قباوة أقدم رواية دُوّنت تمثّل خبراً يُزعزع الثّقّة في أحقيّة الخليل فيه، وهي رواية ابن مسعر المُفضّل بن محمّد المعريّ، في ترجمته لأبي بكر بن شُقَيْرٍ، قال إنّ له كِتَاباً لّقبه بالجُمْل، ورُبّما نُسبَ هذا الكتابُ إلى الخليل، وممّن ذهب هذا المذهب في نسبة الكتاب لابن شُقَيْرٍ، حسب المحقّق أعلام أمثال صلاح الدّين الصفديّ صاحب الوافي بالوفيات، وياقوت الحموي صاحب مُعجم الأدباء، والسيوطيّ، ثمّ يحدث توهمٌ عند آخرين، في نسبته إلى الخليل بن الغازي القزويني وهذا على مذهب العامليّ محمّد بن الحسن، وما وقف عليه المحقّق في أحقيّتها للخليل، عثوره على نسخ تدلّ على ذلك أوّلها نسخة آيا صوفيا باسطنبول- تركيا، تحت رقم: 4456، والتي تحمل عنوان : كتاب الجمل في النحو، تصنيفُ الإمام الحبر العالم الفاضل، الخليل بن أحمد رحمه الله، ونسخة في مكتبة بشير آغا باسطنبول- تركيا، تحت رقم 89/2، وأخرى في مكتبة قولة في دار الكتب المصريّة ، تحت رقم: 6587¹⁵⁵، حيث رأى في هذه النّسخ توافقاً، ممّا جعله يقف شخصياً في نسبتها للخليل من منظور علميّ، عبر عملية تحقيق أُجريت لهذه النّسخ، ونذهب معه هذا المذهب في جعل هذا الكتاب مدونة للدراسة، لما تحمله من مصطلحات لها رابط معرفي بالمنهج البصري، نعني بذلك جملة من المصطلحات والمفاهيم التي اختصّ بها الخليل.

155 :الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب الجمل، تح: فخر الدين قباوة، (ط.1)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص: 32، 14.

أولاً: المستوى الصوتي

مدخل

لقد أدّت العناية بالنص القرآني وذلك بتصحيح النطق بحروفه، وضبط وتحسين قراءته وتلاوته تلاوة صحيحة، إلى نشأة علم جديد رُحّب به ضمن العلوم العربيّة، الموجودة آنذاك ألا وهو "علم الأصوات"، حيثُ نشأ نشأةً أصيلةً منذ أن اهتمّ العرب بالقرآن الكريم، فقد اعتنى علماء التجويد مثلاً بالآداء القرآنيّ؛ وذلك بمُحاولة حفاظهم على النطق السليم، بعدما انتشرت العُجمة على الألسنة، بسبب اختلاط العرب بغيرهم من أبناء الأمم الأخرى.

عمد أهل الفن في الأداء والضبط في ذلك، إلى رصد كل خلل صوتي كما حدثتنا كُتب التراث في هذا الشأن، مثل حادثة مولى الزّياّد حينما قال: "اهدؤا لنا همارَ وحشٍ، يعني حمارَ وحشٍ، فاستعرب الزّياّد هذه اللّكنة فردّ عليه: ويلك ! فقال ذلك المولى : اهدؤا لنا إيراً يعني (عيراً)، فقال زياد: الأوّل خير.¹⁵⁶، فمثل هذه الحادثة تؤكد لنا هذا الوعي العلمي الذي جعل الطّبقة المختصّة، تتصدّى لمثل هذه الظواهر التي وقع فيها الخلل في الكلام، وتقشّى على ألسنة العوام، وهو ما أدّى بهم إلى محاولة حفاظهم على النطق السليم، وذلك بدراستهم لمخارج الحروف، ووصف صفاتها وصفا دقيقا وإعطائها شرحا عميقا ، وتبيان علاقتها بما يُجاورها، مُعتمدين في ذلك وسائل ليست كالوسائل التي يعتمدها علم الأصوات الحديث، كعلم الأصوات النطقي والفيزيائي، بل اعتمدوا على وسائل مخبريّة طبيعيّة تتمثل في التأمّل والملاحظة الذاتيّة، وهو ما يدلّ على ذوقهم المرهف وحسّهم العلمي الرّفيع، وهذا الاهتمام في مثل هذا المجال المعرفي المتخصّص (علم الأصوات)، ليُدلّ بصدق على سبق علمي، والشّهادات التي تدلّ على أنّ دراسات العرب الصّوتية، تتّسم بالأصالة وفضل السّبق، ما أباح به غير واحدٍ من العلماء المُنصفين، والباحثين المُدقّقين الأجانب نجد " جورج مونين "الذي اعترف بجودة الدّرس الصّوتيّ عند العرب فقال: " منذ القرن الثامن ميلادي كان علماء اللّغة، في البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيّاً، وسواء أوجدوا تلقائياً علماً للأصوات جديراً بأن يذكرنا، على حده ولكن لا بد لنا بادئ ذي بدء أن نعرّف بوجود هذا العلم، في الأصوات وإنه علم فذ مُمتاز.¹⁵⁷، إضافةً إلى شهادة العالم اللّساني فيرث في مقولته: " إنّ علم الأصوات قد شبّ في خدمة لغتين مُقدّستين هما السنسكريتيّة والعربيّة.¹⁵⁸، وإنّ تأمّل علماء العربيّة لأصوات اللّغة، ومحاولة دراستها دراسةً علميّة قائمة على قوّة الملاحظة، والاستقراء والاستنتاج، لا يستطيع أيّ دارسٍ وباحثٍ متخصّص في

¹⁵⁶ : الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، (ط.7)، مكتبة خانجي، مصر، 1998، 161/1.

¹⁵⁷ : جورج مونين، تاريخ علم اللّغة، تر: بدر الدين القاسم، (د.ط.)، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، 1972، ص: 131.

¹⁵⁸ : أحمد مختار عمر، البحث اللّغوي عند العرب، (ط.6)، عالم الكتب، مصر، 1988، ص: 101.

الصّوتيات أن ينفى، ويتجاهل مثل هذه الإرهاصات العلميّة الأصيلة، ولعلّ الجدير بالذّكر أنّ علماء العربيّة، لم يُعالجوا الأصوات وحدها مُفردة، وإنّما أخذت اتّجاهات مُتعدّدة، حيث كانت أبحاثها مُندمجة في علوم العربيّة الأخرى، لذا توزّعت مُصطلحاتُ هذا العِلْم في كُتبِ البلاغة، والقراءات القرآنية والتجويد، ومن أهمّ المَوارِد التي استفاد منها علْم الأصوات في هذه الحُزمة العُلوميّة، نجدُ على سبيل المثال صفوة من أهل اللّغة من أصحابِ المعاجم الذين درسوا الأصوات العربيّة، وحدّدوا مخرجها كمدخل لدراسة بنية الكلمة، وكان من أبرز هؤلاء الذين منحوا لهذه الدّراسة وقتهم وجهدهم، ليُدوّنوها في دراساتهم خدمة للأجيال التي ستكون خير خلفٍ لخير سلفٍ، الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب مُعجَم "العَيْن" هذا الكتابُ الذي أقامه العالم الجليل، في ساحة الخلود العلميّ أثرا، وأرسله مع الأيّام وأزمنة التاريخ ذِكْرا وادّخره للعربيّة كنْزا، حيث ضبطَ أصوله بسلامة تحليل، وصِدق ووُعي نظَرٍ وصحّة حُكم وليس للغويّ قديم أو حديث، أن يُجاري هذا الكتاب أو يُدانيه، وقال في حقّه مُصطفى السّقا: "ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف للجهاز الصوتيّ، وهو الحلق والفم إلى الشّفتين وتقسيمه إيّاه إلى مناطق ومدارج يختصّ كلّ منها بحرف أو مجموعة حروف، وما أشار إليه من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج، فقد هدي بذكائه المُتفوّق بذلك إلى مقاييس صحيحة أقرّ كثيرا منها علماء الأصوات المُحدثون".¹⁵⁹، وبناء الخليل لمؤلّفه العلميّ النّفيس (مُعجم العَيْن)، جاء وفق أساس معرفيّ صُدّر بمقدّمة علميّة تُعدّ أوّل دراسة صوتيّة، وصلت إلينا في تاريخ الفكر اللّغوي عند العرب، ولهذا كان للخليل فضلُ السّبق في تأسيس الدّرس الصّوتي، ورسم حدوده وأسسهِ وركائزهِ، وبناء منهجه ووضع منظومته المُصطلحيّة والمفهوميّة.

1- قضايا الصّوت اللّغوي في النموذج الخليلي .

¹⁵⁹ : ابن جني أبو الفتح عُثمان، سر صناعة الاعراب، تح:مصطفى السقا، (ط.1)، دار إحياء التراث القديم، القاهرة،

أشرنا سابقاً إلى أنّ مفهوم المستوى في هذه الدراسة، ذات المنحى اللساني يأخذ طابعاً علمياً، وهذا التحديد المنهجي هو خطوة معرفية، لتشريح البنية اللغوية عموماً يمكن لنا مقارنة مكوّناتها، انطلاقاً من المعطيات " اللغوية -الصوتية- الخليلية تحديداً " ومقاربتها مع المفاهيم اللسانية الحديثة " علم الأصوات العام - Phonetics " لأجل إنتاج أطروحة لسانية في المجال الفونتيكي أساساً، تتماشى والمنهج الذي نحن بصدد الاشتغال عليه، (لسانيات التراث - القراءة القطاعية خصوصاً).

أ- مفهوم الصوت اللغوي:

أ-1: عند القدماء:

أ-1-أ: ابن سينا:

تطرق أهل اللغة قديماً إلى تعريف الصوت وسبب حدوثه وكيفية ذلك، ولعل أهم مصدر علمي يمتاز بدقّة التوصيف، لهذا الأمر ما نجده عند ابن سينا (ت:427هـ) من خلال كتابيه أولهما كتابه القانون في الطب، وثانيهما رسالته المشهورة "أسباب حدوث الحروف"، والتي يقول فيها: "أظنّ الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة، بسرعة وبقوة من أي سبب كان، والذي يشترط فيه من أمر القرع، عساه ألا يكون سبباً كلياً للصوت بل كأنه سبب أكثر، ثم إن كان سبباً كلياً فهو سبب بعيد، ليس السبب الملاصق لوجود الصوت"¹⁶⁰ ونجد تفصيلاً له بتمعن علمي حول حدوث الصوت، في كتابه القانون في الطب قائلاً: "الصوت فاعله العضل الذي عند الحنجرة بتقدير الفتح، وبدفع الهواء المخرج وقرعه، وآلته الحنجرة، والجيم الشبيه بلسان المزمار، وهي الآلة الأولى الحقيقية، وسائر الآلات بواعث ومعينات، وباعث مادته الحجاب وعضل الصدر، ومؤدّي مادته الرئة، ومادته الهواء الذي يموّج عند

¹⁶⁰ : ابن سينا الحسين بن عبد الله، رسالة أسباب حدوث الحروف، تح: محمد حسان الطيّان، ويحي مير علم، مرا: شاكر عبد الفتاح، وأحمد راتب النفاخ، (ط. 1) ، دار الفكر، دمشق، 1983، ص:56.

الحنجرة.¹⁶¹، وعليه يُمكننا وصف رؤية ابن سينا بأنّها رؤية تشريحية لمُنطلق الصّوت وكيفيّة حدوثه، ولعلّ المُصطلحات العلميّة الواردة في تعريفه خير دليل، مثل: (العضل- الحنجرة- لسان المزمار)، وهذا مؤشر يدلّ على أصالة العرب، في هذا العلم القائم بذاته.

أ-1-ب: الرّاغب الأصفهاني:

من أهمّ التعريفات الّتي وقفنا عليها ما حدّثنا به الرّاغب الأصفهاني (ت: 365هـ) في كتابه "مفردات غريب القرآن"، مُعرّفا الصّوت قائلاً: "هُوَ الهَوَاءُ الْمُنْضَغُطُ عَنْ قَرَعِ جَسْمَيْنِ وَذَلِكَ ضَرْبَانِ: أَحَدُهُمَا صَوْتٌ مُجَرَّدٌ، عَنْ تَنْفَسٍ بِشَيْءٍ كَالصَّوْتِ الْمُمْتَدِّ، وَالْآخَرُ تَنْفَسٌ بِصَوْتٍ مَا وَهُوَ ضَرْبَانٍ أَيْضًا: أَحَدُهُمَا غَيْرُ اخْتِيَارِيٍّ، كَمَا يَكُونُ مِنَ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانِ وَالْآخَرُ اخْتِيَارِيٍّ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ ضَرْبَانٍ أَيْضًا ضَرْبٌ بِالْيَدِ كَصَوْتِ الْعُودِ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُ، وَضَرْبٌ بِالْفَمِ ضَرْبَانِ: نَطَقٌ وَغَيْرُ نَطَقٍ، وَغَيْرُ النَّطَقِ كَصَوْتِ النَّايِ".¹⁶²

في هذا التعريف نسنّج أنّ الصّوت عبارة عن أثر سمعيّ، يحدث عند اهتزاز جسم ما بمؤثر آخر يُحدث هذا الصّوت، وعادة ما يكون غير اختياريّ، على عبارة الرّاغب الأصفهاني، أمّا الاختياريّ على حدّ تعبيره، فضرب منه يتسبب لفيزياء الطبيعة وعناصرها ، وضرب آخر يحدث نتيجة حركات تتخذها أعضاء النّطق، وهو ذلك " الَّذِي يَنْشَأُ مِنْ ذَبْذَبَاتٍ مَصْدَرُهَا الْحُنْجَرَةُ فِي الْغَالِبِ، فَعِنْدَ انْدِفَاعِ النَّفْسِ مِنَ الرَّئِيتَيْنِ يَمُرُّ بِالْحُنْجَرَةِ، فَيَحْدُثُ تِلْكَ الْاهْتِزَازَاتِ وَيَحْدُثُ سَمَاعُنَا لِلصَّوْتِ، إِذَا اهْتَزَّتْ طَبْلَةُ الْأُذُنِ اسْتِجَابَةً لَاهْتِزَازِ جُزْئِيَّاتِ الْهَوَاءِ، الْمَلَامَسَةِ لَهَا، وَهَذِهِ الْجُزْئِيَّاتُ تَهْتَرُّ بِتَأْثِيرِ الْجِسْمِ الْأَصْلِيِّ الْمُتَذَبْذَبِ".¹⁶³

أ-1-ج: أبو الفتح عثمان بن جني:

¹⁶¹ : ابن سينا، القانون في الطب، وضع حواشيه: محمد أمين الضّناوي، (ط. 1) دار الكتب العلمية، بيروت ، 1999، 225/2.

¹⁶² : الرّاغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تح: محمد سيد كيلاني، (د.ط)، دار المعرفة، بيروت، 1961، ص: 425، 426.

¹⁶³ : مسعود بودوخة، محاضرات في الصّوتيات، (ط. 1)، بيت الحكمة ، الجزائر، 2013، ص: 27، 28.

يمكننا القول إنّ أبا الفتح انفردَ بجهد استثنائيّ في وضع جهاز علميّ، لما أصبح يُطلق عليه فيما بعد بِـ " علم الأصوات"، وتشهد له الدّراسات والبحوث بذلك، فقارئ " سرّ صناعة الإعراب " سيكتشف أصالة المادّة العلميّة فيه " الصّوتيّة"، وعمق مصطلحاتها وتخرجاتها، وهُو يعدّ من أوائل العلماء الذين جعلوا الأصوات علما قائما بذاته، وهو إذ يعرف الصّوت فيقول: " اعلم أن الصوت عَرَضٌ يخرج مع النفس مستطيلا متّصلا، حتى يعرض له في الحلق والغم والشّفتين، مقاطع تتنّيه عن امتداده واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا، وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها، وإذا تقطّنت لذلك وجدته على ما ذكرته لك، ألا ترى أنك تبتدئ الصوت من أقصى حلقك، ثم تبلغ به أيّ المقاطع شئت، فتجد له جرسا ما، فإن انتقلت عنه راجعا منه، أو متجاوزا له، ثم قطعت، أحسست عند ذلك صدى غير الصدى الأوّل، وذلك نحو الكاف، فإنك إذا قطعت بها سمعت هنا صدى ما، فإن رجعت إلى القاف سمعت غيره، وإن جزت إلى الجيم، سمعت غير ذينك الأولين¹⁶⁴"، فنظرة ابن جنّي إلى الصّوت هنا، يمكن وصفها بالنّظرة الأكوستيكيّة؛ الّتي تركّز على الموجات والذبذبات الصّوتيّة، وما ينشأ عنها أثناء اندفاع الهواء واهتزاز الأوتار الصّوتيّة.

أ-2: عند المُحدثين:

أ-2-أ: إبراهيم أنيس :

يُعدّ إبراهيم أنيس من الباحثين العرب الأوائل، الذين اهتمّوا بالدّراسة الصّوتيّة من خلال كتابه العلميّ المشهور، في أوساط الباحثين (الأصوات اللّغويّة)¹⁶⁵، حيث يرى أنّ الصّوت ظاهرة طبيعيّة، ندرك أثرها دون أن ندرك كنهها، ومصدره الحُنجرة، فعند اندفاع النّفس من الرّئتين، يمرّ بالحُنجرة فيحدث تلك الاهتزازات، الّتي بعد صدورها من الأنف أو الفم، لتنتقل عبر الهواء الخارجي، على شكل موجات حتّى تصل إلى الأذن.

¹⁶⁴ : سرّ صناعة الإعراب، 06/1.

¹⁶⁵ : إبراهيم أنيس، الأصوات اللّغوية، (ط 5)، مكتبة الأنجلو مصريّة، 1975، ص: 06-08.

أ-2-ب: كمال بشر:

يقول كمال بشر مُعرِّفاً الصَّوت اللُّغوي بأنَّه: "أثرٌ سمعيٌّ يصدرُ طواعيةً واختياراً، عن تلك الأعضاء المُسمَّاة تجاوزاً أعضاء النُّطق، والمُلاحظ أنَّ هذا الأثر يظهرُ في صورة ذبذبات معدَّلة، وموائمة لما يُصاحبها من حركات الفم، بأعضائه المختلفة ويتطلَّب الصَّوت اللُّغوي وضع أعضاء النُّطق، في أوضاع معيَّنة مُحدَّدة، أو تحريك هذه الأعضاء بطرق معيَّنة مُحدَّدة أيضاً، ومعنى ذلك أنَّ المتكلِّم لا بُدَّ أن يبذل مجهوداً ما، كي يحصل على الأصوات اللُّغوية.¹⁶⁶

نستنتجُ من هذا القول أنَّ الصَّوت اللُّغوي، تُساهم في إنتاجه عوامل عديدة ينشأ وفقاً على شكل ذبذبات مصدرها الحنجرة ، فتمرَّ عبر الوترين الصَّوتين مُحدثة في ذلك أثراً، يتشكَّل عبر موجاتٍ بدرجات صوتية مُتباينة، تصلُ إلى العالم الخارجي (أذن السَّامع).

أ-2-ج: أحمد مختار عُمر:

يرى أحمد مختار عُمر أنَّ الصَّوت يحدث نتيجة حركة، أو ذبذبة vibration لمصدر الصَّوت، وهذه الحركة قد تكونُ بطيئةً أو تكون سريعة، حسب درجة وسعة الذبذبة amplitude التي تتشكَّل في الأخير، على شكل موجات صوتية sond wave.¹⁶⁷، ولعلَّ الميزة والسَّمة التي يتَّصف بها الصَّوت اللُّغوي، كونه يتشكَّل من حزمة ذات وحدات صوتية صغيرة هي ميزة (التقطيع المُزدوج)¹⁶⁸، وذلك لإثبات ميزة منطقيَّة الصَّوت الإنساني.

¹⁶⁶ : كمال بشر، علم الأصوات، (د.ط) دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 2000، ص:119.

¹⁶⁷ : أحمد مختار عمر ، دراسة الصَّوت اللُّغوي، (د.ط) عالم الكتب، القاهرة، 1997، ص:22-27.

¹⁶⁸ : (la double articulation / التقطيع المُزدوج) : فكرة التقطيع المُزدوج أتى بها أندري مارتيني في نظريته الوظيفية الصَّوتية يقومُ على تقطيعين أساسيين؛ تقطيعٌ أولي الذي يؤوِّل إلى الكلمات الدَّالة ذات المعنى المُعجمي (أي؛ المُونيمات)، وتقطيعٌ ثانوي ينطلقُ من المُستوى الإفرادي حيث يقومُ بتجزئِء الكلمات إلى وحدات صغرى غير دالة (أي؛ المُونيمات)،، شفيقة علوي، دروس في المدارس اللسانية الحديثة التنظير المنهج والإجراء، (ط.1) مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2013، ص:25.

ب- الصّوت اللّغوي؛ عناصر إنتاجه وكيفية حدوثه:

يرى حُسام البهنساوي أنّ حدوث الصّوت، يتمّ وفق هذه العناصر الفاعلة، والخطوات الآتية¹⁶⁹:

1- مصدر الصّوت: يتمثل في الجهاز النطقي، حيث ينطلق الهواء عبر الأوتار الصوتية، سواء أحدث اهتزازا لها أم لم يحدث، ومع النقاء أعضاء النطق، هذه العملية العضوية التي تحدث اضطراباً للهواء الخارج من الفم، أو الأنف من شأنها إحداث الأصوات الإنسانية.

2- انتقال الصّوت : يحدث اضطراب الهواء الخارج من الفم، أو الأنف ذبذبات مختلفة ومتنوعة، تنتقل هذه الذبذبات الهوائية إلى أذن السامع، ولا شك أنّ ثمة وقتاً يستغرقه الصّوت من مصدره إلى مستقبله، وهي أذن السامع.

3- استقبال الصّوت: تنتقل الذبذبات الصوتية إلى أذن السامع ، حيث تحدث هذه الذبذبات تأثيرات مختلفة لأعضاء الأذن، تلك التأثيرات من شأنها أن تصل إلى مخ الإنسان، حيث تتم ترجمة تلك الذبذبات إلى لغة إنسانية مفهومة؛ وهذا ما أشرنا إليه قبل قليل بمنطقية الصّوت الإنساني.

ج- موقف الخليل من مفهوم الصّوت اللغوي:

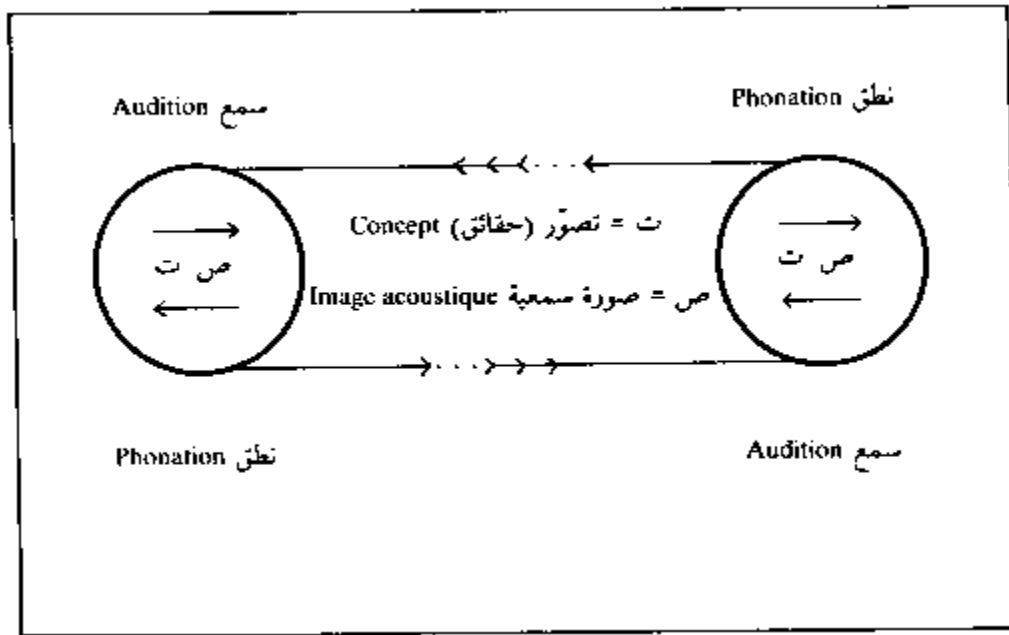
ج-1: ثنائية الصّوت والحرف (مرحلة الاستقراء الأولى):

إنّ المتأمل في نصوص العين للخليل، سيلاحظ أنّ مفهوم الصّوت لم يكن مستقراً عنده بهذا المصطلح، بل عبّر عنه بمصطلح آخر ألا وهو " الحرف " ، ونصوص كثيرة تدلّ على هذا المعنى مثل قوله : "... فنزلت إلى الحيز الثاني، ومنه العين والحاء، فوجدت

¹⁶⁹ : حسام البهنساوي، علم الأصوات، (ط.1)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ، 2004، ص:09.

العَيْنَ أَنْصَعَ الحرفين، فابتدأتُ به ليكون أحسن في التأليف.¹⁷⁰ ووردَ في معجمه " العين " مقولة تدل على ما ذهبنا إليه، حينما سأل أصحابه قائلاً: " كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لَك، والكاف التي في مالِك، والباء التي في ضرب؟ فقيل له نقول بَاء كَافٍ فقال إنّما جئتم بالاسم ولم تلفظوا الحرف."¹⁷¹

وهذا التساؤل الذي طرحه الخليل يمكن مقاربته في هذه الخُطاطة اللسانية الآتية¹⁷²:



حيث يُشير تساؤل الخليل إلى صورة صوتية، ترتبطُ بها في الآن نفسه ظاهرة نفسية - Psychique، وتتبعها عملية فيزيولوجية - Physiologique، تتمثل في إرسال الدماغ إشارة مناسبة للصورة إلى أعضاء النطق، تُنقل فيها الموجات الصوتية من فم المتحدث إلى أذن السامع، وتُعدّ هذه الأخيرة عملية فيزيائية محضة Physique¹⁷³، فدلالة الصورة الذهنية التي ارتسمت في عقل السامعين (كاف التي في لَك...)، لم تتوافق في بداية الأمر

¹⁷⁰ : المُرْهَر في علوم اللّغة وأنواعها، 90/1.

¹⁷¹ : العين، 48/1.

¹⁷² : عصام نور الدّين، علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا، (ط. 1)، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1992، ص: 20.

¹⁷³ : علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا، ص: 19.

مع ما قاله الخليل، إلا بعدَ تصحيحها لهم ومُشاركته المقصود منها، عبر رابط نفسي مُتّبعاً خطَّ السّير نفسه، الَّذي سار فيه الفعل الأوّل (فعل التساؤل)، والمقصودُ بالحرف في عُرف الخليل إنّما هو الصّوت، فغلبَ على الخليل استعمال مُصطلح " الحرف "، دلالة على الصّوت بكل ما يحمله من معنى، إلا أنّه أثناء تحليلنا لنصوص الخليل، وجدنا موضعاً واحداً يُشير فيه الخليل إلى مصطلح " صوت "، حينما كان يبرّر اختياره في صوتِ العين قائلاً: "... ولا بالهاءِ لأنّها مهموسة خفيّة لا صوتَ لها"¹⁷⁴، ولعلّ المقصود من دلالة الصّوت هنا؛ هو ذلك الأثر السّمعي الداخلي الَّذي يتمّ حدوثه، ولم يكن يقصد به دلالة الصّوت بوصفه حدّاً تركيبياً، تُساهم في إنتاجه وحدوثه عناصر معيّنة، كما هو شائع في الدراسة الفونيتيكيّة، وإنّما المقصود به مخرج الصّوت، والمنحى نفسه تركّز في المدونة العلميّة عند مُريده الأوّل سيبويه، حيث تابع استعمال شيخه لمصطلح " الحرف " بمعنى الصّوت.

ورواية أخرى يرويها عنه تلميذه اللّيث بن المُظفر، تؤكد ما نذهبُ إليه في استعمال مصطلح الحرف للدلالة على الصّوت، يقول فيها: " وإنّما كان ذواقه إياها، أنّه كان يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف، نحو: أب، أت، أح، أع، أغ، فوجدَ العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أوّل الكتاب "¹⁷⁵.

إنّ نظرة الخليل على لسان مُريده النّجيب اللّيث بن المُظفر، تدلّنا على أنّها كانت تتحوّ منحى العلميّة في مثل هذه الرّؤية الصوتيّة، في اصطلاحه تحديداً، ومثل هذه الرّؤية العلميّة، سنجدُ لها توافقاً في بعض الأنظار اللّسانية مثل رؤية (رُوبن Roben)، حينما تطرّق إلى مفهوم الصّوت، بأنّه اضطراب ماديّ في الهواء يتمثل في قوّة أو ضعف، ثمّ في

¹⁷⁴ : العين، 47/1.

¹⁷⁵ : العين، 25/1.

ضعف تدريجيّ ينتهي إلى نُقطة الزوال النَّهائي¹⁷⁶، وصفة الضَّعف في توصيف (رُوبن Roben) ، يُقابله مصطلح " الهَثْ " عند الخليل، وهو درجة من درجات الضَّعف الصَّوتي.

ج-2: ثنائية الصَّوت والحرف (مرحلة انفتاح الدَّلالة العلميّة)

ج-2-أ : عند القُدّامي:

هذه الثَّنائية المُصطلحية (حرف/ صوت) ، ستأخذ أبعادا معرفيّة أخرى بعد القرن الثالث الهجري، تستوقفُ أهل الاختصاص في تشريح بنيتها المفهوميّة، يمكن لنا التَّاريخ لبداياتها الأولى، بمُحاولات ابن جنّي حيث نجده يستعملهما بالمفهوم نفسه، سيراً على خطّ من سبقوه في حالات قليلة، وفي مواطن أخرى يُجري التفرّيق بينهما، ونصوصه في "سره" تُعربُ لنا عن هذا الأمر، فقد ورد في كتابه " سرّ صناعة الإعراب " ، حديثه عن الصَّوت قائلاً: "اعلم أنّ الصَّوت عرض يخرجُ مع النَّفس مُستطيلاً مُتصلاً، حتى يعرض له في الحلق والغم، والشَّفتين مقاطع تننيه عن امتداده واستطالته."¹⁷⁷، ونصّ آخر يتجلّى فيه حديثه عن الحرف، حيث يقول: "ولأجل ما ذكرنا من اختلاف الأجراس، في حروف المُعجم باختلاف مقاطعها، الّتي هي أسباب تباين أصدائها، ما شبّه بعضهم الحلق والغم بالنَّاي، فإنّ الصَّوت يخرجُ فيه مُستطيلاً أُمس ساذجاً...ألخ"¹⁷⁸، إلى أن يقول مُبيّناً هذا الحدّ بينهما في عبارته التصريحيّة: " فقد ثبّت بما قدّمناه معرفة الصَّوت من الحرف، وكشفنا عنهما بما هو متجاوز للإقناع في بابهما، ووضّحت حقيقتهما لمتأملهما."¹⁷⁹ وعبارته الأخيرة خير دليل على وجود الفرق بين المُصطلحين، ويسترسل بنا زمن المعرفة قليلاً ليقف بنا في محطة علميّة أخرى، في القرن الخامس الهجري تحديداً، مع فيلسوف الإسلام وعالمها الشَّهير، ابن سينا في رسالته العلميّة الّتي أبدعَ فيها " أسباب حدوث الحروف"، والّتي يميّز فيها صاحبها بين

¹⁷⁶ : خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، (د.ط) منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1983، ص: 06.

¹⁷⁷ : سر صناعة الإعراب، 6/2.

¹⁷⁸ : المصدر نفسه، 9/2.

¹⁷⁹ : نفسه، 9/2.

الحرف والصّوت، إذ يقول: "والحرفُ هيئةٌ للصّوت عارضةٌ له، يتميّز بها عن صوت آخر مثله في الحدة، والثقل تميّزا في المسموع".¹⁸⁰ وهذا التّفريق يدلّ على القيمة المنهجية والعلمية التي عرفت بها آراء الخليل، وتحليلاته اللّغوية.

ج-2-ب : عند المُحدثين:

وقفَ المُحدثون هُم أيضا عند هذه الثنائية، التي عرضنا لها بتحديد الفرق، ومن بين هؤلاء نجد الدّكتور تمام حسان، حيث يرى أنّ الفرق بينهما: " هو فرق ما بين العمل والنّظر أو بين أحد المفردات والقسم الذي يقع فيه؛ فالصّوت عمليّة نطقية تدخل في تجارب الحواس وعلى وجه الخصوص السّمع والبصر، يؤدّيه الجهاز النّطقيّ حركة، وتسمعه الأذن، وتري العين بعض حركات الجهاز النّطقيّ حين أدائه، أمّا الحرف فهو عنوان مجموعة من الأصوات، يجمعها نسب معين، فهو فكرة عقلية لا عمليّة عضلية فقط. وإذا كان الصّوت مما يوجده المتكلّم، فإنّ الحرف مما يوجده الباحث".¹⁸¹، فعلاقة الصّوت بالحرف في نظر تمام حسان هي علاقة جزء بالكلّ، ومعنى هذا أنّ كلّ حرف صوت وليس كلّ صوت يُعدّ حرفاً.

ويقيم الدّكتور رمضان عبد التّوّاب فرقا آخر بينهما قائلا: " فالصّوت هو ذلك الذي نسمعه ونحسّه، أمّا الحرف فهو ذلك الرّمز الكتابيّ، الذي يتخذ وسيلة منظورة، للتّعبير عن صوت معين، أو مجموعة من الأصوات لا يؤدي تبادلها في الكلمة، إلى اختلاف المعنى".¹⁸²، ولعلنا نستنتج من نصّ رمضان عبد التّوّاب، أنّه يُناصر المذاهب الفونتيكية المُعاصرة في تفرقتها بين الفونيم، كمقابل للحرف في المدوّنة اللغوية القديمة ، والآفون في مُقابل الصّوت.

¹⁸⁰ : أسباب حدوث الحروف، ص:60.

¹⁸¹ : تمام حسان، اللغة بين الوصفية والمُعيارية، (ط 1)، المكتبة الأنجلة مصرية، 1958، ص:13.

¹⁸² : رمضان عبد التّوّاب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، (ط 3) مكتبة الخانجي، مصر ، 1997، ص:84.

2- الدراسة الصوتية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي.

سنحاول في هذه الجزئية البحثية عرض المفاهيم المعرفية، المتصلة بهذا السياق العلمي عبر هذه الركائز الثلاثة ألا وهي :

1- جهاز النطق ومكوناته.

2- مخارج الأصوات.

3- صفات الأصوات.

نتبين لكل واحدة منها رؤية الخليل، وتفسيراته العلمية حولها وما أدلى به، من تحليل علمي لأبرز مكوناتها، نصلها في الآن نفسه مع المعطيات الصوتية المعاصرة في ضوء قراءة تفاعلية، من شأنها أن تمدنا بقراءة على نمط مُغاير ، تُحيلنا من جديد إلى إعادة وصف وتشريح المدونة المفاهيمية القديمة (المدونة الخليلية)، وإخراجها من طابعها المحلي الكلاسيكي إلى خطابٍ لساني مُعاصر (عالمي)، نحاول قدر الإمكان استثمار النتائج المتوصل إليها، في ميادين قطاعية على سبيل الإجراء مثلاً.

يُعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي من علماء اللغة الحاذقين، الذين يعود لهم فضل السبق والاهتمام، في مجال الدراسة الصوتية عموماً، ولا سبيل إلى إنكار هذا الفضل والجهد الذي لفت أنظار الباحثين، سواء ممن عاصروه أو جاؤوا بعده، حيث عُدّت الدراسة الصوتية الخليلية، منهلاً صافياً وسبيلاً واضحاً أسهمت في رسم طرق معرفية، ومسالك واضحة المعالم لمعرفة الكثير من الخصائص الصوتية في اللغة العربية، وفي هذا الشأن يقول مهدي المخزومي : " إنّ الخليل أول من التفت إلى صلة الدرس الصوتي، بالدراسات اللغوية الصرفية والنحوية، ولذلك كان للدراسة الصوتية من عنايته نصيب كبير، فقد أعاد النظر في ترتيب الأصوات القديمة، الذي لم يكن مبنيًا على أساس منطقيّ، ولا على أساس لغويّ،

فرتّبها بحسب المخارج في الفم، وكانَ ذلك فتحا جديدا لأنّه كان منطلقا إلى معرفة خصائص الحروف وصفاتها¹⁸³، وهذه تعدّ أوّل خطوة منهجيّة مبنية على أسس معرفيّة، في نظريّة الخليل اللغوية، أدرك فيها الطّبيعة الصوتيّة للحروف، فرتّبها وأقامها على أساس علمي.

وإنّ مقدّمة العين على إيجازها تمثّل أوّل مادّة في علم الأصوات، دلّت على أصالة علم الخليل وأنّه صاحب هذا العلم ورائده الأوّل.¹⁸⁴، وهو ما يدلّ على عبقريّته، بل وفضل الله عليه فالخليل كان عالما زاهدا عُرف بالنّقوى والورع، وما أضافه للأمة العربيّة من إبداعات علميّة منحتة مرتبة وصفة " العبقريّ " .

2-1: جهاز النّطق ومكوّناته:

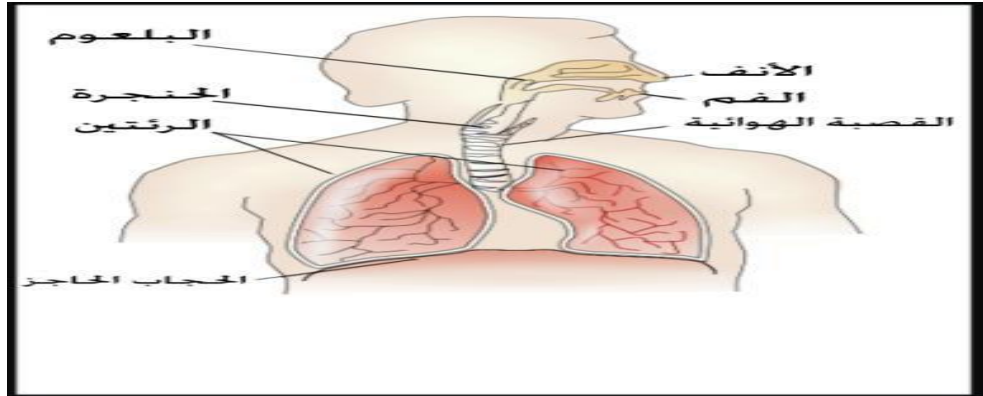
يُعدّ جهاز النّطق الإنسانيّ منظومة متكاملة، تعملُ بدرجة عالية فائقة الدّقة في إنتاج الأصوات اللغويّة، تُسهم فيها بشكل كبير ما يُسمّى بـ(أعضاء النّطق)، بيّد أنّ هذه التسمية شهدت مُناقشة، وخلافا حوّل مفهوميها واصطلاحها العلميّ، فقد اعترض بعض علماء الصّوتيات على هذا الاستعمال الاصطلاحي، بحجّة أنّ لكلّ عضو وظيفته المنوطة به فالشفّتان تحفظان الطّعام من أن يندلق في الفم، ووظيفة الأسنان مثلا هي طحنُ الطّعام وغيرها من الأعضاء الأخرى، وقد أشار (سابير-Sapir) إلى ذلك قائلا: " لقد أُشرتُ إلى أعضاء النّطق، ويبدو للوهلة الأولى أنّ هذا يعني أنّ اللغة ما هي إلّا نشاط غريزيّ عضويّ، على كلّ حال يجبُ ألاّ يخدعنا المُصطلح، فعلى وجه الدّقة لا يُوجد ما يُمكن أن نطلق عليه (أعضاء النّطق)، ثمة أعضاء تفيد في إحداث النّطق...، ولكنّها ليست مُستخدمة في النّطق وحده، حتّى يسوغ أن نطلق عليها: أعضاء النطق."¹⁸⁵

¹⁸³ : مهدي المخزومي، في النحو العربي؛ قواعد وتطبيق، (ط.2)، دار الرائد العربي، بيروت، 1986، ص:40.

¹⁸⁴ : العين، 10/01.

¹⁸⁵ : سمير شريف استيتية، اللّسانيات المجال والوظيفة والمنهج، (ط.1)، علم الكتب الحديث، الأردن ، 2015 ، ص:21.

صورة توضيحية لجهاز النطق الإنساني¹⁸⁶:



ومن ناحية علمية وكتبرير لهذه الرؤية يمكننا القول: إنّ الكلام الإنسانيّ يُسهم في حدوثه أجهزة ثلاثة، من أجهزة الإنسان الجسدية لأجل حدوث ما يُسمّى بـ(الصّوت) ألا وهي¹⁸⁷ :

- **الجهاز الصوتي:** المكوّن من الحنجرة والوترين الصوتيين والمزمار، وتتمثل وظيفته الأساس في القيام بدور صمّام الأمان، لإغلاق الرئتين وحمايتهما ولمنح جهد في إنتاج الصّوت في الأخير.
- **الجهاز التنفسي:** ووظيفته الأساسية هي التنفّس ؛ وذلك بإدخال الهواء إلى الرئتين وتزويد الدّم بالأوكسجين، وطرد ثاني أكسيد الكربون.
- **الجهاز النطقي:** ويصطلح عليه بعض علماء الأصوات بـ(التجاويف فوق المزمارية) ووظيفته كما تقدّم معنا سالفا في التنفّس والشمّ وتناول الطّعام.

فجهاز النطق وفق هذا التقسيم، لا يُمثّل سوى مرحلة أساس من هذه المراحل المهمّة، والتي تمثّل عملية معقدة في إنتاج الصّوت اللّغوي، أمّا التسمية بـ:(بأعضاء النطق) فهي تسمية وظيفية من باب التوسّع .

: أيمن سويد، التّجويد المصوّر، (ط.2)، مكتبة ابن الجزري، سوريا، 2011، ص: 71.186

¹⁸⁷ : علم الأصوات اللغوية، ص: 50، 51.

لقد كَانَ نشاْطُ الأعضاء الظَّاهرة من جهاز النُّطق، موضوعا للمُلاحظة العلميَّة من جانب علماء اللِّغة مُنذ القديم، غيرَ أنَّ التَّقدُّم الَّذي حقَّقه العلم في مجالِ عِلْمِي التَّشريح ووظائف الأعضاء (Anatomy&Physiology) ، مَكَّن العلماء من دراسة عمليَّة النُّطق بصورة كشفت كثيرا ممَّا كَانَ يَبْدُو غامضا، وأعانت على دقَّة الوصف وتكامل التَّصوُّر¹⁸⁸ والسُّؤال الَّذي نطرحه في هذا السِّياق، وَهُوَ الَّذي نبني عليه تحليلنا وتفسيرنا :

ما التَّصوُّر المعرفي الَّذي أَقَامَ عليه الخليل منهجه العلمي في دراسة المادَّة الصوتية ؟

أَوَّلَا : جِهَازُ النُّطق عِنْدَ الخليل

وردَ في مقدِّمة كتاب العين للخليل حديثا عن الأعضاء، الَّتِي تتدخَّل في إحداث الأصوات وهي كالآتي (الجوف - الحلق - اللِّهَاق - الفم - اللِّسان - الحنك الأعلى - اللِّثَّة - الأسنان - الشِّفتان)

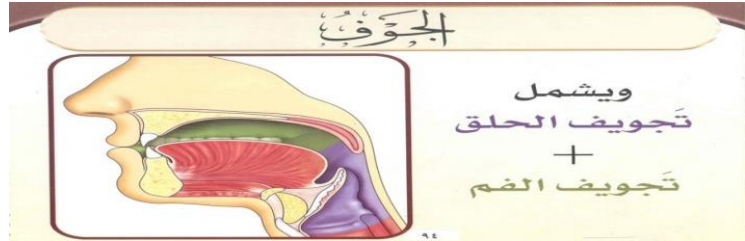
أ- الجَوْفُ :

هُوَ الفراغ الَّذي يمتد من أَقصى الحلق إلى الشِّفتين، وقد نسب الخليل إليه مخرج أربعة أصوات جاءت في رواية اللَّيْث، قائلًا عن شيخه الخليل : " في العربيَّة تسعة وعشرون حرفا، منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياء ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي الواو والياء والألف اللِّينة والهمزة، سمَّيت جوفًا لأنَّها تخرج من الجوف، فلا تقع في مَدْرَجَة من مدارج اللِّسان، ولا من مدارج الحلق ولا من مَدْرَج اللِّهَاق ، إنَّما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيِّز تُنسب إليه إلا الجوف.¹⁸⁹، ويُمثِّل هذا الجزء (أي؛ الجوف) عِنْدَ الخليل،" الجزء الَّذي يقع قبل الحلق ؛ أي الحُنْجَرَة والقصبَة الهوائية، والرَّئِيتين وَهُوَ

188 : محاضرات في الصوتيات، ص:52.

189 : العين، 57/01.

مصدر الصوت.¹⁹⁰، نلاحظ في نص الخليل السابق أنه استعان بمصطلحات واصفة كالمدرج والحيّز وهي تُعبّر عن زاوية منهجية عن رؤيته العلميّة الواعية بالمكوّن الصوتي. وهذه صورة توضيحية عنه¹⁹¹ :



ب- الحلق:

هو التجويف الذي يقع بين الحنجرة وأقصى الفم، وهو يُستغل كفراغ ربّان يضخّم بعض الأصوات، بعد صدورهما من الحنجرة¹⁹²، وقد قسّم الخليل بن أحمد الفراهيدي الحلق إلى ثلاثة أقسام : أقصى الحلق - وسطه - وأدناه، ويقول في هذا الشأن : "خمس حلقية على مدرجة بالصوت، واحدة من أقصى الحلق إلى أدناه وهي: هـ/ع/ح/غ/خ".¹⁹³، ويُتبع بالقول أيضا: "ثم الخاء والغين في حيّز واحد كلّهنّ حلقية".¹⁹⁴ ، إلا أنّ نظرة الصوتيات الحديثة تختلف مع الخليل في عدد المخارج، حيث تضيف مخرجا لصوت آخر هو (أ)، وتختلف معه في مفهوم " الحلق " أيضا، فعند الخليل وبعض علماء اللغة القدامى فإنّ كلمة الحلق، تدلّ عندهم على موضع الوترين الصوتيين من الحنجرة، ولا تقتصر على الفراغ الواقع بين الحنجرة والفم، بل المنطقة المشتملة على أقصى الحنك

¹⁹⁰ : عبد الله بوخلخال، التحليل الصوتي للتغيرات الصرفية عند النحاة العرب، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه، كليّة الآداب، جامعة القاهرة-مصر، سنة: 1988، ص: 14.

¹⁹¹ : التجويد المصوّر، ص: 72.

¹⁹² : علم الأصوات اللغوية، ص: 65.

¹⁹³ : أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تذكر النحاة، تح: غيف عبد الرحمن، (ط. 1) مؤسسة الرسالة، بيروت ،

1986، ص: 25.

¹⁹⁴ : الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، 58/1.

والحنجرة فقط، في حين أنّ الفراغ الذي بين أقصى الحنك، والحنجرة هو الذي اصطلح على تسميته وحده عند المُحدثين بالحلُق¹⁹⁵

ت- اللّهاء:

اللّهاء هي قطعة متحرّكة تتدّلى إلى الأسفل، من طرف أقصى الحنك، وتعمل صماماً للهواء الخارج من الحُنجرة¹⁹⁶، وهي: "لحمةٌ مشرفة على الحلُق"¹⁹⁷ والوظيفة الصّوتية لهذا العضو في رأي الخليل، أنّه خرج لصوتين هما القاف والكاف، حيث يقول: "القاف والكاف لهويتان لأنّ مبدأها من اللّهاء."¹⁹⁸، نرى الخليل هنا أنه نسب صوت القاف والكاف إلى منطقة اللّهاء، وهو ما يتعارض مع بعض الدّراسات الصّوتية الحديثة، التي ترى أنّ صوت القاف والكاف هما صوتيان طبّقيان، أي؛ من موضع الطّبّق، وجّه هؤلاء في هذا الاعتراض العلمي، أنّ اللّغويين القدامى حصلَ لهم شيء من التوهّم في منطقة اللّهاء، في اصطلاحهم حيث تشملُ عندهم "كلّا من اللّهاء والطّبّق، وخاصةً أنّ هؤلاء اللّغويين لم يستعملوا المصطلح المقابل للطّبّق وهو الحنك اللّين"¹⁹⁹، ودراسات مُعاصرة أخرى تنحو منحى الخليل، في مخرج القاف فقط لا الكاف، بوصف هذا المخرج الأخير يصدر من أقصى الحنك²⁰⁰، ولعلّ الرّأي الرّاجح في هذا هو أنّ اللّهاء في نظر الخليل، تُمثّل حيّزاً متقرّعا من مخرج الحلُق العام وصوتُ القاف والكاف، ينضمّان تحت هذا الحيّز²⁰¹، والاختلاف الحاصل في صوت الكاف سيتبيّن لنا أثناء الحديث، عن مخرج هذا الصوت في

¹⁹⁵ : علم الأصوات اللغوية، ص: 65.

¹⁹⁶ : في البحث الصّوتيّ عند العرب، ص: 18.

¹⁹⁷ : محمود السعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي، (ط. 2)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص: 139.

¹⁹⁸ : العين، 58/1.

¹⁹⁹ : محمد جواد النوري، دراسات صوتية وصوتية صرفية في اللّغة العربية، (ط. 1)، دار الكتب العلمية، 2018، ص: 106.

²⁰⁰ : زين كامل الخويسكي، الأصوات اللغوية، (د. ط)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2008، ص: 157.

²⁰¹ : قاسم البريسيم، علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، (ط. 1)، دار الكنوز الأدبية، 2005، ص: 118.

الجزئية المخصصة لذلك، حيث سنرى التسرع الذي وقعت فيه بعض الآراء، وسوء فهمها وتناسيها لقول الخليل في صفة " الأزفع " التي أسندها لمخرج صوت الكاف.

ث - الفم:

قال الخليل: " وأربعة عشر حرفاً مخرجها من الفم مَدرجها، على ظهر اللسان من أصله إلى طرفه.²⁰² نلاحظ الخليل هنا أنه نسب إلى الفم أربعة عشر مخرجاً كلّها من الفم، وبين لنا أن موضع النطق الأصلي، بها تكون على ظهر اللسان وهذا ما سنتبينه في حديثنا الموالى عن اللسان.

ج - اللسان:

قسّمه الخليل إلى أربعة أقسام: (طرفه - وسطه - أقصاه - حافته)

ج-1- طرفه: وقد سمّاه الخليل بالأسلة ، قائلا: " ص،س،ز، أسلية لأنّ مبدأها من أسلة اللسان، وهي مُستدقّ طرف اللسان.²⁰³، وأحيانا يطلق عليه مُصطلح الذلق، حيث يقول: " الرأء واللام والنون ذلقية لأنّ مبدأها من ذلق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان.²⁰⁴

ج-2- وسطه: وهذا القسم يشارك في إخراج هذه الأصوات (ش/ج/ي) ، يقول في شأنها الخليل: " مجراها على وسط اللسان.²⁰⁵

ج-3- أقصاه: وهو ما اصطلح عليه بالعكد ، حيث يقول: " وأما مخرج الجيم والقاف والكاف فمن بين عكدة اللسان وبين اللّهاء في أقصى الفم.²⁰⁶

202 : تذكره النحاة،ص:25.

203 : العين،58/1.

204 :المصدر نفسه،58/1.

205 : تذكره النحاة،ص:27.

206 : العين،56/1.

ج-4- حافته: يقول الخليل: "مجرى اللّام من حافات اللّسان."²⁰⁷، أي أنّ الهواء يتّخذ طريقه مع اللّام من جانبي اللّسان.

ح- الحنك الأعلى:

المقصود بالحنك هو ذلك الجزء المُقابل للّسان، والذي يتّصل به في أوضاع محدّدة لإصدار أصوات معيّنة، وقد قسّم الخليل هذا الجزء إلى قسمين رئيسيين: (أقصاه/ وسطه):

ح-1- أقصاه: والمقصود بها عند الخليل هي (اللّهاة)، وقد سبقت الإشارة في عرضها سابقاً.

ح-2- وسطه: وقد وُظّف للدلالة عليه مُصطلح (الشّجر)، يقول الخليل في هذا الشّأن: "والجيمُ والشّين والضّاد شجريّة لأنّ مبدأها من شجر الفم."²⁰⁸

خ- اللّثة:

وهي الجزء الذي يقع خلف الأسنان مباشرة، ونسب الخليل إليها مخرج ثلاثة أصوات حيث يقول: "والظّاء والذّال والثّاء لثوية، لأنّ مبدأها من اللّثة."²⁰⁹

د- الأسنان:

تنبّه الخليل إلى دور الأسنان في إنتاج بعض الأصوات، وذلك حينما راح يُفرّق فيها بين التّنايا والرّباعيات، إضافة إلى الأضراس وهي لا تستعمل في النّطق وحدها، بل إنّها لا تحدث أصواتاً، إلّا بمساعدة الأعضاء الأخرى المتحرّكة كاللّسان والشّفة السّفلى.²¹⁰

ذ- الشّفتين:

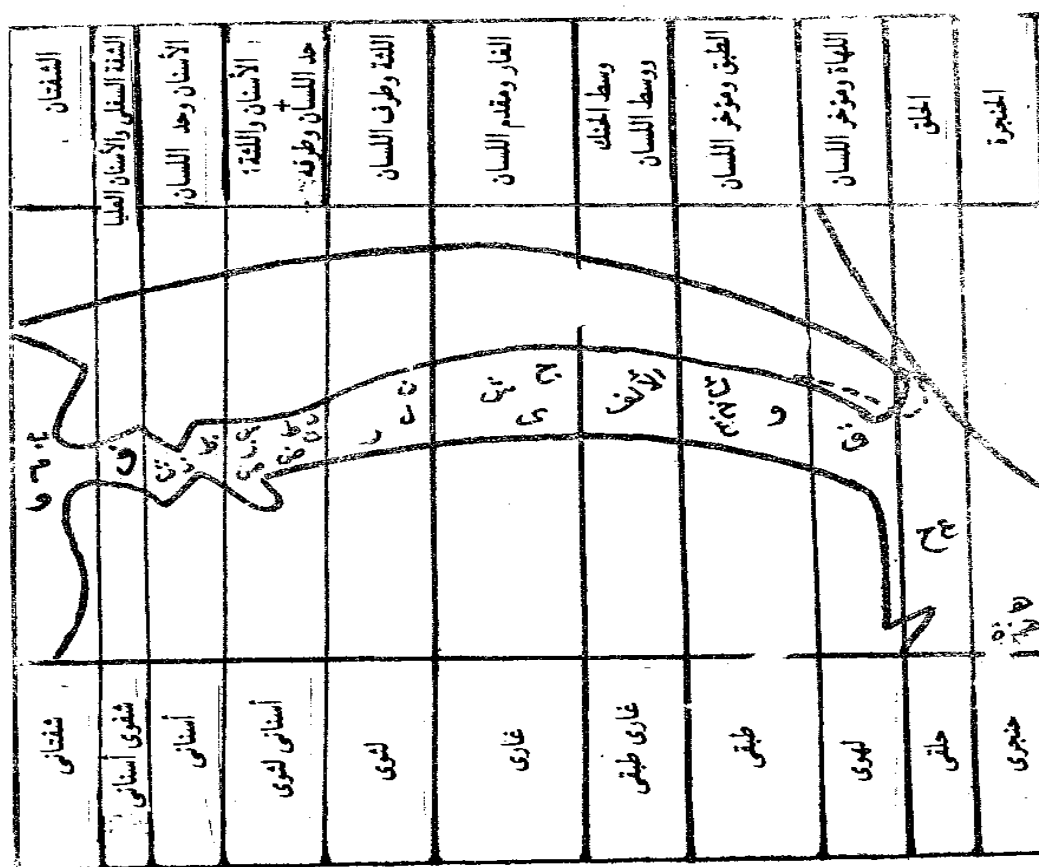
²⁰⁷ المصدر نفسه، 56/1.

²⁰⁸ العين، 58/1.

²⁰⁹ المصدر نفسه، 58/1.

²¹⁰ : علم الأصوات، ص: 32.

وهي تُسهم في نطق ثلاثة أصوات ، قال الخليل : " وثلاثة شفوية ؛ ف-ب-م مخرجها من بين الشفتين خاصة، لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصّاح، إلّا في هذه الأحرف الثلاثة فقط.²¹¹، ونتبيّن ما تقدّم من المعارف الفونيتيكيّة من خلال هذا الجدول الذي يُبيّن أشهر الأصوات المُستخدمة ويحدّد مخرجها وفق دراسة مخبريّة²¹²:



213 (الشكل)

ثانيا: مخارج الأصوات .

211 : العين، 57/01.

²¹² : دراسة الصوت اللغوي ، ص:321.

²¹³ : دراسة الصوت اللغوي ، ص:321.

منهجياً تستدعي منا عملية الانتقال المعرفي، من مستوى إلى آخر في النظام الفونيتيكي، مراعاة الترتيب العلمي لأجزاء هذا الجهاز الطبيعي الكلي، وكان لزاماً علينا في هذه الخطوة أن نطرق بالدرس والتحليل، في ضوء المقاربة التي نشتغل عليها، مستوى آخر يأتي في الدرجة الثانية، بعد عرض جهاز النطق الإنساني ألا وهو (مخارج الأصوات)؛ لأن حدوث الصوت يتطلب في مرحلة تالية معرفته ومنطقة حدوثه (أي؛ مخرجه) والمعرفة بهذا الأمر تعدّ شرطاً ضرورياً، بل ومطلباً منهجياً علمياً مهماً لتحديد، وتصنيف الأصوات نطقاً ومخرجاً، وذلك استقراءً في المنظومة الخليلية وما يوازيها من مدونات علمية واصفة لهذه المعرفة المتخصصة، حاولت هي الأخرى أن تقدم تفسيراً لهذا المظهر الإنساني، وكيفية معالجته، وفق تأملات علمية سنعمل على توضيحها في هذا المطلب.

جعل الخليل بن أحمد الفراهيدي المخارج الصوتية ثمانية مخارج، وهذا يخالف ما أقرّه الدرس الصوتي الحديث، ولكنه ليس بالاختلاف الذي يُقدح في صنيعه وتقسيمه، على الرغم من الفرق الهائل في وسائله، وأدوات البحث عن تلك الوسائل، والمعامل والمختبرات العلمية الحديثة، ولعلّ أبرز مظاهر الخلاف عنده هي أنه لم ينسب (الواو، والياء، والهمزة) إلى مخرج صوتي معيّن²¹⁴، ولا بأس قبل تحديد هذه المخارج أن نبيّن مقصود بعض المصطلحات والمفاهيم، التي تنطوي تحت هذا العنوان الرئيس استقراءً في منظومة الخليل اللسانية.

1- مفاهيم أولية:

1-أ- مصطلح المخرج:

²¹⁴ : كمال بشر، علم الأصوات، ص: 31.

جاء في لسان العرب لابن منظور الإفريقي أَنَّ المخرجَ هُوَ: " اسم مكان من الفعل خَرَجَ، يَخْرُجُ بمعنى؛ برَزَ مِنْ مَقَرِّهِ وانفصل، فيكون المخرج موضع الخروج.²¹⁵، أَمَّا مِنَ النَّاحِيَةِ الاصطلاحية فهو الموضع الَّذي ينشأ منه الحرف²¹⁶ ، أو المقطع الَّذي ينتهي الصَّوت عنده²¹⁷ ويُشير هذا المصطلح عند علماء الأصوات المُحدثين إلى مكان النَّطق، أو هُوَ النَّقْطَةُ الدَّقِيقَةُ الَّتِي يصدر منها أو عندها الصَّوت²¹⁸ ، ويُعدّ الخليل بن أحمد الفراهيدي أوَّل من استعملَ هذا المُصطلح أي المخرج ، وذلك أثناء حديثه عن بيان مخارج الحروف ونسبتها إلى مواضعها، فقد ورد على لسانه مصطلح مخرج مثل نصه القائل فيه : "وثلاثة شفوية: ف، ب، م، مخرجها مِنْ بين الشَّفتينِ خاصَّة"²¹⁹. ونصّه الأخير هذا يبيِّن لنا ما ذهبنا إليه في دلالة هذا المُصطلح، ونُشير هنا إلى أَنَّ مصطلح (المخرج) عند الخليل، يُطابق ما ذهب إليه المُحدثون من خلال تحديد مفهومه العلمي؛ بأنّه الموضع الَّذي يخرجُ منه الحرف مثل ما ذهبَ إلى ذلك براجستراسر²²⁰ وماريوباي²²¹، وذهبت بعض الترجمات والدراسات الصوتية الحديثة إلى تسميته بـ: (موضع النُّطق)، كما ذهب إلى ذلك الدُّكتور محمود السَّعران²²².

²¹⁵ : ابن منظور أبو الفضل جمال الدِّين محمَّد بن مكرم، لسان العرب، تح: عبد الله عليّ الكبير، ومحمَّد أحمد حسب الله وهاشم محمَّد الشاذليّ، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت)، مادة: (خرج).

²¹⁶ : السيوطي عبد الرَّحمن جلال الدين ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تص: السيّد محمَّد بدر الدِّين النُّعساني، (ط.1)، مكتبة الخانجي، مصر، 1998، 228/02.

²¹⁷ :ابن يعيش مُؤفِّق الدِّين أبو البقاء ، شرحُ المُفَصَّل، تح: إميل بديع يعقوب، (ط.1) دار الكُتب العلميّة، بيروت، 2014، 10/ 123.

²¹⁸ : علم الأصوات، 108.

²¹⁹ : العين، 57/1.

²²⁰ : براجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، (د.ط)، مكتبة الخانجي، مصر، 1994، ص: 11.

²²¹ : ماريوباي، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عُمر، (ط.8)عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص: 78.

²²² : علم اللغة مقدِّمة للقارئ العربي، ص: 181.

1-ب- الحيز:

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: " في العربيّة تسعة وعشرون حرفاً، منها خمسة وعشرون حرفاً صحاحاً لها أحياز ومدارج، وأربعة أحرف جوف وهي؛ الواو والياء والألف اللينة والهمزة وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق، ولا من مدرج اللهاة إنّما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تُنسب إليه إلا الجوف.²²³، وأحيانا أخرى نجده يستعمل مصطلح (حيز) للدلالة على المساحة التي يشغلها عدد من الحروف، وهذه الرؤية تماثل ما ذهب إليه المُحدثون في تعبيرهم للحيز لموضع النطق point of articulation ، بوصفه يحتوي على أكثر من صوت²²⁴، إذ نجده يقول: " ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد، ثم الصاد والسين والزاي في حيز واحد، ثم الراء واللام والنون في حيز واحد، والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تُنسب إليه.²²⁵ وما نستنبطه من كلام الخليل حول دلالة الحيز، أنّه أخصّ من المخرج حيث إنّ المخرج يشمل أحياز عدّة.

1-ج- المدرج:

ونجده أيضاً يستعمل مُصطلحاً آخر ألا وهو مصطلح (مدرج الحرف)، ويقصد به الموضع الذي ينشأ منه الحرف، ولذلك قال أثناء حديثه عن الحروف الهوائية: " وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع تقع في مدرجة من مدارج اللسان، ولا من مدارج الحلق ولا من مدرج اللهاة، إنّما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تُنسب إليه إلا الجوف.²²⁶

1-د- المبدأ:

²²³ : العين، 57/1.

²²⁴ : حلمي خليل، التفكير الصوتي عند الخليل، (ط.1) دار المعرفة الجامعة، مصر، 1988، ص:23.

²²⁵ : العين، 57/01.

²²⁶ : المصدر نفسه، 58/1.

ونجده أيضا يستعمل في السياق نفسه مُصطلح (مبدأ)، للدلالة نفسها التي تُوحى بالموضع الذي ينشأ منه الحرف أيضاً، مثل حديثه عن الحروف الحلقية إذ يقول: "فالعين والحاء والحاء حلقية، لأنَّ مبدأها من الحلق".²²⁷، وتجدرُ بنا الإشارة في هذا المقام إلى ذكر طريقة مُبسّطة، وضعها الخليل لمعرفة مخرج الصّوت، حيث كان يفتحُ فاه بالالف ثم يُظهر الحرف نحو: اب، ات، اخ، اغ، فوجدَ العين أدخل الحروف في الحلق²²⁸، وسار على هذه الطريقة الاختبارية علماء اللغة، ممّن أتوا بعده أمثال ابن جنّي في سرّ صناعته حيث قال: "وسبيلك إذا أردت اعتبارَ صدى الحرف، أن تأتي به ساكناً لا متحرّكاً، لأنَّ الحركة تُقلق الحرف عن موضعه ومستقرّه، وتجذبّه إلى جهة الحرف، الذي هي بعضه، ثم تُدخلُ عليه همزة الوصل مكسورة من قبله، لأنَّ الساكن لا يُمكن الابتداء به، فنقول: اك، اق، اج، وكذلك سائر الحروف..."²²⁹، والطريقة نفسها نحى بها أهل الفن المتخصص في الصّوت (علماء التجويد) منظومة في بيت شعريّ حيث قال بعضهم²³⁰:

وهمز وصل جئ به مكسورا **** وسكن الحرف تكن خبيراً

2- بيان مخارج الأصوات .

فكّر الخليل بترتيب جديد يقوم على أساس علمي، حيث اهتدى إلى ترتيب حروف الهجاء ، على مالها من ارتكازات في جهاز النطق، وبدأ بأصوات الحلق لأنَّ مدرّجة الحلق هي أولى المدارج، وصيّر أولها بالابتداء أدخل (أعمق) حرف منها في الحلق، ثم واصل بحثه في المدارج، لينتهي من مدرّجة فينتقل إلى المدرّجة التي تليها إلى الشفتين، وكان ترتيب الأصوات كما يلي :

²²⁷ : نفسه، 58/1.

²²⁸ : نفسه، 47/1.

²²⁹ : سر صناعة الإعراب، 1/ 6-7.

²³⁰ : محمد بن موسى الشرويني الجراي، تجويد القرآن الكريم على رواية ورش عن نافع بطريق الأزرق، (ط.1)، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص: 28.

ع ح ه غ خ/ق ك/ج ش ض/ص س ز/ط د ت/ظ ذ ث/ر ل ن/ف ب م/ا و ي ء .

وَقَدْ أَوْجَزَ الْخَلِيلُ كَلَامَهُ فِيمَا حَكَاهُ الْأَزْهَرِيُّ قَائِلًا : " فَالْعَيْنُ وَالْحَاءُ وَالْهَاءُ وَالْخَاءُ وَالْغَيْنُ، حَلْقِيَّةٌ وَالْقَافُ وَالْكَافُ لِهَوِيَانِ، وَالْجِيمُ وَالشَّيْنُ وَالضَّادُ شَجَرِيَّةٌ، وَالشَّجَرُ مَفْرُجُ الْقَمِ، وَالضَّادُ وَالسَّيْنُ وَالزَّايُ أَسْلِيَّةٌ، لِأَنَّ مَبْدَأَهَا مِنْ أَسَلَةِ اللِّسَانِ وَهِيَ مُسْتَدْقُ طَرَفِ اللِّسَانِ، وَالطَّاءُ وَالثَّاءُ وَالذَّالُ نَطْعِيَّةٌ، لِأَنَّ مَبْدَأَهَا مِنْ نَطْعِ الْغَارِ الْأَعْلَى، وَالظَّاءُ وَالذَّالُ وَالثَّاءُ لَثَوِيَّةٌ، لِأَنَّ مَبْدَأَهَا مِنَ اللَّثَّةِ، وَالرَّاءُ وَاللَّامُ وَالنُّونُ ذَوَلَقِيَّةٌ وَهِيَ مِنَ الذَّلَقِ، وَالوَاحِدُ أَذَلَقُ وَذَوَلَقُ اللِّسَانِ كَذَوَلَقِ السِّنَانِ، وَالْفَاءُ وَالْبَاءُ وَالْمِيمُ شَفَوِيَّةٌ، وَمَرَّةً قَالَ شَفْهِيَّةٌ، وَالْوَاوُ وَالْأَلْفُ وَالْيَاءُ هَوَائِيَّةٌ، وَنَسَبَ كُلَّ حَرْفٍ، وَالْوَاوُ وَالْأَلْفُ وَالْيَاءُ هَوَائِيَّةٌ، وَنَسَبَ كُلَّ حَرْفٍ إِلَى مَدْرَجَتِهِ." ²³¹

2-أ-الحيز الأول : (الأصوات الحلقية):

قَالَ الْخَلِيلُ: " الْعَيْنُ وَالْحَاءُ وَالْهَاءُ وَالْخَاءُ وَالْغَيْنُ حَلْقِيَّةٌ، لِأَنَّ مَبْدَأَهَا مِنَ الْحَلْقِ." ²³²

نَرَى الْخَلِيلَ هُنَا قَدْ رَتَّبَ أَصْوَاتَ هَذَا الْحِيزِ تَرْتِيبًا يَسْتَنْدُ إِلَى حَسِّهِ الْمُرْهَفِ، الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَى الْمُلَاحَظَةِ الذَّاتِيَّةِ فِي وَصْفِ الصَّوْتِ، وَيُعَلِّلُ لَنَا كَلَامَهُ هَذَا قَائِلًا: "فَأَقْصَى الْحُرُوفِ كُلِّهَا الْعَيْنُ، ثُمَّ الْحَاءُ، وَلَوْلَا بَحَّةٌ فِي الْحَاءِ لِأَشْبَهَتِ الْعَيْنَ لِقُرْبِ مَخْرَجِهَا مِنَ الْعَيْنِ، ثُمَّ الْهَاءُ وَلَوْلَا هَتَّةٌ فِي الْهَاءِ لِأَشْبَهَتِ الْحَاءَ لِقُرْبِ مَخْرَجِ الْهَاءِ مِنَ الْحَاءِ، فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ أَحْرَفٍ فِي حِيزٍ وَاحِدٍ بَعْضُهَا أَرْفَعُ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ الْخَاءُ وَالْغَيْنُ فِي حِيزٍ وَاحِدٍ كُلَّهُنَّ حَلْقِيَّةٌ." ²³³، وَقَدْ نَحَا سَبِيوِيهِ مَنَحَى مَغَايِرًا، لَمَنَحَى أَسْتَازَهُ الْجَلِيلُ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ فِي تَرْتِيبِ الْحُرُوفِ، فَقَدْ عَقَدَ فِي آخِرِ الْكِتَابِ بَابًا لِلِإِدْغَامِ صَدْرُهُ بِبَابِ عَنْ عِدَدِ حُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ، وَمَخَارِجِهَا وَمَهْوسِهَا وَمَجْهُورِهَا وَأَحْوَالِ مَجْهُورِهَا وَمَهْوسِهَا، وَكَانَ تَقْسِيمُهُ لِلْحَلْقِ إِلَى أَقْسَامٍ ثَلَاثَةً ، فَالْأَقْصَى مِنْهُ يَضَمُّ

²³¹ : الفراهيدي عبقري من البصرة، ص: 36، 37.

²³² : العين، 1/58.

²³³ : المصدر نفسه، 1/56، 57.

الهمزة والهاء والألف، وأوسطه يضمّ مخرج العين والحاء، أمّا أدناه فيضمّ الغين والخاء.²³⁴،
فحروف الحلق عند سيبويه إذن تكون كالآتي: (ء، هـ، ا، ع، ح، غ، خ).

يتوافق هذا الترتيب مع ما أقرّه الدرس الصوتي الحديث ، في تحديد موضع نُطق الهمزة
إلا في موضع مَجْرَى الألف ، حيث وقع توهم لسبويه في تحديد مخرجه بدقّة، عكس رؤية
أستاذه الخليل التي كانت في محلّها في جعل الألف مخرجا مستقلا له وهو الجوف، والذي
من خاصيته حرّية مرور الهواء أثناء النطق، وهذا ما جعل المخابر الصوتية الحديثة تصرّح
بذلك، وإن تأوّلت بعض الدراسات معنى سيبويه في هذا التحديد في جعله الألف ضمن
حروف الحلق، ويبدو أنّ رأي الخليل ناتج عن إحساسه بأثر الوترين الصوتيين، حيث إنّ
الألف لولا ما يُصاحبها من اهتزاز الوترين، تكونُ هواءً لا صوتاً، وموضع هذا الاهتزاز هو
الذي جعل مخرجا للألف، لأنّ الصوت الخارج من أقصى الحلق لم يجد له مقطعا، في
الحلق أو الفم أو الشفتين، ومذهب الخليل في هذا التصنيف سارت عليه جلّ الدراسات
الصوتية.

2-ب- الحيز الثاني : (الأصوات اللّهوية):

قال الخليل : " ثمّ القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع."، ويقول أيضا : " القاف والكاف
لهويتان لأنّ مبدأهما من اللّهاة ."²³⁵، فقله: (الكاف أرفع)؛ يدلّ على أنّ مخرج الكاف
مُنْفَصِل عن مخرج القاف فهو يليها، ويتّضح لنا هذا أكثر في رواية الأخفش حيث يقول : "ثمّ
القاف من فوق اللّسان مبدؤه، وعلى فَوْقِ الحنك مجراه ثمّ الكاف من أسفله، حتى يدنو
محلّه."²³⁶ ، وقد وافق سيبويه نصّ الرواية في تحديد هذين الحرفين إذ يقول: " ومن أقصى
اللّسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف، ومن أسفل من موضع القاف من اللّسان

²³⁴ : الكتاب، 4/324.

²³⁵ : العين، 1/58.

²³⁶ : تذكرة النحاة، ص: 29.

قليلاً، ومما يليه من الحنك مخرج الكاف.²³⁷ هذا يدلّ على أنّ مخرج القاف والكاف ليس مخرجاً واحداً ، قد تبّع هذه العبارة الترتيبية ابن الجزريّ قائلاً²³⁸:

أدناه غينٌ خاؤها والقافُ **** أقصى اللسان فوق ثم الكافُ.

و(القافُ) أي مخرجها؛ (أقصى اللسان) أي آخر ممّا يلي الحلق، (فوق) أي: وما فوقه من الحنك الأعلى ، (ثم الكاف) أي مخرجها (أقصى اللسان)، (أسفل)؛ أي وما تحته يعني تحت مخرج القاف قليلاً من الحنك الأعلى ويسمّى الحرفان: لهويّين لأنّهما يخرجان من آخر اللسان عند اللّهاة، وهي اللّحمة المُشرّفة على الحلق، والجمعُ لهاء ولهوات ولهيات.²³⁹ ونجدُ ابن جنّي قد أوردَ كلاماً مُعلّقاً فيه على هذه القضية ، حيث يقول: "ومما فوق ذلك من أقصى اللسان مخرج القاف، ومن أسفل من ذلك وأدنى، إلى مقدّم الفم مخرج الكاف."²⁴⁰ وإنّ الخلاف والواقع في موضع صوت القاف والكاف، في منطقة اللّهاة بين القدماء والمُحدثين لدرجة، جعلت هؤلاء المتأخرين يُخطئون المُتقدّمين إنّما هو خلاف حاصل في فوضى الموضع النطقي للّهاة لفظاً فقط، فمنهم من يرى أنّها " تقع في أقصى الحنك، أو أدنى الحلق إلى الفم"²⁴¹، وتعبيراتهم من حيث القراءة الاصطلاحية، إنّما تدلّ على مصطلح واحد وهذا التعدّد يعدّ هفوة منهجيّة، وقعت فيها هذه التحليلات.

2-ج-الحيز الثالث : (الأصوات الشجرية):

²³⁷ : الكتاب، 4/324.

²³⁸ زكرياء بن محمد الأنصاري، الدقائق المُحكمة في شرح المقدمة الجزرية، تح: زكرياء توناني، (ط. 1)، مكتبة الإمام مالك، الجزائر، 2009، ص: 77، 78.

²³⁹ : المرجع نفسه، ص: 78.

²⁴⁰ : سرّ صناعة الإعراب، 1/47.

²⁴¹ : حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي، (ط. 1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص: 305.

قال الخليل: "والجيم والشين والضاد شجرية، لأنّ مبدأها من شجر الفم." ²⁴² وروى النضر بن شميل عن الخليل قوله: "ثمّ الشين والجيم والياء شجرية، لأنّ مبدأها من الشجر ومجراها على وسط اللسان، وما يليها من الأضراس." ²⁴³

إذا صحّ ما نقله النضر بن شميل فإننا نستنبط من مزويته، أنّ الشين أعمق الأصوات مخرجاً في هذا الحيز، أمّا سيبويه فإننا نجده قد وضع مع الجيم والشين حرف الياء، وجعل مخرج الضاد تالية لهذا المخرج، لأنّه جعل مخرج الجيم والشين والياء مخرجاً مُستقلاً لوحده، وهو مخرج الضاد كذلك حيث يقول في كتابه: "ومن وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء، ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، مخرج الضاد." ²⁴⁴، وقد تابعه في ذلك ابن جني قائلاً: "ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء، ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، إلّا أنّك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر." ²⁴⁵ وتابعهما ابن يعيش في هذا التحديد وقد ذكر بأنّ مخرج (الجيم والشين والياء) تتدرج ضمن حيز واحد، موقّعه وموضعه وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك ²⁴⁶، وما نستنبطه من هذا المعطى، أنّه تشكّل لنا في حيز الأصوات الشجرية مخرجان: الأوّل يضمّ صوت (الشين والجيم والياء)، والثاني يضمّ صوت (الضاد) منفرداً لوحده.

2-د- الحيز الرابع: (الأصوات الأسلية):

²⁴² : الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين ، 57/1.

²⁴³ : أبو حيان الأندلسي، تذكرة النحاة، ص: 27.

²⁴⁴ : سيبويه، الكتاب، 324/4.

²⁴⁵ : ابن جني، سر صناعة الإعراب، 47/1.

²⁴⁶ : شرح المفضل، 124/10.

قال الخليل: "والصَّادُ والسَّينُ والزَّاءُ أسلية، لأنَّ مبدأها من أسلة اللسان وهي مُستدقَّ طرف اللسان".²⁴⁷ وقد حصرها سيبويه بين طرف اللسان وفُوقِ الثَّنايا، حيث يقول: "ومما بينَ طرف اللسانِ، وفُوقِ الثَّنايا مخرجُ الزَّاي والسَّين والصَّاد".²⁴⁸، نلاحظ في هذا القول أنَّ سيبويه قد سارَ على منهجِ أستاذه، لكنَّه عكسَ ترتيبَ الأصوات.

2-هـ-الحيز الخامس : (الأصوات النطعية):

قال الخليل: "والطَّاء والتَّاء والذَّال نطعية ، لأنها من نطع الغار الأعلى".²⁴⁹ ، في هذا الحيز نجدُ أنَّ سيبويه يُوافق الخليل في ترتيبِ هذه الحروف ، لكن ما يلاحظ على سيبويه أنَّه قامَ بعملية تدقيق، في تحديد المخرج، حيث يقول: "ومما بين طرف اللسان وأصول الثَّنايا مخرج الطَّاء والذَّال والتَّاء".²⁵⁰

2-و-الحيز السادس : (الأصوات اللثوية):

قال الخليل : "والظَّاء والذَّال لثوية لأنَّ مبدأها من اللثة".²⁵¹، وتابع ابن يعيش صاحب التصريف، الخليل بقوله : "الظَّاء والذَّال والتَّاء من حيز واحد، وهو ما بينَ طرف اللسان وأطراف الثَّنايا، بعضها أرفع من بعض، وهي لثوية مبدأها من اللثة".²⁵²، وقد سارَ سيبويه

²⁴⁷ : العين ، 57/1.

²⁴⁸ : الكتاب، 3/425.

²⁴⁹ : العين ، 57/1.

²⁵⁰ : الكتاب، 1/325.

²⁵¹ : العين، 57/1.

²⁵² : الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، تح: سعيد محمود عقيل، (ط. 2) ، دار الجيل، بيروت ، 2003، ص: 344.

على المنهج نفسه الذي رتب به الخليل الأصوات، حيث يقول: "ومما بينَ طرف اللسان وأطراف الثنايا ، مخرجُ الظاء والذال والثاء".²⁵³، وهو المخرج نفسه عند ابن جني.²⁵⁴

2-ز-الحيز السابع : (الأصوات الذلّقيّة):

قال الخليل: "و الرّاء واللام والنون ذلّقيّة، لأنّ مبدأها من ذلق اللسان؛ وهو تحديد طرفي ذلق اللسان".²⁵⁵، وفي تحديد معنى (الذلق) يقول ابن منظور: "الذلق: حدّة الشيء وحدّ كلّ شيء حدّه ، والحروف الذّلق حروف طرف اللسان".²⁵⁶، أمّا سيبويه فقد خصّ كلّ واحد من هذه الأحرف بمخرج معيّن، فمخرج صوت النون في نظرة سيبويه يكون من " حافة اللسان من أدناها، إلى مُنتهى طرف اللسان، ما بينهما وبينَ ما يليها من الحنك الأعلى، وما فوّق الثنايا، ومن مخرج النون غير أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الرّاء".²⁵⁷ ، وكذلك يجعلُ لصوتِ اللام مخرجاً يختصّ به، فاللام عنده تخرج من "حافة اللسان من أدناها إلى مُنتهى طرف اللسان ما بينهما، وبينَ ما يليها من الحنك الأعلى، وما فوق الثنايا، ومن مخرج النون غير أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الرّاء".²⁵⁸ وفي رواية الليث عن الخليل حدّته فيها قائلاً: "الحيز الأوّل حيز اللام فيها ثلاثة أحرف: الرّاء واللام والنون، مخارجها من مدرجة واحدة من أسلة اللسان وبين مقدم الغار الأعلى".²⁵⁹

2-ح-الحيز الثامن : (الأصوات الشفويّة):

²⁵³ : الكتاب، 4/325.

²⁵⁴ : سر صناعة الإعراب، 1/47.

²⁵⁵ : العين، 1/57.

²⁵⁶ : لسان العرب ، مادّة : (ذلق).

²⁵⁷ : الكتاب، 4/325.

²⁵⁸ : الكتاب ، 4/325.

²⁵⁹ : تذكرة النحاة، 26.

قال الخليل: "والفاء والباء والميم شفوية، وقال مرة شفوية لأنّ مبدأها من الشّفة.²⁶⁰ وقد روى عنه الأخفش قائلا: "ثمّ الفاء من باطن الشّفة السفلى، وأطراف الثّنايا العلّاء، ثمّ الباء والميم والواو من بين الشّفتين".²⁶¹، أمّا سيبويه فقد وافق التّرتيب الذي جاء به أستاذه الخليل حيث يقول: "ومن باطن الشّفة السفلى وأطراف الثّنايا العلّاء مخرج الفاء، ومما بين الشّفتين مخرج الباء والميم والواو".²⁶²، ونلاحظ في هذا السّياق أنّ سيبويه قد أضاف صوت (الواو) مع هذه الأحرف في المخرج، وهو يقصد بها أي؛ (الواو) الواو الصّحيحة وليس المُعْتَلّة، ونقول إنّ الخليل لم يجهل مخرجها، بل كان دقيق العبارة ودقيق التّصنيف حيث عرض حديثا في مقدّمته، يخصّ هذه الأصوات (ف/ب/م) إذ يقول فيه: "وثلاثة شفوية: ف-ب-م ، مخرجها من بين الشّفتين خاصة، لا تعمل الشّفتان في شيء من الحروف الصّاح، إلّا في هذه الأحرف الثلاثة فقط".²⁶³، وقد نصّ ابن الجزريّ على أنّ هذه الواو المذكورة في هذا المخرج هي الواو غير المدّية²⁶⁴، وهي التي يصطلح عليها المُحدثون بـ "نصف الحركة"، أو الواو الصّحيحة، لأنّ رسم الواو له وظائف منها أنّه حرف صحيح، إذا تحمّل الحركة والثّانية أنّه نصف حركة أو حرف لين إذا سُكّن، وانفتح ما قبله، والثّالثة أنّه حركة إذا كانت حركة الحرف، الذي قبله من جنسه.

2-ط-الحيز التاسع : (الأصوات المدّية باستثناء الهمزة):

²⁶⁰ : العين ، 57/1.

²⁶¹ : تذكرة النّحاة، ص:30.

²⁶² : الكتاب، 325/4.

²⁶³ : العين ، 52 /1.

²⁶⁴ : ابن الجزريّ محمّد بن محمّد، النّشر في القراءات العشر، تح: على محمّد الطّبّاع، (د.ط)، دار الفكر، 1997،

قال الخليل: " والياء والواو والألف، والهمزة هوائية في حيز واحد لأنّه لا يتعلّق بها

شيء".²⁶⁵

نُلاحظ هنا أنّ الخليل قد فصلَ الهمزة، عن مخرج الألف والواو والياء، ووصفها بالهوائية، وتعليقه لهذا الحكم الذي أخذ به في قوله: " وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتومة، مضغوطة فإذا رُفّة عنها لانت فصارت الياء والواو والألف، عن غير طريقة الحروف الصّاح".²⁶⁶، ونجده يقول أيضا: " والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تُنسبُ إليه".²⁶⁷، هذا النصّ يكشف لنا عن فهم صحيح لطبيعة الهمزة ومخرجها، فالهمزة تكون مُحقّقة إذا كانت من أقصى الحلق، وهي هوائية إذا كانت مُسهّلة، ومما نستنتجه من هذه النصوص، أنّ الخليل لم ينسب حروف المدّ (الياء والواو والألف)، إلى أيّ مخرج من مخارج النطق، وذلك لحرية مرور الهواء حال النطق بهذا، حيث نجده يقول أحيانا: " لا يتعلّق بها شيء". لكنّه جعلَ الهمزة مع هذه الحروف، وقد صرّح بأنّ مخرجها من أقصى الحلق، ولأنّه أيضاً لم تتأتّ له الوسائل اللازمة لتبيين عضو الحنجرة، فالهلق عند الخليل مكان واسع، يضمّ الفراغ الحلقوي ويستمرّ ليشمل الحنجرة أيضا.

ومن خلالِ تَتَبُّعنا لنصوص الخليل السابقة وسالفة الذكر، والروايات والتي نُسبت إليه يتّضح لنا أنّه قد جعلَ للحروف تسعةَ مخارج عامّة، تتنوّع كلّها من أقصى الحلق إلى الشّفتين وهي كالآتي:

ع-ح-ه-خ-غ/ ق-ك/ ش-ج-ض/ ص-س-ز/ ظ-د-ث/ ر-ل-ن/ ف-ب-م/ و-ا-ى-ء.

وبهذه الطّريقة استطاعَ الخليلُ أن يتدوَّق الحروف، ويُحدّد مخرجها وهذا ما كانَ مُيسّرا له ومع ما في هذه الطّريقة من بساطة، كانَ الخليل مُوفّقا توفيقا عظيما، إلى أن يضع يده على

²⁶⁵ : العين ، 57/1.

²⁶⁶ : المصدر نفسه، 56/1.

²⁶⁷ : نفسه، 57/1.

كثير من النّاتج العلميّة الدّقيقة، الّتي انتهى إليها المُحدثون بالاستعانة بتطوّر العلم والآلة.²⁶⁸

والمُلاحظة الّتي يُمكن استخلاصُها، ممّا تقدّم وما يجبُ تقريره والمُصادقة عليه، أنّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ كان سّباقا في عرضه للدراسة الصّوتيّة، من خلال وصفه للجهاز الصّوتيّ وتقسيمه إيّاه إلى مدارج وأحياز، وبهذه ورؤيته العلميّة الثّاقبة اهتدى علماء العربيّة المتقدّمين منهم والمُحدثين، إلى كثير من الحقائق المعرفيّة في هذا المجال العلميّ (الصّوتيّ).

ثالثا: صفات الأصوات .

أرادَ الخليلُ بعد أن أنهى ترتيبَ الأصواتِ بحسبِ مخرجها، أن يقفَ على خصائصها ومزاياها، وأطالَ النَّظَرَ في ذلكَ فلاحظَ أنّ هذه الأصوات، لم تكن من طبيعة واحدة فبعضها يَظَلُّ النَّفْسُ معه جاريا، لا يَعُوقُه شيءٌ وبعضها يتعَثَّرُ معه النَّفْسُ، ويقف عند مُرتكز مُعيّن فلا يَتَأَتَّى للمُتكلِّم أن يُتابع نفسه²⁶⁹، وَيُعَدُّ الخليلُ أوّل من تذوّق الحروف وفق مخرجها، والمُتنبّع لمنهج الخليل في دراسته الصّوتيّة، سيُلاحظ أنّه قد استعملَ مجموعةً من المُصطلحات، يصفُ بها هذه الأصوات انطلاقا من مَوْضِع النُّطق بها، مثلما دلّت على ذلك أقواله ونصوصه، مثل حديثه عن الجَوْفِ والحَقْلِ واللّهاة، إلى غير ذلك من مواضع النُّطق، وعليه سنُحاول في هذا المقام البَحْثِيّ، تقديم وصف للأصوات العربيّة على حساب المُصطلحاتِ الخليليّة، في شكل ثنائيات مفاهيميّة مع ما يُقابلها.

أ- الجهر والهمس:

²⁶⁸ : الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص: 37.

²⁶⁹ : المرجع نفسه، ص: 37.

لم يُصرِّح الخليل بذكر مُصطلحِ الجَهْرِ والهِمْسِ، لكنَّ ابنَ كَيْسَانَ في روايته التي نقلها عن الخليل، نجدهُ يذكر مُصطلح الهمس، حيث يقول: "سمعتُ من يذكرُ عن الخليل أنَّه قالَ لم أبدأ بالهمزة، لأنَّها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالهاءِ لأنَّها مهموسة خفية لاصوت لها".²⁷⁰، و يتَّضح لنا من كلام الخليل أنَّه قد وصفَ الهاءَ بأنَّها مهموسة، ولعلَّ الروايةَ التي نقلها الزجاج عن الخليل، تؤكد لنا قطعاً على أنَّ الخليلَ كانَ على معرفة بدلالة هذه المُصطلحات، حيث يقول الزجاج: " الحروفُ المَجْهُورَةُ والمَهْمُوسَةُ فيما زعمَ الخليل ضربان: فالمجهورة حرف أشبع الاعتمادَ عليه، في موضعه ومنعَ النَّفس أن يجري معه، والمهموسُ حرف أضعف الاعتمادَ عليه، في موضعه وجرى معه النَّفس " ²⁷¹، في حين نجدُ أنَّ هذينِ المُصطلحين، ظهرا واستقرَّا على يد مُريده الأول سيبويه.

ب- الإذلاق والإصمات:

قال الخليل: " وإنَّما سُمِّيت هذه الحُروف ذلقاً، لأنَّ الذَّلَاقَةَ في النُّطق إنَّما هي بِطَرَفِ أسلَةِ اللِّسان، منها ثلاثة ذلَقِيَّة: ر، ل، ن، تخرجُ من ذلقِ اللِّسانِ مِن طَرَفِ غَارِ الفم " ²⁷²

نُلاحظُ هنا أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، قد استعملَ هذا المُصطلح للدلالة على المخرج من جهة، ومن جهة أخرى للدلالة على الصِّفَةِ المُمَيِّزَةِ للصَّوتِ، ومعنى ذَلَقِيٍّ من رؤية تشريحيَّة يُقال: (وذلِقُ اللِّسان طَرَفُه المستدق) ²⁷³، وكانَ الخليلُ بن أحمد الفراهيدي سباقاً في وضع ضوابطِ الذَّلَاقَةِ، والإصماتِ في الأصوات، حيث تعتمدُ نظريته على أنَّ أيَّ

²⁷⁰ : المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 90/1.

²⁷¹ : الزجاج أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد العزيز عبده شلبي، (ط.1) عالم الكتب، 1988، 414/1.

²⁷² : الكتاب، 51/1.

²⁷³ : في البحث الصوتي عند العرب، ص: 53.

كلمة رُبَاعِيَّة أو خُمَاسِيَّة، مُعَرَّاة من أَصْوَاتِ الذَّلَاقَةِ، لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً أو مُخْتَرَعَةً²⁷⁴،
وَيُعَدُّ هَذَا الْمَعْيَارُ الْآخِرُ مَعْيَاراً عِلْمِيّاً، لِمَعْرِفَةِ اللَّفْظَةِ أَدْخِيلَةَ كَانَتْ أَمْ أَصِيلَةَ.

أَمَّا الْمُضْمَتَةُ فَتَسَعَةٌ عَشْرَةٌ مَخْرَجاً، خَمْسَةٌ حَلْقِيَّةٌ، وَأَرْبَعَةٌ عَشْرٌ حَرْفاً مَدْرَجَةً عَلَى ظَهْرِ
اللِّسَانِ، مِنْ أَصْلِهِ إِلَى طَرَفِهِ²⁷⁵، وَلَقَدْ لَخَّصَ ابْنُ جَنِّي كَلَامَ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ
الْفَرَاهِيدِيِّ، السَّابِقَ بِقَوْلِهِ: "وَمِنْهَا حُرُوفُ الذَّلَاقَةِ وَهِيَ سِتَّةٌ؛ اللَّامُ، وَالرَّاءُ، وَالنُّونُ وَالْفَاءُ، وَالْبَاءُ
وَالْمِيمُ، لِأَنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا بِذَلْقِ اللِّسَانِ، وَهُوَ مَصْدَرُهُ وَطَرَفُهُ وَمِنْهَا الْحُرُوفُ الْمُضْمَتَةُ وَهِيَ
بَاقِي الْحُرُوفِ، لِأَنَّهَا صَمَتْ عَنْهَا، أَنْ تُبْنَى مِنْهَا كَلِمَةٌ رُبَاعِيَّةٌ أو خُمَاسِيَّةٌ مُعَرَّاةٌ مِنْ حُرُوفِ
الذَّلَاقَةِ"²⁷⁶، وَقَدْ سُمِّيَ النَّوعَانِ بِالْأَصْوَاتِ الذَّلْقِيَّةِ أو الذَّوَلْقِيَّةِ، عَلَى جِهَةِ التَّغْلِيْبِ، وَجَعَلُوا
الْأَصْمَاتِ اسْمًا لِبَاقِي أَصْوَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، عَلَى رَأْيِ شَهَابِ الْقَسْطَلَانِيِّ (923هـ) فِي تَصْرِيحِهِ
: "أُضْمِتَّتْ أَيُّ؛ مُنِعَتْ أَنْ تَخْتَصَّ بِبِنَاءِ كَلِمَةٍ فِي لُغَةِ لَعَرَبٍ، إِذَا كَثُرَتْ حُرُوفُهَا، لَاعْتِيَاصِهَا
عَلَى اللِّسَانِ فَهِيَ حُرُوفٌ لَا تَتَفَرَّدُ بِنَفْسِهَا، فِي كَلِمَةٍ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، حَتَّى يَكُونَ مَعَهَا
غَيْرُهَا مِنْ الْحُرُوفِ الْمُذْلَقَةِ"²⁷⁷

ج- الاستعلاء والاستفال:

قَالَ الْخَلِيلُ: " أَمَّا الْمُضْمَتَةُ وَهِيَ الصُّتْمُ أَيْضاً فَإِنَّهَا تَسَعَةٌ عَشْرَةٌ حَرْفاً، مِنْهَا خَمْسَةٌ
أَحْرَفٌ مَخْرَجَةً مِنَ الْحَلْقِ، وَهِيَ: ع، ح، هـ، خ، غ، وَمِنْهَا أَرْبَعَةٌ عَشْرٌ حَرْفاً مَخْرَجَةً مِنَ الْفَمِ
مَدْرَجَةً عَلَى ظَهْرِ اللِّسَانِ مِنْ أَصْلِهِ إِلَى طَرَفِهِ، مِنْهَا خَمْسٌ شَوَاحِصٌ وَهُنَّ

²⁷⁴ : فِي الْبَحْثِ الصَّوْتِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ ،ص:53.

²⁷⁵ : تَذَكُّرَةُ النِّحَاةِ،ص:25،26.

²⁷⁶ : سِرُّ صِنَاعَةِ الْإِعْرَابِ،1/64،65.

²⁷⁷ : فِي الْبَحْثِ الصَّوْتِيِّ عِنْدَ الْعَرَبِ،ص:53.

ط،ض،ص،ظ،ق، وتُسمى المُستعلية على قوله، ومنها تسعة مُنخفضة على تسمية الخليل
وهُنَّ: ك،ج،ش،ز،س،ت،ذ،ث²⁷⁸

د - الهت:

جعل الخليل هذه الصفة لصوت الهمزة (ء) ، فقد وصفها بأنها مهتوتة مضغوظة تُوحى
بضعفها، وعدم استقرارها على صفة، حيث يقول: " وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلقِ
مهتوتة مضغوظة، فإذا رُفِّعَ عنها لانت فصارت الياء والواو والألف، عن غير طريق
الحروف الصّاح²⁷⁹ ، وأتبع قائلًا في وصف هذا الصوت بأنه مهتوت : "...ثمّ الهاء ولولا
هتة في الهاء، لأشبهتِ الحاء لُقربِ مخرجِ الهاءِ مِنَ الحاء²⁸⁰.

هـ - اللّين:

وهي صفةٌ أطلقها الخليل لهذه الأصوات : (الألف - الواو - الياء)، حيث يقول فيها
واصفا خاصيّتها : " وإليها امتدادُ الصوتِ فيها، سُمّيت حروف المدّ واللّين²⁸¹ ، وكثيرا ما
كانَ يُقُول : " الألف اللّينة والواو والياء هوائيّة؛ أي أنّها في الهواء²⁸² وإذا دَقَّقنا النَّظَرَ في
قول الخليل، سنُلاحِظُ أنّ صفة اللّين خصّها فقط لصوتِ الألف، أمّا تلميذُه سيبويه فقد جعلَ
صفة اللّين، خاصة بصوتِ الواو والياء فقط، حيث يقول : " ومنها اللّينة وهي الواو والياء
لأنّ مخرجيهما يتّسعُ لهذا الصوت، أشدّ منه اتّساع غيرهما كقولك:وأيّ والواو وإن شئت
أجريتَ الصوتَ ومددْت²⁸³.

²⁷⁸ : تهذيب اللغة، 51/1.

²⁷⁹ : العين ، 52/1.

²⁸⁰ : المصدر نفسه، 57/1.

²⁸¹ : تذكرة النحاة، ص: 29.

²⁸² : العين ، 57/1.

²⁸³ : ، الكتاب، 362/4.

و- الهاوية:

أطلق الخليل هذا المصطلح على الأصوات التي ليس لها حيز تنسب إليه، إلا الجوف حيث يقول: " وأربعة أحرف جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة، وسُميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تُنسب إليه إلا الجوف" ²⁸⁴

وقد جعل سيبويه هذه الصفة لصوت واحد وهو الألف، حيث يقول: " ومنها الهاوي وهو حرف اتسع لهواء الصوت، مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو، لأنك قد تضم شفتيك في الواو، وترفع في الياء لسانك قبل الحنك وهي الألف" ²⁸⁵

3: الدراسة عند الخليل:

بعد عرض الجهاز المفاهيمي للخطاطة الصوتية (الفونيتيكية) الخليلية، سيظهر لنا أن ملاحظاته، قد تطورت في رؤيتها لهيئة الحروف، حيث اتجه به الإجراء إلى التركيب اللغوي، الذي صار يهتم فيه بدراسة الصوت اللغوي، داخل بنية معينة لتحديد وظيفته، وقد تم له ذلك بدراسته للصوت، في سياق معين يحدد قيمته ووظيفته، أثناء تجاوره مع أصوات أخرى، وهي مختلفة في الصفة أو متقاربة في المخرج، وترتب عن هذا التجاور جملة من الظواهر نحو: الإدغام والإبدال والإعلال، والمخالفة والإظهار والإخفاء.

سنسعى في هذا المبحث على وجه المقاربة، عرض هذه الظواهر التركيبية، ومناقشة قوانينها في التركيب الصوتي، من وجهة نظر خليلية موازنة مع أهم المفاهيم اللسانية في المستوى الصوتي، وذلك استجابة للمنهج المقترح " لسانيات التراث "، الذي سمح لنا باجتراح

²⁸⁴ : العين، 57/1.

²⁸⁵ : الكتاب، 1/326، 327.

أدوات استقرائية مُعتمدة على الوصف والتحليل، مُتوسلة في المقام نفسه لغةً العلم وأساليب بناء النماذج في، مثل هذا المسلك المُقارباتي.

3-1: الفونولوجيا (علم وظائف الأصوات)؛ المفهوم والاشتغال:

يُعرّف (برتيل مالمبرج) الفونولوجيا بأنّها "الدّراسة التي تهتمّ بتحديد الفروق الصّوتيّة ذات القيمة التمييزيّة في لغة من اللّغات، وإرساء نظام الفونيمات".²⁸⁶

نُلاحظ من التعريف الأخير أنّ مُهمة الفونولوجيا، تكمنُ في البحث عن الوظيفة التي يؤدّيها الصّوت، داخل تركيب لغوي معيّن أثناء عمليّة تواصلية .

وقد شهدَ هذا المُصطلح تداخلا مفاهيميا مع مُصطلح (الفونتيك)، نتيجة عملية الترجمة المنفتحة التي شاعت أوساط اللّسانيين العرب، فمنهم من أخذه برسمه الأجنبي (phonology)، ومنهم من أخذ يبحث له عن مقابل عربي، وأخذ هذا المُقابل يتعدّد من باحث إلى آخر، فقد أطلق عليه: علم وظائف الأصوات وعلم الأصوات الوظيفي، وعلم الأصوات التشكيلي، ودراسة اللفظ الوظيفي، إلى غير ذلك من مُصطلحات عديدة شهدتها عملية الترجمة لهذا المصطلح، ومنهم من ذهب إلى تجميع هذين المُصطلحين، إلى مصطلح واحد تحت (علم الأصوات اللغوية ²⁸⁷)، ومنهم من ذهب إلى تسميتهما بعلم أصوات الكلام وصياغتهما، إلّا أنّنا نجد من اللّسانيين العرب من أخذ بضرورة التفريق بينهما باعتبار هيئة الصّوت ووظيفته، ما ذهب إليه الدكتور تَمّام حسان-رحمه الله- في استعماله لمصطلح (التشكيل الصوتي)، فقد جاء معرض حديثه: "... وإذا قمسنا الأصوات إلى مجهور ومهموس، أو إلى مفخم ومرقق أو نسبنا إليها مخارج معينة، فإننا نفعل الشيء نفسه

²⁸⁶ : برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تر: عبد الصبور شاهين، (ط.1)، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، 1984، ص:176.

²⁸⁷ : أخذ بهذا المُصطلح محمود السعران، ينظر، علم اللّغة مقدمة للقارئ العربي، ص:41.

مع الفونيتيكا، وقد يبدو هذا خلط في التفكير، وارتباك في استعمال المصطلحات.²⁸⁸، ومن باب التفريق بينهما من الناحية العلمية والمنهجية، يذهب الدكتور كمال بشر إلى التقرير بأنَّ هُنَاكَ اشتباكاً دائماً بين الفونيتيك، والفونولوجيا فكلّهما يبحث في أصوات اللغة فالأول أي الفونتيك؛ ينصرفُ عمله كلّهُ أو جلّه، إلى دراسة الأحداث الصوتية المنطوقة بالفعل، ويحاول استقصاءها وتحليلها بوجه عام، صالح للتطبيق على أيّة لغة، والثاني (الفونولوجيا) يتلقى محصولَ الأول ويخضعه للتنظيم، والتصنيف بتجريد ضوابط وقواعد معيّنة لهذه الأحداث في اللغة المعيّنة، فالأول يبحث في المادة الصوتية الواقعة actual material، والثاني ينظر في وظائف هذه الأحداث، بعد تجريدها إلى أنماطٍ أو طوائف أو مجموعات بمعايير أهميتها ووظائفها في اللغة المعينة²⁸⁹، والجدول الآتي سيبين لنا اختلاف المدارس اللسانية الغربية، في التعامل مع هذين المصطلحين:²⁹⁰

العلم أو المدرسة	مفهوم الفونتيك	مفهوم الفونولوجيا
فردينان دوسوسير	البحث التاريخي الذي يحلّل الأحداث والتطوّرات والتغيّرات عبر الزمن وهو جزء أساسي من اللسانيات	دراسة العملية الميكانيكية للنطق وهو علم مساعد للسانيات
مدرسة براغ	علم خالص من علوم الطبيعة تستعين به اللسانيات لكنه ليس جزءاً منها	فرع أساسي من اللسانيات يعالج الظواهر الصوتية من حيث وظيفتها اللغوية
المدرسة الأمريكية والإنجليزية	العلم الذي يدرس الأصوات الكلامية ويصنّفها ويحلّلها من غير إشارة إلى تطورها	علم تاريخ الأصوات، ودراسة التغيّرات والتحوّلات التي تحدث في أصوات اللغة

²⁸⁸ : اللغة العربية معناها ومبناها، ص:140.

²⁸⁹ : علم الأصوات، ص:473.

²⁹⁰ : محاضرات في الصوتيات، ص:119.

التاريخي، وإنما يشير إلى كيفية إنتاجها وانتقالها واستقبالها	بالتطور
ما استقرّ عليه المصطلحان لدى عامة العلماء	دراسة أصوات الكلام مستقلة عن تقابلات نماذجها وعن تجمعاتها في لغة معينة، دون النظر إلى وظائفها اللغوية
	الدراسة التي تصف وتُصنّف النظام الصوتي للغة معينة، أي: دراسة العناصر الصوتية لغة ما وتصنيفها تبعاً لوظيفتها في اللغة.

3-2: الظواهر التركيبية الفونولوجية عند الخليل:

3-2-1-: الإدغام:

عادةً ما يُقصدُ به إدخالُ الشيء وإدماجه مع شيء آخر، وهو في عرف أهل الاختصاص من حيث الاصطلاح؛ يدلّ على النطق بحرف ساكن فمتحرّك، بلا فصل من مخرج واحد، حيث يصيران في اللفظ حرفاً واحداً مُشدّداً، من جنس الثاني يرتفع اللسان عنه ارتفاعاً واحدة²⁹¹، وهو ما يعني فناء أحد الصوتين في الآخر، ولا يفنى صوت في صوت إلا إذا كان صفة أحدهما، تخالف صفة الآخر جهراً وهمساً، أو انطباقاً وانفتاحاً، أو شدة ورخاوة أو غير ذلك، وعلى سبيل المثال اتّحد الصوتين صفة ومخرجا، كاتّحاد اللام والشين في قولنا: (الشمس)، وكاتّحاد النون والياء في قولنا: (من يعمل)²⁹²، وعلامة الإدغام هي التشديد، حيث أشار الخليل إلى ذلك في قوله: "اعلم أنّ الرّاء في اقشعرّ وأسبكرّ هما راءان أدغمت واحدة في الأخرى، والتشديدُ علامة الإدغام."²⁹³ وهذه العملية تُعرف عند الخليل

²⁹¹ : تجويد القرآن الكريم على رواية ورش عن نافع بطريق الأزرق، ص: 59.

²⁹² : مهدي المخزومي، الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص: 44.

²⁹³ : العين، 58/01.

"بالتقريب" ، وما ذهب إليه الخليل نجد له مماثلاً عند أحد علماء التجويد، والقراءات المُتقنين مثل مكّي بن أبي طالب القيسي (ت 437) حيث يقول: "... فإن أدغمت حرف الغنة في الراء واللام، أدغمت ما يخرج من المخرجين جميعاً، ولم تبق شيئاً فيتمكن التشديد، إذ لم تبق من الحرف شيئاً" ²⁹⁴ أما رؤية المُحدثين للإدغام، فتكادُ تتفق مع الرؤية الخليفة وجلّ القدماء حيث يرون بأنّه: "نزعة صوتين إلى التماثل، أي الاتصاف بصفات مُشتركة تُسهل اندماج أحدهما في الآخر، ويقع ذلك خاصة في الحروف المُتقاربة المخارج" ²⁹⁵، وهذا التعريف الأخير نجده يتفق مع المفهوم الخليلي الذي أشرنا إليه سابقاً (التقريب)، والذي يحدث بين صوتين مُتجاورين مُتقاربين في المخرج، تجمع بينهما صفات مُشتركة، تُساعد على تحقيق ما يُسمّى بالمُماتلة التامة، وحصول الاندماج أي؛ تحقق عملية الإدغام.

3-2-2-: الإبدال:

عرّفه ابن فارس بأنّه: "إقامة حرفٍ مكانَ حرفٍ إمّا ضرورة، وإمّا صنعةً واستحساناً، أو تجعل حرفاً مكان حرف مُطلقاً" ²⁹⁶، وتابعه الخليل قائلًا: "البدل خلف من الشيء" ²⁹⁷ ويُقصدُ به تقريبُ أحد الصّوتين من الآخر، مخرجاً وصِفَةً، مثل تقريب (التاء) من الزّاي في (افتعل) مِنْ (زَانَ) أي: ازْدَانَ أو في (افتعل) مِنْ (زهر) أي: ازْهَرَ أو (افتعل) مِنْ (ذَكَرَ) أي: اذْكَرَ، وهكذا ²⁹⁸، والتّعريف نفسه انتهجه المُحدثون، في تفسيرهم لهذه الظاهرة التركيبية ، فقد عرّفه جُرْجي زيدان بأنّه: "إقامة حرفٍ مقامَ حرفٍ آخرَ في الكلمة،

²⁹⁴ : مكّي بن أبي طالب القيسي، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تح: محي الدين رمضان، (ط.2) مؤسسة الرسالة، 1984، 31/1.

²⁹⁵ : الطيّب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، (ط.2)، الشركة التونسية، تونس، 1987، ص:67.

²⁹⁶ : ابن فارس أحمد أبو الحسين ، الصاحبى في فقه اللغة، تح: مُصطفى الشويمى، (ط.2)، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، 1963، ص:333.

²⁹⁷ : العين ، 122/2.

²⁹⁸ : الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص:44.

ويحصلُ غالباً بينَ الحروف، الّتي تكون من مخرج واحد، أو مخارج مُتقاربة²⁹⁹، وقد تناولَ الخليلُ هذه الظاهرة أثناءَ حديثه عن مخارج الأصواتِ، فذكرَ الإبدالَ الَّذي يحدثُ بينَ أصواتِ المجموعة الواحدة أو مع ما يُجاورها وهي كالآتي:

3-2-2-1- الإبدالُ بينَ أصواتِ الحلق:³⁰⁰

ذكرَ بأنَّ الإبدالَ يحدثُ في حيزِ الحلقية وهي: (ع-ح-ه)، وأعطى أمثلة على ذلك منها:

- إبدالُ الحاءِ من العين: ربح بمعنى ربع، ضبحَ بمعنى ضبع.
- إبدالُ الهاءِ مِنَ الحاءِ: مدهه يعني مدحه.
- الإبدالُ بين (ه، غ، خ) ، فينوب بعضها من بعض.
- إبدالُ الهمزة مِنَ الغين.
- إبدالُ الهمزة مِنَ العين ، وَهُوَ يُشيرُ إلى ظاهرة لهجيّة عُرفت بها قبيلة تميم تُعرف بالنعنة، فهم يقولون: عَوْضَ أَنْ³⁰¹.

3-2-2-2- الإبدالُ بينَ أصواتِ اللّهاة:

قالَ الخليلُ : " الإبدال بين هذين الصّوتين لا يقعُ إلّا نادراً ، ذلك لانفصال كلّ صوتٍ بمخرج معيّن³⁰² .

3-2-2-3- الإبدالُ في الأصواتِ الشجرية:

يقولُ الخليلُ: " ولكلّ واحد منهما بدلان ؛ بدلٌ مُقاربة وبدلٌ مُناسبة³⁰³ "

²⁹⁹ : جُرْجي زيدان، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية، مر: مراد كامل، (ط.1)، دار الهلال، 1969، ص:60.

³⁰⁰ : تذكرُ النحاة، ص:27.

³⁰¹ : الخصائص، 11/02.

³⁰² : العين، 22/01.

أ- بدلُ المُقاربة: جعلهُ للحروف الّتي هي من مخرج واحد (ش،ج،ي)، وضرب بذلك مثلاً بقوله: غلّانج، وغلّانش، والأصلُ فيهما غلامين، فأبدلت الياء مرة جيما ومرة أخرى شينا³⁰⁴.

ب- بدلُ المناسبة: وهُو الإبدالُ الَّذي يحدث بين حروف الزوائد (سألتمونيها)³⁰⁵

3-2-2-4- الإبدال في الأصوات الأساسية:

لها بدلان : بدلُ (مُجارة) و بدلُ (مُواتاة).

أ- بدلُ المُجارة: وهُو الإبدال الَّذي يحدثُ بينَ الأصواتِ المُتجاورة، في المخرج كما في التّاء والسّين، ومثاله في ذلك : (النَّاتِ) بدلاً مِنْ (النَّاسِ).³⁰⁶

ب- بدلُ المُواتاة: وقد عدّد حروفه وهي ستّة (ج-ح-ه-خ-ط-غ-ف-ق) دُونَ أَنْ يُوضّح المُراد من هذا النوع من البديل.³⁰⁷

3-2-2-5- الإبدال في الأصوات النطعية:

هُوَ إبدال يحدث بين الأصوات النطعية المعروفة، فيقوم بعضها مكان بعض في الكلمة ومثال ذلك كأن تُبدل الدال = تاء أو طاء.³⁰⁸

3-2-2-6- الإبدال في الأصوات اللّثوية:

³⁰³ : المصدر نفسه، 23/01

³⁰⁴ : تنكّرُ النحاة، ص: 27.

³⁰⁵ : المصدر نفسه، ص: 27.

³⁰⁶ : الخصائص، 53/02.

³⁰⁷ : تنكّرُ النحاة، ص: 28.

³⁰⁸ : المصدر نفسه، ص: 28.

يقع فيها إبدال الذال ظاءً، والثاء فاءً، والثاء والفاء صوتان مُتقاربان في المخرج، فقد ذكر الخليل مَوْضَحاً صورة البديل فيهما قائلاً: "ولانحيازهما إلى حيزِ الثاء، بالمُجاورة ببدل منها".³⁰⁹

يَتَّضِحُ لنا بعد عرض الرؤية الخيلية لظاهرة الإبدال، وكيفية فهم اشتغاله في بنية الكلمة أنّ منهجَ المُعالجة، انطلق من المستوى الصوتي، وما يتعرّض للحرف في هذه العملية التشكيلية في بعدها الوظيفي أثناء التواصل، وأنّ العلاقة الصوتية مشروطة بينَ المُبدل والمبدل منه، حتى يتحقق مكوّن الإبدال، وهذا الشرط أكّد عليه علماء اللّغة بعدَ الخليل، نُمثّل بذلك على سبيل الذكر لا الحصر، صاحب المُخصّص " ابن سيده، ت458هـ ³¹⁰ والذي أكّد على هذا الشرط الأخير، في حين أقرّت المعطيات اللسانية الحديثة في هذا السياق، من اشتراطِ علاقاتِ تُسوِّغ الإبدال بينَ الحروف ، مثل التقارب والتماثل والتباعد والتجانس³¹¹، وهذه المُسوِّغات أشارَ إليها الخليل في نصوصه، التي ذكرناها آنفاً مثل مُصطلح المُجاورة يُمثّله مُصطلح التقارب، إضافة إلى مفهوم المُخالفة إحالة إلى مُصطلح التباعد بنوعيه، وما يمكن الإفادة منه في هذه الجزئية، أن الضبطَ المنهجي الذي سارَ عليه الخليل في استقراء ظاهرة الإبدال، يتوافق إلى حدّ بعيد مع ما أقرّه الدرس الصوتي الحديث، ودليلنا في ذلك اشتراط الخصوصية الصوتية، لتحقيق الإبدال بينَ المُبدل والمُبدل منه، في بعض الخصائص الصوتية كالشدّة والرخاوة مثلاً.

3-2-3 :- الإعلال:

³⁰⁹ : نفسه ، ص:28.

³¹⁰ : يقول ابن سيده مؤكداً هذا الشرط: "... ما لم يتقارب مخرجاه البتة فقل على حرفين غير مُتقاربين، فلا يسمى بدلاً"، أنظر: ابن سيده عليّ بن إسماعيل أبو الحسن، المخصص، تح: خليل إبراهيم جفال، (ط.1)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996، 274/13.

³¹¹ : عبد القادر مرعي، المُصطلح الصوتي عندَ علماء العربية القُدماء في ضوء علم اللغة المُعاصر، (ط.1)، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2016، ص:167.

الإعلال من الظواهر التركيبية التي تجمع بين المستويين الصرفي والصوتي، وهو تغيير يتعلق بحروف العلة " الألف-الواو-الياء "، وسُمِّي كذلك نسبة إلى هذه الحروف، لأنها تتغيّر ولا تبقى على حالها، كالعليل المنحرف المزاج، المتغيّر حالا بحال³¹²، وقد بيّنه الخليل بأنّه إبدال يقع بين أصواتِ العلة خاصةً، كإبدال الواو ياءً في (طيّ) وهي من طويث ونحو ذلك³¹³، قد نقل سيبويه عن شيخه الخليل قائلاً: "وأما طاح يطيح، تاح يتيح، فزعم الخليل أنّهما فعل يفعل بمنزلة حسب يحسب، وهي من الواو، وبذلك على ذلك، طوّحت وتوهّمت، فإنما هي فعل يفعل من الواو كما كانت منه فعل يفعل، ومن فعل يفعل أعلّتا"³¹⁴ وعادةً ما يتداخل مع الإبدال في بعض خصائصه، على حسب فهم بعض اللغويين القدامى مثل الأسترآبادي والذي أخرج " الهمزة " من مسألة الإعلال، وجعلها مؤشراً بنيوياً غرضه التخفيف حيث يقول: " ولا يُقال لتغيير الهمزة بأحد الثلاثة إعلالٌ نحو: راس ومسلة والمرأة، بل يُقال إنّهُ تخفيف للهمزة "³¹⁵، أمّا المُحدثون فنجد أنّهم لم يخرجوا عن نظرة السلف، في مفهوم الإعلال، كونه تغييراً يطرأ على أحرف العلة، ومن أوجه التفريق بين الإبدال والإعلال نذكر معياراً ، نراه قاعدة أوليّة لتجنّب الخلط وللتمييز بينهما، حيث ننظرُ إلى أصل الكلمة فإذا تبين لنا أنّ الحرف الأصليّ، حرف علة وأُبدل بصامتٍ فهنا نصفه بأنّه إبدال، والعكس تماماً في الجهة المقابلة، فإذا وجدنا الحرف الأصليّ عبارة عن صامت، وأُبدل بحرف علة فهنا نقول إنّهُ حصل إعلال.

3-2-4:- الإظهار والإخفاء:

³¹² : الأسترآبادي رضي الدّين، شرح الشافعية، تح: محمد نور الحسن ، (د.ط)، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، 1982،

68/03.

³¹³ : الفراهيدي عبقرى من البصرة، ص:44.

³¹⁴ : الكتاب، 4/259.

³¹⁵ : شرح الشافعية، 67/03.

تعدّ هذه الثنائية من أهمّ المكوّنات في المنظومة الصوتيّة الطّبيعية، والتي عادةً ما تكون مرتبطة بصوت (النون/ ن)، حيث يتمّ إخراج الحرف من مخرجه من غير غنة، وهُنا يبرز الإظهار، وقد بيّن الخليل أنّهم يُظهرون تنوينَ المُنَوّن مع ستة أصواتٍ حلقية³¹⁶، وهي تلك الأصوات الحلقية المجموعة في العبارة المنسوجة: (أَخِي هَاكَ عِلْمًا حَازَهُ غَيْرُ خَاسِرٍ) وبالتالي تكون : الهمزة - الهاء - العين - الحاء - الخاء - الغين. وفي موطن الإخفاء وهو عكس الإظهار، حيث يأتي بعد النون الساكنة أو التنوين أحد حروف الإخفاء، بيّن الخليل أنّه سُمع من يُخفي النون عندَ صوت الغين والحاء³¹⁷، وهذا مذهب بعض القراءات المُتواترة على الرغم أنّهما من حروف الإظهار.

ونرى توصيف الدّراسات الحديثة لظاهرة الإخفاء بأنّه: " ظاهرة تعاملية ، تنتج عن تأثر النون الساكنة والتنوين، وتأثيرها في أصوات معينة ، إذ يزول معها معتمد النون من الفم وينتقل إلى مخرج الصّوت، الآتي بعد النون أو التنوين بسبب ورودها في سلسلة صوتية واحدة ، إذ يمكن تأثيرها بفقدانها المخرج وشيئاً من وضوحها السمعي، نتيجة لذهاب جزء من طاقتها النطقية ، وتأثيرها يكسب تلك الأصوات غنة "318

4: وجه المُقاربة :

4-1: جهاز النّطق:

إنّ عرضنا لمفاهيم النظرية الصوتيّة عند الخليل، باستظهار ملامحها المميّزة وأبعادها الإجرائية، من خلال تفسيرها لمجموع العمليّات التي تقومُ بها أعضاء النّطق، تبين لنا أنّ جهاز النّطق الإنساني عند الخليل، يقومُ على مفهوم ميكانيكيّة النّطق؛ التي تقومُ على فهم طبيعة الصّوت اللّغوي، من خلال تفسير مجموعة الأصوات المُنتَجة، بشقيها اللّغوية وغير

³¹⁶ : تذكرُ النّحاة، ص:22.

³¹⁷ : تذكرُ النّحاة ، ص:22

³¹⁸ :الدراسة الصوتية عند علماء التجويد، ص:385.

اللغوية، ومعالجة الخليل لدينامية الهواء وما يحدث للنفس، في المجرى وفق نتائج ملاحظاته الذاتية التي توصل إليها، جعله يرسم خطاطة علمية افتراضية، يستقرئ فيها سيرورة هذا الحدث الطبيعي (الصوت الإنساني)، وفق اعتبارات مفاهيمية أشرنا إليها بالعرض والتحليل مثل: المجرى والحيّز، والمدرج، والمخرج، وغيرها من المناطق التي يمكن أن يتولد فيها تيار الهواء لإنتاج الصوت.

4-2: العملية النطقية:

في مثل هذه العملية التي تتعرض للهواء لضغوطات، أثناء إنتاج الأصوات، حيث تقوم بتعديل صورته أثناء عملية النطق، تنبّه الخليل إلى هذه الظاهرة الأكوستيكية، من خلال تبيان حدودها، وملامحها العضوية وصورها وأشكالها، عبر مواضع معينة على مستوى جهاز النطق، وأهم المناطق التي تتوزع فيها، ويتجلى لنا ذلك من خلال إشارته إلى الأصوات الانفجارية، التي تقوم على حبس الهواء ثم إطلاقه من جديد، إضافة إلى حديثه عن التعديلات الثانوية، التي تتحكم في تعديل مجرى الهواء أثناء إحداث الصوت، مثل حديثه عن الأصوات المطبقة مثل (صوت الميم)، والتي ينطوي تحتها تعديل ثانوي آخر يتمثل في استدارة الشفتين، وتسمى هذه العملية في الدراسات الصوتية الحديثة بـ (النشّفية أو التّؤوير -labialisation)³¹⁹، إضافة إلى حديثه عن ما يُخالط الصوت، من صوئيات تأليفية ك: (الغنة) مثلاً.

لكن ما يُلاحظ على المنهج الوصفي عند الخليل، المبني على التأمّلات الذاتية، في وصف وتشريح الجهاز النطقي في أولياته، شموليته المطلقة غير المحددة في بعض المواضع، ولنضرب مثالا على ذلك، مُصطلحه (أقصى الحلق)، والذي قصد من خلاله

³¹⁹ : علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا، ص: 265.

جُزءاً من أجزاء الحلق، وهذا ما يتنافى نسبياً مع ما أثبتته الدّراسات المِخبريّة الصّوتيّة الحديثة، حول تركيبِ الحُنجرة ، و(أصوات المخرج الحنجري - glottal or laryngeal)، الذي يكونُ بتعطيلِ الأوتارِ الصّوتيّة، تقلّصُ جُدرانِ الحُنجرة³²⁰، ولكن هذا لا يُنقص من صنيع الخليل، بل يدلّ على عمق ودقّة رؤيته المِخبريّة الخاصّة، دُون امتلاكه لآلات التشريح أو التسجيل الصّوتيّة الحديثة، وإنّما اعتماده على نتائج الآلة الفريدة المُسمّاة " تدوُّق الحروف " الّتي سجّل بها وبدقّة رائعة، ما يقومُ به النّاطق من حركاتٍ وما يُصاحب هذه الحركاتِ، من آثارٍ سمعيّة، بعدَ تسجيله لما يقومُ به الجهاز النطقيّ لدى المُتكلّم، وما يُرافق ذلك من حركات أعضاء الجهاز النطقيّ³²¹، جعلته يبني صورة تشريحيّة عالِجٍ من خلالها الصّوت، وما يُصاحبه من ظواهر مُختلفة.

4-3: الأنماط النُطقيّة:

أثناء حديث الخليل عن الأحرف الجوّيّة أو الهوائيّة، كما سبقت الإشارة عنها في موضعها، تبين أنّها سُميّت كذلك لأنّها تخرجُ من الجوفِ، ولم يكن لها حيّزٌ تُنسبُ إليه، إنّما هي هاوية في الهواء على حدّ تعبيره، وهذه الإشارة منه إنّما هي تصنيف لوحدة من الوحدات الصّوتيّة، مبنيٌّ على درجة من الدقّة والتوصيف، على أساسٍ تقريبيّ غايته تبيان مجرى الهواء، وإسهامه في إحداث النّطق بصفة حرّة، لا يمنعه حاجزٌ أو عائق، وهذا النمط النطقي السّمعي بالدرجة الأولى، سعى من خلاله الخليل إلى تحديد طبقة الأنساق الصّواتيّة البشريّة في نموذجها الطّبيعي المُستعمل، مثل إشاراته إلى لغة الخفض المُطلق عندَ الحجازيين مثلاً في التركيب البِنوي لصيغة المُثنى، إضافة إلى نسقٍ صواتي (فونولوجي) آخر، أطلقَ عليه (لغات القبائل) الّتي جعلها شاهداً مسموعاً، لاستنباط حُكم أو تقوية دليل، وعلى سبيل المثال حديثه عن لغة الأزدي حيث يقول: " لغة الأزدي في السّقف، يقولون: ارْدَقِفْ؛ أي اسْتَقِفْ " ومن

³²⁰ : المرجع نفسه ، ص:221.

³²¹ : علم الأصوات اللغوية الفونيتيكا:218.

وجهة معرفيّة يُمكننا استغلال هذه المُقاربة، نوثّق فيها إشارة الخليل إلى نظريّة الوَسم الصوتي، التي تتحكّم في البنية الدّاخلية لعناصر الصّوت في لغيّة معيّنة.

5- حَوصلةٌ واستنتاج:

لقد أفضى بنا البحث في هذا المُستوى، إلى جُملة من النتائج نُجملُها كالآتي:

1- لقد اعتمدَ الخليل بن أحمد الفراهيدي على المنهج الوَصفِيّ، وهو يفسّر المفردة اللغوية في شتى أشكالها، حيث اعتبر أنّ بناء اللّغة قائمٌ على الأصوات، بوصفه المُكوّن الرئيس الذي تتألف منه السّمات اللّغوية، وتنبّه الخليل إلى هذا الأمر يُعدّ خُطوة منهجيّة تدلّ على وعيه العلمي، بأنّ دراسة الأصوات مُقدّمة لا بدّ منها لدراسة اللّغة، وقد تأتى له ذلك من خلال مُلاحظاته الذاتية، وهو يختبر الصّوت ويتذوّقه ويقومُ بمعالجته، بُغية تحديد مخرجه وما يلحقه من صفات تُحدّد طبيعته، وهذا التوصيف العلمي الذي قام به الخليل، أقرّته البحوث الصوتية المُعاصرة بوصفه شرطاً علمياً، لا بدّ منه في تفسير المُكوّن اللغوي، وعليه أَلّف الخليل مُقدّمة العَيْن التي تُعدّ أوّل مادّة في علم الأصوات، مبنية على أسس علميّة ومنهجيّة، دلّت على أصالة علم الخليل، وأنه صاحب هذا العلم، ورائده الأوّل.

2- يُعدّ مُعجم العَيْنِ أوّل مُعجم في العربيّة، تمّ صنعه وفق أبعاد علميّة ومعرفيّة مشروطة، كما تُعدّ مُقدّمته من أهم الدّراسات الصوتيّة التي أسست لعلم الأصوات، وذلك من خلال جُملة من المعطيات المفاهيمية والمُصطلحية، حيث أقام مُعجمه على أساسٍ صوتيّ رتّب فيه مخارج الأصوات، ترتيباً علمياً تصاعدياً بدءاً بالخلق وانتهاءً بالشفّتين.

3- لاحظَ الخليل مخارج الحروف وتذوّقها، وعرف أحيازها وصفاتها، فقد سمّى الأصوات انطلاقاً من مَوْضع النّطق بها، إضافةً إلى شرحه العلميّ الفريد لجهاز

النّطق، حيث رسمَ لنا الطّريقة الّتي يُمكن بها تحديد مخرج الصّوت، مُعتمداً في ذلك على المُلاحظة والاستقراء، وقد جاءت نتائجه موافقة لما تحصّلت عليه المخابر الصوتيّة المُعاصرة، من تحليلات امتازت بالدقّة.

4- عالَج الخليل بعض الظواهر التشكيليّة، عمّا يحدث للصّوت من تغيّر في بنية الكلمة، كظاهرة الإدغام والمُخالفة، والإبدال والإعلال وغير ذلك، حيث قدّم فيها شرحاً عقلياً وصفيّاً، لصيغ لغوية مُتعدّدة، مُستدلاً عليها بأدوات تحليليّة على قوانين العربيّة، واستعمالات النّاطقين بها.

5- إقامته لمصطلحاتٍ علميّة مثل ما تقدّم معنا من المُصطلحات الصوتيّة، عبر انقساماتها الوظيفيّة مثل مصطلحات جهاز النطق، ومخارج الأصوات وصفاتها، وهي مُصطلحات نابعة من بيئته العربيّة، وذائفته العلميّة مُرهفة الحسّ عالية الجودة مُتقنة الاستخدام والوضع، في إطارها المفاهيمي وحيزها العلمي المتخصّص.

ثانيا: المستوى المعجمي

مدخل

من أوجه العناية باللّغة بعدَ وضع قوانين أوليّة في شكلها المعياري مبدئياً، إقامة دواوين تحفظ الاستعمال الفصيح لهذه اللّغة، تجمعُ سمّت وانتحاء العرب في كلامها نظماً ونثراً، ويُعدّ هذا الأمر خُطوة منهجيّة، وضرورة علميّة بل واستشرافاً معرفيّاً، يُقيم للأمة حضارتها ومجدها وحضورها الثقافي، بين الأمم السائدة والمُجاورة لها، ويُعدّ هذا الشّكل من إنتاج المعرفة العلميّة صناعة عُرِفَت بها الحضارة العربيّة، ذلك أنّ " الصّناعة عند العرب مفهوم بتجاذبه العلم والعمل...، لذلك عدّها العرب ملكةً بصفقتها نشاطاً للنفس النّاطقة، وهو المعنى الذي وقفَ عليه أبو عليّ الجرجاني، عندما بيّن أنّ الصّناعة ملكةٌ نفسانيّة تصدر عن الأفعال الاختياريّة، من غير رويّة".³²²، ومعرفة دلالات الألفاظ ومعانيها، لا يتأتّى للباحث عن جوهرها إلّا باستقصائها من مضائّها، وواضع المعاني الاصطلاحيّة من جهة العُرف أو ما نُقل عن السنة أخرى، يجعلها في أبواب معروفة لديه تنتظم عبر مداخل مشروطة، تتخذ في ذلك ترتيباً مُعيّناً، وهو بذلك يؤلّف ما يُسمى (مُعْجَماً)، وهو عبارة عن " كتاب يضمّ ألفاظ اللّغة ليُزيل العُجمة عنها، وعن ضبطها وطريقة نُطقها، وطريقة استخدامها، ويُبيّن معناها، فمهمّته البيان على أنّ هذه الألفاظ تدرجُ تحت ما يُسمّى المواد اللّغويّة، التي تتبّعها

³²² : سلوى النجار، الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار، (ط.1)، دار التنوير، بيروت، 2010، ص:166.

مجموعة من الدلالات الاشتقاقية³²³، وإن المتأمل في السياق الظرفي الذي وجدت فيه مثل هذه المعاجم، سيدرك أن القضية مقترنة بأحد قوانين الوجود عبر نظام علاماتي، والذي هو جملة من المواضع، لا يصدر إلا عن حكمة مردّها الإنسان العاقل في محاولته لكشف نسق الحدث اللغوي، وما يُحيل إليه من دلالات تأليفية، مقترنة بمعرفة اللغة ذلك أن " البحث في قضية اللغة، مهما كان منهجه ومرماه، يُحيلنا مباشرة إلى مُشكل علاقة الإنسان بالظاهرة اللغوية، في أصل اتّصاله بها ثم في مدى انحصاره فيها، والتراث العربي في منطوقه ومضمونه، قد زخر بتساؤلات مبدئية تمحورت حول ديمومة لقاء الإنسان باللغة، منذ المبدأ، والتفكير في هذا المشغل المُجرّد قد كان في تنوّعه وطرافته، على قدر ما كان يُلابسه من مُضايقات التناقض الحتمي، في محاولة المفكرين النَّظر في علاقة الإنسان باللغة، حيث كانوا يُفكّرون في اللغة وباللغة في نفس الوقت، فالقضية المبدئية إذاً تنحصر في موقف منهجي، حاول فيه النّاظرون تأمل هذا الإشكال ببعْد فكري افترضوه، والتزموه حيال اللغة التي استحالت مادّة للفكر، وموضوعاً له³²⁴، هذا المنظور الوجودي الذي أتى على شكل تأملات للغة، بوصفها حدثاً كلامياً وأنظمة علاماتيّة، مقترنة بدلالات معيّنة موجودة لتأدية وظائف معيّنة، أوقف العقل العربي في أوج عطائه الفكري، وجعله ينظر إلى تحولات الظاهرة اللغوية من فردانيّتها إلى مُجتمعيّتها، وهو بذلك قد منحها أبعاداً مؤسّساتيّة ومعرفيّة جعل منها أداةً فكريّة، ومُحرّكاً لسيروته الثقافية عامّة والعلميّة خاصّة.

ومثل هذه الرّؤية الاستشراfiّة نجدها مُتجسدة في أعمال هؤلاء، " أصحاب المعاجم مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي، " حينما فكّروا في إنشاء هذه المنصّات اللغوية إيماناً منهم بحتميّة التغيّر اللغوي، وتصريحاً منهم بالحافز الذي كان يستتفرهم لوضع معاجمهم، خشية تشتت الأصل اللغوي الفصيح واندثاره، حفاظاً منهم على منظومة التراث العربي.

³²³ : عيد محمد الطيّب، المُعجمات اللغوية ودلالات الألفاظ، (ط. 1)، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض،

2007، ص: 08.

³²⁴ : التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص: 61.

وَلَقَدْ أَتَكَرَّ بَعْضُ الْمُتَحَامِلِينَ فَضِيلَةَ السَّبْقِ فِي مَيْدَانِ الْمُعْجَمِ ، وَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ الْعَرَبَ مَقْلُدُونَ غَيْرِ مُبْتَكِرِينَ ، فَنجِدُ مِنْ طَيْبَةِ الْعَرَبِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ مَا قَامَ بِهِ الْخَلِيلُ هُوَ عَمَلٌ تَقْلِيدِيٌّ، مُسْتَنْبِطًا هَذِهِ الْأَصُولَ وَالْمَعَايِيرَ فِي فِكْرَةِ التَّرْتِيبِ، مِنْ قَوْمٍ آخَرِينَ يَقْصِدُ بِهِمُ الْهُنُودُ، عَلَى أَنَّ الْخَلِيلَ قَدْ وَضَعَ خُطَّةً أَوَّلَ مُعْجَمٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ مُعْجَمُ الْعَيْنِ ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَخَارِجِ الْحُرُوفِ بِالضَّبْطِ كَمَا يَرْتَّبُ الْهُنُودُ حُرُوفَ لُغَتِهِمْ، أَخِذًا تَرْتِيبَهُ مِنَ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ ، نَجِدُ الْأُسْتَاذَ جُرْجِي زِيدَانَ إِذْ يَقُولُ: "الْخَلِيلُ أَسْبَقُ الْعَرَبِ إِلَى تَدْوِينِ اللُّغَةِ، وَتَرْتِيبِ أَلْفَاظِهَا عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ قَبْلَ سَبِيئِيهِ وَالْأَصْمَعِيِّ، وَسِوَاهُمَا مِنَ الْأَدْبَاءِ وَالنُّحَاةِ، فَلَهُ فِيهَا كِتَابُ سَمَاءِ كِتَابِ الْعَيْنِ، جَمَعَ فِيهِ مَا كَانَ مَعْرُوفًا فِي أَيَّامِهِ مِنْ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ وَأَحْكَامِهَا، وَقَوَاعِدِهَا وَشُرُوطِهَا وَرَتَّبَ ذَلِكَ عَلَى حُرُوفِ الْهَجَاءِ، لَكِنَّهُ رَتَّبَ الْحُرُوفَ حَسَبَ مَخَارِجِهَا مِنَ الْحَلْقِ فَاللسان فالأسنان فالشففتين ، وبدأ بحرف العين ، وجعل حُرُوفَ الْعِلَّةِ فِي الْآخِرِ، وَإِلَيْكَ تَرْتِيبُهُ: (ع ح ه خ غ ق ك ش ص ض س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي ء) فكان الْخَلِيلُ قَدْ حَدَا بِذَلِكَ حَدَوَ الْهُنُودِ، فِي تَرْتِيبِ حُرُوفِ لُغَتِهِمُ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ ، فَهُمْ يَبْدَأُونَ بِأَحْرَفِ الْحَلْقِ يَنْتَهَوْنَ بِالْأَحْرَفِ الشَّفْوِيَّةِ "325 ، لَكِنْ أَكْثَرَ الْبَاحِثِينَ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ دُرُوشٍ وَأَحْمَدَ عَبْدِ الْغَفُورِ عَطَّارٍ، وَعَدْنَانَ الْخَطِيبِ يَمِيلُونَ إِلَى رَفْضِ هَذَا الْقَوْلِ، بِحُجَّةِ أَنَّ الْخَلِيلَ لَمْ تَكُنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِاللُّغَةِ السَّنْسُكْرِيتِيَّةِ، وَعَدَمِ اتِّفَاقِ اللَّغَتَيْنِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ فِي التَّرْتِيبِ، إِضَافَةً إِلَى عَدَمِ وُجُودِ مُعْجَمٍ، مَعْرُوفٍ لِلْهُنْدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَأَعْجَمِيٍّ آخَرٍ هُوَ الْمُسْتَشْرِقُ الْإِنْجِلِيزِي "جون هاي وود" يُشِيرُ إِلَى اِحْتِمَالَيْنِ فَيَقُولُ: "رُبَّمَا كَانَ الْيُونَانُ هُمُ الَّذِينَ أَعْطَوْا الْعَرَبَ فِكْرَةَ الْمُعْجَمِ، وَكَانَ الْهُنُودُ هُمُ الَّذِينَ أَعْطَوْهُمْ الْأَبْجَدِيَّةَ الصَّوْتِيَّةَ، وَبَعْضُ الْأَفْكَارِ الْمُعْجَمِيَّةِ الْآخَرَى."326 ، وَيُؤَكِّدُ فِي الْمَقَامِ نَفْسِهِ أَنَّ مَعَاجِمَ الْهُنُودِ، لَمْ تَظْهَرْ إِلَّا فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرَ، وَهِيَ مَرَحَلَةٌ أُنْتَجَ فِيهَا الْعَرَبُ بَعْضَ مَعَاجِمِهِمُ الْعَظِيمَةِ .

³²⁵ جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية، (د.ط)، مؤسسة هندواي، مصر، 2012، ص: 302.

³²⁶ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تح: عبد الحليم النجار، رمضان عبد التواب، (ط.1)، دار المعارف، مصر،

ومهما يكن من أمر هذا السبب فإنه من الثابت أن الخليل، أول من اشتغل بالصناعة المعجمية ، أخذ في ترتيبه بمبدأ تصنيف الكلام على أبواب مشهورة ، مبتكرا لفكرة في المنهج والترتيب³²⁷، وبهذا ومثله تتأكد أسبقية الخليل في تنظيم المعاجم، على حروف قام هو باكتشاف مخرجها ، وأنه أول من نهج مسالك جديدة في علم العربية ، قبل أن تكون الألسن الأوروبية الحالية شيئا من ذلك يذكر ، باعتراف علماء الغرب أنفسهم³²⁸ والخليل بهذا الفعل يحرر قصب السبق، في الدراسة اللغوية العامة بقسميها : علم المفردات [lexicologie]، وفن الصنافة المعجمية [lexicographie]، اللذين يعدان من أهم ركائز الدراسة المعجمية المعاصرة ، وأغلب محاور الدرس اللغوي الحالي تدور فيهما ، سواء تعلق الأمر بالقديم أم بالحديث على حد سواء³²⁹.

والتساؤل الذي نطرحه في هذا السياق: ما المعجم؟ وما دوافع تأليفه؟

1-تعريف المعجم

1-أ: التسمية:

يرى كثير من الدارسين أن كلمة (معجم)، كان أول من أطلقها هم علماء الحديث النبوي الشريف في القرن الثالث الهجري، وكانت تستخدم للدلالة على كتب الرجال وطبقاتهم في هذا العلم، الذي اختص بالحديث النبوي الشريف سندا ومثنا ورواية، ونذكر من أمثال هؤلاء على سبيل الذكر لا الحصر:

أ- معجم أبي يعلى بن المثنى الموصلي (ت307هـ) ، في تراجم شيوخه.

ب- أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي (ت317هـ)؛ معجم الصحابة.

ت- أبو القاسم الطبراني (ت360هـ)؛ المعجم الكبير.

³²⁷ : أحمد العطار عبد الغفور ،الصّاح ومدارس المعجمات العربية، (ط.1)، دار العلم للملايين، 1967، ص:65.

³²⁸ : تاريخ الأدب العربي:ص:131

³²⁹ : ميني الأخضر بن حويّلي، المعجم اللغوي من النشأة إلى الاكتمال ، (ط.1)، دار هومة، الجزائر، 2003، ص:50.

ثم انتقلت التسمية إلى ترجمة علماء القراءات وطرق قراءاتهم ، ونُمثل بذلك لثلاثية أبي بكر النفاش (ت351هـ)؛ " المُعجم الأصغر "، " المُعجم الأوسط "، " المُعجم الأكبر "، ونجد استعمالاً لها بعد ذلك تَوَرَّخ لتراجم الشعراء، عند المرزباني محمد بن عمران (ت384هـ) في كتابه (مُعجم الشعراء)، وعن طريقة المُحدِّثين أخذ أهل اللغة الفكرة وشرعوا يؤسسون معاجم في اللغة مُرتَّبة على حروف الهجاء، حيث نجد صاحب المقاييس أحمد بن فارس (ت390هـ) يطلق على كتابه " مُعجم مقاييس اللغة"، وفي العصر نفسه يُتابعه أبو هلال العسكري (ت395هـ) صاحب الصناعتين في معجمه " المُعجم في بقية الأشياء مع ذيل أسماء بقية الأشياء "، وانتقلت الفكرة واستخدمها علماء البلدان والأمصار، وكان أول من استخدمها أبو عبيد البكري الأندلسي (ت487هـ) في كتابه " مُعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع"، وعلى نهجه سمى ياقوت الحموي (ت626هـ) كتابه الجغرافي الضخم "مُعجم البلدان" ³³⁰، وهكذا أصبحت كلمة المعجم بعد ذلك كلمة تُطلق على الكتب المُرتَّبة على حروف الهجاء تخدم فنّاً أو علماً مُعيّناً.

1-ب: المعنى اللغوي:

إنَّ المُتأمل في المَذلُول اللّغوي لمادّة (ع-ج-م) في المعاجم اللّغويّة ، سيرى أنّها لا تُساير المقصود من الدّلالة الأصليّة التي وُضع من أجلها المُعجم، فهي تتفق في مُجملها على مذلول واحدٍ ألا وهو؛ الإبهامُ والغموض والإخفاء، والذي ضدّه البيانُ والإفصاح، ولنضرب مثلاً يدعّم ما نذهب إليه؛ فعلى لسان ابن منظور في لسانه قائلاً: "وَالْعُجْمُ وَالْعَجَمُ خِلَالُ الْعَرَبِ وَالْعَرَبِ، ويُقال عجميّ وجمعه عَجَمٌ وخلافه عربيّ وجمعه عَرَبٌ ورجلٌ عَجَمٌ وَقَوْمٌ أَعْجَمٌ، وَالْعُجْمُ جَمْعُ الْعَجَمِ فَكَأَنَّهُ جَمْعُ الْجَمْعِ، وكذلك الْعَرَبُ جمع الْعَرَبِ، يُقال هؤلاء الْعُجْمُ وَالْعَرَبُ" ³³¹، وتابعه ابنُ جنّي في العبارة قائلاً: " كلمة معجم اسم

³³⁰ : شوقي ضيف، مجمع اللغة العربية في خمسين عاماً، (ط.1)، مجمع اللغة العربية، مصر، 1984، ص:140،141.

³³¹ : لسان العرب ، مادة : (عجم).

مفعول من الفعل الرباعي المزيد (أعجم)، وجدرها مادة "ع.ج.م"، وتدلّ في اللغة على الإبهاء والإخفاء، وهما ضدّ البيان والإفصاح³³²، فأين الرّابط المعنويّ إذن؟

إجابة على هذا التساؤل نقول إنّ الوَزنَ (أَفْعَلْ / أَعْجَمَ) يأتي في غالب الأمر للدلالة على الإثبات، والإيجاب فتقول: أكرمتُ صديقي؛ وتعني أنّك أوجبتَ له الإكرام، لكن هذا الوزن قد يُرادُ به السلب أحياناً، أي أنّ همزة (أَفْعَلْ) قد تقلب معنى (فعل)، إلى ضده نحو: أَشْكَلْتُ الكتابَ؛ أي أزلتُ إشكاله، وإعجامُ الكتابِ يعني نقطه وإزالةً استعجابه، والإعجامُ هو تنقيطُ الحروفِ للتمييزِ بين المُتشابهة منها في الشّكل، ومن هذه الدّلالة جاءت تسمية الحروف الهجائية بحروف المُعجم، نظراً لكون النّقط الموجود في كثيرٍ منها يُزيلُ التباسها، ومن هذه الدّلالة أيضاً جاءت تسمية الكتابِ، الذي يُزيلُ معاني الكلمات بعضها ببعض، وغموضها بالمُعجم³³³، وقد أوردَ لنا الخليل مفهوماً أثّناء عرضه لمادة (ع-ج-م) يوضح المقصود من دلالة "مُعجم" حينما قال: "وَتَعْجِيمُ الْكِتَابِ تَنْقِيطُهُ كَيْ تَسْتَبِينَ عُجْمَتُهُ وَيَصِحَّ."³³⁴، وهو ما ذهب إليه بعد ذلك ابن جنيّ أثناء عرضه للمادة نفسها (ع.ج.م)، أنّ مُشتقاتها تدلّ على الضّد فقولك: "أَعْجَمْتُ الْكِتَابَ إِذَا بَيَّنْتَهُ وَأَوْضَحْتَهُ"³³⁵، وهو ما تطرّقنا إليه في الفقرة السابقة.

2-ج: المعنى الاصطلاحي:

يُعرّفه عليّ القاسميّ قائلاً: وهو عبارة عن "كتابٍ يحتوي على كلمات مُنتقاة، تُرتّب عادة ترتيباً هجائياً، مع شرح معانيها ومعلومات أخرى ذات علاقة بها، سواء أعطيت تلك الشّروح

³³²: سر صناعة الإعراب، 36/1.

³³³: إميل بديع يعقوب، المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطوّرها، (ط.2)، دار العلم للملايين، بيروت، 1985، ص: 11، 12.

³³⁴: العين، مادة: (عجم).

³³⁵: الخصائص، 53/1.

باللغة ذاتها أم بلغة أخرى³³⁶، ويذهب عُمر مذكور إلى تعريفه قائلاً: "كتاب يضمُّ مفردات لغة ما، مُشيراً إلى جوانب مُختلفة منها : التهجّي، النطق، الدلالة، الاستعمال، الترادف، الاشتقاق، التركيب"³³⁷، أمّا أحمد عبد الغفور عطار فيورد لنا تعريفاً جامعاً للمُعجم، حيث يرى أنّه "كتاب يضمُّ أكبر عدد من مفردات اللّغة، مقرونة بشرحها وتفسير معانيها، على أن تكون المواد مُرتبة ترتيباً خاصاً، إمّا على حروف الهجاء أو الموضوع، والمُعجم الكامل هوّ الذي يضمُّ كلّ كلمة، في اللّغة مصحوبة بشرح معناها واشتقاقها وطريقة نُطقها، وشواهد تُبيّن مواضع استعمالها"³³⁸، و من خلال ما تقدّم معنا من هذه التعريفات ، يتضح لنا أنّ المُعجم يقتضي الشروط الآتية:

أ- الكَم: عدد الكلمات. وهو شرط ضروري

ب- طريقة الترتيب

ت- منهج المعالجة: طريقة شرح المفردة

وهذه الشروط إذا ما تحققت فإنّها تُعين الباحث على الوصول إلى مُرادِه.

أولاً : مراحل التأليف المُعجمي:

أ- غريب القرآن:

كانت النّواة الأولى لتأليف المعاجم هو التأليف في غريب القرآن، وذلك بإيضاح الغامض والمُبهم من الكلام، وغريب القرآن هوّ مبحثٌ لغويّ متخصّص، يقومُ بتفسير الألفاظ الغامضة في القرآن الكريم، وذلك بتوضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم³³⁹

³³⁶ : علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، (ط.2)، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1991، ص:09.

³³⁷ : عمر مذكور، الدلالة في المُعجم العربيّ، (ط.1)، دار البصائر، القاهرة، 2008، ص:18،19.

³³⁸ : الصّاح ومدارس المعجمات العربية، ص:37.

³³⁹ : مكّي بن أبي طالب القيسي، العُمدة في غريب القرآن، تح: يوسف المرعشلي، (ط.2)، مؤسسة الرسالة، القاهرة،

1984، ص:15.

فالعريبُ القرآنيّ توصيفاً هو : تلك " الألفاظ القرآنية، التي يُبهم معناها على القارئ، والمفسّر وتحتاج إلى توضيح معانيها، بما جاء في لغة العرب، وكلامهم " ³⁴⁰، وهذا المبحث العلميّ من التفسير اللّغوي، يُنسبُ للصّحابي الجليل عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، وله كتابٌ في غريب القرآن يُفسّر اللفظة القرآنية، بما عهدته العرب في كلامها ويُرجعها إلى لغة من لغات العرب المشهورة، لكن هذا الكتاب لم تُثبتْ نِسْبَتُهُ إليه وهو المشهور بين أوساط الباحثين أصحاب الاختصاص والقراء بـ: (اللّغات في القرآن)، وعلى سبيل المثال تفسيره لقوله تعالى في سورة الكهف: (لَا أَبْرَحُ) ³⁴¹ قال: " يعني لا أزلّ بلغة كِنْدَة " ³⁴²، وإضافة إلى هذا التفسير اللّغوي الذي يرجع اللفظة القرآنية، إلى لغة من لغات العرب، فقد عُرِفَ عن ابن عبّاس أيضاً، اهتمامُهُ بتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن، وتوضيح معناتها مع ذكره لبعض الشّواهد الشعريّة عليها، ونجد ذلك عند الإمام السيوطيّ في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، في المسائل المشهورة المُسمّاة بمسائل نافع بن الأزرق مع ابن عبّاس ³⁴³، حيثُ كان يُسأل عن ألفاظ القرآن وغريبه، فيلتمس تفسيرها من الشعر ، فقد سُئل رضي الله عنه ، عن قوله عزّ وجل: (فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ٦٠ ١) ³⁴⁴

قال: القاعُ: الأملس ، والصّفصَفُ : المُستوي

قال: وهل تعرّف العرب ذلك؟

قال: نعم ، أما سمعت الشّاعر يقول:

³⁴⁰ : المرجع نفسه، ص:14.

³⁴¹ : سورة الكهف، الآية: 60.

³⁴² : عبد الله ابن عباس ، كتاب اللغات في القرآن برواية إسماعيل بن حسنون المقرئ، تح:صلاح الدين المنجد، (ط.1) مطبعة الرسالة، القاهرة ، 1946، ص:35.

³⁴³ : السيوطي أبو بكر جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح: فوز أحمد زمري، (ط.1)، دار الكتاب العربي، بيروت، 2012، ص: 301.

³⁴⁴ : سورة طه، الآية: 106.

بِمَلُومَةٍ شَهْبَاءَ لَوْ قَذَفُوا بِهَا -*****- شَمَارِيخَ مَنْ رَضِيَ إِذْنَ عَادَ صَفْصَفًا.

وعلى هذا النهج سار كثير من العلماء، يؤلفون على هذا النظام ونذكر منهم تمثيلاً:

- 1- أبو سعيد البكري (ت.141هـ). في غريب القرآن.
- 2- الفراء (ت.207هـ) في : معاني القرآن .
- 3- ابن قتيبة (ت.276 هـ) في : غريب القرآن .
- 4- العزّيزي (ت.330هـ) في : نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن .
- 5- الزجاج (ت.311هـ) في : معاني القرآن .
- 6- الراغب الأصفهاني (ت في حدود : 425هـ) في: مفردات ألفاظ القرآن.
- 7- الرازي (ت بعد 666 هـ) في: روضة الفصاحة في غريب القرآن.
- 8- أبو حيان الأندلسي (ت.745هـ) في: تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب .
- 9- المارديني (ت.750هـ) في : بهجة الأريب في تفسير الغريب .
- 10- ابن الهائم (ت.815 هـ) في : التبيان في غريب القرآن .

ثُمَّ تَبِعَهُمْ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي التَّأْلِيفِ فِي هَذَا الْمَجَالِ، حَيْثُ تَمَّ الْاِقْتِصَارُ عَلَى تَفْسِيرِ الْأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ فِي الْقُرْآنِ فَقَطْ، وَذَكَرَ بَعْضُ الْأَشْعَارِ الْمُؤَيَّدَةِ لِمَعْنَاهَا ³⁴⁵

ب- غريب الحديث:

يُنْتَزَلُ غَرِيبُ الْحَدِيثِ تَدْوِينًا فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ غَرِيبِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الدَّرَاجَةِ، أَنَّ الْاِنْصِرَافَ الْعِلْمِيَّ وَقْتَهَا، كَانَ مُتَوَجِّهًا لِفَهْمِ الْقُرْآنِ وَتَرْتِيلِهِ وَتَجْوِيدِهِ، وَفَهْمِ آيَاتِهِ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ بِهِ، عَلَى غَرَارِ " الْحَدِيثِ " بِوصفه مدونة مقدسة مسموعة، بطرق مختلفة يرويها رجال ثقات يصلُّ سندهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلة التأخر في الاشتغال والتدوين في الحديث، هي أن لا تختلط مسائله مع المسائل الكبرى للوحي العظيم

: أحمد عبد الله الباتلي، المعاجم و طرق ترتيبها، (ط.1)، دار الراجية، الرياض، 1992، ص: 28، 31.345

(القرآن)، أمّا المقصود بغريب الحديث فقد عرفه ابن الصّلاح (ت643هـ) في مقدّمته المشهورة قائلاً: "هُوَ عبارة عمّا وقعَ في متون الأحاديث من الألفاظ الغامضة، البعيدة من الفهم لقلّة استعمالها"³⁴⁶، وما يمكن استخلاصه أنّ مُصطلح الغريب أينما وقع، إنّما يُراد به ما غمض عن الفهم واستعصى علمه وبيان مراده.

وقد اختلفت الآراء وتضاربت حول نسبة الأوليّة، والأسبقية في التّأليف في هذا الصّرب، فمنهم من نسبهُ إلى عبيدة معمر بن المثنّى، المعروف بعُبَيْد القاسم الهروي (ت210هـ) تبعاً لابن الأثير³⁴⁷، وإلى نسبته تذهب كثير الأقوال، ومنهم من نسبهُ إلى أبي عدنان عبد الرحمن بن عبد الأعلى، على رأي ابن النّديم في فهرستهِ³⁴⁸، ومن جُملة ما ألّف في غريب الحديث على غرار الكتب المفقودة، الّتي لم تصلنا مثل الغريب للمبرد صاحب الاقتضاب (ت286هـ)، والأنباري محمد بن القاسم صاحب إيضاح الوقف والابتداء (ت328هـ)، وابن دُرَيْد صاحب الجمهرة (ت231هـ) نذكر هذه المؤلّفات تمثيلاً لا حصراً³⁴⁹:

- 1- أبو عبيدة القاسم بن سلام الهَرَوِي (ت224هـ)، " غريبُ الحديث " .
- 2- ابنُ قُتَيْبَةَ الدِّينَوَرِي (ت276هـ)، " إصلاح الغلط الواقع في غريب الحديث " .
- 3- قاسم بن ثابت السرقسطي (ت:302هـ)، " الدلائل في شرح غريب الحديث " .
- 4- أبو عمر الزاهد (345هـ)، " غريبُ مسند الإمام أحمد بن حنبل " .
- 5- أبو الحسن عباد بن العبّاس (385هـ)، " مختصر غريب الحديث " .
- 6- أبو سليمان الخطابي (388 هـ)، " غريب الحديث " .
- 7- أبو عبيدة القاسم بن سلام الهَرَوِي (ت401هـ)، " غريبُ الحديث " .

³⁴⁶ ابن الصّلاح أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، مقدّمة ابن الصّلاح في علوم الحديث، تح: عائشة عبد الرحمن، (ط.1)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص:195.

³⁴⁷ : حسين نصار، المعجم العربي؛ نشأته وتطوّره، (ط.4)، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1988، 42/01.

³⁴⁸ : ابن النديم ، الفهرست، ص:247.

³⁴⁹ : المعجم العربي؛ نشأته وتطوّره، ص:51-54.

8-الزمخشري (583هـ)، " الفائق في غريب الحديث ".

9-ابن الأثير (ت:606هـ)، " النهاية في غريب الحديث والأثر ".

ج-الرسائل اللغوية:

وُجِّهَت العناية قَبْلَ أن تكون هناك مَعَاجِمُ مُخْتَصَّةٌ مِثْلَ كِتَابِ "العَيْن" ، إلى مُدَوِّنَاتِ جَامِعَةٍ، يَلْمُ فِيهَا الْمُؤَلِّفُ نُبْغًا مِنَ الْمَوْضُوعَاتِ، الَّتِي تَتَنَاوَلُ جَانِبًا مُعَيَّنًا مِنَ مَوْضُوعَاتِ مُخْتَلِفَةٍ ، تَمَّ تَدْوِينُهَا عَلَى شَكْلِ رِسَائِلٍ إِفْرَادِيَّةٍ ، مِمَّا أَصْبَغَ عَلَيْهَا طَابَعُ دِرَاسَةِ لُغَوِيَّةٍ إِحْصَائِيَّةٍ، وَهُوَ مَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الدَّرَاسَاتِ الْمُعْجَمِيَّةِ الْحَدِيثَةِ بـ: " الحقول الدَّلَالِيَّةُ"،كَانَ لَهَا هِيَ الْآخَرَى؛[أي: الرِّسَائِلُ الْإِفْرَادِيَّةُ]، كَبِيرُ الْأَثَرِ فِي بِنَاءِ الْمُعْجَمِ اللَّغَوِيِّ الْعَرَبِيِّ، كَمَا كَانَ نَوَاطِفَ صَلْبَةٍ فِي صَمِيمِ بِنَائِهِ فِيمَا بَعْدَ ، وَعَلَيْهَا كَانَ الْمَعْمُولُ فِي بِنَاءِ مَعَاجِمِ مُدَوِّنَةٍ، رُسِمَ لَهَا الْهَدَفُ وَالْمَنْهَجُ فِي مُحَاوَلَتِهَا لِخَصْرِ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ ، خَصْرًا شَامِلًا فِي إِطَارِ مَنْهَجِيٍّ وَاضِحٍ اسْتَوْعَبَ فِيهِ شَوَارِدَ اللُّغَةِ.

ومِمَّا وَصَلْنَا مِنَ الرِّسَائِلِ الْإِفْرَادِيَّةِ نَذَكُرُ:

1- ابنُ مَالِكٍ الْأَعْرَابِيُّ عُمَرُ بْنُ كَرْكَرَةَ النُّمَيْرِيُّ ، لَهُ : "خَلْقُ الْإِنْسَانِ". "خَلْقُ الْخَيْلِ". و"النَّوَادِر".

2- أَبَا خَيْرَةَ الْأَعْرَابِيِّ الْعَدَوِيِّ، لَهُ: "الحشرات"

3- أَبَا عَمْرٍو زَبَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ التَّمِيمِيِّ(154هـ)، فَلَهُ كِتَابُ " النَّوَادِر".

4- أَبَا الْحَسَنِ النَّضْرَ بْنَ شَمِيلِ الْمَازِنِيِّ التَّمِيمِيِّ(ت203هـ) لَهُ "كِتَابُ

السَّلَاحِ"،و"كِتَابُ الْمَعَانِي" وَ " غَرِيبُ الْحَدِيثِ" وَ " الْأَنْوَاءِ".

5- الأصمعي عبْدُ المَلِكِ بن قَرِيب ، نُسِبَ إِلَيْهِ : "كتاب المسير" ، و"كتاب الإبل" و"كتاب الأضداد" ، و"النخل و الكرم" ، و"الشَّاء" ، و"النَّبَاتُ والشَّجَر" و"كتاب الأنواء". كَانَ يَجْمَعُ المَفْرَدَاتِ فِي كِتَابٍ وَاحِدٍ ، وَيُسَمِّيَهَا "كِتَابًا".³⁵⁰

كما وُجِدَتْ فِيهِ رِسَائِلُ كَانَتْ تُسَمَّى بِاسْمِ الحَرْفِ، الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ المَفْرَدَاتِ وَيَنْتَظِمُهَا مِثْلَ كِتَابِ الجِيمِ لِأَبِي عَمْرٍو الشَّيْبَانِي ، وَكِتَابُ الهَمْزِ لِأَبِي زَيْدِ الأَنْصَارِيِّ ، وَظَهَرَ رِسَائِلُ فِي الأَضْدَادِ ، وَهِيَ رِسَائِلُ تَجْمَعُ المَفْرَدَاتِ ، الَّتِي تُسْتَعْمَلُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى المَعْنَى وَضَدَهُ ، وَمِنْ هَذَا القَبِيلِ كِتَابُ المَثَلَاتِ لِطَرْبُ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْتَنِيرِ البَصْرِيِّ؛ وَهُوَ كِتَابٌ يَجْمَعُ المَفْرَدَاتِ

المَثَلَّةُ الأَوَّلُ ، وَالمَثَلَّةُ هِيَ الكَلِمَةُ الَّتِي يُحَرِّكُ أَوَّلَهَا بِالحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ لِيَتَدَلَّ عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، نَحْوُ : "الْغَمْرُ" ، بِفَتْحِ عَيْنِ الفِعْلِ ؛ وَهِيَ فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ "الْغَيْنُ.غَ" ، وَ"الْغَمْرُ" بِكَسْرِهَا ، وَ"الْغَمْرُ" بِضَمِّهَا ، فَالْمَفْتُوحُ يَعْنِي : المَاءُ الكَثِيرُ-، وَالمَكْسُورُ يَعْنِي : الحَقْدُ- وَالمَضْمُومُ يَعْنِي : الرَّجُلُ الجَاهِلُ³⁵¹.

وَلِنَسْتَشْهَدَ هُنَا بِمَا وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي مَثَلِّ قُطْرُبٍ، إِذْ يَقُولُ فِي مَنْظُومَتِهِ:

إِنَّ دُمُوعِي غَمْرٌ وَلَيْسَ عِنْدَ غَمْرٍ * * * * * فَقُلْتُ: يَا ذَا الْغَمْرِ أَقْصِرْ عَنِ التَّعَبِّ
بِالْفَتْحِ مَاءٌ كَثْرًا وَالْكَسْرِ حَقْدٌ سِتْرًا * * * * * وَالضَّمُّ شَخْصٌ مَا دَرَى شَيْئًا وَلَمْ يُجَرِّبِ

التأليف المعجمي ؛ أسبابه وأبعاده الوظيفية:

1- أسبابه:

³⁵⁰ : المُعْجَمُ اللُّغَوِيُّ مِنَ النِّشْأَةِ إِلَى الْاِكْتِمَالِ ، ص: 46.

³⁵¹ : الفراهيدي عبقري من البصرة ، ص 59.

إنَّ المُتَّبِعَ لحركية التَّأليف في الجانب المُعْجَمِيّ، سيُلاحظ تأخّر العرب في هذا الجانب مُقارنةً بالشُّعوب القديمة، الَّتِي أسَّست حضارات قبلهم، حيث سبقهم الآشوريّون والصِّينيّون واليونان، والرُّومان في هذا المضمار، وهذا راجعٌ إلى أسبابٍ وعوامل عديدة، من بينها انتشارُ الأميّة، فالَّذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة قبل الإسلام قليلون، إضافةً إلى طبيعة حياتهم الاجتماعيّة القائمة على الغزو، والانتقال من مكانٍ إلى آخر³⁵²، ولعلّ الغاية الَّتِي دفعت العرب إلى تأليف ما يُسمّى بالمعاجم، ترجع إلى أسباب عديدة يمكن رصدها في هذه الأسباب الرئيسة الآتية :

أ- سبب ديني:

إذا كانَ العرب لم يعرفوا المعاجم قبلَ العصر العباسي، كما تقدّم معنا في أوّلية وضع المعاجم في الفقرة السابقة، فلا شكَّ أنَّ الفكرة المُعْجَمِيّة كانت تُراودهم، مُنذ أن بدأوا يشرحون القرآن مُحاولين تفسير ما استُغلق عليهم، من ألفاظه ومعانيه الجليّة، ومُحاولات ابن عبّاس رضي الله عنهما خير دليل³⁵³، ويُمكننا القول إنَّ التفكير لدى المسلمين كان جادًا، بعد توحيد القرآن الكريم نحو إيجاد ضوابط ، تحفظ لسان القارئ من الخطأ في قراءته، وهو في هذا المقام لا يقتصرُ على الدّافع الدّيني فقط، بل يتعدّاه إلى الدّافع اللّغوي المتّصل بالنّص، لإدراك وفهمه بصورة صحيحة³⁵⁴، وهو ما جعلهم يُنتجون مؤلّفات اختصّت بشرح المفردة القرآنية، الَّتِي لم يألّفها اللّسان العربي من قبل.

ب- سبب معرفي:

³⁵² : المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطوّرها ، ص:20.

: نفسه، ص:21. ³⁵³

³⁵⁴ : زهير غازي زاهد، موضوعات في نظرية النحو العربي، (ط.1)، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، 2010،

ص:16.

من جملة الأسباب التي دعت العرب إلى تأليف المعاجم، نجدُ هذا السبب (المعرفي)، حيث إنّ مدلول الكلمة لا يستقرّ في ذهن العربيّ، إلا بعد تفحص عميق لمصدرها واستعمالها ومعانيها، ضمن سياقات معرفيّة مخصوصة، ولعلّ الدافع المعرفي تُفصح عنه هذه النقاط الآتية³⁵⁵:

- إمكانية تفسير الألفاظ الغريبة أينما وردت، وفهم مفرداتها الغامضة الموجودة في الأشعار، والنصوص النّقدية المروية عن العرب الفصحاء.
- ضبط الكلمات الصّعبة بالشّكل والتعريف بنطقها الصحيح، واستعمالاتها النطقية المتباينة، من خلال تحديد بعض المناطق الجغرافية والتعريف بها.
- حفظ المادّة اللّغوية الفصيحة ومفرداتها، كالشّواهد الشعريّة المروية عن بعض الشعراء الذين لم تُدوّن قصائدهم.

ج-سبب قومي:

من السّنن الكونيّة اختلاط الألسن ببعضها، والحضارة العربيّة كباقي الحضارات شهدت هي الأخرى هذا الاختلاط، والاحتكاك الألسنيّ باعتبار الأمم المجاورة لها، نتج عنه مجموعة ألفاظ لم يكن للعرب عهد بها في مختلف مناحي الحياة، حيث أدّى اتّساع رقعة الدّولة الإسلامية، بعد الفتوحات التي شهدتها إلى ظهور مفردات جديدة، وهو الأمر الذي دفع أهل الاختصاص من الطّبقة السّياسية والثقافية، إلى ضرورة إيجاد حلّ يضبط هذا الواقع السوسيوثقافي إن صحّ التعبير.

2-أبعاده الوظيفية:

إنّ الدّور المنوط بهذه الدّواوين الفكرية الثقافيّة الموسوعيّة، التي أصبحت تُلقّب بالمعاجم يتمثّل في خدمتها الشّاملة للغة ومفرداتها، وأشكال دلالاتها المُختلفة باختلاف مستعملها

³⁵⁵ : المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها، ص:13،15.

وسياقاتهم الكلامية، ومما لاشك فيه أنَّ المعاجم هي " خزائن اللغة التي يستمد منها الإنسان حصيلته اللغوية"³⁵⁶، وفي هذا المقام التداولي نستنبط حكماً مفاده " أنَّ وجود الإنسان مُتراهن مع تولّد الحاجات، وأنَّ سدّ الحاجات مُتعدّر خارج حدود اللغة."³⁵⁷ وحدود اللغة كمُصادرة افتراضية في تعدّدها وتراكمها، تستظهره هذه المعاجم بجعل اللغة مرآة لحدود الأشياء، ويتمّ ذلك من خلال جمع مفردات اللغة وتخزينها، وشرح معاني الألفاظ اللغوية وبيان حقائقها، فمن المعلوم أنَّه " لا سبيل إلى معرفة حقائق الأشياء إلا بتوسُّط اللفظ "³⁵⁸، وعلى هذا النمط تقوم المعاجم ببيان خاصية الكلمات، من خلال " ضبط اللفظة ضبطاً صحيحاً في أصلها وتصاريدها، ومعرفة كونها مهجورة أم مستعملة، عامية كانت أم فصيحة"³⁵⁹، وكيفية كتابتها وإجراءات نُطقها، على مُقتضى اللسان في لغات العرب المشهورة، نثراً كانت أم شعراً.

البناء المعجمي عند الخليل ؛ الخطوات ومنهج التأليف:

لم يشأ الخليل أن ينتهج الطريقة نفسها، التي دُوِّنت بها رسائل الموضوعات التي ذكرناها آنفاً، لرؤيته الخاصة أنّها لم تفّ بالحاجة ، ولم تُحقّق الغرض الذي سُخِّرت له، لأنّ تصنيفها لم يرق على أساس علميٍّ، أو منهجيٍّ مقبول ، لذا كان ولا بدّ على الخليل بن أحمد الفراهيدي، أن يضطرّ إلى التفكير في منهج جديد صالح له، يفي بالحاجة إلى حفظ اللغة، يَحصر فيه كلّ مفرداتها، لا تفلت منه كلمة ولا يشدّ منها لفظ.

أ: الترتيب الصوتي:

³⁵⁶: أحمد محمد المعنوق، الحصيلة اللغوية، (د.ط.)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص: 192.

³⁵⁷: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص: 67.

³⁵⁸: ابن حزم الأندلسي، التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تح: إحسان عباس، (ط.1)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959، ص: 155.

³⁵⁹: عبد القادر أبو شريفة وآخرون، علم الدلالة والمعجم العربي، (ط.1)، دار الفكر، عمان، 1979، ص: 114، 115.

لقد أشرنا سابقا أثناء حديثنا عن الأسس الرئيسة التي قام عليها مُعجم العين، والتي بنى عليها الخليل فكرته في منهجية التأليف عنده ، وذكرنا أنه قام على أسس ثلاثة وهي: [الترتيب الصوتي ، نظام الأبنية ، ونظام التقاليب] فنلاحظ أن الأساس الصوتي شكّل عاملاً رئيساً، في استكمال التأليف المعجمي ، وأقام عليه الخليل ترتيب مادة مُعجمه اللغوية ، إذ بدأ ترتيبه بصوت العين كونه أعمق الحروف في النطق ، وأبعدها مخرجاً ، فاتبع بذلك نظاماً خاصاً ابتدأه من ذوقه المُرَهَف، مخالفاً بذلك النظام الأبجدي والألفبائي والهجائي ، فتشكّلت عنده بعد ذلك أول خطوة ، يُحقّق بها مسيرته العلمية في رسم معالم دراسته المعجمية لإنجاز صنعه الكبير ، فرتب الحروف تبعاً لمخارجها ، مُدرّجاً في الترتيب بحسب عمق المخرج وتدرّجه، فبدأ ترتيبه بالحروف الحلقية وهي: [ع.ح.ه.خ.غ] ثم اللّهُوية [ق.ك] ثم الشجرية [ج.ش.ض] ، فالأسلية [ص.س.ز] ، فالنطعية [ط.د.ت] ، فاللثوية [ظ.ذ.ث] فالذلقية [ر.ل.ن.ف.ب.م] ، مُنتهياً في ترتيبه بالهوائية [و.ا.ي] إضافةً إلى الهمزة في الأخير "ء" ، ثم يسير بعد هذه البداية في ترتيب كتابه ، مُنتهجاً معياراً آخر في تقسيم الكتاب بحسب حروف الهجاء ، فسَمّى كل قسمٍ من أقسامه "كتاباً" من باب إطلاق أو تسمية الكل باسم الجزء ، وذلك بعدما نظر إلى الحروف كلّها وذاقها ، وجَدَ أن العين أدخل و أعمق وأبعد الحروف، فجعلها أول الكتاب ، ثم بدأ يذكر منها الأرفع فالأرفع، حتى أتى على آخرها، فنجدّه يبدأ في مُعجمه بكتاب "العين" ، ثم كتاب "الحاء" ، فكتاب "الهاء" ، كتاب "الخاء" ، كتاب "العين" ... إلخ ، وهكذا إلى أن يصل إلى الأحرف الأخيرة من ترتيبه.

ب: نظام الأبنية:

كان للنظام الصوتي الذي اعتمده الخليل بن أحمد ، دوراً مهماً في وضع اللبنة الأولى لبناء مُعجم، يقوم على منهج علمي، فقد تأتى له الوقوف على طبيعة الحروف وخصائصها، إذ هي مادة اللغة ، والتي يقوم عليها بناء الكلمة ، فنظر وتخصّص كلام العرب فوجد أنه مبني على أربعة أصناف، لا يتعدى بناؤه خمسة أحرف ، وما زاد على ذلك فهو من

الحُرُوفِ الرَّائِدَةِ ، لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ مِنَ الْكَلِمَةِ ، حَيْثُ يَقُولُ: " كَلَامُ الْعَرَبِ مَبْنِيٌّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ : عَلَى الثَّنَائِيِّ وَالثَّلَاثِيِّ ، وَالرُّبَاعِيِّ ، وَالْخُمَاسِيِّ ، فَالْثَّنَائِيُّ عَلَى حَرْفَيْنِ نَحْوُ : قَدْ ، لَمْ هَلْ ، لَوْ ، بَلْ ، وَنَحْوَهُ مِنَ الْأَدَوَاتِ وَالزَّجَرِ ، وَالثَّلَاثِيُّ مِنَ الْأَفْعَالِ نَحْوُ قَوْلِكَ : ضَرَبَ ، خَرَجَ ، دَخَلَ مَبْنِيٌّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ ، وَمِنَ الْأَسْمَاءِ نَحْوُ : عُمَرُ وَجَمَلٌ وَشَجَرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ ، وَالرُّبَاعِيُّ مِنَ الْأَفْعَالِ نَحْوُ : دَخَرَ ، هَمَلَجَ ، قَرَطَسَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَرْبَعَةِ أَحْرَفٍ . وَمِنَ الْأَسْمَاءِ نَحْوُ : عَبَقَرٌ ، وَعَقْرَبٌ ، وَجُنْدُبٌ وَشِبْهَهُ . وَالْخُمَاسِيُّ مِنَ الْأَفْعَالِ نَحْوُ : اسْحَنَكَكَ وَاقْشَعَرَ وَاسْحَنَفَرَ وَاسْبَكَرَ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسَةِ أَحْرَفٍ . وَمِنَ الْأَسْمَاءِ نَحْوُ : سَفَرَجَلٌ وَهَمَرَجَلٌ ، وَشَمَرْدَلٌ وَكَنْهَبَلٌ ، وَقَرَعِبَلٌ ، وَعَقَنْقَلٌ ، وَقَبَعَنْزٌ وَشِبْهَهُ " .³⁶⁰ ، ثُمَّ يَقُولُ فِي نَصِّ آخَرٍ مُبَيِّنًا أَنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ لَا يَتَعَدَّى بِنَاؤُهُ خَمْسَةَ أَحْرَفٍ يَقُولُ : " وَلَيْسَ لِلْعَرَبِ بِنَاءٌ فِي الْأَسْمَاءِ وَلَا فِي الْأَفْعَالِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أَحْرَفٍ ، فَهُمَا وَجِدْتَ زِيَادَةَ عَلَى خَمْسَةِ أَحْرَفٍ فِي فِعْلٍ أَوْ اسْمٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا زَائِدَةٌ عَلَى الْبِنَاءِ ، وَلَيْسَتْ مِنْ أَصْلِ الْكَلِمَةِ ، مِثْلَ قَرَعِبْلَانَةٍ ، إِنَّمَا أَصْلُ بِنَائِهَا : قَرَعِبَلٌ ، وَمِثْلَ عَنكُبُوتٍ ، إِنَّمَا أَصْلُ بِنَائِهَا عَنكَبٌ . " ³⁶¹

وَيُمْكِنُ لَنَا أَنْ نَعْرِضَ تَرْتِيبَهُ عَلَى النَّحْوِ الْآتِي :

أ: الثَّنَائِي : وَيَقْصِدُ بِهِ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ حَرْفَانِ مِنَ الْحُرُوفِ الصَّحِيحَةِ ، الَّتِي خَلَّتْ أَصُولُهَا مِنْ أَحْرَفِ الْعِلَّةِ نَحْوُ : "قَدْ ، لَمْ ، هَلْ ، جَع " ، وَأَدْخَلَ فِيهِ الرُّبَاعِي الْمَكْرَرُ ، الْفَاءَ وَالْعَيْنَ نَحْوُ : "جَجَج" و"شَعَشَع" "القَهْقَهة" و"القَشْقَشة" ، وَسَارَ عَلَى هَذَا النَّهْجِ فِي جَمِيعِ أَبْوَابِ الْكِتَابِ ، الَّذِي أُوْرِدَهُ فِي مَادَّةِ " عك " ، وَفِي رُبَاعِي الْعَيْنِ وَالْكَافِ وَرُبَّمَا كَانَ إِدْرَاجُهُ فِي الرُّبَاعِي ، مِنْ عَمَلِ النُّسَاخِ حَيْثُ إِنَّ التِّكْرَارَ لَمْ يَحْدِثْ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً ، كَمَا أَنَّ ابْنَ فَارِسٍ نَقَلَ هَذِهِ اللَّفْظَةَ عَنِ الْخَلِيلِ فِي مَادَّةِ " عك " .

ب: الثَّلَاثِي : وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ :

: العين ، 47/1 - 48³⁶⁰

: المصدر نفسه ، 1/ 48³⁶¹

الثلاثي الصحيح: وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أحرفٍ صحيحة نحو: "ضَرَبَ، حَرَجَ، دَخَلَ". وأدخلَ فيه أيضًا الرِّباعي المُكرَّر الفاء نحو: "الفسير" الذي جعله في "سفر" و"الزهقة"، التي جعلها في "زهق"، وقد تكرر على قلة ذكر الألفاظ التي على هذا النمط، في الرِّباعي أيضًا نحو: "الخفيدد" الذي ذكره في "خفد" و"خفدد"، كما أنَّ بعض الألفاظ قد وُضعت في الرِّباعي وكان حقها على وفقٍ منهجه أن تكون في الثلاثي نحو: "القرقوس" و"القرقف"، وربما كان هذا أيضًا من عملِ النساخ.³⁶²

الثلاثي المعتل: وهو ما اشتمل على حرفين صحيحين، وحرفٍ عِلَّةٍ واحد، سواء أكانَ مثالاً؛ أي ما اعتلَّت فاءه نحو: "وعد"، أم أجوف؛ وهو ما اعتلَّت عِيْنُه نحو: "قال، وباع" أم ناقصاً؛ وهو ما اعتلَّت لامه نحو: "رمى"، وقد أوردَ فيه المَهْمُوزُ أيضًا نحو: "أكل وسأل، فقاً" وسارَ على هذا النهج في ترتيب جميع أبواب الكتاب، أمَّا المَعْتَلُّ الواوي والمَعْتَلُّ اليائي، فالأكثرُ أنهما وردا مُنْفَصِلَيْنِ ولكنَّهُ جمعَ بينهما، وجعلهما في مكانٍ واحدٍ في بعضِ الأماكن، مع وَضْعِهِ المادَّتين في العُنوانِ نحو: "عشو. عشى"، "شيع. شوع".³⁶³

اللفيف: وهو عنده ما اجتمع فيه حرفا عِلَّةٍ، في موضع الكلمة، وينقسم إلى قسمين: أ: مفروق : وهو ما اعتلَّت فاءه ولامه، نحو: "وَفَى، وَشَى".

ب: مقرون : وهو ما اعتلَّت عِيْنُه ولامه، نحو: "هوى".

وأدخلَ فيه إضافةً إلى اللّيف بقسميه المَفْرُوقُ، والمَقْرُون، الآتي ذكره:

أ. المهموز المكرر الفاء والعين، وعينه همزة نحو: "حاحاً"

ب. المهموز المكرر العين، وفاءه همزة نحو: "أز"

ج. المهموز المعتل نحو: "أية" و "أوه".

: العين في ضوء النقد اللغوي، ص: 238، 239³⁶²

: المرجع نفسه، ص: 239.³⁶³

د. المهموز الثنائي الخفيف ، نحو: "إذ"

هـ.المعتل العين مكرر الفاء ،نحو:"خوخ" ، و "هوه" و "غوغ"

والتثائي المعتل الخفيف ، نحو: "لا" و "ما" و "لو"

وقد سار على هذا النهج في جميع أبواب الكتاب ، وكلّ ذلك ليس من اللّفيف في شيء، ويبدو أنّ سبب ذلك يرجع إلى أنّ الخليل، وجد أنسب مكان يورد فيه تلك الأنواع، التي جعلها مع اللّفيف، هو هذا الباب فجعلها معه لأنّ غرضه في الكتاب، كان تفسير تلك الألفاظ وتبيان دلالتها ، لا البحث في تصنيفها واشتقاقها.³⁶⁴

ج: الرباعي: وهو ما اجتمع فيه أربعة أحرفٍ ، نحو: "دَحْرَج" و "عَبَقَر "

د: الخماسي: وهو ما كان على خمسة أحرفٍ ، نحو: "شَمَرْدَل" ، و "كَنْهَبَل"

وقد اختلف بعض الدارسين حول مسألة، جعل الخليل للرباعي والخماسي في باب واحد، بحجة قلة الألفاظ التي وردت منهما ، والقائل بهذا الرأي هو الدكتور إميل بديع يعقوب، وقد سبقه في هذا الرأي " الزبيدي " ، أمّا الرّأي الآخر إنّما يجعله ادّعاءً فقط ، وليس بصحيح، ورأيه في ذلك أنّ الخلط حصل في بعض النسخ الأندلسية من الكتب³⁶⁵.

نموذج من كتاب العين:

نعرض هنا صفحات ونماذج من كتاب العين ، نرى من خلالها كيف يعرض الخليل المادة اللغوية، ويمثّل لها مستشهدا بكلام العرب ، سواء كان نثراً أم شِعْراً.

: العين في ضوء النقد اللغوي: ص:240.364

³⁶⁵: المعجم اللغوي ؛ نشأته وتطوره،:35 .

باب الثاني الصحيح
العين مع القاف وما قبله مهمل

عق ، فع

قال الليث : قال الخليل : العرب تقول : عق الرجل عن ابنه يعق إذا حلق عقيقته
وذبح عنه شاة وتسمى شاة التي تذبح لذلك : عقيقة . قال ليث : توفر اعضاؤها فتطبخ
بماء وملح وتطعم المساكين .
ومن الحديث كل امرئ مرتين بعقيقته . وفي الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم عق عن الحسن والحسين بزنة شعرهما ورقاً .
والعقة : العقيقة وتجمع عققاً . والعقيقة : الشعر الذي يولد الولد به . وتسمى
الشاة التي تذبح لذلك عقيقة . يقع اسم الذبح على الطعام . كما وقع اسم الجزور التي تنقع
على النقيعة وقال زهير في العقيقة :
أذلك أم أقب البطن جاب
عليه من عقيقته عفاء (١)

وقال امرؤ القيس :
يا هند لا تنكحي بوهة
عليه عقيقته أحسبا
ويقال : أعقت الحامل إذا نبتت العقيقة على ولدها في بطنها فهي معق وعقوق .
العقوق : عقق . قال رؤبة :
قد عتق الأجدع بعد رق
بقارح أو زولة معق
وقال :
وسوس يدعو مخلصا رب الفلق
سيرا وقد آون تأوين العقق

(١) في ديوان زهير «رواية الاعلام» ص ١٢٤ الرواية :
أذلك أم شتم الوجه جاب .

وقال أيضا :

كالهرويّ انجاب عن لون السرّ (١) طير عنها النسر (٢) حولي العقق
أي. جماعة العقّة .

وقال عديّ بن زيد في العقّة أي الحقيقة :

صخب التعشير نواّم الضحى (٣) ناسل عقتة مثل المسد
ونوى العقوق : نوى هشّ لين رخو المصغّة ، تعلّفه الناقة العقوق إطاها لها فلذلك
أضيف إليها ، وتأكله العجوز . وهي من كلام أهل البصرة ، ولا تعرفه الأعراب في بواديه .
وعقيقة البرق : ما يبقى في السحاب من شعاة ، وجمعه العقائق ، قال عمرو بن
كلثوم

بسمر من قنا الخطي لذنّ وبيض كالمتائق يختلنا (٤)
وانعق البرق إذا تسرب في السحاب ، وانعق الغبار : إذا سطع ، قال رؤبة : (٥)

إذا العجاج المستطار انعقا

قال أبو عبد الله : أصل العقّ الشقّ . وأليه يرجع عقوق الوالدين وهو قطعها ، لأنّ
الشقّ والقطع واحد ، يقال : عقّ ثوبه إذا شقه . عقّ والديه يعقهما عقّا وعقوقا ، قال زهير :
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدتين فيها عن عقوق ومائم
وقال آخر :

ان البنين شراؤهم أمثاله من عقّ والدّه وبرّ الأبدا

-
- (١) كذا في «ط» والديوان ص ١٠٨ أما في «ص» و «م» و «ك» و «س» : ليل البرق .
(٢) في «م» : النسـ .
(٣) رواية الديوان ص ٤٤ : صيب التعشير زمزام الضحى .
وفي كتاب الخيل لابي عبيدة : صخب التعشير زمزام الضحى .
(٤) كذا في معجم مقاييس اللغة ٤ / ٦ وفي جمهرة اشعار العرب ص ٧٧ أما في «ط» يمتلينا وسائر الاصول الاخرى
يحتلينا .
(٥) كذا في «ك» و «ملحق ديوان» رؤية ص ١٨٠ أما في سائر الاصول : العجاج .

وقال أبو سفيان بن حرب (لحمزة سيد الشهداء ، يوم أحد حين مرَّ به وهو مقتول : « دُقَّ عَقٌّ » أي دُقَّ جزء ما فعلت)^(١) يا عاقُ لأنك قَطَعْتَ رَحِمَكَ وخالفت آباءك . والمعقَّة والعقوق واحد ، قال النابغة :

أحلامُ عادٍ وأجسامُ^(٢) مُطَهَّرَةٌ من المعقَّةِ والافاتِ والإثمِ
والعقيق : خرز أحمر يُنظَّم ويُتخذُ منه الفصوص ، الواحدة عقيقة . (والعقيق وادٍ بالحجاز كأنه عَقٌّ أي شقٌّ ، غلبت عليه الصفة غلبة الاسم ولزمت الألف واللام كأنه جعل الشيء بعينه)^(٣) ، وقال جرير :

فهيَّاتَ هيَّاتَ العقيقُ وأهله وهيَّاتَ خِلٌ بالعقيقِ نواصِلُهُ^(٤)
يُبعدُ العقيقُ :

والعقَّعُ : طائر طويل الذيل أبلق يُعقِّعُ بصوته وجمعه عقاقع .

قع :

القُعاعُ : ماءٌ مُرٌّ غليظٌ ، ويُجمع أقيعة . وأقعَّ القومُ إقعا : إذا حضروا فوقعوا على قُعاع . والقُعَاقُعُ : الطريق من اليمامة إلى الكوفة ، قال ابن أحرر :

ولمَّا أن بَدَا القُعَاقُعُ لَحَّتْ على شَرَكِ تَنَاقُلُهُ نَقَالَا^(٥)
والقُعَاقُعَةُ : حكاية صوت (السلاح والترسة) والحلي والجلود اليابسة والمخطَّاف والبكة أو نحو ذلك ، قال النابغة :

يُسَهِّدُ من نَوْمِ العِشاءِ سَلِيمُهَا^(٦) لَحَلِي النِّساءِ في يَدَيْهِ قُعَاقِعُ

(١) سقط ما بين القوسين من «ص» و «س» واثبتناه من «ك» وقد امتد السقط إلى آخر المادة في «ط» .

(٢) كذا في الأصول جميعها أما في اللسان «عق» : أجساد ، وكذلك في الديوان ص ٢٣٥ .

(٣) ما بين القوسين من «ك» .

(٤) البيت في الديوان ص ٤٧٦ والنقائض وروايته :

فأبيات أبيات العقيق وأهله .

والبيت من شواهد اسم الفعل . انظر أوضح المسالك لابن هشام ١١٩/٢ .

(٥) ما بين القوسين من «ك» .

(٦) في الديوان ١٩٨ الرواية : يسَّهِّد من ليل القمام سَلِيمُهَا . وكذلك في «اللسان» (قع) .

ج: نظام النّقاليب:

أنشأ الخليل نظامًا جديدًا عالَجَ مِنْ خِلَالِهِ الْكَلِمَةَ، وَمَقْلُوبَاتِهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ مَا اضْطَلَحَ عَلَيْهِ اللَّغَوِيُّونَ بَعْدَ عَصْرِ الْخَلِيلِ بِالِاشْتِقَاقِ الْكَبِيرِ فَمَثَلًا نَجِدُ الْكَلِمَاتِ: "ع.ب.د/ع.د.ب/د.ب.ع/ب.ع.د.ب.د.ع/كَلَّهَا فِي مَادَّةٍ وَاحِدَةٍ ، وَتَحْتَ حَرْفِ الْعَيْنِ ؛لأنَّ الْعَيْنَ أَسْبَقُ مِنَ الْبَاءِ وَالذَّالِ، حَسَبَ تَرْتِيبِهِ الْمَخْرَجِي لِلْحُرُوفِ ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا نَطَقَتْ بِهِ الْعَرَبُ مِنْهَا ، وَيُسَمِّيهِ الْخَلِيلُ "مُسْتَعْمَلًا" ، وَعَمَّا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ وَيُسَمِّيهِ "مُهْمَلًا" ، لِذَلِكَ اسْتَهْلَ مُعْجَمَهُ بِمَادَّةٍ [عَقَّ] ثُمَّ [عَكَّ] ، وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِمَادَّةٍ [عَحَّ] ، ثُمَّ [عَهَّ] ، لَكِنَّهُ لَمْ يَعُثِرْ عَلَى كَلِمَاتٍ تَتَأَلَّفُ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَاءِ ، أَوْ مِنَ الْعَيْنِ وَالهَاءِ ، وَقَدْ لَاحَظَ الْخَلِيلُ أَنَّ الْكَلِمَاتِ الثَّنَائِيَّةَ، لَا تَأْتِي مِنْ حُرُوفٍ مُتَّحِدَةٍ الْمَخْرَجِ أَوْ مُتْقَارِبَةٍ³⁶⁹، فَحَاوَلَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِي بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، أَنْ يُحْصِيَ الْكَلِمَاتِ الْمُعْجَمِيَّةَ الْعَرَبِيَّةَ ، وَأَنْ يُشِيرَ إِلَى الصِّيَغِ الْمُسْتَعْمَلَةِ، وَالْمُهْمَلَةِ مِنْهَا ، وَيُؤَيِّدَ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ قَوْلُ الْخَلِيلِ فِي مَعْرِضِ حَدِيثِهِ عَنْ نِظَامِ النِّقَالِيْبِ، فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ اللَّيْثُ، حَيْثُ كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَيْنِ : " اَعْلَمْ أَنَّ الْكَلِمَةَ الثَّنَائِيَّةَ تَنْصَرِّفُ عَلَى وَجْهَيْنِ نَحْو: قَدَّ ، دَقَّ ، شَدَّ ، دَشَّ ، وَالْكََلِمَةُ الثَّلَاثِيَّةُ تَنْصَرِّفُ عَلَى سِتَّةِ أَوْجُهٍ وَتُسَمَّى مَسْدُوسَةً، وَالْكََلِمَةُ الرَّبَاعِيَّةُ تَنْصَرِّفُ عَلَى أَرْبَعَةٍ وَعَشْرِينَ وَجْهًا، وَذَلِكَ أَنَّ حُرُوفَهَا وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَحْرَفٍ تُضْرَبُ فِي وَجْهِهِ الثَّلَاثِي الصَّحِيحِ، وَهِيَ سِتَّةُ أَوْجُهٍ فَتَصِيرُ أَرْبَعَةً وَعَشْرِينَ وَجْهًا يُكْتَبُ مُسْتَعْمَلُهَا وَيُلْغَى مُهْمَلُهَا، وَالْكََلِمَةُ الْخُمَاسِيَّةُ تَنْصَرِّفُ عَلَى مِائَةِ وَعَشْرِينَ وَجْهًا ، وَذَلِكَ أَنَّ حُرُوفَهَا وَهِيَ خَمْسَةُ أَحْرَفٍ، تُضْرَبُ فِي وَجْهِهِ الرَّبَاعِي، وَهِيَ أَرْبَعَةُ وَعَشْرُونَ حَرْفًا فَتَصِيرُ مِائَةً وَعَشْرِينَ وَجْهًا يُسْتَعْمَلُ أَقْلُهُ وَيُلْغَى أَكْثَرُهُ.

وَنَقْصِيرُ الثَّلَاثِي الصَّحِيحِ أَنْ يَكُونَ ثَلَاثَةَ أَحْرَفٍ، وَلَا يَكُونَ فِيهَا وَاوٌ وَ لَا يَاءٌ وَلَا أَلِفٌ [لِيَنَّةٌ وَلَا هَمْزَةٌ] فِي أَصْلِ الْبِنَاءِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفُ يُقَالُ لَهَا حُرُوفُ الْعِلَلِ ، فَكَلَّمَا سَلِمَتْ كَلِمَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ فَهِيَ ثَلَاثِيٌّ صَحِيحٌ مِثْلُ : ضَرَبَ ، خَرَجَ ، دَخَلَ،

: المعجم اللغوي العربي نشأته وتطوره ، ص: 34. 369

والثلاثي المُعْتَل مثل :ضَرَا ،ضَرَى ،ضَرَوْ ،خَلَا ،خَلَى ، خَلُو ،لأنَّه جاءَ مع الحَرْفَيْنِ أَلِفٌ أو واوٌ أو ياءٌ فافهم.³⁷⁰ وهذه نماذج من كتاب العين ، توضح لنا نظام النِّقَالِيب الذي سار عليه الخليل في بناء مُعْجَمِهِ .

باب العين واللام (ع ل ، ل ع مستعملان)

عل :

الْعَلُّ : الشَّرْبَةُ الثانية ، والفِعْلُ : عَلَّ الْقَوْمُ إِيْلَهُمْ يَعْلُونَهَا عَلًّا وَعَلًّا . والإِبِلُ تُعَلُّ نفسها عَلًّا ، قال :^(١)
إِذَا مَا نَدْبِي عَلَّنِي ثُمَّ عَلَّنِي ثَلَاثَ زُجَاجَاتٍ لَهُنَّ هَدِيرُ
وَالْأُمُّ تُعَلِّلُ الصَّبِيَّ بِالْمَرْقِ وَالْخَيْرُ لِيَجْتَرِيَ بِهِ عَنِ اللَّبَنِ . قال ليبيد :
إِنَّا يُعْطِنُ مَنْ يَرْجُو الْعَلْلُ
وَالْعُلَالَةُ بَقِيَّةُ اللَّبَنِ ، وَبَقِيَّةُ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى بَقِيَّةُ جَرِي الْفَرَسِ . قال الراجز :
أَحْمِلْ أُمِّي وَهِيَ الْحَمَالَةُ تُرْضِعُنِي الدِّرَّةَ وَالْعُلَالَةَ
أَي بَقِيَّةُ اللَّبَنِ :
وَالْعِلَّةُ : الْمَرَضُ ، وَصَاحِبُهَا مُعْتَلٌّ .
وَالْعِلَّةُ : حَدَثٌ يَشْقُلُ صَاحِبَهُ عَنْ وَجْهِهِ . وَالْعَلِيلُ : الْمَرِيضُ .
وَالْعَلُّ الْقِرَادُ الضَّخْمُ . قال :^(٢)
عَلَّ طَوِيلُ الطَّوَى كِبَالِيَةَ السَّفْعِ مَتَى يَلْقَ الْعَلْوُ يَصْطَلِعُهُ .
أَي مَتَى يَلْقَ مُرْتَقًى يَرْقَهُ . (وَالْعَلُّ : الرَّجُلُ الَّذِي يَزُورُ النِّسَاءَ . وَالْعَلُّ : التَّيْسُ الضَّخْمُ الْعَظِيمُ ، قال :
وَعَلَّهَا مِنَ التَّيْسِ عَلًّا
وَبَنُو الْعَلَّاتِ : بَنُو أُمَّهَاتٍ شَتَّى لِرَجُلٍ وَاحِدٍ)^(٣) . قال القُطَامِي :
كَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمُ لَأُمٍّ وَنَحْنُ لِعَلَّةٍ عَلَّتْ أَرْتِفَاعًا

(١) البيت للأخطل . انظر الديوان ص ١٥٤ .
(٢) البيت للطرماح ص ١١٩ .
(٣) ما بين القوسين ساقط من « ص » و « ط » .

والْعُلُّ : اسمُ الذَّكَرِ ، وهو رأسُ الرَّهَابَةِ أيضًا . والعَلْعَالُ : الذَّكَرُ من القناير .
ويقال : عَلَّ أَخَاكَ : أي لَعَلَّ أَخَاكَ . وهو حَرْفٌ يُقَرَّبُ من قضاء الحاجة
وَيُطْمَعُ . وقال العجّاج :

عَلَّ الآلَهَ البَاعِثَ الْأَنْقَالَ يُعْقِبُنِي مِنْ جَنَّةٍ ظِلَالَا
ويقالُ : لَعَلَّنِي في معنى لَعَلَّنِي . قال : (١)
وَأَشْرَفَ مِنْ فَوْقِ الْبَطَاحِ لَعَلَّنِي أَرَى نَارَ لَيْلَى أَوْ يَرَانِي بِصِيرِهَا

لع :

قال زائدة : جاءت الإبلُ تُلْعَلُ في كَلْبٍ خَفِيفٍ أي تَتَّبِعُ قَلِيلَةً . وتُلْعَلُ وتُلْهَلُ
وَاحِدًا . واللُّعْلُعُ : السَّابُّ نَفْسَهُ . واللَّمْلَعَةُ : بَصِيصُهُ . والتَّلْعَلُ : التَّلَاؤُ . والتَّلْعَلُ :
التَّكْسَرُ ، قال العجّاج : (٢) .

وَمَنْ هَمَزَنَا رَأْسَهُ تَلْعَلَا
وَاللُّعَاعُ : ثَمَرُ الْحَشِيشِ الَّذِي يُؤْكَلُ . وَالْكَلْبُ يَتْلَعُ إِذَا دَلَّعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ .
وَرَجُلٌ لَعَاعَةٌ : يَتَكَلَّفُ الْأَلْحَانَ مِنْ غَيْرِ صَوَابٍ . وَأَمْرَأَةٌ لَعَةٌ : عَفِيفَةٌ مَلِيحَةٌ .
وَلَعْلَعٌ : مَوْضِعٌ . قال : (٣)

فَصَدَّهْمَ عَنْ لَعْلَعٍ وَبَارِقٍ ضَرَبُ يُشْطِطُهُمْ عَلَى الْخَنَادِقِ

(١) البيت لتوبة بن الحمير . انظر اللسان (بصر) وروايته فيه :

وأشرف بالغور اليفاع لعلي

(٢) البيت لرؤبة وهو في ديوانه ص ٩٣ وكذلك في اللسان (لعلع) .

(٣) لم اهتمد الى الرجز ولا الى القاتل .

باب الثلاثي الصحيح

من حرف العين

قال الخليل : لم تأتلف العينُ والحاءُ مع شيءٍ من سائر الحروف إلى آخر الهجاء فاعلمتهُ ، وكذلك مع الحاء .

باب العين والماء والقاف

(ع ه ق . ه ق ع مستعملان)

(ع ق ه ، ق ع ه مهملان)

هقع :

الهَقْعَةُ دائرةٌ حيثُ تُصِيبُ رِجْلُ الفارسِ جَنْبَ الفرسِ يُتَشَاءُ^(١) بها . هَقَعَ
الْبِرْدُونَ يَهْقَعُ هَقْعًا فهو مَهْقُوعٌ ، قال الشاعر :

إذا عَرَقَ المَهْقُوعُ^(٢) بالمرءِ أَنْعَظَتْ حَلِيلْتُ وازدادَ حَرًّا عِجَانُهَا
أَنْعَظَتْ : أي علاها الشَّبَقُ والنَّعْظُ هنا : الشَّهْوَةُ ، ويُروى « وابتَلَّ منها إزارُها »
فأجابهُ المُجِيبُ :

فقد يَرْكَبُ المَهْقُوعُ مَنْ لَسَتْ مِثْلُهُ وقد يَرْكَبُ المَهْقُوعُ زَوْجَ حَصَانٍ
والهَقْعَةُ : ثلاثةٌ كواكِبَ فوقَ مَنَكِبَيْ الجَوَازِ ، مثلُ الأَثافي ، وهي من منازلِ
القَمَرِ ، إذا طَلَعَتْ مع الفجرِ اشْتَدَّ حَرُّ الصَّيْفِ .

عهق :

العَوْهَقُ : الغُرَابُ الأَسْوَدُ ، والبَعِيرُ الأَسْوَدُ الجَسِيمُ ، ويقال : هز اسمُ جَمَلٍ كانَ
في الزَّمنِ الأوَّلِ ، يُنسَبُ إليه كِرَامُ النجائبِ ، يقال : كانَ طَوِيلَ القَرَا^(٣) ، قال رُوَيْبَةُ :

(١) كذا في الأصول أما في «م» : يشاء .

(٢) كذا في الأصول أما في «م» : الهقوع .

(٣) كذا في الأصول أما في «م» : القري .

باب العين والماء والنون
(ع ه ن ، ه ن ع ، ن ه ع مستعملات)

عهن :

العَيْنُ : المَصْبُوغُ أَلَوَانًا مِنَ الصُّوفِ . ويقال : كُلُّ صُوفٍ عَيْنٌ .
قال عَرَامٌ : لَا يُقَالُ إِلَّا لِلْمَصْبُوغِ ، وَالْقِطْعَةُ عَيْنَةٌ وَالْجَمْعُ عُهُونٌ . والعَيْنَةُ
انكِسَارٌ فِي قَضِيبٍ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ إِذَا تَنَظَّرْتَ إِلَيْهِ حَسِبْتَهُ صَحِيحًا وَإِذَا هَزَزْتَهُ انْتَنَى .
وَقَضِيبٌ عَاهِنٌ أَيْ مُتَكْسِرٌ . وَسُمِّيَ الْفَقِيرُ عَاهِنًا لِانْكِسَارِهِ .
قال زائدة : لَا أَعْرِفُ الْعَيْنَةَ فِي ذَلِكَ ، وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ الشَّرَجَ ، انشَرَجَتِ الْقَوْسُ
وَالْقَنَاةُ أَيْ أَصَابَهَا انْكِسَارٌ غَيْرُ بَاتٍ .
قال غير الخليل : الْعَوَاهِنُ السَّعْفُ الَّذِي يَقْرُبُ مِنْ لُبِّ النَّخْلَةِ (١) . ومالٌ عَاهِنٌ ،
يَعْدُو مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ وَيُرْوَحُ عَلَيْهِمْ . وَأَعْطَاهُمْ مِنْ عَاهِنٍ مَالِهِ أَيْ مِنْ تِلَادِهِ ، قال :
وَأَهْلُ الْأَوَّلِ اللَّاتِي عَلَى عَهْدِ تَبِعٍ عَلَى كُلِّ ذِي مَالٍ غَرِيبٍ وَعَاهِنٍ

هنع :

الْهَنْعُ : التَّوَاهُجُ فِي الْعُنُقِ وَقَصَرٌ ، وَالنَّعْتُ أَهْنَعٌ وَهَنْعَاءٌ ، وَأَكْمَةُ هَنْعَاءٌ أَيْ قَصِيرَةٌ .
وَعَظِيمٌ أَهْنَعٌ وَنَعَامَةٌ هَنْعَاءٌ : لَا تَوَاهُجُ (٢) فِي عُنُقِهَا حَتَّى يَقْصُرَ لَذَلِكَ ، كَمَا يَقْعَلُ الطَّائِرُ الطَّوِيلُ
الْعُنُقُ مِنْ بَنَاتِ الْبَرِّ وَالْمَاءِ .

ن ه ع :

النُّهْوَعُ : تَهْوَعٌ لَا قَلَسَ مَعَهُ . نَهَعَهُ نُهْوَعًا .

(١) في معجم مقاييس اللغة ٤ / ١٧٦ القول لابن الأعرابي .
(٢) في ذلك : لا التواء .

(النموذج الرابع)³⁷⁴

وقد قام ابن دُرَيْدٍ في " الْجَمْهَرَةِ " بتوضيحِ نظامِ التَّقْلِيَابَاتِ قائلاً : " إذا أردت أن تستقصي
من كلام العرب ، ما كان على حرفين ممّا تكلموا به أو رغبوا عنه ، ممّا يأتلف أو لا يأتلف
فانظر إلى الحروف المعجمة ، وهي ثمانية وعشرون حرفاً ، فاضرب بعضها في بعض تبلغ
سبعمئة وأربعة وثمانين حرفاً ، فإذا أزوجتَهن حرفين حرفين صِرْنَ ثلاثمئة واثننتين وتسعين

بناء، فإذا قلبت البناء الثنائي عاد إلى سبعمائة وأربعة وثمانين بناء ، منها ثمانية وعشرون بناء مشتبهة الحرفين مثل: "هه" قلبه وغير قلبه لفظ واحد، ومنها ستمائة بناءٍ صحيحة ليس فيها واو، ولاياء ولا همزة ، يَجْمَعُهَا ثلاثمائة قبل القلب ، ومنها مائة وخمسون بناء ثنائية ممزوجة، بهذه الأحرف الثلاثة المعتلة، الياء والواو والهمزة ويجمعها خمسة وسبعون بناءً ثنائيًا قبل القلب، ومنها ستة أبنيةٍ معتلة يجمعها ثلاثة أبنية قبل القلب، ومنها ثلاثة أبنية مضاعفة، وخمسة وعشرون بناءً ثلاثيًا صحاحا مضاعفة، هذا عدّة الثنائي المهمل والمستعمل، وإذا أردت أن تؤلّف الثلاثي فاضرب ثلاثة أحرف معتلات، في التسعة الثنائية المُعتلة فتصير سبعة وعشرين بناءً ثلاثيًا معتلاً ، ثم تضرب الثلاثة المعتلات في مائة وخمسين بناءً، حرف منها صحيح وحرف منها مُعتل، فتصير أربعمائة وخمسين بناءً ثلاثيًا حرفان منها معتلان، وحرف صحيح ، ثم تضرب الثلاثة المُعتلات في ستمائة بناء ثنائي صحيح الحرفين، فتصير ألفاً وثمانمائة بناءً ثلاثي، حرفان منها صحيحان وحرف معتل وتضرب خمسة وعشرين حرفاً صحيحاً، في ستمائة بناء ثنائي صحيح الحروف فتصير خمسة عشر ألفاً وستمائة، وخمسة وعشرين بناءً ثلاثيًا، فهذا ما يخرج من البناء الثلاثي، فإذا أردت أن تؤلّف الرباعي فتضرب الثلاثة المعتلات، في السبعة والعشرين بناءً ثلاثيًا، ثم تضرب في أربعمائة وخمسين، ثم في الألف والثمانمائة، ثم تضرب الخمسة والعشرين الصّاح في الخمسة عشر ألف بناء ثلاثي صحاح الحروف، فما بلغ فهو عدد البنية الرباعية، وكذلك سبيل الخماسي الصّحيح³⁷⁵

طريقة البحث عن المادّة اللغوية في كتاب العين:

أول شرطٍ ينبغي لمن يُريدُ البحث والكشف عن كلمةٍ في كتاب العين ، وَجَبَ عَلَيْهِ أن يكون عارفاً بالترتيب الصوتي الذي قام عليه مُعْجَمُ الْعَيْنِ:
ع.ح.ه.خ.غ.ق.ك.ج.ش.ض.ص.س.ز.ط.د.ت.ظ.ذ.ث/ ر.ل.ن.و.ف.ب.م.و.ا.ي.ء.

ثانيًا: تجريدُ الكلمةِ مِنَ الزوائد، وردّها إلى المفرد[إذا كانت جمعًا].

ثالثًا: إسقاطُ التّضعيفِ مِنَ الكلمةِ، لِيُردَّ إلى أصلٍ ثنائي أو ثلاثي ، أَوْ رباعي أو خماسي.

رابعًا: تَرْتيبُ حروفِ المادّةِ صَوْتِيًّا، بِحَسَبِ التَّنْظِيمِ الَّذِي اخْتَارَهُ الخليل، إذ بحث عن مشتقات المادّة، في باب أسبق أحرفها مِنْ حَيْثُ المَدَارِجُ الصَّوتِيَّةُ ³⁷⁶، وفقًا للتَّنْظِيمِ الَّذِي أَشْرْنَا إِلَيْهِ سَابِقًا.

أمثلة:

كلمة: "قرعبلانة" : نجدها في باب الخُماسيِّ مِنْ حرفِ العَيْنِ، وفي باب العَيْنِ والقاف والراء واللام والباء ، بعد تجريدِها مِنَ الألف والتّون والهاء ، لِأَتَهْنَ زوائد.

كلمة: "عطية" ، بعد تجريدِها مِنَ الزَّائِدِ وهو الياء والهاء ، وبعد إعادة المَعْلَ إلى أَصْلِهِ في باب الثَّلَاثِي المَعْتَلِ، مِنْ حرفِ العَيْنِ ، وفي بابِ العَيْنِ والطاء والواو ومعهما ، أي : عطو وكانت الواو مَعْلَّةً، بسبب سكون الياء قبلها، ومثلها كلمة : "ميعاد" نجدها في [وعد] في بابِ العَيْنِ والدَّالِ والواو ومعهما، وكانت الواو قد أَعْلَتْ بِكُسْرِ ما قبلها

كلمة: "فرط" ، نجدها في باب الثَّلَاثِيِّ الصَّحِيحِ مِنْ حرفِ الطاء ، وفي باب الطاء والراء والفاء معهما ، لِأَنَّ الطاءَ أَسْبَقُ مِنَ الراء والراءَ أَسْبَقُ مِنَ الفاء. ³⁷⁷

على الرّغم مما قِيلَ عَنِ كِتَابِ العَيْنِ ، في وجود أخطاءٍ وَثَغْرَاتٍ حُسِبَتْ في حقِّ عَمَلِ الخليل ، كَمَشَقَّةِ الوُصُولِ لِلْفَظِ المُرادِ البحث عنه في المُعْجَم ، بسبب صعوبةِ تَرْتيبِهِ المَبْنِي على النِّظامِ الصَّوتِي ، وما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ نِظامِ التَّقَالِيبِ ، وَغَيْرِهَا مِنَ النِّظَرَاتِ، إِلَّا أَنَّهَا تَبْقَى مَأْخِذَ سَطْحِيَّةٍ ، لَا تُحْمَلُ عَلَيْهَا مَلاحِظَةُ الانْتِقَاصِ مِنَ الصَّنِيعِ ، مِنْ هَذَا العَمَلِ والجهد العظيم الَّذِي قَامَ بِهِ الخليل ، وَلَعَلَّ ما يَشْفَعُ لَهُ هُوَ أَسْبَقِيَّتُهُ في هذه التَّجَرُّبَةِ العِلْمِيَّةِ

ندزيرة سقال ، نشأة المعاجم وتطورها ، (ط.1)، دار الصداقة العربية، بيروت، 1995، ص:44. ³⁷⁶

: العين ، 1/30.29. ³⁷⁷

الرائدة، التي لم يُشْهَدْ لها نظير ولم يُسَبَقْ إليها أحدٌ قَبْلَهُ ، أو سَمِعَ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ أُلْفَ كتابٌ كمُعْجَمِ الْعَيْنِ ، إِذْ يَخْضَعُ لِنِظَامٍ مُعَيَّنٍ كَالْقَالِبِ الَّذِي ابْتَدَعَهُ الْخَلِيلُ لِنَفْسِهِ، وَرَسَمَ بِهِ الطَّرِيقَ لِلسَّيرِ عَلَيْهِ فِي تَدْوِينِ مَادَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ، فَتَسْمِيَةُ مُعْجَمِهِ بِالْعَيْنِ لَمْ تَكُنْ اعْتِبَاطًا أَوْ بِمَخْضِ الصَّدْفَةِ، وَإِنَّمَا قَامَتْ عَلَى مُسَوِّغٍ عِلْمِيٍّ مُحْضٍ، تَتَاغَمُ مَعَ الْمَنْهَجِيَّةِ الْعَامَّةِ لِلْكِتَابِ، وَهِيَ تِلْكَ الْأَسْسُ الرَّئِيسَةُ الْقَائِمَةُ عَلَى التَّرْتِيبِ الصَّوْتِيِّ، وَعَلَى الْأَنْظِمَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا أَنْفَاءً: [نِظَامُ النِّقَالِيبِ وَنِظَامُ الْأَبْنِيَةِ]

وَالْأَمْرُ الَّذِي نَوَدُّ ذَكَرَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، أَنَّ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ الْفَرَاهِيدِيَّ، هُوَ الْفَاتِحُ لِحَرَكََةِ التَّأْلِيفِ الْمُعْجَمِيِّ ، فَقَدْ وَضَعَ لِلْغَوِيَّيْنَ مَنَهَجَهُ ، وَسَنَّ لَهُمْ سُنَّتَهُ ، حَتَّى أَضَحَّتِ السَّمَاتُ الَّتِي اتَّسَمَ بِهَا ، مَبَادِئُ التَّرَمُّ بِهَا كَثِيرٌ مِمَّنْ أَتَوْا بَعْدَهُ وَحَدَّوْا حَدُّوهُ، فِي التَّأْلِيفِ الْمُعْجَمِيِّ، فَطَرِيقَةُ تَرْتِيبِ الْمَوَادِّ حَسَبَ نِظَامٍ مُعَيَّنٍ فِي وَضْعِ الْحُرُوفِ ، لَا حَسَبَ الْمَوْضُوعَاتِ كَمَا كَانَ شَائِعًا فِي عَصْرِهِ، أَصْبَحَ السَّمَةُ الْعَامَّةُ لِمُعْظَمِ الْمَعَاجِمِ الَّتِي أَتَتْ بَعْدَهُ ، مِثْلُ التَّرْتِيبِ الْمَخْرَجِيِّ لِلْأَزْهَرِيِّ فِي مُعْجَمِهِ "تَهْذِيبُ اللَّغَةِ"، وَالْقَالِي فِي "الْبَارِعِ" ، وَابْنُ سَيِّدِهِ فِي "الْمُحْكَمِ" وَالزَّبِيدِي فِي "مَخْتَصَرِ الْعَيْنِ"...إِلْخَ ، وَتَرْتِيبُ الْمَوَادِّ وَفَقَّ أَحْرَفَ أَصُولِهَا سَارَتْ عَلَيْهِ الْمَعَاجِمُ اللَّغَوِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ³⁷⁸ وَالْإِتْيَانُ بِالشَّوَاهِدِ نَرَاهُ فِي مُعْظَمِ الْمَعَاجِمِ ، الَّتِي أُلْفَتْ بَعْدَهُ ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى نِظَامِ التَّقْلِيدَاتِ الَّذِي ابْتَدَعَهُ، وَالتَّقْسِيمِ حَسَبِ الْأَبْنِيَةِ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ ، كَمَا لَا نَنْسَى أَنَّ كِتَابَ الْعَيْنِ كَانَ أَحَدَ الْمَوَارِدِ الْخَمْسَةِ، لِلْإِمَامِ ابْنِ مَنْظُورٍ الْإِفْرِيقِيِّ فِي "لِسَانِ الْعَرَبِ" ، وَمِمَّا أُلْفَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْخَلِيلِيَّةِ مِنْ كُتُبٍ غَرِيبِ الْحَدِيثِ ، نَجَدُ كِتَابَ "غَرِيبِ الْحَدِيثِ" ³⁷⁹ لِلْإِمَامِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْحَرَبِيِّ [ت:285] ؛ حَيْثُ رَتَّبَ أَحَادِيثَ كِتَابِهِ حَسَبَ الْمَسَانِيدِ وَرَتَّبَ الْأَلْفَاظَ فِي كُلِّ مُسْنَدٍ عَلَى الْحُرُوفِ الْحَلْقِيَّةِ وَمَقْلُوبَاتِهَا ³⁸⁰، وَقَدْ أُلْفَتْ بَعْضُ الْكُتُبِ لِإِكْمَالِ النِّقْصِ الَّذِي حَصَلَ فِي كِتَابِ الْعَيْنِ مِنْهَا: "الاستدراك على العين"

1: المعجم اللغوي العربي نشأته وتطوره، ص:37.36.

1: هذا الكتاب لم يُعثر منه إلا على المُجلِّدَةِ الْخَامِسَةِ ، وَطُبِعَتْ بِتَحْقِيقِ الدُّكْتُورِ سُلَيْمَانَ الْعَابِدِ فِي ثَلَاثَةِ مَجْلَدَاتٍ بِجَامِعَةِ أُمِّ الْقُرَى بِمَكَّةِ الْمَكْرَمَةِ عَامَ 1405 هـ مَعَ دَرَاةٍ وَافِيَةٍ عَنِ الْكِتَابِ ، وَتَذْيِيلِهِ بِفَهْرَاسٍ شَامِلَةٍ.

2 : المعاجم اللغوية وطرق ترتيبها ، ص:24.

للسدوسي[195ت]و"التكملة" للخازننجي البشتي[348]، كما وُضِعَتْ بعض الكُتُب لِتَقْدِهِ وإبرازُ النَّقص فيه ومنها: "استدراك الغلط الواقع في العين" لأبي بكر الزبيدي[379]، و"غلط العين" للخطيب الإسكافي [420]، كما وَضَعَ اللُّغويين كُتُبًا لِلدِّفاع عنه، و مِنْهَا: "النَّوْسط" لابن دُرَيْد [321]، و"الرَّد على الْمُفْضَل" لِنَفْطَوَيْهِ [323] و"الانتصار للخليل" للزبيدي[379] كما اختصره الزبيدي نفسه في معجم سمّاه "مختصر العين"³⁸¹، وَمِنْ خِلَالِ كُلِّ ما تقدّم نَسْتَنْتِج أَنَّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ، أَصَلَ لِأَوَّلِ نَظَرِيَّةٍ مُعْجَمِيَّةٍ ، كَانَتْ نَوَاةَ الدِّرَاسات اللُّغويّة والمُعْجَميّة، الّتي اسْتَمَرَّها اللاحِقون في المَنْهَج والمادّة، وقد حَقَّقَ مُرادُهُ في اعْتِمادِهِ على نَظَرِيَّتِهِ، الّتي مَكَّنَتْهُ مِنْ حَضَرِ أَصولِ كِلامِ العَرَبِ وما يَتَأَلَّف مِنْ حُرُوفِها .

وَجْهُ المِقارِبَةِ وَفِى مُعْطِياتِ نِموذجٍ " لِسانِياتِ التِّراثِ "

أَوَّلًا : تَحْديدُ المُعْجَم ؛ المِفهومُ والوْظيفَةُ.

أ- المِفهوم:

تَنطَلِقُ الدِّرَاساتُ اللِّسانِيّةُ مِنْ قاعِدةٍ عِلْمِيّةٍ مِفاذِها، أَنَّ المُعْجَمَ يَشْكَلُ " مِجموعَ الوَحِداَتِ المُعْجَمِيّةِ الّتي تَكُونُ لُغةً جِماعَةً لُغويّةً ما، تَتَكَلَّمُ لُغةً طَبِيعِيّةً واحِدةً فهو يَشْكَلُ رِصيدَ الوَحِداَتِ المُعْجَمِيّةِ، المُشْتَرَكِ بَيْنَ أَفرادِ الجِماعَةِ اللُّغويّةِ الواحِدةِ، المُسْتَعْمَلِ في التَّعبيرِ بَيْنَ أَغْراضِها"³⁸²، وَعَليهِ يَمْكَنُنا التَّقْريِرُ بِنِشاءٍ عَلى النِّموذجِ مَوْضوعِ الدِّرَاسَةِ "مُعْجَمُ العَيْنِ "، أَنَّ هَذا المُعْجَمَ الَّذِي وَضَعَهُ الخَليلُ، يَتِمَثَّلُ لِهَذهِ الشُّروطِ ذاتِ الأنْظِمةِ المِعرِفِيّةِ الّتي تَسْتَجِيبُ لِمِتَطَلِّباتِ حاجَةِ الفِرْدِ اللُّغوي، في بَسْطِهِ لِدَليلٍ يَقفُ عِندَ كُلِّ وَحِدةٍ مُعْجَمِيّةٍ، مُبَيِّنًا غَرَضِها وطَريقَةَ وَضَعِها واسْتِعمالِها.

ب- الوْظيفَةُ:

3 : المِمعِج اللُّغوي العَرَبِي نِشأَتُهُ وَتَطَوُّرُهُ ، ص:38.37.

³⁸² :إِبْراهِيمُ بنُ مُراد، مِّنَ المُعْجَمِ إِلى القامُوسِ ، (ط.1)، دارُ الغَربِ الإِسلامي، بَيرُوت، 2010، ص:51.

يؤدّي المُعجم وظائف عدّة، يمكن تبيانها من خلال هذه النقاط الآتية:

1-بيان المعنى:

لاشكّ أنّ المعنى يقع في بؤرة اهتمام المعجميّ، لأنّه أهمّ مطلبٍ لمستعمل المُعجم³⁸³ ولإجله وُضع المعجم ، وليبيان هذه الوظيفة في معجم العين نُورد مثالا عليها .

يقول الخليل في المادّة [رع] : شابّ رَعَرَعَ؛ حسنَ الاعتدال، رَعَرَعَهُ اللهُ فترَعَرَعَ، ويُجمع الرّعارِعُ³⁸⁴، وأحيانا يورد لنا الخليل تقنيّة أخرى، لبيان المعنى يُصطلح عليها في الدّراسات المُعجميّة ب: " النموذج الأصلي-ostensive definition "؛ وهي وسيلة يستعملها المعجميّ لتقريب المعنى من العالم الخارجي³⁸⁵، ومثاله في ذلك قوله: " والعِصاة: من شَجَرَ الشُّوكِ كالطَّلحِ والعُوسَجِ "³⁸⁶ ففي هذا المثال أراد الخليل بن أحمد الفراهيدي، تقريب معنى (العِصاة) بضرب مثال من العالم الخارجي معروف، لدى الفرد مُتمثلا في نبات (الطَّلحِ والعُوسَجِ)

2-بيان النطق:

من الوظائف الرئيسة التي يؤدّيها المُعجم، بيانُ نطق الكلمة أو صور نُطقها، مع التمييز بين النّطق المعياري والنّطق اللهجيّ، ويتّخذ هذا النّظام في اللغة العربيّة أشكالا حدّدته الرّؤى المعجميّة المُعاصرة، تختصره هذه الوسائل الثلاث³⁸⁷:

- ضبطُ الكلمة بالشّكل.
- النّص على ضبط الكلمة بالكلمات، كأن يُقال بضمّ الأوّل أو بفتح الثاني.
- النّص على ضبط الكلمة، بذكر وزنها أو مثالها.

³⁸³ : أحمد مُختار عُمر ، صناعة المعجم الحديث، (ط.2)، عالم الكتب، القاهرة، 2009، ص:117.

³⁸⁴ : العين ، مادة: (رع).

: صناعة المعجم الحديث، ص:146. ³⁸⁵

³⁸⁶ : العين ، مادّة: (عضه).

³⁸⁷ : صناعة المُعجم الحديث، ص:150.

ومثال ذلك من مُعجم العين، حيث يُورد لنا الخليل قائلًا: "صَحَاكَ يَضْحَكُ ضَحْكًا وَضَحْكًا، ولو قال: ضَحْكًا لكانَ قِياسًا، لأنَّ مصدرَ فَعَلَ فَعَلًا، والضُّحْكَةُ ما يُضْحَكُ مِنْهُ... والضَّحَّاكُ في النَّعْتِ أَحْسَنُ مِنَ الضُّحْكَةِ"³⁸⁸، فيتضح لنا في هذا المقال هذه الوظيفة التي يقوم بها المعجم، من ضبط للكلمة وبيان استعمالها.

3- بيان الهجاء:

المقصود بهذه الوظيفة رصدُ رسم الكلمة، كما يتجّأها اللسانُ نطقًا وهذا واردٌ في بعض اللّغات غير العربية، حيث يختلف رسمها عن هجائها من باب التباين اللهجيّ، أمّا اللّغة العربيّة فيغلب في كتابتها مطابقة الهجاء للنطق، ورُبما لا يحتاجُ المرءُ إلى استشارة المُعجم، إلّا في أنواعٍ من الكلمات التي يُزادُ فيها حرف، مثل مائة أو الكلمات التي ينقصُ فيها حرف مثل الرحمن، أو الكلمات المُنتهية بألف مقصورة ثالثة، مثل الصدى والرّبا ونحوها ممّا يقتضي ردّ الألف إلى الياء، أو الواو لمعرفة كتابتها³⁸⁹.

4- التأصيلُ الاشتقاقي:

يستفيد التأصيلُ الاشتقاقي من علم الإيتيمولوجيا etymology³⁹⁰، حيث إنّ الدورَ المَنُوطَ بهذه الوظيفة، يتمثّل أساساً في معرفة أصل الكلمة، وشكلها وما يلحقها من تطوّرات صوتيّة ودلالية، مع بيانِ العلاقات الاشتقاقية بين اللّغات، التي تنتمي إلى أسرة واحدة، وهذا المبحثُ التأصيليُّ وارد في نصوص العين بكثرة من خلال تأملات الخليل في نظام الأبنية اللّغوية، وما يعترئها من تقلّبات وتقليبات بنويّة مُورفولوجيّة.

³⁸⁸ : العين ، مادة: (ضحك).

³⁸⁹ : صناعة المُعجم الحديث، ص: 151، 152.

³⁹⁰ : مُصطلح الإيتيمولوجيا أو التأثيلية كان يدلّ في بداية الأمر على معنى " البحث عن ما هو حقيقي " وبدأ يتطوّر مدلوله إلى أن استقرّ إلى مدلول قارّ مع بداية عصر النهضة الأوروبية يحمل دلالة مطوّرة ذات أبعاد لغوية جديدة تُحيل إلى معنى جديد ألا وهو " أصل الكلمة - origine du mot " ، يُنظر: encyclopédie philosophique universelle, les notions philosophiques, 1, press, universitaires de France, 1990, tom1, p.900.

إنّ المتأمل في نصوص العين سيقف بين مضامينه، على تصريحات معرفيّة تُعرف في الأدبيات التقنية بصدق المطارحة العلميّة ، ومثل هذا النصّ الذي سنورده للخليل، سيُظهر لنا المعرفة العمليّة الرّصينة للخليل، في أصل الكلمات واستعمالاتها، حيث يقول: "العَصْرُ: لم يُسْتَعْمَل في العربيّة"³⁹¹، هذا الجزم المعرفي بهذه الكلمة ما هو إلّا دلالة، على المعرفة الخليليّة الواسعة بفقّة اللغة وأسرارها، وأصولها وموارد استعمالها.

وما يتّصل بالوظيفة المعجميّة التي نحن بصدها (التّأصيل الاشتقاقي)، فقد عالج الخليل بعض الأبنية فيه مثل الثلاثي المضاعف، حيث يورد قائلاً: "والعربُ تشقُّ في كثيرٍ من كلامها، أبنية المضاعف من بناء الثلاثي المُثقل بحرفي التضعيف، ومن الثلاثي المُعتلّ، ألا ترى أنّهم يقولون: صَلَّ اللَّجَامُ يَصِلُ صليلاً، فلو حَكَيْتَ ذلكَ قُلْتَ: صَلَّ تَمُدُّ اللَّامَ وتُثَقِّلُها وقد خَفَفَتْها في الصَّلصلة، وهما جميعاً صوت اللَّجَام، فالتثقل مدٌّ والتضاعف ترجيعٌ يَخِفُّ، فلا يَتِمَكَّنُ لأنّه على حرفين فلا يتقدّر للتّصريف، حتى يُضَاعَفَ أو يُثَقَّلَ فيجيءُ كثيرٌ منه مُتَّفَقاً، على ما وصفتُ لك، ويجيءُ منه كثيرٌ مُخْتَلِفاً نحو قولك: صَرَّ الجُنْدُبُ صريراً وَصَرَصَرَ الأَخْطَبُ صَلَّصَلَةً، فكأنّهم تَوَهَّمُوا في صوتِ الجُنْدُبِ مدّاً، وتَوَهَّمُوا في صوتِ الأَخْطَبِ ترجيعاً، ونحو ذلك كثيرٌ مُخْتَلَفٌ"³⁹² ، وفي هذا النصّ الذي اقتبسناه دلالة واضحة على فطنة الخليل، إلى فكرة التطوّر التاريخي لبنية الكلمة العربيّة، حيث بدأ الخليل بذكر المُضعف الثلاثي، وهو يشعُرنا بهذا البدء أنّ المُضاعف الثلاثي قائم على الثنائي الذي يُصار منه إلى الثلاثي، وهو من أجل ذلك يدعو بالثنائي ومعنى هذا؛ أنّ طريقة تَضْعِيفِ عَيْنِ الكلمة، هي الطّريقة الأولى في نقل الثنائي إلى الثلاثي، حتى إذا تمّ الثنائي على هذا النّحو انتقلَ إلى الثلاثي، فيستوفيه ثمّ يعرضُ لما زادَ على الثّلاثي في هذا البناء المُرتَّب، على الثنائي ثم نُقِلَ إلى المُضعف، ثمّ إلى غير المُضعف ومن هُنا ندرك أنّ

³⁹¹ : العين ، 277/1، مادة: (ع ص ر) .

³⁹² : المصدر نفسه، 56/1.

الخليل كَانَ على علمٍ واضحٍ ، بأبنية العرب وتطورها التاريخي³⁹³، وعلى هذا النحو استلهم ابن جنيّ الفكرة وطوّرها ، في جهازه الصّرفي في مفهوم " الاشتقاق الكبير " ³⁹⁴ عنده، وهذا التأسيس الاشتقاقي عند الخليل، له ما يُماثله في الدراسات اللسانية الحديثة في تفكيكها لبنية المفردة وهو ما يُصطلح عليه بالإلصاق، ويتمّ ذلك من خلال تعيين الزوائد المقطعية المُلتصقة بمادّتها الأصل (الجزر اللغوي)، وتحديدَهما، وهما اثنان: السوابق prefixes واللاحق suffixes، بوصفهما مُكوّنًا مورفولوجيًا (صرفي/صوتي)، وهذه الخاصية تُعرف بـ (التحوّل الداخلي)؛ وهي خاصية تتميز بها اللغة العربية، على لغاتٍ كثيرة في صوغ أبنيتها، حيث إنّها تعتمدُ على إلصاقِ زوائد الصّيغ، بأوّل الأصل الثابت أو بآخره دون أن يطرأ أيّ تشويشٍ بنيوي، يغيّر الجذر الأصل-radical، من داخله، ولإلصاق في العربية أنماط مختلفة تأتي كلّ واحدة منها، مُختصة بدلالة معيّنة مثل السوابق الخاصة باسم المفعول، أو أسماء الزمان والمكان، كما أنّها تتميز بمجموعة من الزوائد الوسطية، التي تأتي في بعض صيغ الفعل كطاء الافتعال، وعادة ما يُطلق عليها بـ: " الحشو " ³⁹⁵، ولهذا يُمكن القول إنّ النظرية اللغوية عند الخليل، وما تحمله من أبعاد لسانية وركائز معرفية مُمنهجة، هي وليدة نظرة استشرافية، عالمة بأسس التطور التاريخي للمفردة اللغوية.

5-المعلومات الصرفية والنحوية:

تحرصُ المعاجم على إعطاء بعض المعلومات النحوية والصرفية، أثناء شرحها لوحدة معجمية معيّنة، وتتحدّد وظيفتها المُعجمية في بيان التّنوعات الشكلية للكلمات formal variation of word، وبخاصّة في لغة اشتقاقية كالعربية، ويتمّ ذلك من خلال بيان معاني الصّيغ، حتى يكون لوزن الكلمة تأثير في تحديد معناها³⁹⁶، إضافة إلى إبراز الوظائف

³⁹³ : العين، 09/1.

: الخصائص، ص: 220. ³⁹⁴

³⁹⁵ : المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، ص: 44.

³⁹⁶ : صناعة المُعجم الحديث، ص: 154.

النحوية للكلمات grammatical functions، وتسجيلها وبيان صورها، مع الحرص على ذكر النظام الصرفي أحيانا، الذي ينتمي إليه اللفظ³⁹⁷ ويمكن لنا تمثل هذه الوظيفة المعجمية في هذه النصوص، من مُعجم العين للخليل :

• (بابُ: العين والكاف)، يقول الخليل: "العُكَّةُ عُكَّةُ السَّمنِ أَصْغَرُ مِنَ الْقَرْبَةِ، وتُجمَعُ عِكاكا وعُكَّا، والأُكَّةُ لغة في العُكَّة...، تُجعلُ الهمزة بدلَ العين."³⁹⁸

• (بابُ العين والجيم والميم معهما)، يقولُ الخليل : " ... وكذلك الجميعُ إِلَّا أَنَّهُ اسمٌ لازمٌ، يُقال رجلٌ جميعٌ، أي: مُجْتَمِعٌ في خَلْقِهِ، والمسجدُ الجامعُ نعتٌ بهِ لَأَنَّهُ يجمع أهله، ومسجد الجامع خطأ بغيرِ الألف واللام، لأنَّ الاسمَ لا يُضافُ إلى النعتِ، لا يُقال هذا زيدٌ الفقيه "³⁹⁹

• (بابُ: القاف والسين واللام معهما)، يقولُ الخليل: " والأَنَقْلَسُ، بنصبِ اللّام والألف ويُكسران أيضاً وهو سمكة على خِلْقَةٍ حيّة يُقال لها مارماهي "⁴⁰⁰

• (بابُ: التلّيف من " و ا ي ء ")، يقولُ الخليل : " ولا تكونُ إِيَّاءَ مع كافٍ ولا هاءٍ ولا ياءٍ في موضع الرّفع والجرّ، ولكن تكون كقولِ المُحذّر: إِيَّاكَ وَزَيْداً فمنهم من يجعلُ التحذيرَ وغيرَ التحذيرِ مَكْسُوراً ومنهم من ينصبُهُ في التّحذيرِ ويكسِرُ ما سوى ذلك للتّفريقِ "⁴⁰¹

وهكذا تتّضح لنا معالم هذه الوظيفة المعجميّة، في نصوص العين من خلال إعطاء الخليل بعض المعلومات الصرفيّة والنحوية عنها، لِيُبَيِّنَها ويُوضّح استعمالها الصحيح، وفق المنطوق العربيّ الفصيح.

397 : صناعة المُعجم الحديث، ص:154،155.

398 : العين ، مادّة: (عك).

399 : العين ،مادّة : (جمع).

400 : العين ، مادّة: (قلس).

401 : العين ،مادّة: (أي)

6- معلومات الاستعمال:

تُعَدّ معلومات الاستعمال واحدة من وظائف المُعْجَم المهمّة، والتي تتحدّد أبعادها الوظيفية، في تحديد مُستوى اللَّفْظ ودرجته في الاستعمال، ضمن إطار معيّن يصفُ التّنوّع اللغويّ، ويُحدّد مُستواه والسّياق الَّذي يُؤثّر فيه⁴⁰²، وقد نهجت المُعْجِمِيّة المُعاصرة من وضع تصنيفٍ للكلمات، ومعلومات بأنماط اللَّفْظ وأوصافه وأخرى، بتكراره ودرجة شيوعه، وثالثة تتعلّق بحظر الاستخدام أو تقييده أو إباحته، إضافة إلى إعطاء معلوماتٍ تخصّ معيارية اللَّفْظ من عدمه، وحقل التخصّص الَّذي يُميّز مُصطلحاته⁴⁰³، ومُعْجَم العين قد حفل بهذه المباحث الوظيفية، ويُمكن لنا تمثّل أنماطها وأوصاف تقديمها، للوحدات المعجميّة كالآتي:

أ: معلومات تتعلّق باستخدام اللَّفْظ:

كثيرا ما يعالج الخليل في مداخله المعجميّة اللَّفْظ، مُبيّنا وضعيّة استعماله فإمّا أن يكون جاريّ الاستعمال current، مثل باب: "العين والراء والميم-عرم، عمر، رعم، معر، رمع، مرع" فيقول هذه مُستَعْمَلات⁴⁰⁴ أو عكس ذلك، وهذه من أهمّ المبادئ الوظيفية التي ينبغي للمُعْجَمِيّ أن يكون عارفا وعالما بها، وكمثال على هذا الأمر فإنّ الخليل يُقرّ في أحد أبوابه المعجميّة، عدم استعمالٍ للفظ معيّن، حيث يقول: "العَضْرُ: لم يُسْتَعْمَل في العربيّة"⁴⁰⁵، وأحيانا أخرى يضيف معلومة استعمال مثل (المُهْمَل)، وهو ما يُعبّر عنه في المعجميات المعاصرة بالمهجور archaic، حيث يقول مُشيراً إلى المُهْمَل في الأبواب المُعْجِمِيّة، قائلاً: "بابُ العين والكاف والدّال معهما...و ع د ك، ك د ع، ك ع د، مُهْمَلات"⁴⁰⁶، إضافة إلى معلومات أخرى تتعلّق باستخدام اللَّفْظ مثل (المُسْتَحْدَث-neologism)، حيث عبّر

: صناعة المعجم الحديث، ص: 155.402

403 : المرجع نفسه، ص: 159، 156.

404 : العين ، مادة: (عرم).

405 : العين ، مادة: (عصر).

406 : العين ، مادة: (عكد).

عنها الخليل بمصطلح آخر يُعرف بـ: (الدّخيل) ويُعبر عن معناه في سياق الخطاب أحياناً بـ: (الأعجميّ)، يقول الخليل في ذلك: "الأقلّش اسمٌ أعجميّ، وليس في كلام العرب شيئٌ بعدَ لامٍ، مع القاف إلّا دخيل" ⁴⁰⁷

ب: معلومات تتعلق بحظر الاستخدام:

في حظر الاستخدام ترى الدّراسات المُعجميّة الحديثة، أنّه غالباً ما يُوصف اللفظ بهذه الصّفات:

1- مُبتذل / vulgar

2- مقبول / accepted

3- تلطف في التعبير / euphemism

4- محظور / taboo word

وعلى وجه المُقاربة يمكن أن نُمثّل للصّفة الأولى في نصوص العين ، حيث عبّر عنها الخليل بمصطلح (لُغة رديئة)، ونسب هذه الصّفة إلى لغة بني أسد حيث يقول: " كالَ البرُّ يَكِيلُ كَيْلاً والبرُّ مَكِيلٌ، ويجوزُ في القياس مَكْيُولٌ، ولغة بني أسد مَكُولٌ، وهي لُغة رديئة ولغة أردأ: مُكال. ⁴⁰⁸ أمّا الصّفة الأخيرة فقد عبّر عنها الخليل بمصطلحات خاصة مثل : (الشاذ) أو (القبيح) حيث يقول : " المَضد: لُغة في الضمّد في بابهِ، يمانية من المقلوب، ⁴⁰⁹، وله نص آخر يقول فيه : " أَفْلَطَنِي: في لُغةٍ تميم بمعنى أَفْلَنْتَنِي وهي قبيحة ⁴¹⁰

7- المعلومات الموسوعيّة:

⁴⁰⁷ : العين، مادة: (قلش).

⁴⁰⁸ : العين ، مادة: (كلو)

⁴⁰⁹ : العين ، مادة: (مضد)

⁴¹⁰ : العين، مادة: (فلط)

لا يكاد يخلو أيّ مُعجم من إعطاء بعض المعلومات الموسوعية encyclopedic information، التي تتحدّث عن الأشياء مُتجاوزة في ذلك تعريفاتها للألفاظ ، من وجهة مُعجميّة، حيث تشمل هذه المعلومات على التعريف ببعض الأعلام مثلاً، أو بعض المُصطلحات العلمية، أو بعض الأحداث والظواهر الموجودة خارج اللّغة، وذلك لإثارة معلومات القارئ عن العالم الخارجي، من أجل توضيح المعلومة⁴¹¹، ومثل هذه الصّيغة التعريفية ذات المُحتوى الثقافي، حَفَلَ بها مُعجم العين هُوَ أيضاً، من خلال بسطه لبعض المعلومات الموسوعيّة، في بُعديها الثقافي والمعرفي، لأجل توضيح المفردة المُراد شرحها وربطها بالعالم الخارجي ؛ أي وصلها بسياقها الاجتماعي التداولي، التي تُفَعّل فيه مدلولاتها وهُوَ ما يُصطلحُ عليه ب: (مجموعة الممارسة community of practice)⁴¹²، وهو الحقل الذي يلعبُ فيه السياق الاجتماعي، دوراً مُهمّاً في اعتبار العلاقة بين اللّغة ، وموجودات العالم الخارجي علاقة تبادليّة، ولا بأس أن نُورد نصوصاً للخليل بن أحمد الفراهيدي، انطلاقاً من مُعجم العين نُوَضّح فيه هذه الوظيفة .

- يقول الخليل : " ويعقوبُ: اسمُ اسرائيل، سُمِّيَ بِهِ لِأَنَّهُ وُلِدَ مَعَ عِيصُو أَبِي الرّوم فِي بطن واحد." ⁴¹³
- يقولُ الخليل: " وأبرهه اسمُ أبي يَكْسُوم الحبشيّ ملك اليمن الَّذي ساق الفيل إلى البيت فأهلكهُ الله " ⁴¹⁴
- يقول الخليل : " الدَّقْيُوسُ: اسمُ الملكِ الَّذي بنى مسجداً على أصحاب الكهف " ⁴¹⁵
- قالَ الخليلُ : " وَسُمِّيَ ذَا الْقَرْنَيْنِ لِأَنَّهُ ضُرِبَ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى قَرْنَيْهِ " ⁴¹⁶.

⁴¹¹ : صناعة المُعجم الحديث، ص: 160، 161.

⁴¹² : مارك روبنسون، اللّغة نظرياً، تر: خالد شاكر حسين، (ط.1)، دار أوما، العراق، 2012، ص: 19.

⁴¹³ : العين ، مادة : (عقب).

⁴¹⁴ : العين، مادة: (بره).

⁴¹⁵ : العين، مادة: (دقس).

⁴¹⁶ : العين، مادة (قرن).

• قال الخليل: " شَمِرٌ: اسمُ ملكٍ مِنَ اليمن، غزا مدينة السُّغْدِ فَهَدَمَهَا، فَسَمَّيْتُ شَمِرَكَندَ وَيُقَالُ: بُلٌّ هُوَ مَنْ بَنَاهَا، فَأَعْرَبْتُ بِسَمِرَقَنْدٍ "417.

• قال الخليل: "فَيْشُونُ: اسمُ نَهْرٍ "418

والعجيبُ في بعض المعلومات الموسوعيّة، الّتي يقدّمها الخليل، مثل المعلومات الطبيّة وكأنّه يُعايش المخابر العلميّة، في العصر الحديث، يقول في نصّه هذا: "والتّفْسِرَةُ: اسمٌ للبولِ الَّذِي ينظرُ فيه الأطباءُ يُستَدَلُّ بهِ على مَرَضِ البَدَنِ "419

يتّضحُ لنا من خلالِ هذه النّصوص المُقتبسة أنّ (مُعْجَمَ العين)، قد اعتمدَ في تحديده المُعْجَمِي (la définition lexicographique) على مُستوى المعلومات الثقافيّة، والّتي تُعدّ من أهمّ المُستويات في تحديد المداخل المُعْجَمِيّة، بوصفها تتناول جوانب ذات بُعْد ثقافي تتّصل بالمُدْخَل، حيث تقوم بإعطاء معلومات أكثر توصيفا، للفظ المُراد بيانه وتوضيحه لأجل إعطاء صورة واضحة المعالم، تستوعبُ كلّ الخلفيّات المعرفيّة لمَدلول الوحدة المُعْجَمِيّة.

ثانيا: نظريّة التّصنيف المُعْجَمِي عند الخليل؛ مُقاربة منهجيّة في طرائق الوُضْع التعريفية

لأشكّ أنّ أوّل عمل ينبغي لصانع المُعْجَم أن يقوم به، هو " تكوينُ المُدَوْنَةِ المُعْجَمِيّة أو الرّصيد المُعْجَمِي الَّذِي يحصلُ مِنَ التّدوين "420، حيث تُعدّ هذه العمليّة حُطوةً منهجيّة لا بُدّ منها لتأليف المُعْجَم، ويُصطلح عليها في عرف أهل اللّغة بـ: (الجمْع) ، حيث يُعتمدُ فيها

417 : العين ، مادة (شمر).

418 : العين ، مادة (فشن).

419 : العين ، مادة (فسر).

420 : إبراهيم بن مُراد، المُعْجَم العلمي العربي المُختص حتى مُنتصف القرن الحادي عشر الهجري، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص:67.

على مصادر معتمدة تُضفي جانب الأصالة، والموضوعية العلمية في الكشف وعرض المواد المعجمية، ذلك أنّ هذه المصادر يتخذها واضع المعجم، "سندا لوضع مُعْجَمِهِ، وغايتها هي ضبطُ حدود الموضوع ، الذي يتناوله المعجم زماناً ومكاناً، بالإضافة إلى توثيق المادة التي يحتويها المعجم، ففي نطاقها تُدرس المظان التي يرجع إليها المعجمي، لجمع مادته التي يُريد إثباتها في مُعْجَمه"⁴²¹، ومعروف لدينا ممّا علمناه من كُتب الطبقات والمصادر التي أرخت لحركة التأليف، والجمع والتدوين في الثقافة العربية، أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي يعدّ واحداً من الرّاعيل الأوّل، من أئمة الجَمع اللّغوي الذين قاموا بجمع اللّغة من أقطارها، حيث الأصل المشهود له بفصاحة لفظها وقوّة بيانها، وهذا الجمع اعتمد على ثلاث طرق رئيسة (السّماعُ والرّوايةُ والتّدوين)، وما بين أيدينا في معجم العين، من ثروة لغوية هائلة منقسمة إلى ألفاظٍ لغوية عامّة، وإلى مُصطلحات علميّة أو فنيّة وألفاظٍ أخرى بحسب درجتها من الفصاحة، لدليل على ذلك، إضافةً إلى الشّواهد التّوضيحيّة التي استعان بها الخليل، والتي أتت على شكل "عبارة أو جُملة ؛ (يندرج تحته الشّاهد الذي يأتي في منزلة المقدّس مثل القرآن الكريم وأحاديث النّبي صلى الله عليه وسلّم) أو بيت شعر أو مثّل سائر"⁴²²، وذلك لتوضيح "معاني الكلمات وطرق استعمالها والتّمييز بين مدلولاتها الدّقيقة وذلك للتّفريق بين ما قد يبدو مُتشابهاً في ذهن القارئ منها"⁴²³، وهو بهذا الأمر (أي؛ الخليل) قد نجح ووفّق إلى هذه الخطة العلميّة، في تثبيت موادّه المعجميّة، وعمليّة الجَمع تليها في مرحلة ثانية عمليّة أخرى، ذات أبعاد منهجيّة في نظريّة التّصنيف المعجمي، بوصفها طريقة من أبرز طرائق التّحديد ألا وهي (الوَضْع) ،حيث يُوصف هذا الأخير على أنّه " المنهج الذي يعتمده المؤلّف المعجمي، في تخريج المُدَوّنة التي جمّعها في المعجم، فإنّ المُدَوّنة بعد أن يُجمّعها المعجمي مُتقيّداً بمقاييس، وضوابط خاصّة بالمستويات،

⁴²¹ : مُحمّد خميس القطيطي، أسس الصّياغة المعجميّة في كُشّاف اصطلاحات الفنون، (ط.1)، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص:102.

⁴²² : علم اللّغة وصناعة المعاجم، ص: 137.

⁴²³ : الحصيلة اللّغوية أهمّيّتها مصادرها، وسائل تنميتها، ص:217.

والمستويات اللغوية والمجالات الدلالية أو المفهومية، وتوضع في الكتاب المقصود تأليفه منها، اعتماداً على مقاييس أخرى، منهجية يُحدّد بها المُعجميّ لنفسه الطريقة التي يُعالج بها الوحدات المُعجميّة في المُدوّنَة، ليتألّف منها الكتاب، والمنهج الذي يعتمدُه في مُعالجة تلك الوحدات المُعجميّة، يقومُ على رُكنين هُما: الترتيبُ والتعريف ، أمّا عن رُكن الترتيب فإنّ الخليل قد اعتمدَ على تقنية خاصّة كمنهج لبناء مُعجمه، وهي تقنية الترتيب الصوتي مبدوءاً بحرف (العَيْن) ، أمّا بخصوص الرُكن الثاني (التعريف) فالمقصود به هو التعريف المُعجمي، حيث يُعدّ "الرُكن الأساسي في كلّ مُعجم سواء أكان عامّاً أم خاصّاً، وبدونه لا يكونُ المُعجم مُعجماً بالمعنى التام".⁴²⁴، ويقتضي هذا التعريف المُعجميّ الدقّة، واستيفاء الشرح كونه يتعامل مع المعنى بصورة مُباشرة، وذلك من خلال بحثه في "الدلالة التي تحملها الكلمة المُنفردة أو المُتألّفة، مع غيرها من الكلمات"⁴²⁵، وقد يُشكّل هذا الرُكن المهمّ عائناً لدى المُعجميّ وهو يرتّب موادّه ، لأنّها تُعدّ " من أعوصِ الفَنِيّاتِ في المعاجِم "⁴²⁶ ، لأنّ تعريف الألفاظ يُسبّب صعوبات جمّة، لما يطرأ عليها من ظواهر لسانية عديدة ، مثل التغيّر الدلالي، والتوسّع الدلالي والتخصّص الدلالي، واكتساب المعاني الهامشيّة، والتّضام والاستعمالات المجازيّة والتّرادف، والاشتراك اللفظي وغيرها.

أمّا عن طُرُق الوضع في مُعجم العين، فيجوز لنا مقاربتها على النحو الآتي:

أ: التّعريف الصوتي:

المقصودُ بالتّعريف الصوتيّ هو أن تُضبط اللفظة في مستواها النّطقيّ، وما تحتمله من رَسْمٍ إعرابيٍّ يبيّن هيئتها واحتمالاتها الضبطيّة، من رفعٍ أو نصبٍ أو خفض، وفقاً لصيغها

⁴²⁴ : المُعجم العلمي العربي المُختص حتى مُنتصف القرن الحادي عشر الهجريّ، ص:133.

⁴²⁵ : حسن جعفر نور الدين، المعاجم والموسوعات بين الماضي والحاضر، (ط.1)، راشد برس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003، ص:37.

⁴²⁶ : محمد رشاد حمزاوي، المعجم العربي إشكالات ومقاربات، (ط.1)، المؤسسة الوطنيّة للترجمة والتّحقيق والدّراسات ، تُونس، 1991، ص:61.

الصرفيّة، وذلك لتجنّب أيّ خللٍ قد يُؤدّي في تغيّر معناها الأصل، وفي مُعجم العين نتبيّن هذه الطريقة، في الوضع التي تعدّدت في غير مَوْضع، وعلى سبيل المثال يقول الخليل: "وَعَرَبَ الرَّجُلُ يَعْربُ عَرَبًا، فَهُوَ عَرَبٌ وَكَذَلِكَ الْفَرَسُ عَرَبٌ أَي: نَشِيطٌ"⁴²⁷

ب: التّعريف الصرفيّ:

يقومُ التعريف الصرفيّ على ضبط صيغة المادّة، وبيان حدّها اسميّةً كانت أم فعلية، إضافةً إلى بيان أُبنيتها، وموادها الاشتقاقية وأحوالها المعروفة من حيث التذكير، أو التأنيث وغير ذلك من مباحثها الصرفيّة المعروفة، وقد حفل هذا المبحث في مُعجم العين إلى درجة التّحقيق العلميّ، وعبارة الخليل (على غير قياس - على قياس) دليلٌ على ذلك، ولتبيان ذلك نُورد عبارات للخليل حيث يقول: " الْحَقْدُ؛ الاسمُ وَالْحَقْدُ؛ الْفِعْلُ، حَقَدَ يَحْقُدُ حَقْدًا؛ وَهُوَ إِمْسَاكُ الْعِدَاوَةِ فِي الْقَلْبِ، وَالتَّرَبُّصُ بِفُرْصَتِهَا "⁴²⁸، ويُواصل في المادّة نفسها قائلاً: " الْقِدْحَةُ : اسمٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْاِقْتِدَاحِ بِالزَّيْدِ ، وَفِي الْحَدِيثِ (لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ لِلنَّاسِ قِدْحَةً ظُلْمَةٍ كَمَا جَعَلَ لَهُمْ قِدْحَةً نُورٍ) "⁴²⁹، وفي هذا المثال الأخير يتحقّق لدى الخليل وظيفة أخرى من طرق الوضع يُصطلح عليها ب: (التّعريف بالشّاهد)⁴³⁰ ، وهي طريقة يستعين بها المُعجميّ ليوضّح المقصود في ذهن القارئ، من خلال تقنيّة الشّاهد؛ (آية قرآنية أو حديث نبويّ أو بيت شعر أو مثل من الأمثال العربيّة) ، كآلية لتيسير المعنى وإعطائه مشروعية لغوية، يتقوّى بها كدليل، وأحياناً يذهب الخليل إلى تصحيح بعض الصّيغ الصرفيّة، التي شاع استعمالها عن

⁴²⁷ : العين، مادة: (عرب).

⁴²⁸ : العين مادة: (قدح)

⁴²⁹ : العين، مادة: (قدح)

⁴³⁰ : محمد رشاد حمزاوي، النظريات المُعجميّة وسبلها الى استيعاب الخطاب العربي، (ط.1)، مؤسسات عبد الكريم بن

عبد الله ، تونس، 1999، ص:47.

طريق الخطأ، ويظهر هذا في قوله: "ويقول بعضهم في تصغير (أم) أُمَيْمَة، والصَّوَابُ أُمَيْهَة تُرَدُّ إلى أصل تأسيسها" ⁴³¹

ج: التعريف بالمترادف:

يقترح هذا التعريف للمدخل المعجمي، " تعبيراً يُعادلُه معنى ويُخالف لفظاً، وهو إما أن يكون لفظاً مُقابل لفظ، يُراد به تثبيت المعنى المقصود، فيعرّف المدخل بكلمة واحدة، أو يكون مجموع كلمات مُترادفة تفسّر الكلمة المراد تبيانها، تفسيراً كلياً أو تقريبياً " ⁴³²، وعلى هذا النحو يقول الخليل : " الرُّعْبُ: الخَوْفُ، رَعِبْتُ فلاناً رُعْباً ورُعْباً فهو مرعوبٌ، مُرْتَعِبٌ، أي: فزعٌ " ⁴³³

ج: التعريف بالتضاد:

ويكون ذلك بالاعتماد على ألفاظٍ، تُفيد الضدَّ والنقيضَ والخلاف ⁴³⁴، وهو تحديد يقوم على المخالف والمغاير، وهذا التعريف حفل به مُعجم العين في أكثر من مدخل، ولنضرب أمثلة على ذلك، حيث يقول الخليل: " العَجَمُ ضدَّ العَرَبِ " ⁴³⁵، ويقول أيضاً: " الجُحود ضدَّ الإقرار كالإنكار والمعرفة " ⁴³⁶ ، ونجده يستعمل تعبيراً آخر، يدلّ على الضدّ حيث يقول: "أَحْبَبْتُه: نقيض أبغضته " ⁴³⁷، ويقول في موضع آخر : " القُبْحُ والقباحة: نقيضُ الحُسْنِ، عامٌّ في كلّ شيء . " ⁴³⁸

⁴³¹ : العين ، مادة: (أمه).

⁴³² : المُعْجَمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ضَوْءِ مَنَاهِجِ الْبَحْثِ اللَّسَانِيِّ وَالنَّظَرِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، ص: 173.

⁴³³ : العين ، مادة: (رعب).

⁴³⁴ : المُعْجَمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ضَوْءِ مَنَاهِجِ الْبَحْثِ اللَّسَانِيِّ وَالنَّظَرِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، ص: 173.

⁴³⁵ : العين ، مادة: (عجم).

⁴³⁶ : العين، مادة: (جدد).

⁴³⁷ : العين، مادة: (حب).

⁴³⁸ : العين، مادة: (قبح).

هـ: التعريف المنطقي:

وهو تعريف " خارج عن اللغة يعتمد المنطق، فهو يُصنّف الكلمات بحسب المحسوس والمُجرّد، والحقيقة والمجاز، وكثيرا ما يُفسّر المدخل بجُمْلٍ أو بنصّ يصف مضمونها، من دون أن يُعرّفها لُغَوِيًّا "439، وهذا التعريف " يهتمّ بالجانب الوصفي الذي يحيطُ بمميّزات وخصائص المعرّف، والملاح القابلة للفرز والتعدّد وفقا لتعدّد الحدود والمعاني، ثمّ يسعى ليشملها جميعا، مهما كانت درجة هذه الخصائص المتوافرة، التي تتضمنها الموضوعات "440 وقد وردت هذه الخصائص في مُعجم العين، في نسبة مُتوسّطة تقديراً كمنهج يُحاول إبراز الملاح، والمميّزات للمعرّفات من الأشياء، وأمثله كالآتي :

- قال الخليل : " وَقَوْسٌ قُزَحٌ : طريقةٌ متقوّسة تبدو في السّماء أيّام الربيع "441.
- قال الخليل : " الْقَحْطُ : اختباس المطر، قُحِطَ الْقَوْمُ وَأَقْحَطُوا، وَقُحِطَتِ الْأَرْضُ فهي مقحوظة، أو قَحَطَ المطرُ أحتبس "442.
- قال الخليل : " اللَّهَثُ : لهث الكلب عند الإعياء، وعند شدّة الحرّ، وَهُوَ إِدْلَاغُ اللّسانِ مِنَ الْعَطَشِ "443.
- قال الخليل : " والنّهَارُ : ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشّمس "444
- قال الخليل : " البرهان : بيان الحُجّة وإيضاحها "445

و: التعريف النحوي:

439 : محمد رشاد حمزاوي، من قضايا المعجم العربي قديما وحديثا، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص:166.

440 : المُعْجَمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ضَوْءِ مَنَاهِجِ الْبَحْثِ اللَّسَانِيِّ وَالنَّظَرِيَّاتِ التَّرْبُويَّةِ الْحَدِيثَةِ، ص:178.

441 : العين ، مادة:(قزح).

442 : العين،مادة: (قحط).

443 : العين، مادة: (لهث).

444 : العين، مادة: (نهر).

445 : العين، مادة: (بره).

ينطلق هذا النوع من التعريف من إعطاء بعض المعلومات النحويّة، التي يقدّمها المعجميّ وهو يفسّر مدخلا معيّناً، يقوم من خلاله بتفسير اللفظة وأحوالها، وأحياناً يعرض فيها المسألة، ويثبّت بإبداء بعض الخلافات الواقعة في استعمالاتها، وتجد المعجميّ فيها أحياناً يستغلّها كفرصة علميّة، كي ينتصر لمذهبه النحويّ مدّعماً رأيه بما عهدته العرب الفصيحة، في لغة من لغاتها المُستشهد بها .

يقول الخليل : " الحَكْرُ : الظُّلم في النّقص وسوء المُعاشرة، وفُلانٌ يَحْكُرُ فلانا حَكْراً والنَّعتُ حَكير، والفعلُ احْتَكَرَ وصاحبه مُحْتَكِرٌ".⁴⁴⁶، في هذا المثال يمكن لنا القول إنّ الخليل هنا، يقدّم معلومة نحوية ذات بُعد وظيفي grammatical functions، تتعلّق بمعياريّة انتظام السّمات النحوية، من حيث الصنف "اسم/فعل" أو الهيئَة " حال/نعت "، وفي مقام آخر نراه يعرض بالشرح والتفسير، وهو يعالج مدخلا معجميّاً من وجهة نحوية علميّة، حيث يقول: " أم: حرف استفهامٍ على أوّلِهِ فيصيرُ في المعنى، كأنّه استفهامٌ بعدَ استفهام، وتفسيرُها في باب(أو) ويكون (أم) بمعنى (بَل)، ويكون (بَل) الاستفهام بعينها،كقولك: أم عندكم غداً حاضرٌ،أي: أعِنْدُكُمْ وهي لغة حسنة، ويكون (أم) مُبتدأ الكلام في الخبر وهي لغة يمانية".⁴⁴⁷

ز: التعريف بالشّاهد:

طريقة التّحديد بالشّواهد تُعدّ من الآليات، التي استعملها الخليل في معجمه وهو يشرح اللفظ ضمن سياقات مُعيّنة، مُستعينا بنصوص موثوق من صحّتها، كالقرآن الكريم والحديث النبويّ الشّريف، والشعر العربيّ الفصيح، إضافة إلى نصوص أخرى، مثل الأمثال والحكم

⁴⁴⁶ : العين، مادة (حكر)

⁴⁴⁷ : العين، مادة : (ام).

في أقوال العرب، وذلك لتوضيح المعنى وفكّ الإبهام عنه، ومن أمثلة ذلك في نصوص العين ما يلي:

• **الشاهد من القرآن الكريم:** قال الخليل: " وَأَتَّبَعَ فُلَانٌ فُلَانًا إِذَا تَبِعَهُ يُرِيدُ شَرًّا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ ذَكَرَهُ (فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ١٧٥) "448.

• **الشاهد من الحديث النبوي:** قال الخليل: " وَمُقَحَّصُ الْقَطَا؛ مَوْضِعٌ تُقَرَّخُ فِيهِ، وَفِي الْحَدِيثِ (فَحْصُوا عَنْ أَوْسَاطِ الرُّؤُوسِ) أَي: عَمَلُوهَا مِثْلَ أَفَاحِيصِ الْقَطَا "449.

• **الشاهد من الشعر العربي:** قال الخليل: " الْكَفْحَةُ: الزُّبْدَةُ الْمُجْتَمَعَةُ الْبَيْضَاءُ الْجَيِّدَةُ، قَالَ:

لَهَا كَفْحَةٌ بَيْضًا تَلُوخُ كَأَنَّهَا **** تَرِيكَةً قَفَرٍ أُهْدِيَتْ لِأَمِيرٍ "450.

• **الشاهد من قول العرب:** قال الخليل: "العرب تقول: جاء فلان يتصنع إلينا، أي: يذهب بلا زادٍ ولا نفقةٍ ولا حقٍّ ولا واجبٍ "451.

في حين غابت تحديدات وطرق وضع، أقرتها المعجمية المعاصرة في مُعْجَم العين مثل **التَّحْدِيدُ بِالْإِحَالَةِ** إذ المقصود بها: " تحديد مدخل في موضع تكرار ما إلى تحديد وارد في موضع آخر، غالبا ما يكون سابقا لتقادي التكرار "452 إضافةً إلى طريقة **التعريف بالصّور**؛ حيث تظهر هذه التقنية في المعاجم الحديثة، التي تأخذ منحى علمياً تعليمياً يحيل إلى الشيء المُسمّى عبر صورة توضيحية مصحوبة، بتقيدات دلالية مشروحة

448 : العين ، مادة: (تبع).

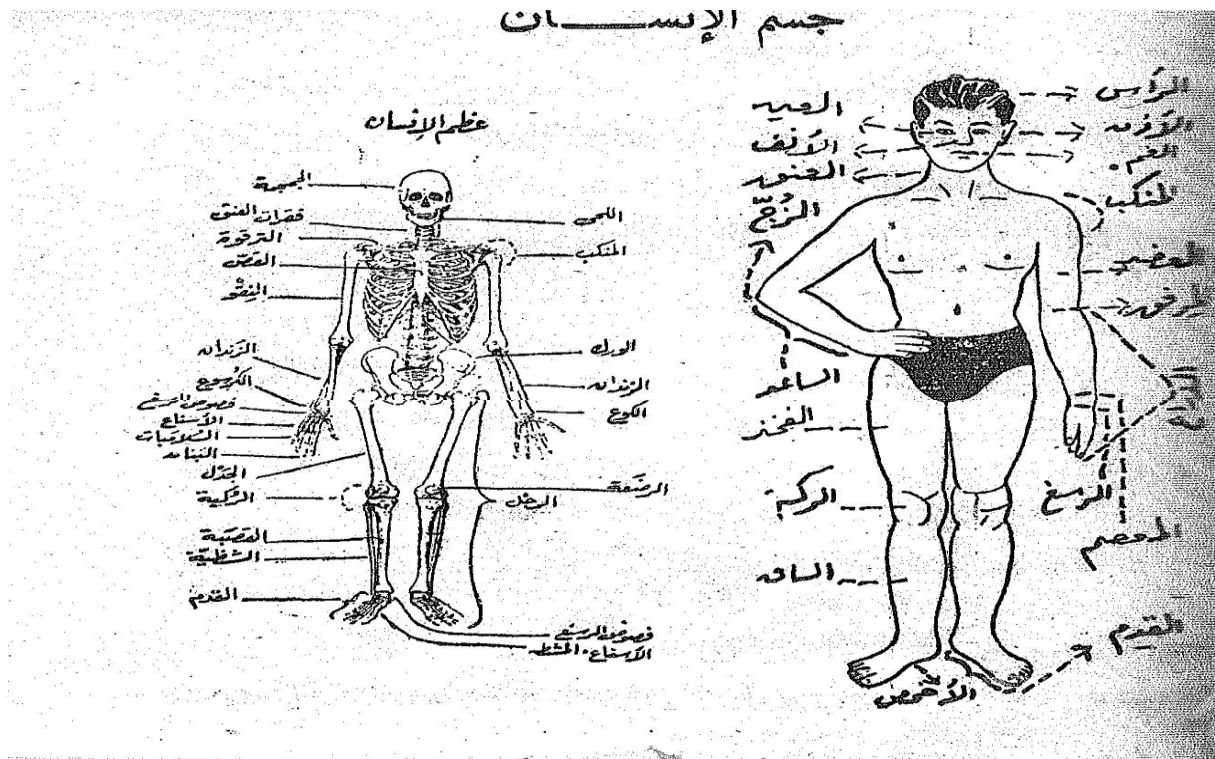
449 : العين، مادة: (فحص).

450 : العين، مادة: (كفخ).

451 : العين، مادة: (صنع).

452 : المُعْجَمِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي ضَوْءِ مَنَاهِجِ الْبَحْثِ اللَّسَانِيِّ وَالنَّظَرِيَّاتِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، ص:176.

بطريقة مفهومة ومُباشة ، وهو ما اعتمدته بعض المعاجم الحديثة، مثل الإصحاح في فقه اللغة، من خلال هذا الرسم التوضيحي⁴⁵³:



حَوْصَلَةُ وَاسْتِنْتَاJ

توصلنا في هذا المبحث إلى استنتاج هذه النقاط الآتية:

1- يُعَدُّ مُعْجَم (العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي، أصل المعاجم العربيّة منها
وتأليفها، اعتمدَ على طُرُق مُبتكَرة في الصناعة المعجمية ، واستحقَّ بذلك أن ينفرد
باسم (المدرسة الخليليّة)، فمن معينه اتخذت المعاجم اللاحقة، واستلهمت فكرة
إنشاء معاجم بطرق وكيفيات خاصّة.

2- إِنَّ المتأمل في البناء المنهجي الذي قامَ عليه مُعجم العين ، وما حواه من جذور عربية باختلاف موادها، سواء كانت مُستعملة أم مهملة، بطريقة حسابية متفردة

453 : حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللّغة، (ط.4)، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، مصر ، 2015، ص: 91.

ومُبتكرة، لدليل قاطع على إبداع العقل الخليلي ولسمته العلميّة، الّتي عُرف بها وأنّ هذا المُعجم من صُنْعِهِ، وهو ما لا يدع لنا مجالاً للشكّ في نسبته للخليل.

3- يُعدّ (العين) مادّة معرفية سعت إلى وصف العربيّة، وكيفية استعمالات اللفظ وتنوّعاته من لغة إلى أخرى، جمع فيه الخليل مصادر لغوية متنوّعة، سعت إلى تفسير دواله والكشف عن مدلولاته، تراوحت هذه المصادر بين ما هو مقدّس بدءاً بالقرآن الكريم وأحاديث النبيّ صلى الله عليه وسلّم، إلى ما هو في درجة الفصح بدءاً بالشّعْر، والنصوص النثرية الأخرى كالْحِكم، والأمثال السائرة.

4- إنّ وجه المقاربة وفق المعطيات المعجمية الحديثة، أبان لنا عن وعي علميّ امتاز به الخليل، وسبق منهجي في هذا المضمار، مثل تنظيم المداخل المعجمية وترتيبها وفق منهج معيّن، إضافة إلى اختراعه لطرق مُبتكرة تكشف عن أصالة اللفظ، ويمكن لنا وصف هذا الصّنيع بأنّ الخليل أوّل من وضع فكرة (**adn** اللّغوي)، مُماثلة لما تفعله المخابر العلمية الحديثة، في وضعها للأحماض النووية في الكشف عن أصالة الشّيء.

المستوى النحوي والصرفي

أولاً : المستوى النحوي

في نشأة النحو:

إنَّ المتأمل في المصادر التي أرخت للنحو العربي، والمُنقَّص في نصوصها التي تتعلّق بنشأة النحو وأسبابه، تجعل من الدارس والباحث في هذا المجال، يقف أمام قضية جدلية متناقضة في سرِّ مروياتها، إذ تعرض لمجموعة من الأقوال المختلفة، والتي تُلصق الأمر ببوادِر أو اندفاعات فردية ، فهي تختلف في تخصيص أول من رسم النحو، فمن قائل إنَّ أبا الأسود الدؤلي هو أول واضع لأسس العربية: " كان أول من أسس العربية ، وفتح بابها وأنهج سبيلها ، ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي ... وكان رجل من أهل البصرة ، وكان علوي الرأي ... وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة ولم تكن نحوية فكان سراً للناس يلحنون ووجوه الناس، ووضع باب الفاعل والمفعول به، والمضاف وحروف الرفع والنصب والجرّ والجزم." ⁴⁵⁴ ، ورواية أخرى تُسند أولية وضع النحو العربي إلى نصر بن عاصم الليثي، وهي رواية محمد بن الحسن بن هلال المعروف بـ: "محبوب البكري" عن خالد بن مهران " خالد الحذاء " ، إذ قال: " سألت نصر بن عاصم وهو أول من وضع العربية: كيف نقرأها " يريد سورة الإخلاص " قال: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١) لم يُنَوَّن، قال فأخبرته أن عروة يُنَوَّن، فقال بنسما قال وهو للبئس أهل، فأخبرت عبد الله بن أبي إسحاق بقول نصر بن عاصم ، فما زال يقرأ بها حتى مات ⁴⁵⁵، ووردت رواية مقطوعة تذكر أن عبد الرحمن بن هرمز، كان هو الآخر من أرسى مبادئ العربية ، إلا أن عامة المؤرخين الأوائل للنحو العربي، مثل الحلبي والزبيدي وابن النديم، يروون من زعم أن أول من وضع النحو هو

454 : أحمد جلايلي، مقدّمة لأصول النحو العربي، (ط.1) ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2013، ص: 96.

455 : المرجع نفسه، ص: 104.

عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، أو نصر بن عاصم، فليس بصحيح لأن عبد الرحمن بن هرمز، أخذ عن أبي الأسود، وكذلك أيضاً نصر بن عاصم أخذ عن أبي الأسود⁴⁵⁶.

فالخلاف في أوليّة وضع النّحو، واضح في مثل هذا النصوص التي ذكرناها آنفاً، حيث تذكر فيها ثلاثة أسماء، هم: أبو الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم، عبد الرحمن بن هرمز وهذه النصوص لا تحصر جميع العلماء المختلف فيهم، فمن الأخبار من ترجع البداية إلى علي بن أبي طالب، بل تذكر رواية أخرى أنّ دعوة وضع النّحو، كانت بأمر من عمر بن الخطّاب، حيث قال: "تعلّموا النّحو كما تعلّمون السنن والفرائض".⁴⁵⁷، وعلى ذكر ماسبق حول قضية نشأة علم العربية، وعن ورود أكثر من رواية تؤرخ لوضعه، كان من المنطقي أن نجد أسباب وضعه، في بعض جوانبها المبهمة تضرب من نص إلى آخر، فأحياناً نجدها تتصل بمناسبات فردية محدودة، فهي مرة بإشارة الإمام علي إلى أبي الأسود، في أمر فساد العربية بسبب اختلاط العرب بالأعاجم، ويمثل هذا القول أقوى الأقوال عند كثير من الباحثين، وأخرى سماع أبي الأسود لمن قرأ آية، لحن في إعرابها وسماع ابنته وهي تخط بين أسلوبَي الاستفهام والتعجب، أو أنه سمع أعجمياً لا يقيم الكلام كما ينبغي له، فأشفق عليه وأحس بأن هؤلاء المسلمين من غير العرب، حين دخلوا في الإسلام أصبحوا إخواناً لهم وبهذا وجب على العرب، أن يساعدوهم في فهم لغة القرآن، والنطق بالعربية نطقاً سليماً⁴⁵⁸، وذهب نفر من الدارسين، إلى أن علم العربية استمد نشأته من آثار أجنبية ورأيهم في ذلك، أن العقلية العربية لم تكن مؤهلة في تلك المرحلة لوضع هذا العلم، ونعتمد في هذه المسألة على نوعين من القرائن⁴⁵⁹ هما:

⁴⁵⁶ : نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص: 31.

⁴⁵⁷ : مقدّمة لأصول النحو العربي، ص: 105.

⁴⁵⁸ : موضوعات في نظرية النحو العربي: ص37.

1: سلك هذا الاتجاه في الدراسة : الدكتور زهير غازي زاهد في كتابه موضوعات في نظرية النحو العربي، والدكتور حسن عون في كتابه اللغة والنحو، والدكتور عفيف دمشقية في كتابه تجديد النحو العربي.

1- الوقائع التاريخية والأقوال المروية بعد التفحص من صحتها، والتدقيق فيها وتحليلها تحليلًا موضوعيًا.

2- العقل وما يهدي إليه من فرضيات ونتائج ، تعتمد على وثائق تُساعد الدارس للوصول إلى القطع في الأمر، أو ما يُقرب من القطع في الوُضوح، لهذه المرحلة التي مهّدت لنشأة النحو، حتى لا تبقى غامضةً مَحُوطَةً بالظلام .

بدايات نحويّة قبل عهد الخليل : "مرحلة تمهيدية مؤسّسة"

دأب أصحاب الطبقات على أن يرجعوا بالدرس النحوي، إلى أبي الأسود الدؤلي ويجعلوا بين أبي الأسود والخليل بن أحمد، طبقات من الدارسين النحويين، وجعل أبو بكر الزبيدي الخليل بن أحمد في الطبقة الخامسة، من طبقات النحويين واللّغويين، غير أنهم كانوا إذا ترجموا لعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، نسبوا إليه مدّ القياس والعلل، وتكاد أقوالهم تُشير إلى أنه ، ومن كان معه في طبقة خطوا بالنحو خطوات، يرددون لهم أقوالاً في النحو هي من موضوعات النحو بمعناه الخاص، مُعتمدين في ذلك على النقول المنسوبة إليهم في "الكتاب"، وعلى روايات أخرى وصلت إليهم بطريق أخرى ، وكان ينبغي لهم ألا يتجاوزوا هذه الطبقة ، لأنهم لم يقفوا على أقوال نحوية لرجال الطبقات التي سبقتها ، وكل ما هنالك أن رجال تلك الطبقات ، كانوا قد قاموا بأعمال قرآنية فسّرت بأنها أعمال نحوية⁴⁶⁰؛ ولعل من هذه الأعمال الجليّة التي عدّت صنيعاً عظيماً ، هو ما توصّل إليه أبو الأسود الدؤلي إلى ابتكار رموز، تضبط أواخر الكلم في النص "نقط الإعراب"، الذي ارتآه أقرب الحلول لتقطيع القرآن، كي يُفصح عن عجمة رسمه ، لاسيما لأولئك الحمرء " الأعاجم"، أو غيرهم من بني جلدّة العرب، الذين كانوا يعانون من كثرة الخلاف في قراءة القرآن ، لما يحتمله رسم الكلمة في المصحف لأكثر من وجه ، وذلك لخلوّه من الصواب التي تحدّد لفظه ومعناه ، فكان لنقط الإعراب بالغ الأهمية، ليُصبح القارئ بعد ذلك على هدى، من أمر أواخر الكلم

في قراءته، وليؤدّيها على وجه الصواب وفقاً للغة القرآن ، وتحدّثنا كتب الأخبار والروايات أنّ أبا الأسود الدؤلي، اتخذ كاتباً من عبد القيس، وطلب إليه أن يضع النقط وفق قراءته، وذلك في نصّه المشهور : " إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نُقْطَةً فَوْقَهُ عَلَى أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ضَمَمْتُ فَمِي فَأَنْقُطُ نُقْطَةً بَيْنَ يَدَيِ الْحَرْفِ، وَإِنْ كَسَرْتُ فَأَجْعَلُ النُّقْطَةَ تَحْتَ الْحَرْفِ ، فَإِنْ انْبَعَثُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ غَنَّةً فَأَجْعَلُ مَكَانَ النُّقْطَةِ نُقْطَتَيْنِ".⁴⁶¹ ، وفي رواية أخرى عن الزبيدي عن المبرد أنّه قال: "أول من وضع العربية ونقط المصاحف ، أبو الأسود ظالم بن عمرو".⁴⁶² وكان اكتمال هذه العملية واستوت على سوقها ، "بنقط الإعجام" الذي أتى به نصر بن عاصم الليثي ، وذلك بإيجاد رموز تميّز الحروف المتشابهة في رسمها ك: الحاء "ح"/ الخاء "خ"/ الجيم "ج" فالإعجام الحاصل لموضع النقطه - بين الخاء والجيم ، وانعدامها في الحاء، هو ما يميّز لنا بين هذه الحروف المتشابهة في رسمها ، كما نسب إلى أبي الأسود أيضاً أنّه عمل أبواب نحوية ، ونكرّر في هذا المقام أقدم الروايات المدونة في هذا الأمر، وهو ما ذكره ابن سلام الجمحي : " وكان أول من استنّ العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع قياسها، أبو الأسود الدؤلي وكان رجل البصرة...، وإنما قال ذلك حين اضطرب كلام العرب، فغلّبت السليقة ولم تكن نحويةً ، فكان سُرّة الناس يلحنون ووجوه الناس ، ووضع باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الرفع والنصب والجرّ والجزم ."⁴⁶³

مرحلة التّضج في عهد الخليل .

⁴⁶¹ : أخبار النحويين البصريين ، ص:12.

⁴⁶² : طبقات النحويين واللغويين ، ص: 14.

⁴⁶³ : محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، (د.ط) دار المدني، جدة، 2010 ،

يتقدّم بنا الزّمن قليلاً ليتّضح لنا هذا العِلْمُ كائناً حيّاً، يتّسم بالنّضج والاكتمال ، نضجت فيه قضاياهُ ومسائله، وتكاملت بُنيته وقام هيكله بمعناه العام في البصرة ، بإشراف طبقة تُسند إليها السّيادة في المنهج، مثل عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي[ت117هـ] ، وأبي عمرو بن العلاء[154]، وغيرهم من الصّفوة الأعلام ، وكان النّحوي الذي منحه النّضج والاكتمال هو الخليل بنُ أحمد الفراهيدي، أكبر علماء العربيّة ومِفْتَاحُ علومِها، كما وصفه أحد مترجميه⁴⁶⁴ ، وعنه قال المُستشرق الألماني "كارل بروكلمان": "هو المؤسّس الحقيقي لعِلْم النّحو الذي وضّعه سيبويه، في كتابه بعد أن تلقّاه عنه و تعلّمه منه".⁴⁶⁵ فقد جُمِعت أُماليه في حفظ وأمان، وبكلِّ مِصادِقيّة علميّة وإتقان، على يد تلميذه العبقريّ، المُريد له "سيبويه" ، "ذلك الرّجل الذي وهبه الله ملكة التّصنيف والتّسبيق ، فأبدع في تأليف "الكتاب" ، فلم يَحُدْ فيه حَدُّو كِتَابٍ، ولم يكن فيه على منْهَجٍ سابق ، وفيه أُسْنَدٌ كثيرًا من الآراء النّحويّة ضمناً، أو صراحةً إلى أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، التي بلغت آراؤه في "الكتاب" أكثر من خمسمائة رأي"⁴⁶⁶، وقد اشتملت على كثيرٍ من الظواهر اللّغوية بمختلف أبحاثها ، الصّوتية واللّغوية والنّحوية والدّلالية ، وبهذا يكون الخليل بن أحمد الفراهيدي، قد أرسى معالم نظرية تركيبية، يشهدُ عليها شاهدان حَكمان عدلان وهما : "معجم العَيْن" و "الكتاب"

الخليلُ بن أحمد وأصول النّحو :

يُقصدُ بأصول النّحو : ذلك العِلْمُ الذي تُعرَفُ به أدلّة النّحو النّقليّة والعقليّة، التي لجأ إليها النّحويون لاستخراج أحكام النّحو وقواعده⁴⁶⁷ ، وقد عرّفه الإمام جلال الدّين السيوطي بقوله: "هُوَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عن أدلّة النّحو الإجماليّة ، من حيث هي أدلّته ، وكيفية الاستدلال

⁴⁶⁴ : الفراهيدي عبقرى من البصرة ، ص:75.

⁴⁶⁵ : تاريخ الأدب العربي ، 131/3.

⁴⁶⁶ : ، مقدمة في أصول النحو، ص: 191 .

⁴⁶⁷ : مخلوف بن لعلام ، مبادئ في أصول النّحو ، (ط.1) ، دار الأمل، الجزائر، 2012، ص:11.

وحال المُستَدَل .⁴⁶⁸ ، وفائدته هو " التّعويلُ على إثباتِ الحُكم على الحجّة والتّعليل، والارتفاع عن حضيض التّقليد، إلى الاطلاع على الدّليل فإنّ المخذ إلى التّقليد، لا يعرف وجه الخطأ من الصّواب ، ولا ينقل في أكثر الأمر عن عوارض الشك والارتياب .⁴⁶⁹ ، وتتنحصر أدلّة النحو عند الخليل في أربعة أصول : السّماع والقياس والعلة والعامل.

1- السّماع:

يُقصدُ به: كلّ ما تلتقطه أذن السّامع من أصواتٍ منطقيّةٍ ، كألفاظ البشر أثناء حديثهم وكلامهم فيما بينهم، أو عكس ذلك كأصوات بعض الجمادات، كخريف المياه أو أصوات بعض الحيوانات، " وتقول : سَمِعْتُ أُذُنِي زَيْدًا يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، أي: سمعته، كما تقول: أَبْصَرْتُ عَيْنِي زَيْدًا يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا ، أي : أَبْصَرْتُ بَعَيْنِي زَيْدًا "⁴⁷⁰ ويُقصدُ بالسّماع عند النحويين " هو تلك اللّغة المُستعملة فعلاً من قبل أهلها النّاطقين بها ،-المثاليين- قبل أن تُوضَعَ لها القواعد . "⁴⁷¹، ويعرّفه ابنُ الأنباري قائلاً : " النّقلُ هو الكلامُ العربيّ الفصيح المنقول بالنّقل الصّحيح، الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة."⁴⁷² ، وقد جعله النّحاة الأصل الأوّل من حيث قوّة حجّيته ، وهو الأساس في الاستدلال على أحكام النّحو ، فلا يصحّ حُكم نحويّ دون دليلٍ من السّماع، حتى ولو كان مقبولاً في القياس.

وقد اعتَمَدَ الخليل في تأصيله لقواعد النّحو، وإقامة بنيانه على السّماع⁴⁷³، شأنه شأن النّحاة الذين عاصروه ، أو السّلف الذي سبقه ، فقد سلك سبيلهم في سعة سماعهم وكثرة رحلاتهم إلى البادية ، لاستنباط اللغة القحّة من مضائّها، آخذاً بالمنهج المُتبّع في عملية

16: السيوطي عبد الرّجمن بن أبي بكر ، الاقتراح في علم أصول النّحو ، تع : عبد الحكيم عطية، مر: علاء الدّين عطية ، (ط.2)، دار البيروني، دمشق، 2006، ص:21.

⁴⁶⁹: الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة ، ص:80

⁴⁷⁰: العين ، مادة : (سمع)

⁴⁷¹:صالح بلعيد ، في أصول النّحو ، (ط.1)، دار هومة ، الجزائر، 2005، ص: 32.

⁴⁷²: الإغراب في جدل الإعراب و لمع الأدلة ، ص:81.

⁴⁷³: المدارس النحوية ، ص: 46.

السَّماع الَّذي يبدأ بالتأملات، وينتهي بالكشف عن القواعد، الَّتِي تجعلهُ مِنَ الحينِ إلى الآخر يقفُ أمامَ ظواهر، تحتاج إلى تأمل واستقراء، ليجدَ نفسه بين البدء والانهاء في عملية السَّماع، يقوم بالتصنيف والتقسيم والاستقراء ، وهذه مهمة شريفة بطابعها العلمي ، لا يأخذ بناصيتها وبزمام أمرها، إلا لُغويّ فاحص من العيار الثَّقل يمتنعُ بدقّة الملاحظة، والنظر الثَّاقب، متصفاً بالصبر والأناة ، ليقفَ في الأخير على النتيجة المطلوب تحقيقها .

ومما رَوتهُ كتبُ الطبقاتِ عن الخليل، في موسمِ حجّه بينَ كلِّ حَوْلٍ وحَوْلٍ ، كانَ يسمَعُ كلامَ العربِ وهم في بطونِ بواديهم ، يجمعُ اللّغةَ من ينابيعها الأصيلة، يُحدثهم ويُشافهُهم، ويحفظ عنهم ويأخذُ من أساليبهم شِعراً ولُغةً ، ويُروى أنَّ الكِسائي قد سألَ الخليل يوماً مُتعباً ومُسْتَقْسِراً في الآن نفسه ، مُنبرهاً لكثرة ما يحفظ ، قال له : " من أينَ أخذتَ عِلْمَكَ هذا ؟ فأجابهُ : منْ بوادي الحجاز ونجد وتهامة ."⁴⁷⁴، والمتأمل في مُعْجَمِ العَيْنِ أو كتابه "الجمال في النحو" ، الذي حقّقه الدكتور فخر الدّين قباوة، أو منظومته النّحوية الَّتِي تُنسبُ إليه، بتحقيق الدكتور أحمد عفيفي وهي مدار الشّك واليقين، بين كثيرٍ من الدّارسين، والنّاظر بالأخصّ في كتابِ سيبويه سَتَسَوِّقُهُ كثيرٌ من النّصوص، الَّتِي يتجلى فيها "أصلُ السَّماع" ، فتري الخليل آخذاً بهذا الدّليل وشروطه معه، كمعيار الفصاحة ، وصفة من تُرتضى عربيّته،النّقل عن الثّقات، وهذا دليلٌ على أنَّ الخليل لم يخرج عن منطق البصريّين، في جمع اللّغة .

وهذه بعضُ النّماذج تُثبتُ صحّة ما أوردناه :

*نماذج من الكتاب :

- وزعمَ الخليلُ رحمه الله أَنَّهُم يقولون : مُطَرْنَا الزَّرْعَ وَ الصَّرْعَ.⁴⁷⁵

⁴⁷⁴: إنباه الرّواة على أنباه النّحاة ، 2/ 257.

⁴⁷⁵: الكتاب ، 1/ 154.

- وَحَدَّثَنِي مَنْ لَا أَتَّهِمُ عَنِ الْخَلِيلِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: "إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السَّتِينَ فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابَّ" ⁴⁷⁶

- وَزَعَمَ الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ: "يَا أَنْتَ فَرَعَمُ أَنْهُمْ جَعَلُوهُ مَوْضِعَ الْمَفْرَدِ ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: "يَا" فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ يَا زَيْدَ ثُمَّ تَقُولُ : إِيَّاكَ ، أَيُّ: إِيَّاكَ أَعْنِي " . ⁴⁷⁷

- قَالَ " يَعْنِي بِهِ الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ " : سَمِعْنَا مِمَّنْ يَرَوِي هَذَا الشَّعْرَ مِنَ الْعَرَبِ يَرْفَعُهُ ⁴⁷⁸:

مَنْ يَكُ ذَا بَتٍّ فَهَذَا بَتِّي *** مَقِظٌ مَصِيفٌ مُشَتِّي

- وَحَدَّثَنَا عَنِ الْخَلِيلِ أَنَّهُ سَمِعَ مَنْ يُوثِقُ بِعَرَبِيَّتِهِ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَهُوَ قَوْلُ الشَّمَاخِ ⁴⁷⁹:

وَكُلُّ خَلِيلٍ غَيْرُ هَاضِمٍ نَفْسِهِ *** لَوْصَلِ خَلِيلٍ صَارِمٌ أَوْ مُعَازِرُ

وَزَعَمَ " يَعْنِي بِهِ الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ " أَنَّ مِنَ الْعَرَبِ، وَ قَدْ سَمِعْنَاهُ مِنْ بَعْضِهِمْ، مَنْ يَقُولُ: أَيُّونَ هَؤُلَاءِ ، وَأَيَّانِ هَذَانِ . فَأَيٌّ قَدْ تُجْمَعُ فِي الصَّلَةِ وَتُضَافُ وَتُتَنَّى وَتُنَوَّنُ ، وَمَنْ لَا يُتَنَّى وَلَا يُجْمَعُ فِي الْاسْتِفْهَامِ (وَلَا يُضَافُ) ، وَأَيٌّ مَنْوُنٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي الْاسْتِفْهَامِ وَ غَيْرِهِ، فَهُوَ أَقْوَى ⁴⁸⁰

⁴⁷⁶: الكتاب ، 244/1.

⁴⁷⁷: المصدر نفسه ، 252/1

⁴⁷⁸: نفسه : 59/2.

⁴⁷⁹: نفسه: 78/2.

⁴⁸⁰: نفسه، 295/2.

مصادر السماع عند الخليل⁴⁸¹ :

أ/ القرآن الكريم :

يُعَدُّ الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله، مِنْ جُمْلَةِ النّحويين الأوائل الذين كانوا مِنْ أئمةِ القراءات القرآنيّة، ذلك أنّ النّحاة الأوائل، الذين نشأ على أيديهم النّحو كانوا إمّا قُرّاءً، وإمّا رُواةً للقراءات كأبي عمرو بن العلاء أحد القُرّاء السّبعة ، وعيسى بن عمّار التّقفي أحد رُواة القراءات ، وكان الخليل نفسه مِنْ قُرّائه وحملته ، وإليه يُنسَبُ هذا الوجه مِنْ القراءَةِ، وهو ما ذكره "الصّغاني" في مؤلّفه النّقيس " كتابُ الشّواردِ أو ما تفرّد به بعضُ أئمةِ اللّغة " حيث أورد فيه: الرّعاء لغةٌ في الرّعاء، جمعُ راعٍ وقرأ الخليل : (حَتَّى يَصْدُرَ الرُّعَاءُ)⁴⁸² بضمّ الرّاء وتشديدِها ، وقد اتخذ الخليل مِنَ القرآن الكريم و قراءاته مَصْدَرًا مُهِمًّا في التّقييد، حيثُ أكثرَ مِنَ الاستِشهادِ مِنْهُ ، وذلك لِإثباتِ حُكْمٍ لُغَوِيٍّ ما، آخذًا بضوابط القراءة الصّحيحة التي يوثقُ بِها، فكانَ يَقْبَلُ القراءةَ غَيْرَ مُعْتَرِضٍ عَلَيْها، مادامت صحيحة السّند وموافقةً لمجاري العربيّة ولو بوجهٍ، مُوافقةً لرسمِ الإمام " المصحف العثماني"، وفي هذا يقول الإمام القُباقيّ: "القراءةُ المقبولةُ المعمولُ بها عند أئمّتنا : ما صحّ نقلًا، ووافقت العربيّة بوجهٍ أفصح أو فصيح ، ورسمًا ؛ تحقيقًا أو تقديرًا أو احتمالًا ، هي التي لا تُردّ ".⁴⁸³ ، ولعلَّ اهتمام الخليل أو غيره مِنَ النّحاة بهذه القراءات ، وتوجيهها إلى الدّراسة النّحوية إنّما هو سبيلٌ للملائمة بين القراءات والعربيّة ، وبعض ما سمعوا ورَوَوْا مِنْ كلامِ العرب، وكان هو السّرُّ في تَوْفيقيهم وتَقْوِيهم ، حيث كان كتاب الله هو هدفهم ومُبْتَغاهم ، لخدمةِ هذا الدّين والحفاظ عليه مِنْ كلّ شائبةٍ وزَيْغ.

⁴⁸¹: رتبت مصادر السماع "نصوص الاستشهاد" باعتبار القدسية [القرآن الكريم - الحديث النبوي - الشعر - كلام العرب].

⁴⁸²: الصّغاني الحسن بن محمد بن الحسن، الشّواردِ أو ما تفرّد به بعضُ أئمةِ اللّغة ، تح : مصطفى حجازي، مر: محمد مهدي عزام، (ط. 1)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983، ص: 30.

⁴⁸³: القباقي محمد بن خليل ، إيضاح الرّموز ومفتاح الكنوز الجامع للقراءات الأربعة عشر ، تح: فرحات عيّاش، (ط. 1) دار عمد للنشر والتوزيع، الأردن، 2003، ص: 33.

وهذه نماذج من الاستشهاد بالقرآن الكريم ،التي اعتمد عليها الخليل في بعض المسائل التي راجعها فيها سيبويه:

1- في باب ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة : يقول سيبويه وذلك قولك :- هذا عبد الله منطلق -يقول سيبويه : " وزعم الخليل رحمه الله أن رفعه يكون على وجهين : فوجه أنك حين قلت : هذا عبد الله ، أضمرت هذا أو هو كأنك قلت : هذا منطلق أو هو منطلق. والوجه الآخر: أن تجعلهما جميعاً خبراً لهذا كقولك : هذا حلو حامض لا تريد أن تنقض الحلاوة ولكنك تزعم أنه جمع الطعمين ، ويستشهد الخليل على ما قاله بآية من الذكر الحكيم وهي قول الله عز وجل (كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَىٰ ۖ ١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوٰى ۖ ١٦) ⁴⁸⁴ مُوردا وجهها آخر من القراءة في آية من كتاب الله حيث يقول: وزعموا أنها في قراءة أبي عبد الله - المقصود به: ابن مسعود رضي الله عنه - في قراءته (وَهٰذَا بَعْلِي شَيْخٌ) ⁴⁸⁵ ثم يواصل الخليل معلقا على ما قاله ببيت من الشعر - يقول؛ قال: سمعنا ممن يروي هذا الشعر من العرب يرفعه ⁴⁸⁶:

من يك ذا بتّ فهذا بتّي *** مقنّط مصيّفٍ مُشْتِي

2- في باب ما إذا طرحت منه الزائدتان اللتان بمنزلة زيادة واحدة رجعت حرفاً: يذكر سيبويه كلاماً يفتح به هذا الباب، ويعرض لأمثلة ويعلق عليها إلى أن يقول : ومثل ذلك - مستشهدا بقول الله تعالى- (عَبْرَ مُجَلِّي الصَّيِّدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ) ⁴⁸⁷، ثم يذكر تعليق الخليل حيث يورد قائلا : "وهذا قول الخليل رحمه الله ، فإذا لم تذكر الصيّد قلت: محلي" ⁴⁸⁸ وجملة كلام سيبويه في هذا الباب، مروى عن الخليل.

484 : سورة المعارج، الآية: 16/15.

485 : سورة هود، الآية: 72.

486 : الكتاب 2/58.

487 : سورة المائدة، الآية: 01.

488 : الكتاب 2/189.

3- باب الجزاء : قال سيبويه: "وسألت الخليل عن مهما فقال: هي ما أدخلت معها ما لغوا بمنزلتها مع متى ، إذا قلت: متى تأتني آتِك ، وبمنزلتها مع إن إذا قلت: إن ما تأتني آتِك وبمنزلتها مع أين، كما قال سبحانه وتعالى (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ)⁴⁸⁹ وبمنزلتها مع أيّ إذا قلت : (أَيُّ مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)⁴⁹⁰ ، ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظاً واحداً فيقولوا: مامًا، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى ، وقد يجوز أن يكون مَه كإِذْ ضُمَّ إِلَيْهَا مَا".⁴⁹¹

4- قال سيبويه : "وسألت الخليل عن قوله جَلَّ وعَزَّ : (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝ ٣٦)⁴⁹² فقال: هذا كلامٌ معلقٌ بالكلام الأول ، كما كانت الفاء معلقةً بالكلام الأول، وهذا ها هنا في موضع قنطوا ، كما كان الجوابُ بالفاء موضعَ الفعل .قال ونظيرُ ذلك قوله : (سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صُمُتُونَ ۝ ١٩٣)⁴⁹³ بمنزلة أم صمتم، ومما يجعلها بمنزلة الفاء أنها لاتجىء مبتدأة كما أن الفاء لاتجىء مبتدأة.⁴⁹⁴

5- باب ما تكون فيه أن بدلاً من شيء ليس بالآخر : ومثل ذلك قولهم : زعم أنه إذا أتاك أنه سيفعل، وقد علمت أنه إذا فعل أنه سيمضي ، ولا يستقيم أن تبتدى إن ها هنا كما تبتدى الأسماء، أو الفعل إذا قلت : قد علمتُ زيداً أبوه خيرٌ منك ، وقد رأيتُ زيداً يقول أبوه ذلك، لأنَّ إن لا تبتدى في كل موضع، وهذا من تلك المواضع، وزعم الخليل : أن مثل ذلك

⁴⁸⁹ : سورة النساء، الآية: 78.

⁴⁹⁰ : سورة الإسراء، الآية: 110.

⁴⁹¹ : الكتاب ، 46/3.

⁴⁹² : سورة الروم، الآية: 36.

⁴⁹³ : سورة الأعراف، الآية: 193.

⁴⁹⁴ : الكتاب، 49/3.

قوله تبارك وتعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ)⁴⁹⁵ ولو قال: "فإن" كانت عربية جيدة.⁴⁹⁶

6- باب من أبواب أن التي تكون و الفعل بمنزلة مصدر: قال سيبويه سائلا الخليل: "وسألتُه عن معنى قوله : أريد لأن أفعل ، فقال : إنما يريد أن يقول إرادتي لهذا كما قال عز وجل (وَأُمِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ١٢)⁴⁹⁷ إنما هو أمرت لهذا .⁴⁹⁸

7- باب الظروف المبهمة غير المتمكنة :قال سيبويه : " وسألتُه عن قوله : زيد أسفل منك؟ فقال : هذا ظرف ، كقوله عز وجل : (وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)⁴⁹⁹ كأنه قال : زيد في مكانٍ أسفل من مكانك".⁵⁰⁰

وهذه بعض النماذج من مُعْجَم "العين" :

مادة: [عقد]⁵⁰¹ : ورجلٌ أَعْقَدُ ، وقد عَقِدَ يَعْقِدُ عَقْدًا ، أي: في لسانه عُقْدَةٌ ، وَغَلِظَ فِي وَسْطِهِ فهو عَسِرُ الكلام قال الله عز وجل (وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧)⁵⁰²

[شرع] : وشرعت الشيء إذا رفعته جِدًّا . وحيثانُ شُرِعَ : رافعة رؤوسها ، كما قال الله عز وجل (إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ)⁵⁰³ أي : رافعة رؤوسها .⁵⁰⁴

⁴⁹⁵ : سورة التوبة، الآية: 63.

⁴⁹⁶ : الكتاب، 101/3.

⁴⁹⁷ : سورة الزمر، الآية: 12.

⁴⁹⁸ : الكتاب، 122/3.

⁴⁹⁹ : سورة الأنفال، الآية: 142.

⁵⁰⁰ : الكتاب ، 224/3.

⁵⁰¹ العين ، مادة : (عقد) .

⁵⁰² : سورة طه، الآية: 27.

⁵⁰³ : سورة الأعراف، الآية: 163.

⁵⁰⁴ : العين ، مادة: (شرع).

[شفع]⁵⁰⁵ : ما كَانَ مِنَ الْعَدَدِ أَزْوَاجًا ، تقول : كَانَ وَتَرًا فَشَفَعْتُهُ بِالْآخِرِ حَتَّى صَارَ شَفْعًا
وفي القرآن (وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ ٣)⁵⁰⁶

[صعد]⁵⁰⁷ : وَالصَّعِيدُ : وَجْهُ الْأَرْضِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ ، تقول : عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ ، أَي : اجْلِسْ
عَلَى الْأَرْضِ وَتَيَمَّمِ الصَّعِيدَ ، أَي خُذْ مِنْ غِبَارِهِ بِكَفَيْكَ لِلصَّلَاةِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا)⁵⁰⁸

[صنع]⁵⁰⁹ : وَالْمَصَانِعُ مَا يَصْنَعُهُ الْعِبَادُ مِنَ الْأَبْنِيَةِ ، وَالْآبَارِ وَالْأَشْيَاءِ ، قَالَ لَبِيد :

بَلِينَا وَمَا تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعَ *** وَتَبْقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعَ .

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩)⁵¹⁰ .

[عصب] : وَالْعُصْبَةُ مِنَ الرِّجَالِ عَشْرَةٌ ، لَا يُقَالُ لِأَقَلِّ مِنْهُ ، وَإِخْوَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَشْرَةٌ قَالُوا : (وَنَحْنُ عُصْبَةٌ)⁵¹¹ ، وَيُقَالُ هُوَ مَا بَيْنَ الْعَشْرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ مِنَ الرِّجَالِ⁵¹² .

وهذا نموذج من كتابه " الجمل في النحو " الذي ينسب إليه :

وَالنَّصَبُ مِنَ الْقَطْعِ : هَذَا الرَّجُلُ وَاقِفًا ، وَهِيَ أَنَا ذَا عَالِمًا ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ (وَهَذَا صِرَاطُ
رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا)⁵¹³ ، وَمِثْلُهُ (فَنَالِكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً)⁵¹⁴ عَلَى الْقَطْعِ وَمِثْلُهُ (وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا^ص

⁵⁰⁵ : العين، مادة: (شفع).

⁵⁰⁶ : سورة الفجر، الآية: 03.

⁵⁰⁷ : العين، مادة: (صعد).

⁵⁰⁸ : المائدة، الآية: 106.

⁵⁰⁹ : العين، مادة: (صنع).

⁵¹⁰ : سورة الشعراء، الآية: 129.

⁵¹¹ : سورة يوسف، الآية: 14.

⁵¹² : العين ، مادة: (عصب).

⁵¹³ : سورة الأنعام، الآية: 126.

⁵¹⁴ : سورة النمل، الآية: 52.

(⁵¹⁵ وكذلك (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) ⁵¹⁶ ، وكذلك (وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا) ⁵¹⁷، معناه : وله الدين الواصب، وهو الحق المصدق . وكذلك (تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا) ⁵¹⁸ معناه : تساقط عليك الرُّطْبُ الجَنِيُّ، فلما أسقط الألف واللام ، نصب على قطع الألف واللام . ⁵¹⁹

ب / الحديث النبوي الشريف :

إن فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تُضاهيها فصاحة ، فهو أفصح من نطق بالضاد لفظاً وأقوم معنىً، وأبينهم كلاماً وأعلاهم بلاغةً، مُنَزَّهاً عَنِ اللَّحَنِ وَالْعُجْمَةِ، فلقد "مدَّت عليه الفصاحة رواقها وشدَّت به البلاغة نطاقها ، وهو المبعوث بالآيات الباهرة، والحجج ، المنزل عليه قرآن عربي غير ذي عوج: ⁵²⁰ ، وفيه قال القاضي عياض: "وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول، فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحلِّ الأفضل، والموضع الذي لا يجهل سلاسة طبع، وبراعة منزع ، وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ وجزالة قول، وصحة معانٍ، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدايع الحكم وعُلِّمَ السِّنة العرب فكان يُخاطبُ كُلَّ أمةٍ منها بلسانها، ويُحاورها بلُغَتِها ، ويُباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطنٍ عن شرح كلامه وتفسير قوله، مَنْ تأمل حديثه وسيره علمَ ذلك وتحقَّقه... وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه الماثورة ، فقد أَلَفَ النَّاسُ فيها الدَّواوين، وجُمِعَت في ألفاظها ومعانيها الكُتُب، ومنها ما لا يُوازى فصاحةً، ولا يُبارى بلاغةً ... وقد رَوَتِ الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخُطَبه ومُخاطباته، وعهوده ممَّا لا خلاف ، أنه نَزَلَ من ذلك مرتبةً لا يُقاسُ بها غيره

⁵¹⁵ : سورة هود، الآية: 72.

⁵¹⁶ : سورة النحل، الآية: 52.

⁵¹⁷ : سورة البقرة، الآية: 91.

⁵¹⁸ : سورة مريم، الآية: 25.

⁵¹⁹: كتابُ الجمل في النحو ، ص: 38.

⁵²⁰ : جمال الدين بن هشام الأنصاري، قطر الندى وبل الصدى، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، (ط.1)، دار الخير،

بيروت، 1990، ص: 03.

وحازَ فيها سبقاً لا يُقدَّرُ قدرُهُ، وقد جُمِعَت مِن كَلِمَاتِهِ الَّتِي لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهَا ، ولا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يُفْرِغَ فِي قَالِبِهِ عَلَيْهَا... ، ما يُدْرِكُ النَّاطِرُ الْعَجَبَ فِي مُضَمَّنِهَا، ويذهبُ بِهِ الْفِكْرُ فِي أَدَانِي حِكْمِهَا ...، فَجُمِعَ لَهُ بِذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُوَّةُ عَارِضَةِ الْبَادِيَةِ وَجَزَائِلِهَا، وَنِصَاعَةُ أَلْفَاظِ الْحَاضِرَةِ ، وَرَوْنَقُ كَلَامِهَا، إِلَى التَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَدَّدَهُ الْوَحْيُ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِعِلْمِهِ بَشَرِيًّا.⁵²¹، وَمِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ، أَنَّ الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ يُمَثِّلُ الْمَصْدَرُ الثَّانِي مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ، وَهُوَ الْمَهْيَعُ الَّذِي دَأَبَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ الشَّرِيعَةِ، فِي الْاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَحَرِيٌّ بِأَنْ يُسْتَدَلَّ بِهِ فِي اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ النَّحْوِيَّةِ وَتَقْرِيرِهَا، غَيْرَ أَنَّ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ وَالِدَارِسُونَ قَبْلَنَا، فِي مَسْأَلَةِ الْاسْتِشْهَادِ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ فِي عَصْرِ الْاِحْتِجَاجِ، أَنَّ الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ كَانَ أَقَلَّ الْمَصَادِرِ اللَّغَوِيَّةِ فِي مَجَالِ الْاسْتِشْهَادِ، وَقَدْ دَارَ خِلَافٌ فِي قِضِيَّةِ الْاسْتِشْهَادِ بِهِ، "فَالرَّوَايَاتُ تَتَصَّ عَلَى أَنَّ الْحَدِيثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ مَسَّهَ بَعْضُ التَّحْرِيفِ لِعَامِلِ تَدَاوُلِهِ مِنْ قَبْلِ الرَّوَاةِ مِنْ زَمَنِ لآخرٍ مِمَّا يَعْرِضُهُ لِلزِّيَادَةِ أَوْ النِّقْصِ أَوْ النِّسْيَانِ، وَلِعَامِلِ تَأْخِيرِ التَّدْوِينِ ، كَمَا لِحِقَّتْهُ أَحَادِيثٌ مَوْضُوعَةٌ، وَرُويَ الْكَثِيرُ مِنْهُ بِالْمَعْنَى وَرُوَاتُهُ مَوْلَدُونَ " ⁵²² ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْإِمَامُ السِّيُوطِيُّ مُبَيِّنًا سَبَبَ عِزْوَفِ النَّحَاةِ عَنِ الْاسْتِشْهَادِ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ : "... فَإِنَّ غَالِبَ الْأَحَادِيثِ مَرْوِيٍّ بِالْمَعْنَى ، وَقَدْ تَدَاوَلَتْهَا الْأَعَاجِمُ وَ الْمَوْلَدُونَ ، فَزَوَّوْهَا بِمَا أَدَّتْ إِلَيْهِ عِبَارَاتُهُمْ فَزَادُوا وَنَقَّصُوا وَقَدَّمُوا وَأَخَّرُوا، وَأَبْدَلُوا أَلْفَاظًا بِأَلْفَاظٍ ، وَلِهَذَا تَرَى الْحَدِيثَ الْوَاحِدَ فِي الْقِصَّةِ الْوَاحِدَةِ ، مَرْوِيًّا عَلَى أَوْجِهٍ شَتَّى بِعِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ."⁵²³، وَفِي هَذَا الشَّأْنِ يُمَكِّنُ لَنَا تَبَيُّنُ ثَلَاثَةِ اتِّجَاهَاتٍ، فِي قِضِيَّةِ الْاِحْتِجَاجِ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

الاتِّجَاهُ الْأَوَّلُ : وَهُمْ الْمَانِعُونَ لِلْاسْتِشْهَادِ بِالْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ ، وَيُمَثِّلُ هَذَا الْاِتِّجَاهُ : "أَبُو حَيَّانَ الْأَنْدَلُسِيُّ"، وَ"أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الصَّائِعِ" .

⁵²¹: الْقَاضِي عِيَاضُ ، الشَّافِعِي بِتَعْرِيفِ حَقُوقِ الْمَصْطَفَى ، تَح: حَسِينُ عَبْدِ الْحَمِيدِ نَيْلٍ، (ط.1)، دَارُ الْأَرْقَمِ، بَيْرُوتَ، 2006 ، 80،81/1 .

⁵²²: فِي أَصُولِ النَّحْوِ ، ص: 48.

2: الْإِقْتِرَاحُ فِي عِلْمِ أَصُولِ النَّحْوِ ، ص: 43.

الاتجاه الثاني : وهم المُجيزون للاستِشهاد بالحديث النبوي الشريف ، ويُمثّل هذا الاتجاه : " ابنُ خروف " ، و " ابنُ مالك " ، و " ابنُ هشام " .

الاتجاه الثالث : ويذهبُ هذا الفريق إلى التّوسط بين المنع والجواز ، ومن أبرز من نهجَ هذا المنهج ، هو : " أبو إسحاق الشّاطبي " ، الذي رأى أنّ الحديث قسمان : قسمٌ يعتني ناقله بمعناه دون لفظه ، فهذا لم يقع به استشهادُ أهل اللّسان ، وقسمٌ عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصودٍ خاص ، مثل الأحاديث التي قُصد بها بيان فصاحته صلى الله عليه وسلّم ، ككتابه لهمدان ، وكتابه لوائل بن حجر ، والأمثال النبويّة ، فهذا يصحّ الاستشهادُ به في العربيّة⁵²⁴، وهناك من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف بالاحتجاج به، في اللّغة وقد حدّدها الشيخ محمد الخضر حسين في ما يلي⁵²⁵ :

أولاً: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته عليه السّلام كقوله : حمي الوطيس .

ثانياً : ما يروى من الأقوال التي يُتعبّدُ بها ، أو أمر بالتعبّد ، كألفاظ القنوت والتّحيات وكثير من الأذكار ، والأدعية التي كان يدعو فيها في أوقاتٍ خاصّة .

ثالثاً : ما يروى شاهداً على أنّه كان يخاطب كلّ قومٍ من العرب بلغتهم ، ومِمّا هو الظّاهر أنّ الرّواة ، يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة لرواية الحديث بلفظه .

رابعاً : الأحاديث التي وردت من طرقٍ متعدّدة واتّحدت ألفاظها ، فإنّ اتّحاد الألفاظ مع تعدّد الطّرق ، دليلٌ على أنّ الرّواة لم يتصرّفوا في ألفاظها .

خامساً : الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربيّة ، لم ينتشر فيها فسادُ اللّغة ، كمالك بن أنس ، وعبد الله بن جريح ، والإمام الشّافعي .

⁵²⁴:البغدادي عبد القادر بن عمر ، خزائن الأدب ، تح : عبد السلام هارون ، (ط.1)، الهيئة المصرية العامة

للكتاب،مصر، 1،1976/12،13.

⁵²⁵ : في أصول النحو، ص:125.

سَادِساً : ما عُرِفَ مِنْ حَالِ رُؤَايَةِ أَنَّهُمْ لَا يُجِيزُونَ رِوَايَةَ الْحَدِيثِ بِالْمَعْنَى ، مِثْلَ : ابْنِ سِيرِينَ وَالْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَرَجَاءِ بْنِ حَيَّوَةَ ، وَعَلِيِّ الْمَدِينِيِّ .⁵²⁶

موقف الخليل من الاستشهاد بالحديث الشريف:

بالنسبة لموقف الخليل من الاستشهاد بالنحو، فإنه لم يستشهد به في تأصيله لقواعد النحو، وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف، أن الخليل هو الذي ثبت فكرة عدم الاستشهاد بالحديث النبوي ، لأن كثيرين من حملته كانوا من الأعاجم ، وهم لا يوثق بهم في الفصاحة واللحن يدخل على ألسنتهم⁵²⁷ ، فهذا السبب وغيره من جملة الأسباب التي ذكرناها آنفاً، لزم الخليل هذا الموقف ، أما استشهاده بالأحاديث على المسائل اللغوية، فقد ورد منه الكثير في معجمه " العين " ، حيث بلغت عدد شواهد أكثر من أربعمئة شاهداً ، والمتوقف عند محطات الاستشهاد فيما أورده الخليل من نصوص الحديث الشريف ، سيري أن هذه الأحاديث تتميز بقصرها وجزالة ألفاظها وأسلوبها ، فهي تدخل في دائرة " جوامع الكلم " ، تلك الأحاديث القليلة حروفها ، كثيرة هي معانيها ، المنزهة عن الصنعة والتكلف، ولعل السمة التي تميز بها الخليل في هذا المقام ، هو مدى إتقانه لصناعة المحدثين، وكأنه علم في هذا الفن الجليل ، ويتضح ذلك أثناء تعامله مع الحديث النبوي الشريف، في طرائق عرضه وأدائه ، وفي حقه قال النضر بن شميل " ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة بعد ابن عوف من الخليل بن أحمد " ، فتراه يسلك منهجاً للاستشهاد بالأحاديث على اللغة، فيأتي على ذكر كل ما له علاقة بها ، فتراه يترجم للحديث ، ويبين سبب وروده ، ويقف معه وفقة العارف بنواميس اللغة في الدقة والشرح ، فتراه أحياناً يستشهد ببيت من الشعر، ليفصح عن دلالة الحديث ، مستخرجاً الأحكام منه ، متنبهاً من صحة روايته ، وتراه أحياناً يورد اختلاف اللفظ في الحديث الواحد، دافعاً عنه الإيهام والاضطراب ، مُفسراً إيّاه بدليل من الأثر الموثوق في

⁵²⁶: في أصول النحو ، 126.

⁵²⁷: المدارس النحوية :46.

سَنَدِهِ أَوْ بَآيَةٍ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَهُوَ نَوْعٌ اسْتُخْدِمَهُ الْخَلِيلُ فِي كِتَابِهِ الْعَيْنُ ، ثُمَّ تَرَاهُ يُورَدُ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ سَنَدَ الْحَدِيثِ ، ثُمَّ يَذْكُرُ تَخْرِيجَ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَلِهَذَا فَقَدْ حَظِيَ " الْعَيْنُ " بِمَادَّةٍ حَدِيثِيَّةٍ غَزِيرَةٍ ، كَانَ لِلْخَلِيلِ فِيهَا صُنْعَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ ، فَقَدْ كَانَ نَصَّ الْحَدِيثِ عِنْدَهُ مَقْدَسًا ، فَنَجَدَهُ قَدْ دَقَّقَ وَأَبْدَعَ وَبَرَعَ فِي عَرْضِ الْحَدِيثِ ، وَطَرَأَتْ أَدَائِهِ وَبَيَانِ مَعَانِيهِ ، وَذَلِكَ رَاجِعٌ لِمُتَمَرِّسِهِ فِي الِاسْتِدْلَالِ وَالِاسْتِنْبَاطِ⁵²⁸ .

وهذه بعض نصوص الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف التي وردت في كتابه العين:

مادة : [علق] : وفي الحديث : " وتجتزئ بالعلقة " أي : تكتفي بالبلغة عن الطعام .⁵²⁹

مادة : [عيب] : وفي الحديث : " إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ عَيْبًا مَكْفُوفَةً ، " يُرِيدُ صَدْرًا نَقِيًّا مِنَ الْعِلِّ وَالْعِدَاوَةِ ، مَطْوِيًّا عَلَى الْوَفَاءِ . قَالَ بَشْرُ بْنُ أَبِي حَازِمٍ :

وَكَادَتْ عِيَابُ الْوُدِّ مِنَّا وَ مِنْكُمْ *** وَ إِن قِيلَ أُنْبَاءُ الْعَمُومَةِ تَصْفَرُ

أَيُّ : تَخْلُو مِنَ الْمَحَبَّةِ .⁵³⁰

مادة : [قنح] : وفي الحديث : " وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَحُ . " ، وَأَتَقَمَحُ ؛ يُرْوَانِ جَمِيعًا .⁵³¹

مادة : [سحر] : وَالسِّحْرُ أَعْلَى الصَّدْرِ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ عَائِشَةَ : " تُؤْفِي رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ عَلَى آلِهِ وَ سَلَّمَ - بَيْنَ سَخْرِي نَخْرِي . " ⁵³²

مادة : [هجر] : فِي حَدِيثِ عُمَرَ : " هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا " أَيِ أَخْلَصُوا الْهَجْرَةَ لِلَّهِ ⁵³³

⁵²⁸: ينظر ، الخليل بن أحمد و أصول اللغة ، ص: 128-136.

⁵²⁹: العين، مادة : (علق).

⁵³⁰: العين، مادة: (عيب).

⁵³¹: العين، مادة: (قمح).

⁵³²: العين، مادة: (سحر)

⁵³³: العين، مادة: (هجر).

ج/ الشعر :

أول شيء كان يَهُمُّ النّحوي في استقراء لغة الشعر، هُوَ توثيقها والتأكّد من صحّة نقلها ومدى فصاحتها، وليس أمامه في هذه العمليّة، غير أن ينقلها عن أحد المصدّرين :الأعرابُ الفصحاء أو الرّواة الثّقاتُ عَنِ الأعراب، وأحياناً تراه يسلكُ السّبيلَ إلى المصدرين كِلَيْهِمَا، ليكون توثيقه للغة الشّاهد أكثر دقّة، ذلك ليتمكّن من عملية الإجراء للمادّة اللّغوية، كي يُصنّفها في الأخير ويَعْمَدَ إلى ترتيبها ، ليخلّص في النّهاية إلى القواسم المشتركة للأبواب، ووضع المعايير والقواعد .

والخليل بن أحمد الفراهيدي واحدٌ من النّحويين، الّذين حرصوا على الاهتمام بهذا المنهج العلميّ المحض، مُستعيناً به في عملية التوثيق للنصوص المُستشّهَد بها، أمّا اطلاعُه على الشعر، فقد كانت له سعة سماعٍ واسعة، حيثُ كانَ كثيرَ الاستشهادِ بالشعر الجاهلي ويكفي أن نذكر ظاهرتين تثير الإعجاب ، في سعة حفظه أولاًهما: كثرةُ استشاده بالشعر في مجال أقيستِه، وإثباته أحكاماً لغويّة في ثنايا "الكتاب " أو في كتاب " العين " ، والأمر الثّاني: وضعُه للعروض وحصره أوزان الشعر العربيّ، واستيعابه الشّامل لأنواع مُوسيقاه، ولقارئ الكتابِ لسيبويه أن يرى مدى حرص الخليل في الاحتجاج، بمن يثق في عَرَبِيَّتِهِمْ ، فهو يستشهدُ بشعر الشعراء الجاهليين، مثل النّابغة والأعشى والشّعراء المخضرمين، مثل حسان بن ثابت والعبّاس بن مرداس، وتوقف الاحتجاجُ به عند شعر الإسلاميين ، كالفَرزدق وجَرير والكميت وذي الرّمة، وهُوَ مذهب شيخه أبي عمرو في الاحتجاج بالشعر⁵³⁴.

⁵³⁴: الخليل بن أحمد وأصول اللّغة ، ص:109.

وهذه نماذج من استشهاده بالنص الشعري :

مادة : [دعب] : وهي مادة يستشهد بها الخليل في مسألة النعت حيث يقول مُستشهدا بقول الطرمّاح : واستطربت ظُعنهم لما أحرّالَ بهم *** مع الضحى ناشط من داعبات دد.

رواه الخليل بالباء يعني: اللواتي يدْعَبْنَ بالمزاج ويُدْأِدْنَ بأصابعنَّ، ويُروى داعب دَدَد، يجعله نعتا للداعب، يكسعه بدالٍ أخرى ثالثة ليتّم النعت، لأنّ النعت لا يتمكّن حتى يصير ثلاثة أحرف، فإذا اشتقوا من ذلك فعلاً أدخلوا بين الدالين همزة، لتستمر طريقة الفعل، ولئلا تتقل الدالات إذا اجتمعن، فيقولون: دَأَدَد يُدْأِدُ دَأَدَدَةً وعلى ذلك القياس قال رُوبة:

يُعْدُ دَأَدَاً وهديراً رَعْبدا *** بَعْبَعَةً مرّاً ومرّاً بَأَبَبَا⁵³⁵

مادة : [حوش] : يقول الخليل: " وحاشا: كلمة استثناءٍ وربّما ضُمَّ إليها لامُ الصّفة، قال الله تعالى: (وَقُلْنَ حُشَّ لِلَّهِ)، وقال النّابغة: وما أحاشي منّ الأقوام من أحدٍ "⁵³⁶، فالخليل في نصّه هذا يرى أنّ " حاشا " في الاستثناء، وفق نظرية الاحتمال قد تكون اسماً أو فعلاً أو حرفاً.

مادة : [نبت] : وهي مادة يستشهد بها الخليل في نيابة اسم المصدر، مناب المصدر في الدلالة على المفعولية المطلقة ، حيث يقول: "وَالْمَنْبُتُ : الأصلُ، والموضع الذي ينبُت فيه الشيء وقول الله تعالى: (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ١٧) ويُفسّر كالنّبات، وأحسن من ذلك قال: تَرَى الْفَتَى يَنْبُتُ إِنْبَاتَ الشَّجَرِ "⁵³⁷، ثم يعود إلى تخريج الآية بشاهد نحويّ، حيث يقول في هذه المسألة: " أي: كما أَنْبَتَكُمْ فَنَبَتُمْ نباتا وربّما رفعوا مصدراً إلى فِعْلٍ غيره، بعد أن يكون

⁵³⁵ : العين ، مادة: (دعب).

⁵³⁶ : العين، مادة: (حوش)

⁵³⁷ :العين، مادة: (نبت).

الاشتقاق واحداً قال : (تَرَى الْفَتَى يَنْبُتُ إِنْبَاتَ الشَّجَرِ) أي: كما أَنْبَتَ اللهُ الشَّجَرَ ونحو ذلك قول رُؤبة : (صحراء لم يَنْبُتْ بها تنبيت) بكسرِ النَّاءِ وتغييرِ البناءِ وكلّ صواب⁵³⁸.

مادة : [ذو]، في بابِ اللَّفِيفِ مِنَ الدَّالِ ذَكَرَ الْخَلِيلُ مَسْأَلَةً فِي الْأَسْمَاءِ السَّتَّةِ الْمَعْرُوفَةِ، فِي جُمْلَةٍ مَا يَكُونُ إِعْرَابُهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، حَيْثُ قَوْلٌ: "ذُو: اسْمٌ نَاقِصٌ تَفْسِيرُهُ صَاحِبٌ، كَقَوْلِكَ ذُو مَالٍ، أَيْ صَاحِبُهُ، وَالتَّنْثِيَةُ ذَوَانٍ، وَالْجَمْعُ ذَوُونٌ، وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ شَيْءٌ يَكُونُ إِعْرَابُهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، غَيْرَ سَبْعِ كَلِمَاتٍ وَهُنَّ، ذُو، وَفُو، وَأَخُو، وَامْرَأُ، وَابْنُ؛ فَأَمَّا فُو فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصَبُ الْفَاءَ فِي كُلِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُتْبِعُ الْفَاءَ الْمِيمَ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ، وَالْأَنْثَى ذَاتٌ، وَيَجْمَعُ ذَوَاتٌ مَالٍ فَإِذَا وَقَفْتَ عَلَى ذَاتٍ فَمِنْهُمْ، مَنْ يَرُدُّ النَّاءَ إِلَى هَاءِ التَّأْنِيثِ، وَهُوَ الْقِيَاسُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَعِ النَّاءَ عَلَى حَالِهَا، ظَاهِرَةً فِي الْوَقْفِ لِكَثْرَةِ مَا جَرَتْ عَلَى اللِّسَانِ، وَهُنَّ ذَوَاتٌ مَالٍ، وَهُمَا ذَوَاتَا مَالٍ وَقَدْ يَجُوزُ فِي الشَّعْرِ ذَاتَا مَالٍ، وَإِتْمَامُهَا فِي التَّنْثِيَةِ أَحْسَنُ، قَالَ:

وَحَرَقَ قَدْ قَطَعْتَ بَلَا دَلِيلٍ *** بِمَنْسِي رَجُلَةٍ ذَاتِي نِقَالٍ⁵³⁹

مادة : [إمّا لا]، اسْتَشْهَدَ الْخَلِيلُ بِهَذِهِ الْمَادَّةِ فِي بَابِ اللَّفِيفِ مِنَ اللَّامِ فِي مَسْأَلَةِ جَوَازِ حَذْفِ فِعْلِ الشَّرْطِ، شَرِيطَةً أَنْ يَكُونَ بَعْدَ " إِنْ " الْمُدْغَمَةِ بِ: " لا " إِنْ وَجَدْتَ قَرِينَةً تَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ، حَيْثُ يَقُولُ: " وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِمَّا لَا فافعل كذا فَإِنَّمَا هُوَ: إِنْ لَا تفعل ذاك فافعل ذا وَلَكِنَّمْ لَمَّا جَمَعُوا هَؤُلَاءِ الْأَحْرَفَ، فَصَرَّنَ فِي مَجْرَى اللَّفْظِ مُثْقَلَةً، فَصَارَ (لا) فِي آخِرِهَا، كَأَنَّهُ عَجَزَ كَلِمَةً فِيهَا ضَمِيرٌ مَا ذَكَرْتُ لَكَ، فِي كَلَامٍ طَلَبْتَ فِيهِ شَيْئاً فَرَدَّ عَلَيْكَ أَمْرُكَ، فَقُلْتَ: إِمَّا لَا فافعل ذا، وتقول: أَلْقِ زَيْدًا وَإِلَّا فَلَا، مَعْنَاهُ وَإِلَّا تَلَقَى زَيْدًا فَدَعْ، قَالَ:

فَطَلَّقَهَا فَلَسْتُ لَهَا بِكُفٍّ *** وَإِلَّا يَغُلُّ مَفْرَقَكَ الْحُسَامُ

فَأَضْمَرَ فِيهِ : وَإِلَّا تُطَلِّقُهَا يَغُلُّ، وَغَيْرُ الْبَيَانِ أَحْسَنُ⁵⁴⁰.

⁵³⁸ :العين، مادة، (نبت).

⁵³⁹ : العين ، مادة: (ذو).

2 - القياس:

تعريفه:

القياس لغةً " قاسَ الشيءَ بقيسهُ قياساً وقياساً، واقتاسه وقيسه إذا قدره على مثاله ⁵⁴¹ وهو في هذا المعنى اللغوي يقوم على فكرة التقدير ، والمُماثلة في سمة مُشتركة بين شيئين ، وقد عرّفه الشريف الجرجاني في كتابه التعريفات قائلاً: " القياس في اللغة عبارة عن التقدير، وهو عبارة عن ردّ الشيء إلى نظيره، وفي الشريعة عبارة عن المعنى المُستنبط من النصّ لتقديمه الحكم، من المنصوص عليه إلى غيره، وهو الجمع بين الأصل والفرع في الحكم"،⁵⁴² والقياس يُعدّ ضرباً من ضروب الاستدلال، التي تقوم على المُحاكمات العقلية لأجل استنباط أحكام معيّنة، وتصحيح بعض الفرضيات، ويُطلق القياس على مفهومين " فأحياناً يُراد به جملة العمليات الذهنية، التي تُؤدّي إلى الاستنباط فيقال مثلاً: مذهبُ القياس، وطوراً يطلق على جزء من هذه العمليات، فيُراد به حملُ فرعٍ على أصلٍ لعلّه جامعة بينهما وإعطاء حكم المقيس عليه ، في الإعراب أو البناء أو التصريف ⁵⁴³، والقياس بهذا المفهوم يُعدّ "عمليةً فكريّة، يقوم بها الإنسان الذي ينتمي إلى جماعة لغويّة، ويجري بمقتضاها على الاستعمال المُطرّد في الجماعة اللغوية، وهذه حقيقة من حقائق الاجتماع اللغوي، التي تتبني عليها الاستعمالات اللغوية"⁵⁴⁴، وعلى هذا المفهوم الاصطلاحي ذهب عبد الرحمن الحاج صالح إلى تعريفه قائلاً: " هو حمل الشيء على الشيء بجامع ⁵⁴⁵ وهذا

⁵⁴⁰ : العين ، مادة: (ذو).

⁵⁴¹ : لسان العرب، مادة (قيس).

⁵⁴² :الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، (د.ط)، دار الفضيلة، القاهرة، 2011، ص:206.

⁵⁴³ : أصول النحو العربي، ص:89.

⁵⁴⁴ :منى إلياس، القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي، (ط.1)، دار الفكر

المعاصر، سوريا، 1987، ص:09.

⁵⁴⁵ : بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص: 49.

الجامعُ إنّما يكون "لضربٍ من الشّبه" ⁵⁴⁶، وهذا التعريف الأخير يُشير ضمناً إلى أركان القياس، وهي المصرّح عنها في عبارة الأنباري، حينما قال مُبيّنًا حدّه "وهو إلحاق الفرع بالأصل بجامع، وهو إجراء حكم الأصل على الفرع لجامع". ⁵⁴⁷، ثم أتبع القول مُبيّنًا أركانه "ولا بُدّ لكلّ قياسٍ من أربعة أشياء: أصل وفرع وعلة وحكم" ⁵⁴⁸

أركانه:

1: (الفرع/المقيس): هو النّصوص اللّغوية المنقولة عن العرب، الذين يُحتجّ بعلامهم، سواء كان النّقل سماعاً أو روايةً، مشافهة أم تدويناً، لينبني عليها حكم المقيس ⁵⁴⁹، وشرطه أن يكون الأكثر في بابهِ، لأنّ القياس يقتضي الحمل على الأكثر، ولهذا فإنّه لا يصحّ الحمل على النّادر والشاذ ⁵⁵⁰.

2: (الأصل/المقيس عليه): هو المحمول على كلام العرب الجاري على سمته، فقد يكون المقيس لفظاً غير منقولٍ، وغير مستعمل عند المتكلّم، فيستحدثه بحمله على ما يستعمله ويعرفه من نظائره من المنقول، فهو لم يستعمل كلّ فاعل وكلّ مفعول، وكلّ حال وكلّ اسم فاعل وكلّ اسم آلة، فيقيس ما لم يستعمله على ما استعمله، وما لم يسمعه على ما سمعه من نظائره في بابهِ، فيقول من الفعل صفا: مصفاة قياساً على نظائره، ممّا هو مستعمل

⁵⁴⁶ : طاهر أحمد بن بابشاد، شرح المقدمة المحسبة، تح: خالد عبد الكريم، (ط.1)، المطبعة العصرية، الكويت، 1977، 475/2.

⁵⁴⁷ : الإعراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة، ص:93.

⁵⁴⁸ : نفسه، ص:93.

⁵⁴⁹ : سعيد الزبيدي، القياس في النحو العربي؛ نشأته وتطوّره، (ط.1)، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص:20، 21.

⁵⁵⁰ : مبادئ في أصول النّحو، ص:74.

ومختزن في ذاكرته نحو: مقلاة، ومكواة، ومرآة، وإن لم ينطق باسم الآلة (مصفاة) من قبل⁵⁵¹.

3: (الجامع/العلّة): وهي السمات المشتركة التي تربط الصلة، بين طرفي القياس وهما (المقيس) و(المقيس عليه)، ويُشترطُ فيها " أن تكون هي الموجبة للحكم في المقيس عليه"⁵⁵²

4: (الحكم): هو إلحاق المقيس بالمقيس عليه بما يتضمّن إعطاؤه حكمه⁵⁵³، وينقسم عند النحاة إلى ستّة أقسام، كأن يكون واجبا مثل رفع الفاعل ونصب المفعول به، أو ممنوعا مثل رفع المفعول، وحسناً مثل رفع المضارع الواقع جزاء بعد شرط ماض، أو أن يكون قبيحا مثل رفع المضارع، الواقع جزاء بعد شرط المضارع، أو خلاف الأولى كتقدّم الأولى في نحو:ضرب غلامه زيدا، أو أن يكون جائزاً على السواء، كحذف المبتدأ أو الخبر، وإثباتهما حيث لا مانع من الحذف ولا مُقتضى له⁵⁵⁴.

وعلى سبيل الإيضاح نضرب مثالا نبيّن فيه هذه العملية الذهنية⁵⁵⁵:

قاس النحويون " لا رَجُلَ " على "خمسة عشرَ" وأعطوها حكمها في البناء على الفتح وعلى هذا تكون:

- 1- لا رَجُلَ: فرعاً أو مقيساً.
- 2- خمسة عشرَ: أصلاً أو مقيساً عليه.
- 3- البناء على الفتح: الحكم.
- 4- أمّا العلّة الجامعة بين الفرع والأصل فهي على الشكل التالي:

⁵⁵¹ : المرجع نفسه، ص:77.

⁵⁵² : الإقتراح في علم أصول النحو، ص:124.

⁵⁵³ : القياس في النحو العربي؛ نشأته وتطوّره، ص:34.

⁵⁵⁴ : الاقتراح في علوم أصول النحو، ص:44.

⁵⁵⁵ : أصول النحو العربي، ص:89،90.

أصل: خمسة عشر " خمسة وعشرة " لأنَّ معنى الجمع واضح فيها، ولكنَّ حذفت الواو لفظاً وبقي معناها، ورُكِّب الجزءان تركيباً مزجياً، وأدَّى ذلك إلى حذف علامة التانيث، من الجزء الثاني اكتفاءً بها في الجزء الأوَّل، هذا هو الأصل، والفرعُ مثله لأنَّ أصل: لا رَجُلٌ " لا من رَجُلٍ " فَ " من " زائدة تفيد استغراق النفي، ولكنها حُذِفَتْ لفظاً كما حُذِفَتْ الواو في الأصل وبقي معناها، ورُكِّبَت " لا " مع " رجل " كما رُكِّبَت " خمسة " مع " عشر "، ويتَّضح لك من هذا، أنَّ المقيس عليه ذو حكم ثابت مستقر، وأنَّ المقيس بحاجةٍ إلى حُكم، ففي هذه المسألة تجد اسمَ " لا " النافية للجنس، محرّكاً بالفتح وليس يُدرى أَللبناء هي أم للإعراب؟ فلمَّا جرى القياس على " خمسة عشر "، استُدِلَّ على أنَّها حركة بناء، لا حركة إعراب⁵⁵⁶.

وظائفه:

للقياس ثلاث وظائف يمكن اختصارها كالآتي⁵⁵⁷:

أ - استنباط القاعدة:

أول وظائف القياس أن يكون وسيلة ذهنية لاستنباط القاعدة، والمثال السابق يوضح هذه الظاهرة، فالنحاة استنتجوا حُكم بناء اسم (لا)، من قياسه على المُركَّب المزجي: خمسة عشر، وأضرابه.

ب - تعليل الظاهرة :

وممَّا استُعْمِلَ فيه القياس لتعليل ظاهرة، ما نجده من قياس الكسائي (رضي) على (سَخِط) وتفصيل ذلك أنَّه نُقِلَ بيت من الشعر هو:

إذا رضيت عليّ بنو قشير * * * * * لَعَمْرُ الله أعجَبني رضاها

⁵⁵⁶ : أصول النحو العربي ، ص:90.

⁵⁵⁷ : المرجع نفسه ، ص:90،91.

فالشاعرُ هنا عدَّى الفعلَ (رضي) بالحرفِ (على)، وهو إنّما يُعدَّى في الكلامِ الفصيحِ بالحرفِ (عن)، فيقال: رضيت عنه، ويُقال في الدّعاء: رضي الله عنه، فعِلَّةُ الكسائيّ بأنّ الشيء قد يُقاس على ضدّه، وضدّ (رضي) (سخط) ،وسخط يُعدَّى بالحرفِ (على) فلمّا قيسَ عليه أخذ حُكمه عند الشاعر .

ج- رفض الظاهرة:

كثيراً ما يكون القياس وسيلةً لرفض ظاهرة قال بها بعض النحويين، من ذلك أنّ نُحاة الكوفة يجعلون لامَ التعليل، هي النّاصبة للفعل المضارع في مثل: قعدت لأستريح، فرفض البصريون ذلك لأنّ القياسَ يمنعه، فلامُ التعليل مقيسة على الحروفِ المختصة بالأسماء، مثل: عن ومن، والباء وهذه الأحرف لا تنصب الفعل المضارع، وكذلك لام التعليل⁵⁵⁸.

نماذج عند الخليل:

النموذج الأول :

رُوي عن الخليل في كتابِ مُريده الأول " سيبويه " أنّه قال : " من قال يا زيد والنضر فنصب، فإنّما نصب لأنّ هذا كان من المواضع التي يُردّ فيها الشّيء إلى أصله، فأما العربُ فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيد والنضر وقرأ الأعرج (يُجبالُ أوبي معه والطيرُ) فرفع ويقولون: يا عمرو والحارث، وقال الخليل رحمه الله: هو القياس كأنّه قال: ويا حارث، ولو حمل (الحارث) على (يا) ، كان غير جائز البتة، نصب أو رفع، من قبل أنّك لا تُنادي اسما فيه الألف واللام بـ(يا)⁵⁵⁹، نستنبطُ من هذا المقتبس أنّ الخليل يعتمد في بناء القاعدة على المُطرّد والكثير، وعبرة (فأما العربُ فأكثر ما رأيناهم يقولون) دليل على ذلك، كما يتّضح

⁵⁵⁸ : أصول النحو العربي ، ص:91.

⁵⁵⁹ : الكتاب، 2/186، 187.

لنا في هذا النص أنّ الخليل يرى أنّ (حركة الرفع)، هي الوجه الغالب إذا عطفت المعرف بال على المُنَادى، لأنّ وُروَد استعمال (الضمّ) بكثرة يُبرّر أنّه وجه القياس، " وهذا يعني من وجهة نظر صراع الأنماط النحوية، أنّ اللّغة سارت في مسارَيْن: الأوّل منها العطف على اللفظ، والثاني: العطف على الموضع، وقد تغلّب الأوّل منها على الثاني، ممّا جعل العلماء يقولون: إنّ الأوّل أكثر أو إنّهُ القياس، ممّا يعني أنّ الثاني غير مقيس ⁵⁶⁰، وما نستنتجهُ في هذا المقام، أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي خرج بهذا القياس، بقاعدة تُقرّر رفع المعرف (بال) إذا عطف على المُنَادى بنية إعادة حرف النداء.

النموذج الثاني:

يُشير سيبويه إلى أنّ الخليل رحمه الله، قد زعمَ " أنّهم نصبوا المضاف نحو يا عبدَ الله ويا أخانا والنّكرة، حينَ قالوا يا رجلاً صالحاً حينَ طال الكلام، كما نصبوا هوَ قبْلَكَ وهوَ بَعْدَكَ، ورفعوا المفرد المُنَادى كما رفعوا قبلُ وبعْدُ، وموضعها واحد، وذلك قولك يا زيدُ ويا عمرو، وتركوا التّوَيْن المُفرد كما تركوه في قبلُ " ⁵⁶¹، و يمكننا استنتاجه من هذه الرّؤية الخليلية أنّ إعراب المُنَادى، يحتلّ وجه النّصب ووجه الرفع قياساً على الظّرفين " قبل وبعْد " وهذا النوع من القياس يُصطلح عليه بالقياس التعليلي؛ وهو " أن يُحمَلَ الفرع على الأصل بالعلّة التي علّقَ عليها الحُكم في الأصل " ⁵⁶²، وعلّة المناسبة بين الظرفين التي وجّهت إعراب المُنَادى في هذا التركيب، هي علّة " الطول والقصر "، ولعلّ الغاية التي تجعل الخليل أن يقف مع هذه المسائل، مُبيّناً طبيعتها ووظيفتها هوَ إيمانه التّام أنّ واضح هذه اللّغة حكيم، وهذه اللّغة مُحكمة البناء، وأنّ كلّ هيئة لفظية معلّلة فيها لأغراض استعمالية، تجعل نحويًا حاذقًا وعارفاً مثل الخليل، يكتشف مثل هذه الأقيسة التي تجري في ذهن

⁵⁶⁰ : عبد الله محمد طالب الكناعنة، الصراع بين التراكيب النحوية؛ دراسة في كتاب سيبويه، (ط. 1)، دار الكتاب

الثقافي، الأردن، 2007، ص: 93.

⁵⁶¹ : الكتاب، 2/ 184.

⁵⁶² : لمع الأدلّة، ص: 98.

المتكلم، ضمنياً ليفسر ويعلل بها وجود حكم الأصل في الفرع ، وإلى الكشف عن طبيعة الألفاظ المعدولة ، عن أصل أبوابها المعروفة.

التعليل:

1- مفهومه:

قبل الحديث عن المعنى الاصطلاحي للتعليل، بجدر بنا التطرق إلى مفهومه اللغوي فقد أورد ابن منظور في لسانه: " علّ يُعلّل تعليلاً، علّ الشيء بين علته وأثبتته بالدليل، وعلّة الشيء سببه فالعلّة في اللغة السبب، وهي الحدث يشغل صاحبه عن حاجته، كأنّ تلك العلّة صارت شغلا ثانيا عن شغله الأول⁵⁶³، أمّا من الناحية الاصطلاحية، فيرى حسن الملخ أنّ التعليل في عموميه يُطلق على " بيان علّة الشيء، وتقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر، ويُطلق على ما يُستدلّ فيه من العلّة على المعلول، والتعليل في النحو تفسير اقتراني، يُبين علّة الإعراب أو البناء، على الإطلاق وعلى الخصوص وفّق أصوله العامة⁵⁶⁴ ، وهذه الملاحظات كانت في أولياتها تتميز بكونها " بعيدة عن التكلّف، تعتمد في مجملها على المعنى وذوق العرب، ونزوعهم إلى طلب الخفة، وفرارهم من القبح والثقل⁵⁶⁵، ومن أوائل النحاة الذي تميّزوا برؤية ثاقبة وعمق تحليل، في مسائل العلل نجد " الخليل بن أحمد الفراهيدي " ، حيث نجده في الطبقة الأولى بعد أبي إسحاق الحضرمي (ت:117هـ)، وأبي عمرو بن العلاء(ت:154هـ) بوصفه مُنظراً للتعليل، وعنه قيل: "والخليل بن أحمد لا يُنكر فضله في استنباط ما لم يُسبق إليه، في علم العروض وعلل النحو⁵⁶⁶، كما يُعدّ كاشفاً عن

⁵⁶³ : لسان العرب، مادة: (علل).

⁵⁶⁴ : حسن خميس سعيد الملخ، نظرية التعليل بين القدماء والمحدثين، (ط.1)، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 2000، ص:29.

⁵⁶⁵ : محمد عبد الفتاح الخطيب، ضوابط الفكر النحوي عند العرب، (ط.1)، دار البصائر، القاهرة، 2006، 522/1.

⁵⁶⁶ :ابن الأنباري عبد الرحمن بن محمد، نزهة الأنبياء في طبقات الأدباء، تح: إبراهيم السامرائي، (ط.2)، مكتبة الأندلس، بغداد، 1970، ص:45.

حكمة العرب في كلامها ، فقد سُئلَ عن العلل التي يعتلّ بها، فقليلٌ له عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟، فأجابَ قائلاً: "إنَّ العربَ نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها واعتلتُ أنا بما عندي أنّه علّة، لما عللت منه، فإن أصبْتُ العلّة فهو الذي التمسْتُ، وإن تكن هناك علّة له فمثلي في ذلك مثل رجلٍ حكيم، دخل داراً مُحكمة البناء عجيبة النّظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق ، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللَّائحة، فكَلَّمَا وقفَ هذا الرَّجل في الدّار على شيء منها قال: إنّما فعل هذا هكذا لعلّة كذا وكذا، وبسبب كذا وكذا وسنحت له وخطرت بباله، مُحتملة لذلك فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار، فعل ذلك للعلّة التي ذكرها هذا الذي دخل الدّار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلّة، إلّا أنّ ذلك ممّا ذكره هذا الرَّجل، مُحتمل أن يكون علّة لذلك، فإن سنح لغيري علّة لما عللته من النّحو، هُوَ أليقُ ممّا ذكرته بالمعلول فليأت بها"⁵⁶⁷، وجُملة هذا الكلام أنّ منهجَ التعليل عند الخليل يقوم على الأسس التالية⁵⁶⁸:

- 1- تسلميه بحكمة الواضع ودليله على ذلك، بالخبر الصادق أو البراهين الواضحة والمتمثلة فيما لاحظته، من اطراد مجاري العربية وقواعدها غالباً.
- 2- نتيجة لاعتقاده بحكمة الواضع فهو يُسلم بأنّ هذه اللّغة، بناء تحكمه وحدة من النظام والانسجام، ونستنبط ذلك من تشبيهه إيّاها بالدّار مُحكمة البناء، عجيبة النّظم والأقسام.

- 3- اعتقاده أنّ العلل التي استنبطها مُحتملة لما هُوَ موجود ضمناً، في عقل العربيّ وإن لم تصرّح بها العرب، فهي ليست من صنع مُخيّلته، وإنّما هي اكتشاف لموجود في النّظام اللّغوي، الكامن في عقل العربيّ والذي يمتلكه بالسّليقة، وللتّحوي أن يجتهد في

⁵⁶⁷ : الزجاجي أبو القاسم عبد الرّحمن، الإيضاح في علل النّحو، تح: مازن المبارك، (ط.3)، دار النفائس، بيروت، 1979، ص: 66، 65.

⁵⁶⁸ : مبادئ في أصول النّحو، ص: 180، 181.

استخراج هذه العلل، لأنّ نظام لغتهم محكوم بهذه العلل، التي تدلّ على حكمتهم وتثبت الانسجام والاتساق في لغتهم.

وهذه الرؤية تُبيّن لنا مدى اهتمام الخليل بهذه المسألة، التي تُعدّ من أنفُس ما أفرزه التفكير اللّغوي العربي، فلمّا كانت العلل منذ بدايتها، مُستقاة من طبيعة هذه اللّغة ومُستمدّة من خصائصها الذاتية، فإنّها لا بُدّ أن تظلّ دائماً الأساس الذي يُعتمد عليه، لمعرفة الظواهر والعوارض التي تطرأ على الصّيغ والأبنية⁵⁶⁹، وما يمكن لنا استنتاجه من خلال هذه الرؤية الخليلية، التي يُعالج بها العلل وفق أمثلة العالم المحسوس، تُبيّن لنا الغاية من التعليل كونه يسعى إلى تفسير الظاهرة اللّغوية، وتبرير القواعد من أجل فهم سمّت العرب في كلامها، والكشف عن انتحاءاته وإدراك أسرار تركيبه.

2-أقسامه:

استقراءً في كتب النحاة يُمكننا التقرير أنّ أقسام التعليل، تنقسم إلى ثلاثة أقسام على مذهب الزجاجي الذي يُقسّمها إلى : (تعليمية وقياسية وجدليّة)⁵⁷⁰ ، في حين يُقسّمها السيوطي إلى قسمين رئيسين هما : (العلة البسيطة والعلّة المركّبة)⁵⁷¹، أمّا الرّماني مثلاً فإنّنا نجده ينحو نهجاً ينتسب لسلم المنطق، في تقسيمه للتعليل حيث يقسّمه إلى : (علة قياسية وحُكمية وضرورية وصحيحة وفاسدة)⁵⁷²

2-أ- العلة الأولى (التعليمية):

⁵⁶⁹ : الوراق أبو الحسن محمد بن عبد الله، علل النحو، تح: محمود محمد محمود نصّار، (ط.3)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص:82.

⁵⁷⁰ : الإيضاح في علل النحو، ص:64،65.

⁵⁷¹ : السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، ص:51،52.

⁵⁷² : الرّماني علي بن عيسى، الحدود في علم النحو، تح: إبراهيم السامرائي، (د.ط)، دار الفكر، عمان، 2010، ص:50.

هي التي يُتوصّل بها إلى تعلّم كلام العرب⁵⁷³، وهي العلة التي يُمكن أن يُقال فيها: إنّها علامة تلاحظها الدّراسة الوصفية لظواهر اللّغة، كتعليل رفع الفاعل بأنّه فاعل ونصب المفعول بأنّه مفعول، وتكوين الاسم بأنّه اسم وهكذا⁵⁷⁴.

2-ب- العلة الثانية (القياسية):

إذا تجاوزَ النحويّ العلة الأولى في التماس الأسباب، صارَ إلى العلة الثّانية كأن يسأل: ولماذا رفع الفاعل ونُصب المفعول؟ ثمّ يذهبُ إلى أنّ ذلك كانَ للفرق بينهما، حتّى يتبيّن وجهُ المعنى في مثل: ضربَ سعيدٌ سميراً. وضربَ سميراً سعيدٌ.⁵⁷⁵

2-ج- العلة الثالثة (الجدليّة):

أحياناً لا يقفُ النحويّ عندَ العلة الثّانية، بل يتعدّها إلى ما هو أكثرُ إغراقاً في التعليل فيسأل: إذا كانَ الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوباً للفرق بينهما، فلماذا لم يحصل العكس، فينصب الفاعل ويرفع المفعول؟ ثمّ يهتدي إلى علة رفع الأوّل، وعلة نصب الثاني وهي أنّ الفتحَ خفيف، والضمّ ثقيل، ولمفعول به أكثر عدداً من الفاعل في كلام العرب، ومن أجل ذلك نصبوا الكثير ورفعوا القليل، ليقلّ في كلامهم ما يستقلّون، ويكثر ما يستخفون⁵⁷⁶.

3- طبيعته ونوع حُجّيته ومرتكزاته:

3-أ- طبيعته:

جمعت العلة النحويّة خصائص العلة الفقهيّة، وخصائص العلة الكلاميّة، لأنّ النحاة تأثروا تأثراً بالغاً بما كانَ يُحيط بالبيئة الثقافيّة آنذاك، ولأنّهم استمدّوا مناهجهم وأساليبهم من

⁵⁷³ : الإيضاح في علل النحو، ص: 64.

⁵⁷⁴ : أصول النحو العربي، ص: 106.

⁵⁷⁵ : أصول النحو العربي، ص: 106.

⁵⁷⁶ : المرجع نفسه، ص: 107.

الفقهاء وعلماء الكلام⁵⁷⁷، وعلى ضوء هذا يقول ابن جنيّ مُبيّنًا هذه الحقيقة: " اعلم أنّ علل النحويين -وأعني حدّاقهم المُتقنين لا ألفافهم المُستضعفين-، أقرب إلى علل المُتكلّمين منها إلى علل المُتفّقّين، وذلك أنّهم إنّما يُحيلون على الحسّ، ويحتجّون فيه بثقل الحال أو خفّتها على النَّفس، وليس كذلك حديث علل الفقه ذلك أنّها إنّما هي أعلام، وأمّارات لوقوع الأحكام ووجوه الحكمة فيها خفيّة عنا، غير بادية الصفحة لنا، ألا ترى أنّ ترتيب مناسك الحجّ وفرائض الطهور والصّلاة، والطلاق وغير ذلك، إنّما يرجع في وجوهه إلى ورود الأمر بعمله، ولا نعرف علّة جعل الصّلوات في اليوم واللّيلة خمساً دون غيرها من العدد، ولا يعلم أيضا حال الحكمة والمصلحة في عدد الرّكعات، ولا في اختلاف ما فيها من التّسبيح والتّلاوات، إلى غير ذلك ما يطول ذكره، ولا تحلى النَّفس بمعرفة السّبب الذي كان له ومن أجله، وليس كذلك علل النحويين⁵⁷⁸، وجُملة ما يقرّره ابن جنيّ حول هذا التّفاعل نراه واضحا في الجهاز الاصطلاحي النحويّ برمّته، في تشعّباته التّينيّة بين مُدونة الشّريعة بمفاهيمها ومصطلحاتها، خاصة الفقهية منها كونه الأسبق في الظهور من النحو، ومفاهيم علم الكلام وكيفية اشتغالاتها العقلية في مختلف المسائل، التي توجب عللا مُتباينة في القضية الواحدة، لذا كان من المنطقيّ التّأثر بمثل هذه المسائل، وكيفية معالجة القضايا فيها.

3-ب- نوع حجّيته:

يرى بعض النّحاة مثل ابن جنيّ أنّ هناك نوعين من العلل (موجبة و مجوّزة)⁵⁷⁹، فالأولى منها تقتضي منك أن تلتزم حكما واحدا، لا خيار لك في غيره مثل نصب المفعول، فلا يجوز للمتكلّم أن يخرج عن هذا الحكم، فيرفعه أو يجره، أمّا النوع الثّاني من العلل

⁵⁷⁷ : أصول النحو العربي، ص: 108.

⁵⁷⁸ : الخصائص، 1/48.

⁵⁷⁹ : المصدر نفسه، 1/64.

(مَجَوَّزة) فهو عكس سابقه، فإنَّه يجوز لك وفق نظرية الاحتمال، أن تأخذ بِوَجْهين في مَوْضع واحد اختيارا غير مُلزم بأحد الوجهين.

4- نماذجُه عند الخليل ومرتكزاته:

4-1- قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: " لا يقولون إلَّا هذان جُحرا ضبَّ خربانٍ من قِبَلِ أنَّ الضبَّ واحدٌ، والجُحر جُحران، وإنَّما يغلطون إذا كان الآخر بعدَّة الأول، وكان مُذكِّرا مثله أو مؤنَّثا، وقالوا هذه جِحرَة ضباب خربة، لأنَّ الضَّباب مؤنَّثَة ولأنَّ الجِحرَة مؤنَّثَة، والعدَّة واحدة، فغلطو "580، هذا الضُّربُ من التعليل يصطلح عليه بـ (الحمل على المعنى)؛ وهو وسيلة اصطنعها النُّحاة العرب في منهجهم، لِيُجبروا بها كلَّ صدع في بناء الجُملة، إذا لم يكن متوافقا مع البنية الأساسيَّة، وذلك بأن يُحمل الكلام على معناه لا على لفظه، اصطَلحوا على هذه الوسيلة-وهي ضمن وسائل أخرى للغرض نفسه- الحمل على المعنى. "581، وقد استخدمه الخليل في مواضع عدَّة مثل قوله: " كأنَّك تحمله على ذلك المعنى "582، وما يمكننا استخلاصه من خلال النِّص السابق، أنَّ الخليل اعتمدَ على هذا النُّوع من التَّعليل إيمانا منه أنَّ هذه اللَّغة حمَّالة أوجه ومتعدِّدة الدَّلالات، واعتماد مثل هذا المرتكز سيكشف الكثير عن المخالفات اللَّفْظية المنطوقة، وهذه الخطوة يمكن وصفها بالعلميَّة، في حقِّ الخليل حيث انتقل من الملاحظة والوصف إلى مرحلة تأسيس قواعد أوليَّة تحكمها معايير مضبوطة.

4-2-: من وسائل التعليل التي اعتمدها الخليل في تحليل الكلام العربي، استخدامه لتقنيَّة "التأويل"، ومعلوم لدينا أنَّ مرتبة التأويل عند العقل العربي كانت ترومُّ البحث في سياقات

580 : الكتاب، 1/437.

581 : عبد اللطيف حماسة، النحو والدلالة، (ط.1)، دار الشروق، القاهرة، 2000، ص:189.

582 : الكتاب، 1/283.

النصوص، التي تورّد فيها وتُفَعّل فيها القرائن اللفظية أو المعنوية⁵⁸³، وقد كان الخليل يُكثر من التأويل والتخريج، حتى يصطدم ببعض القواعد التي يستظهرها، وهو في ذلك يُحلّل الألفاظ والكلام تحليلاً يُعينه على ما يُريده من توجيه الإعراب، ومن التأويل والتفسير⁵⁸⁴، وذلك لغاية في نفسه، حتى يوافق الكلام قوانين النحو وأحكامه، ومن مظاهر التأويل عند الخليل ما حدّثنا عنه تلميذه سيبويه في باب (ما يُنصب على التعظيم والمدح)، حيث يقول: " زعم الخليل إنّ نصب هذا على إنّك لم ترد أن تُحدّث الناس، ولا من تُخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءً وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنّه قال انكُر أهلَ ذاك، واذكر المقيمين، ولكنّه فعل لا يستعمل إظهاره "⁵⁸⁵، فهذا النص من وجهة نظر الخليل جاء مُبيناً لعلّة وغاية مخصوصة في نفس المُتكلّم، وقد تتعدّى إلى غايات أخرى كأن تأتي للتعريف أو التّكثير، وهو ما جاء في رواية سيبويه عن شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي حيث أورد: " وزعم الخليل إنّ الذين يقولون عاقٍ وِغاقٍ ، وعاءٍ وِحاءٍ فلا يُؤنّون فيها ولا في أشباهها، أنها معرفة وكأنّك قلت في عاءٍ وِحاءٍ الإِتباع، وكأنّه قال قال الغراب هذا النحو، وإنّ الذين قالوا عاءٍ وِحاءٍ وِغاقٍ جعلوها نكرة، وزعم الخليل إنّ الذين قالوا صهٍ ذاك أرادوا النّكرة، كأنّهم قالوا سكوتاً، وكذلك هيهات "⁵⁸⁶، وما يمكننا استخلاصه في هذه الجزئية أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، استعان بالتأويل كطريقة عقلية لتخريج مُضمّر الكلام، وإعادة صياغته بتقليبات ذهنية تتماشى مع قوانين العرب في كلامهم.

4-3-: يرى الخليل بعدم جواز النّسب إلى عبْد منافٍ، وذلك خشية الوقوع في الالتباس، و"دفع الالتباس علّة من العلل الوجهية في أصول النّحو"⁵⁸⁷، وقد سئل الخليل عن

⁵⁸³ : منقول عبد الجليل، النص والتأويل دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، (ط.1)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص:20.

⁵⁸⁴ : المدارس النحوية، ص:45.

⁵⁸⁵ : الكتاب، 2/65.

⁵⁸⁶ : المصدر نفسه، 2/154.

⁵⁸⁷ : أصول النحو، ص:114.

هذه المسألة من قِبَل مُريده سيبويه ، " وسألتُ الخليل عن قولهم في عبد منافٍ منافٍ فقالَ
أما القياسُ فكما ذكرْتُ لك، إلا أَنَّهُم قالوا منافٍ مخافة الالتباسِ، ولو فعل ذلك بما جُعِلَ
اسماً من شيئين جاز لكرهية الالتباس "588، وما يُمكن أن نَلْمسهُ في هذا الشَّأن، أَنَّ الخليل
ذاقَ كلام العرب في أسلوبه طريقة تأليفه، والمزِيَّة من الكلام في عرف أهل الذَّوق هي
الوضوح والإبانة.

4-4-: نجدُ أيضاً من مُرتكزاتِ العِلَّة التي علَّل بها الخليل بن أحمد الفراهيدي، ظواهر اللِّغة
(علة توكيد) ؛ حيث تأتي هذه العِلَّة بدخول حروف الزيادة في الكلام لإفادة التوكيد، وتكون
باقترانِ الفعل بنون التوكيد، وتزداد درجة التوكيد، وتقلُّ باختلاف درجة النُّون ثِقيلة كانت أم
خفيفة، حيث قال: " اعلم أَنَّ كلَّ شيء دخلته الخفيفة فقد تدخله الثَّقيلة، كما أَنَّ كلَّ شيء
تدخله الثَّقيلة تدخله الخفيفة ، فإذا جئت بالخفيفة فأنت مُؤكِّد، وإذا جئت بالثَّقيلة فأنت أَشدُّ
توكيدا "589، ويمكننا القول إنَّ هذا التقرير العلمي ينحو منحى البَيِّنَةِ، في الدراسة التركيبية
حيث يزواج بين المعطيات النحوية، والإقرارات الصَّوتية في الكشف عن الدَّلالة الرَّمزية، للفظ
في سياقٍ معيَّن.

الخليل بن أحمد ونظرية العامل.

تُعَدُّ نظرية العامل من أهمِّ ما أنتجه العقل العربي، في سياق خطابه المعرفي والثقافي
آنذاك ، من خلال تساؤلاته وطروحاته حول القوانين العامَّة ، التي تتحكَّم في الظاهرة
اللُّغوية، بوصفِ اللُّغة ظاهرة كونية ذات تجلِّيات مُتعالية، إضافة إلى كونها مُرتبطة بأهمِّ
ظاهرة عرفها العرب، ألا وهي ميزة الإعراب " فهي لا تعدو أن تكون رصداً للعلاقات
المعنوية واللُّغوية، في التركيب وما ينجمُ عن هذه العلاقات من ظواهر صوتية على أواخر

588 : الكتاب، 3/376.

589 : المصدر نفسه، 3/509.

الكلمات المُعرَبة⁵⁹⁰، فهي المُعوَّل عليها في التحليل الإعرابي، وعليها تُدار أكثر مسائل النحو، وأغلب الظنّ أنّ المُنظّر لها هو الخليل، حيث اتّسعت نظرية العامل على يده بعد نظرات شيوخه الأوائل في طبقته، أبو إسحاق الحضرميّ (ت:117)، وعيسى بن عمرو (ت:149)، ويكفي أن تعود إلى كتاب سيبويه ليتبيّن لك ذلك، مثل نصّه الذي يقول فيه: " وإنّما ذكرْتُ لك ثمانية مَجَارٍ، لأفَرِّقَ بَيْنَ ما يدخله ضرب من هذه الأربعة، لما يحدث فيه العامل، وليس شيء منها إلّا وهو يزول عنه، وبين ما يُبنى عليه الحرف، بناءً لا يزول عنه لغير شيء، أحدثَ ذلك فيه مِنَ العواملِ الّتي لكلّ عامل منها ضربٌ مِنَ اللَّفْظِ، في الحرف وذلك الحرف حرف إعراب "⁵⁹¹، فهذا النّص وغيره مِنَ النّصوص الّتي نقلها ورواها سيبويه عن شيخه الخليل، يُثبِتُ أنّ أكثر العوامل قال بها الخليل، كتمام الاسم والحروف المُشبّهة بالفعل، والحروف المُشبّهة بليس وغيرها كثير، وأكثر المفاهيم المُتعلّقة بها كالإلغاء والتعليق، والإجراء على الموضع والاشتغال، والعطف على التوهّم ونحو ذلك، إنّما هي من أفكار الخليل بن أحمد الفراهيدي، حيث كان يتوغّل في استعمال هذه النظرية، ويتوسّع في مسالكها، إلى أن تهيأ له الوضع فجعلها نظرية ناضجة، فأرسي قواعدها وطرائقها ومدّ أصولها، وجعلها أداةً منهجيّة في التحليل الإعرابي⁵⁹²، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ الخليل كان عارفاً بطبيعة العمل اللّغوي، من خلال تأمّلاته في ظواهر اللّغة وأنظمتها، وما ينبجُ عن العلاقات التركيبية من أثر إعرابي، سببه قرائن لفظية وأخرى معنويّة، تُحدث هي الأخرى مؤثرات في بنية اللّغة العامّة.

1-تعريفُ العامل:

لا يتأتّى لنا تعريف مُصطلح العامل، إلّا إذا عبرنا على دلّالته اللّغوية، لأنّ دلالة المعنى اللّغوي لها ارتباط وثيق بالمدلول الاصطلاحي، فقد عرّفه ابن منظور قائلاً: "

⁵⁹⁰ : أصول النحو العربي، ص:129.

⁵⁹¹ : الكتاب، 1/13.

⁵⁹² : مبادئ في أصول النحو، ص:249.

والعامل هُوَ الَّذِي يتولَّى أمور الرَّجُل، في ماله وملكه وعمله، ومن ذلك قِيلَ للَّذي يستخرج الزَّكَاةَ عامل... ، والعامل في العربيَّة ما عمل عملاً ما فرفع أو نصب أو جرّ، كالفعل النَّاصِب أو الجازم، وكالأسماء الَّتِي من شأنها أن تعملَ أيضاً، وكأسماء الفعل وقد عمل الشيء في الشيء، أحدث فيه نوعاً من الإعراب "593، هذه الدَّلالة اللُّغوية وغيرها من الدَّلالات الَّتِي أشارَ إليها أصحاب المعاجم، أثناء تعريجهم على هذه المادَّة (عمل)، والَّتِي اجتمعت كلّها في معنى التدبير والتحكّم، والمهنة والعمل والتسيير، نجدها لا تختلف في الجذر نفسه من حيث المدلول الاصطلاحي، الَّذِي تطرّق إليه النّحاة وأهل هذا الفنّ في تفسيرهم للعامل، فقد عرّفه الجرجانيّ في كتابه العوامل بقوله : " ما أُوجِبَ كَوْنُ آخر الكلمة مرفوعاً، أو منصوباً أو مجزوماً أو ساكناً "594، أمّا ابن الحاجب فيذهبُ إلى تعريف العامل قائلاً : " العامل ما به يتقوّم المعنى المقتضي للإعراب "595.

نجدُ أنّ التعريفَ الأوّل يرى أنّ " العامل مُوجِباً للإعراب في المعمول، كما لو كان تأثيره في المعمول إنّما هُوَ تأثيرٌ لفظيٌّ فقط، بحيث يقتضي فيه علامة إعرابية ظاهرة أو مقدّرة "596، أمّا التعريف الثاني الَّذِي ذهب إليه ابن الحاجب، وعليه سار أكثر النّحاة فإنّهم يرونَ " أنّ هذا التأثير معنويّ يقتضي تأثيراً لفظياً، ظاهراً أو مقدّراً "597، و تعبير ابن الحاجب في عبارة (يتقوّم)، نجده مشحوناً بمضامين بيّنيّة، فالتقوّم هُوَ أوّل مُعطياته معنى فلسفيّ وكلامي قال به فلاسفة اليونان، ثمّ استعمله علماء الكلام، ومفاده أنّ الكائن منشطر إلى حقيقتين: حقيقة الجوهر وهُوَ معنى تجريديّ للكائن، وحقيقة الأعراض الَّتِي هي صفات

593 : لسان العرب، مادة: (عمل).

594 : الجرجاني عبد القاهر، العوامل المنة النحوية، شر: الشيخ خالد الجرجاوي، (ط.3)، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص:73.

595 : الرضي الإستراباذي محمد بن الحسن، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تح: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، ويحي بشير مصطفى، (ط.1) ،إدارة الثقافة والنشر، السعودية ، 2011، 25/1.

596 : مبادئ في أصول النحو، ص:250.

597 : المرجع نفسه، ص: 250.

وأوضاع غير ثابتة، ترتبط بالجوهر فيكتسب منها حالاً، ولقد شعر رضي الدين الأستربادي أنّ تعريف ابن الحاجب يتطلب إيضاحاً فأضاف قائلاً: " ويعني بالتقوّم نحواً من قيام العرض بالجوهر، فإنّ معنى الفاعلية والمفعولية، والإضافة كون الكلمة عمدة أو فضلة أو مضافة إليها، وهذه كالأعراض القائمة بالعمدة والفضلة والمضاف إليه ⁵⁹⁸، فالعامل من هذه الزاوية ليس إلّا واسطة، وأداة يتوصّل بها المعنى المقتضى إلى فرض الحركة الإعرابية ⁵⁹⁹، وهذا الاقتضاء سببيّ في تحقّق الوظائف النحوية، وعلى سبيل التوضيح يقول ابن يعيش مُحدّثنا عن العامل في المُضاف إليه: " وليست الإضافة هي العاملة للجرّ، وإنّما هي المُقتضية له والمعنى المقتضى هنا أنّ القياس يقتضي هذا النوع من الإعراب، لتنعّ المخالفة بينه وبين إعراب الفاعل، والمفعول فيتميّز عنهما، إذ الإعراب إنّما وضع للفرق بين المعاني ⁶⁰⁰، ولأجل هذه المعاني النحوية يقتضي العامل معموله من خلال التعلّق الواقع بينهما (تعلّق المعمول بالعامل) لأنّ الألفاظ تابعة للمعاني.

أقسام العامل:

ينقسم العامل إلى أصناف باعتبارات متباينة، " فهناك العامل السماعي والقياسي ⁶⁰¹، من حيث طريقه أو منقلبه ⁶⁰²، والعامل اللفظي والمعنويّ من حيث وجوده في التركيب،

⁵⁹⁸ : مصطفى بن حمزة، نظرية العامل في النحو العربي دراسة تأصيلية تركيبية، (ط.1)، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2004، ص: 100، 99.

⁵⁹⁹ : المرجع نفسه، ص: 100.

⁶⁰⁰ : شرح المفصل، 2/117.

⁶⁰¹ : وهو ما ذهب إليه الجرجانيّ حينما رأى أنّ العامل القياسيّ هو ما صحّ أن يُقال فيه كلّ ما كان كذا فإنّه يعمل كذا والعامل السماعي وهو ما صحّ فيه هذا يعمل كذا وهذا يعمل كذا، وليس لك أن تتجاوز، كقولنا إنّ الباء تجرّ ولم تجزم وغيرها، والعامل المعنويّ وهو الذي لا يكون للسان فيه حظّ، وإنّما هو معنى يُعرف بالقلب. أنظر، العوامل المائة النحوية في علم أصول علم العربية، ص: 142.

⁶⁰² : تنقسم العوامل من حيث المنقول عن العرب إلى صنفين " سماعية": وهي التي سمعت عن العرب ولا يُقاس عليها مثل حروف الجرّ، و " قياسية ": وهي العوامل المسموعة عن العرب والتي يُقاس عليها مثل جرّ المضاف للمضاف إليه. أنظر المرجع نفسه، ص: 153.

ومردُّ هذا التعدّد هو العمل على تأصيلِ نظرية العامل، وإثبات الجذور الأولى لها في نظرية النحو العربي، كما يُردّ إلى رغبة النّحاة في تجريدها من الاعتبارات غير النّحوية لا سيما بعد أن تعالت صيحات القائلين بأنّ نظرية العامل، نظرية فلسفية ذات صبغة جدلية بحتة⁶⁰³، والتّقسيم المشهور عند النّحاة للعامل، وما نجده في ورقات كُتبتهم من خلال أقوالهم، وتفسيراتهم نجده ينقسم إلى قسمين مشهورين "لفظي" و "معنوي" والفرق بينهما أنّ العامل اللفظي هو ما يُتلفظ به حقيقةً أو حكماً مثل نطق المتكلم به كالنّواسخ وحروف الجرّ، أمّا العامل المعنوي فهو ما لا يكون له أثر في اللفظ لا حقيقةً ولا حكماً، عكس اللفظي لا يمكن النّطق به أو كما قال الجرجاني "وهو الذي لا يكون للسان فيه حظّ، وإنّما هو معنى يُعرف بالقلب"⁶⁰⁴، مثل رافع المبتدأ وهو عامل الابتداء، ورافع الفعل المضارع لوقوعه موقع الاسم، عند البصريين، وقد يُطلق العامل المعنوي على ما لا يكون عاملية، باعتبار لفظ الكلام ومنطوقه، بل باعتبار معنى خارج عنه⁶⁰⁵، هذان القسمان ينحدر تحت كلّ واحدٍ منهما أصناف مُعيّنة، فتأمّلات السّادة النّحاة في العوامل اللفظية مثلاً، وصلّ بهم التّفسير إلى أنّ "الاسم في اللغة العربيّة أكثر تحمّلاً للمعاني المتنوّعة في التركيب، فهو الذي يُعبّر عن الإسناد والغاية والمفعولية، والمكان والهيئة وغير ذلك، على حين لا يحمل الفعل إلّا دالتين اثنتين هما: الحدث والزّمان، أمّا الحرف فإنّ معانيه الكثيرة لا تظهر، غير السّياق والتركيب"⁶⁰⁶ ودرجات هذه الأصناف مبنية تسلسلياً، على معيار القوّة "فقد أدرك النحويون من ملاحظة الظواهر التركيبية في لغة العرب، أنّ الأفعال أقوى القرائن اللفظية التي ترتبط بها حالات الإعراب، فهي تفوق الأحرف العاملة، لأنّهم لاحظوا أنّ معمولاتها كثيرة متنوّعة، فهي ترفعُ الفاعل، وتنصبُ المفعولات جميعاً كما تنصبُ الحال وتمييز النسبة، وتعملُ في الجمل

⁶⁰³ محمد عدلي محمد عودة وآخرون، التّأصيل لعلاقة العامل بالتعليل في الدرس النحوي، مجلة جامعة الأنبار لغات والآداب، كلية الآداب، العراق، العدد 01، 2009، ص: 06.

⁶⁰⁴ : العوامل المائة النحوية في علم أصول علم العربية، ص: 142.

⁶⁰⁵ : مبادئ في أصول النحو، ص: 262.

⁶⁰⁶ : أصول النحو العربي، ص: 147.

ولا يقف أمرها عند هذا الحدّ، بل إنّها تعمل فيما تقدّم عليها وتأخّر عنها، على حين لا يعمل الحرف إلّا في المتأخّر عنه⁶⁰⁷، إذن هذا المعيار التأملي والسلم التصنيفي، الذي تقدّم به النحاة، من خلال تفسيرهم لقوّة عمل الفعل، إضافةً إلى ميزة الأفعال كما قرّر النحاة أنّها متفاوتة أيضاً، في قوّة تأثيرها في معمولاتها، يُعدّ في الوقت نفسه تفسيراً عاملياً، لحدثٍ موجود في العالم الخارجي على تعبير المناطق، ذلك أنّ اللّغة في نظرهم متصوّر تنظيمي يُجسّم صورة القانون اللّغوي، الذي يُشكّل نموذج العُرف على لسان الجماعة الناطقة، باللّغة في بيئة لغوية مُعيّنة، تُستخدم فيها اللّغة بمراتب تخصيصيّة، متفاوتة كلّ مرتبة وقوّة عملها.

بعد عمل الأفعال تأتي "الأسماء" في الدّرجة الثّانية، وعلة هذا التأخّر التصنيفي أنّها "تعمل في بعض المواضع، ولا تعمل في مواضع أخرى"⁶⁰⁸، حيث يرى النحاة أنّ الأصل فيها عدم العمل، لكنّ بعضها تمكّن من قوّة العمل، لأنّه أشبه بالفعلِ فعمل عمله مثل اسم الفاعل مثلاً في شبهه بالفعل المضارع، شبهاً معنوياً ولفظياً⁶⁰⁹، إضافة إلى أنّ هذه الاسماء ضمن بعضها الآخر معنى الحرف، أو ناب عنه فعمل عمله مثل أسماء الشرط التي تتضمّن معنى الحرف، والمضاف الذي ينوب عن الحرف⁶¹⁰، وبعد عمل الأفعال تأتي في الدّرجة الثالثة والأخيرة من العوامل اللفظية "الحروف"، فقد راح النحاة يُفكّكون جهازها الوظيفي بتقنيّة (الاختصاص)، حيث وجدوا أثناء استقرار العربية ظاهرة لا تخلو من دلالة

⁶⁰⁷ : أصول النحو العربي ، ص:149.

⁶⁰⁸ : خليل أحمد عاميرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل النحوي، (ط.1)، دار الفكر ناشرون وموزعون، بيروت، 1987، ص:57.

⁶⁰⁹ : مثال ذلك: إذا قلت إنّني لمُكرم أصحاب المروءة، ووازنّت بين (مكرم) و(أكرم) بدا لك الشّبه واضحاً في اللفظ والمعنى، فمن حيث البنية لا ترى بين الكلمتين خلافاً إلّا تلك الميم المضمومة في الاسم التي حلّت محلّ الهمزة المضمومة في الفعل، ومن حيث المعنى تدلّ كلّ منهما على الحدث وفاعله المُضمر فيها، وعلى الزّمن الحاضر أو المستقبل.أنظر: الحلواني، أصول النحو العربي، ص:161.

⁶¹⁰ : مثال ذلك: إذا قلت: متى تأتيّني تجديني، كان المعنى: إن تأتيّني في أيّ وقت تجدني؛ فأسماء الشرط إنّما عملت لتضمّن معناها معنى "إن" ولولا ذلك لما عملت، والدليل على ذلك أنّها حين ضمنت معنى الهمزة لم تعمل، أمّا الضرب الثّاني فهو ما ناب عن الحرف، فإذا قلت: قلّم زَيْدٌ، كان المعنى: قلّم لَزَيْدٍ فأسقط حرف الجرّ اختصاراً للكلام، فحلّ الاسم قبله محلّه، وناب عنه في عمل الجرّ. أنظر: المرجع نفسه، ص:166، 167.

على منطقيّة هذه اللّغة، وهي " أنّ الحروف العاملة هي الحروف التي تختصّ بالأسماء فلا تُباشِر الأفعال، أو تختصّ بالأفعال فلا تُباشِر الأسماء، وتبيّن لهم أنّ الحرف الذي لا اختصاص له بأحد القبيلين لا عمل له، فالحرف المختصّ بالاسم مثلاً تقترب به حال إعرابية خاصة، وكذلك الشأن فيما اختصّ بالفعل، وهذا الاقتران المطرد هو الذي هيأ للنّحاة أن يطلقوا عليه مصطلح (العامل) ⁶¹¹، كما وُجدت أيضاً حالات شاذة عكست القاعدة المتعارف عليها، في هذه المسألة حول وجود حروف غير مُختصة، لكنّها عاملة والعكس مثل (كي) التي تنصب المضارع تارة، وتجرّ (ما) الاستفهامية تارة أخرى ⁶¹²، ومرّد هذا الأمر كلّه عدم التّضييق في الاستعمال، وإطراد التداول العام الذي أجازهُ جمهور النّحاة، من خلال تأويلاتهم لهذه الظواهر.

بعد حديثنا عن العامل اللفظي ننقل إلى (العامل المعنوي)، حيث رأى النحويون وهم يتأمّلون لغة العرب، أنّ ظواهر من الإعراب لا تخضع لقرينة لفظية، كرفع المبتدأ والفعل المضارع، فربطوا بينها وبين معنى تركيبّي دقيق، ثمّ زعموا أنّ هذا المعنى هو العامل فيها دون سواه ⁶¹³، ومن أشهر المسائل التي دار الخلاف النّحوي فيها بين المدرستين البصرية والكوفية، مسألة الابتداء ورافع الفعل المضارع ، أمّا المسألة الأولى فقد وقع الخلاف في أصحاب المدرسة الواحدة أنفسهم، فمنهم من ذهب إلى القول إنّ الابتداء عامل في رفع المبتدأ دون الخبر، وهذا الرّأي أخذ به سيبويه، وذهب تلميذه الأخفش الأوسط إلى أنّ الابتداء يرفع المبتدأ والخبر كليهما، ونجدُ عند أبي العباس المبرد رأياً ثالثاً، يرى فيه أنّ الابتداء والمبتدأ كليهما يرفعان الخبر، وعلى رأيه سار ابن جنيّ في الفكرة ⁶¹⁴، أمّا المسألة الثّانية الخاصّة برفع الفعل المضارع، فنّحاة البصرة يرون أنّ العامل فيه هو قيامه مقام

⁶¹¹ : أصول النحو العربي ،ص:153.

⁶¹² : المرجع نفسه ، ص:154،155.

⁶¹³ : نفسه،ص:169، بتصرف.

⁶¹⁴ : نفسه، ص: 171، 174.

الاسم⁶¹⁵ وهو عامل معنوي فأشبهه الابتداء، والابتداء يُوجب الرفع أمّا نُحاة الكُوفة وعلى رأسهم الكسائيّ، يذهبون مذهباً آخر في تبرير العامل في رافع الفعل المضارع، حيث يرون أنّ المضارع مرفوع بأحرف المضارعة، وقام نُحاة آخرون من المدرسة نفسها بإيجاد تأويلات وتقديرات وتخريجات لهذا العامل⁶¹⁶، وما يُمكننا استخلاصه من هذه الخلافات الأخيرة، أنّ النحاة قاموا باستقراء هذا الفعل من خلال تحديد موقعه، وسياقات وروده الخاصة وفق مرجعيات علمية (مُعطيات العوامل القياسية)، استنتجوا من خلالها أنّ هذا الفعل يأتي في موضع الاسم لعوامل مُبرّرة علمياً، عبر تقديرات وملاحظات منهجيّة قوامها الذهن والاستدلال العقليّ.

فكرة العامل بينَ القبول والرفض:

إنّ فكرة العامل في رأي الجمهور تُعدّ المعيار الرّئيس، لضبط الكلمات وفق ما يُحسّ ويُدرَك من معاني الكلام، علماً أنّ العامل هو من عمل المتكلّم، فكان من الطّبيعي أن يتوسّل هذه الآلية للاهتمام إلى الحركة المطلوبة، والضبط الصّحيح في القراءة والكتابة، ولإبراز القصد في التواصل بشكل عام، ولهذا عُدت فكرة العامل المحور الرّئيس، الذي تدور حوله أهمّ قضايا النّحو ومباحثه، فقد ظل بقوانينه وضوابطه القاعدة المحكمة لكمّ من الانزياحات المعيارية، التي خرجت عن سمت العرب في معهودها، ودار استفسارها في خلدّها، وعلى تطوّر جهازها المفاهيمي وانجلاء آلياتها المعرفية في وصف الظواهر اللّغوية، ما فتئت تُمثّل دستوراً للنّحاة من قُدماء ومحدثين، على الرّغم من الأصوات الدّاعية إلى رفض وإلغاء فكرة العامل⁶¹⁷، ومن أبرز وأشهر الأصوات الدّاعية إلى إلغاء هذه

⁶¹⁵ : هذا الرّأي ذهب إليه سيبويه، أنظر، الكتاب، 1/409، 410.

⁶¹⁶ : ابن الأنباري أبو البركات عبد الرحمن، الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: حسن حمد، وإيميل بديع يعقوب (ط. 1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، ص: 289.

⁶¹⁷ : عبد الكريم بكري، أصول النّحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي، (ط. 1)، منشورات الدار الجزائرية، الجزائر 2015، ص: 101.

الفكرة في تاريخ النحو العربي، ثورة ابن مضاء القرطبي التي شنها في كتابه " الرد على النحاة "، والتي دعا فيها إلى إلغاء نظرية العامل، من خلال شعاره الصريح الذي يقول فيه: " قصدي في هذا الكتاب، أن أحذف من النحو ما يستغني النحو عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه"⁶¹⁸، ونظراته حول العامل يمكننا القول إنها اقتصررت على العوامل اللفظية، والمحذوفة والمستترة حاول من خلالها أن يقدم مبررات، ليمرر مشروعه الإلغائي لهذه النظرية، التي تعد الركن المهم التي بنى عليها النحاة القاعدة النحوية، والمتأمل في جملة المبررات التي استند عليها ابن مضاء، سيرى أنه استعان برؤى نحوية لجهاذة النحو أمثال ابن جنّي، حيث تردد في بعض الدراسات الحديثة، التي حاولت إثبات رفض بعض النحاة لنظرية العامل، منذ فجر النحو العربي أنّ أبا الفتح عثمان بن جنّي ، يأتي في طليعة هؤلاء الناقمين على الاتجاه الإجمالي في العربية، لكن يُعتقد أنّ ابن مضاء هو المسؤول الأول عن إيهام الناس بأنّ ابن جنّي، كان ينتقد على النحاة قولهم بالعامل⁶¹⁹، ومدار هذا الوهم الحاصل فهم ابن مضاء لنصّ ابن جنّي في خصائصه، تحت باب في مقاييس العربية الذي يقول فيه: " وهي ضربان: أحدهما معنوي والآخر لفظي، وهذان الضربان إنّما عمّوا وفشوا في هذه اللغة فإنّ أقوامها ، وأوسعهما هو القياس المعنوي، ألا ترى أنّ الأسباب المانعة من الصّرف تسعة: واحدٌ منها لفظي وهو شبه الفعل لفظاً نحو أحمد...، والثمانية الباقية كلّها معنوية كالتعريف والوصف...، مثله اعتبارك باب الفاعل والمفعول به، بأن تقول رفعت هذا لأنّه فاعل ونصبت هذا لأنّه مفعول...، وإنّما قال النحويون عامل لفظي وعامل معنوي، ليروك أنّ بعض العمل يأتي مسبباً عن لفظ يصحبه، كمررتُ بزيد وليتَ عمراً قائم، وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظٍ يتعلّق به، كرفع المبتدأ بالابتداء ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم، هذا ظاهر الأمر، وعليه صفحة القول، فأما في الحقيقة ومحصل الحديث، فالعمل

⁶¹⁸ : ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن القرطبي، الرد على النحاة، تح: شوقي ضيف، (ط.1) ، دار الفكر العربي، القاهرة،

1947، ص:76.

⁶¹⁹ : نظرية العامل في النحو العربي، ص:329.

مِنَ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْجَزْمِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُتَكَلِّمِ نَفْسِهِ، لَا لَشَيْءٍ غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا قَالُوا لَفْظِي وَمَعْنَوِي، لَمَّا ظَهَرَتْ آثَارُ فِعْلِ الْمُتَكَلِّمِ بِمُضَامَاةِ اللَّفْظِ لِلْفِعْلِ، أَوْ بِاشْتِمَالِ الْمَعْنَى عَلَى اللَّفْظِ، وَهَذَا وَاضِحٌ⁶²⁰، وَمِنْ خِلَالِ هَذَا النَّصِّ يُفْهَمُ أَنَّ مَقَالََةَ ابْنِ جَنِّي، لَا يُمَكِّنُ أَنَّ تَفْهَمَ مَبْتَوْرَةً مَعْرُوزَةً عَنِ النَّصِّ بِأَكْمَلِهِ كَمَا أَخَذَ بِذَلِكَ ابْنُ مِضَاءٍ، مِنْ خِلَالِ وَقُوفِهِ عَلَى عِبَارَةِ " فَالْعَمَلُ مِنَ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَالْجَزْمِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْمُتَكَلِّمِ نَفْسِهِ لَا لَشَيْءٍ غَيْرِهِ، "⁶²¹، فَالنَّصُّ لَمْ يُخَصَّصْهُ لِنَقْضِ نَظَرِيَةِ الْعَامِلِ، وَإِنَّمَا أَفْرَدَهُ لِتَأْكِيدِ رَأْيِهِ فِي أَنَّ الْعَامِلَ الْمَعْنَوِيَّ، هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَقْوَى وَالْأَغْلَبُ وَالْأَظْهَرُ⁶²²، وَالْوَاضِحُ لِلْعَيَانِ أَنَّ ابْنَ جَنِّي لَمْ يَكُنْ مُتَعَصِّبًا لِمَسْأَلَةِ الْعَامِلِ، فَقَدْ شَرَحَهَا شَرْحًا وَافِيًا فِي خِصَائِصِهِ، وَقَبْلَ أَنْ يُفْصَحَ عَنِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي كَانَتْ مَحَلَّ الشَّاهِدِ الَّذِي اتَّكَأَ عَلَيْهِ ابْنُ مِضَاءٍ، نَجِدُ أَنَّ ابْنَ جَنِّي ذَهَبَ إِلَى تَقْسِيمِ الْعَامِلِ إِلَى: لَفْظِيٍّ وَمَعْنَوِيٍّ مَبِينًا أَنَّ أَكْثَرَهَا شِيَاعَا الْعَوَامِلِ النُّحْوِيَّةِ، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ كَمَا وَرَدَ فِي نَصِّهِ⁶²³، وَعَلَيْهِ نَقُولُ إِنَّ الْإِفْتِرَاضَ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ مِضَاءٍ مَتَأَوَّلًا قَوْلَ ابْنِ جَنِّي، فِي رُؤْيَا نَصْفِهَا بِالضِّيْقَةِ، لَا يَتَنَاسَبُ وَقَوَاعِدَ اللَّغَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، لِأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ النَّاطِقَ يُشَكِّلُ كَلَامَهُ وَفَقِ نِظَامَ عِلَامَاتِيٍّ، وَشَكْلِيٍّ تُحَدِّدُ مَقْصِدِيَّاتِهِ مَجْمُوعَةَ الْقَوَاعِدِ الْمُنتَظِمَةِ، فِي بَنِيَاتٍ وَظَائِفِيَّةٍ ضَمَّنَ سِيَاقَ مَخْصُوصٍ، مُوجَّهَةً بِسِمَاتٍ إِعْرَابِيَّةٍ، تَقْصَحُ هِيَ الْآخَرَى عَنْ قِصْدِ الْمُتَكَلِّمِ.

هَذَا مِثَالٌ وَاحِدٌ أَوْرَدْنَاهُ لِتَبْيَانِ دَعْوَى الرَّفْضِ، رَغْمَ أَنَّ ابْنَ مِضَاءٍ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ سَجَدُ الْمُتَأَمِّلِ فِي تَحْلِيلَاتِهِ لِلْعَلَلِ الثَّوَانِيَّةِ، الَّتِي دَعَا إِلَى إِسْقَاطِهَا بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَخْرَجًا آخَرَ دُونَهَا، فَقَدْ عَادَ إِلَيْهَا لِيَعْلَلَ بِهَا إِعْرَابَ الْمِضَارِعِ، وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ لَا يُسَعِفُنَا الْمَقَامُ أَنْ نُورِدَهَا كُلَّهَا وَسَيُلَاحِظُ الْقَارِئُ وَالْبَاحِثُ، كَمْ هِيَ الْأَقْوَالُ الَّتِي أَغْرَقَتْ هَذِهِ النُّظَرِيَّةَ بِالتَّأْوِيلَاتِ وَالتَّقْدِيرَاتِ لَيْسَ فَقَطْ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ، بَلْ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ أَيْضًا فِي رَفْضِهِمُ الْقَاطِعَ لِهَذِهِ

⁶²⁰ : الخصائص، 110/1.

⁶²¹ : المصدر نفسه، 110/1.

⁶²² : نظرية العامل في النحو العربي، ص: 330، 334.

⁶²³ : محمد أحمد دويس، شذرات ونظرات في علوم اللغة العربية، (ط. 1)، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2018، ص: 86، 89.

النظرية، وما يُمكن قوله ختاماً في هذا المقطع البحثي، بناءً على وقوفنا المعرفي في هذه المحطة العلمية، التي وجهته قراءات خاصة في مصادر هذه المسألة المُشكل، تبين لنا أنَّ العامل أهميَّة وظيفيَّة لا بُدَّ منها، كونه عاملاً مُهماً وأداة معرفية تستخدم في التيسير، إذا جُرد من الشوائب التي هو في غنى عنها، كالفلسفة والمنطق، فتنبُّه القُدَامى لهذا الدور ليس من باب العبث أو الترف الفكري، بل لخبرتهم بالواقع اللغوي، وما الذي يمكن أن يقدمه العامل كدور فعّال، في تفسير الحقائق اللغوية وتنظيمها، ومُساعدة المتكلِّم الناطق باللُّغة، في تلبية حاجياته التعليميَّة.

نماذجُه عند الخليل:

النموذج الأوّل:

روى سيبويه في كتابه في باب: (الحروف الخمسة التي تعملُ فيما بعدها كعملِ الفعل فيما بعده)، عن شيخه الخليل في معرض حديثه عن إنَّ وأخواتها قائلاً: " وزعم الخليل أنَّها عملت عملين: الرِّفْع والنَّصَب كما عملت كان الرِّفْع والنَّصَب، حينَ قُلْتَ: كان أخاك زيداً، إلَّا أنَّه ليس لك أن تقول: كأنَّ أخوك عبدَ الله، تُريد كأنَّ عبدَ الله أخوك، لأنَّها لا تصرِّف تصرِّف الأفعال، ولا يُضمَرُ فيها المرفوع كما يُضمَرُ في كان، فمن ثمَّ فرَّقوا بينهما كما فرَّقوا بينَ ليسَ وما، فلم يجروها مجراها، ولكن قيلَ هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها، وليست بأفعال"⁶²⁴، وفي هذا النص يتبيَّن لنا أنَّ الخليل اعتنى بفكرة المعمولات، في مستوى الحروف العاملة، مثل إنَّ الناسخة مُبيِّنا الفرق العَامليَّ بينها وبين عمل كان، وهو ما أوردُه في منظومته أيضاً في باب: (حروف إنَّ وأخواتها) حيث يقول⁶²⁵:

وَحُرُوفُ إِنَّ وَلَيْتَ فَاعْلَمْ وَحَدَّهَا * * * * * وَاحْفَظْ فَإِنَّكَ إِنِ حَفَظْتَ مَدْرَبَ

⁶²⁴ : الكتاب، 93/1.

⁶²⁵ : المنظومة النحوية، ص: 171، 172.

فانصب بها الأسماء ثم نعوّتها ***** وارفع بها أخبارها يا مُعْتَبُ

وكان زيدا ذا السّماحة غائب ***** لكنّ عمراً قادمٌ يترقّب.

النموذج الثاني:

في باب (ما ينتصب على التعظيم والمدح)، يُورد لنا سيبويه شاهداً شعرياً يتبعه بتعليق لشيخه الخليل في هذا الشأن، والبيت الشعري رواه سيبويه عن يونس أنّه سمع ذا الرّمة يُنشد هذا البيت نصباً حيث يقول⁶²⁶:

لقد حملت قيسُ بن عيّلان حربها ***** على مُستقلّ للنّوائب والحربِ

أخاها إذا كانت عِضاضاً سمالها ***** عل كلّ حالٍ من ذُلُولٍ ومن صَعْبٍ.

يقولُ سيبويه: " زعم الخليل أنّ نصب هذا على أنّك لم تُرد أن تحدّث النّاس، ولا من تُخاطب بأمر جهلوه ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءً وتعظيماً ونصبه على الفعل كأنّه قال: اذكر أهل ذاك واذكر المُقيمين، ولكنّه فعلٌ لا يُستعمل إظهاره"⁶²⁷، فعلة النّصب عند الخليل، في هذا المثال جاءت على المدح والتعظيم، والمثال الذي ساقه إلينا في قوله: واذكر المُقيمين، جاء في نصوص الذّكر الحكيم في قوله عزّ وجلّ (لَكنّ الرّسّخونَ في العِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ١٦٢)⁶²⁸، حيث جاءت كلمة (المُقيمين) منصوبة على الثناء والمدح والتعظيم، رغم أنّ الوجه الإعراب المعيارى فيها يستحقّ " الرّفْع "، وكما قال سيبويه مُعبّراً عن هذه الآية الكريمة " فلو كان كلّهُ رفعاً كان جيّداً"⁶²⁹، وما نصّ عليه سيبويه في هذا الاستعمال، هو جواز النّصب

⁶²⁶ : الكتاب، 45/2، 46.

⁶²⁷ : المصدر نفسه، 46/2.

⁶²⁸ : سورة النساء، الآية: 162.

⁶²⁹ : الكتاب، 44/2.

والرّفع، وقد جاءت قراءة عبد الله بن مسعود لـ (المقيمين الصّلاة) بالرّفع؛ أي المقيمون الصلاة، ونمط الرّفع يتّسق شكلياً والقواعد النحوية، لأنّه جاء ليعطف مرفوعاً على مرفوع:

(الرّاسخون ← المومنون ← المقيمون ← المؤتون)

فهذه الأنماط جاءت مُتّسقة مع القاعدة الوضعية للغة، ولكن النمط المنسوب جاء لينقض هذا الاتّساق الشكلي الخارجي، عن طريق استغلال ما يبدو من مساحة للحرية، تمنحها اللغة لمستعمليها⁶³⁰، ومثل هذه الشواهد التي أوردناها تبين لنا معرفة الخليل بأسرار اللغة، وإشاراتها الموحية من خلال فقهه الدقيق بمعمولاتها، وما الذي عمله هذه الأخيرة في توضيح المعنى وكشف مقصدياته.

النموذج الثالث:

في النموذجين السابقين اقتنينا نصوصاً، تؤكد اشتغال الخليل بفكرة العامل وقراءاته الوظيفية للتركيب اللغوي، وصور إجراءاته السياقية المتباعدة، وعليه ارتأينا في هذا النموذج الأخير وهو من باب الأعمال، أن نُورد نقيضه وهي فكرة أرساها الخليل مُثبتاً أصولها وأحكامها ألا وهي فكرة (الإلغاء)، أو ما يُعبر عنه في أدبياته وأماليه في كتاب تلميذه بعبارة (لا عمل له)، ومن هذه النماذج التي نستحضرها في تفسير فكرة الإلغاء ما نقله عنه تلميذه سيبويه مُطلقاً من المثال الشاهد، محلّ الوصف والتفسير، حيث يقول: " وأما الإلغاء فقولك: فَإِذَنْ لَا أَجِيئُكَ. وقال تعالى (فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ٥٣١) " وبناءً على هذا المثال يستعرض لنا سيبويه تعليق شيخه الخليل حول تفسير هذه الفكرة حيث يقول راوياً عنه: "واعلم أنّ إِذَنْ إذا كانت بين الفعل وبين شيء الفعل، مُعتمد عليه فَإِنَّهَا مُلغاة لا تنصب البتّة، كما لا تنصب أرى إذا كانت بين الفعل والاسم، في قولك: كَانَ أَرَى زَيْدٌ ذَاهِباً، وكما لا تعملُ في قولك: إِنِّي أَرَى ذَاهِبٌ، فَإِذَنْ لا تصلُ في ذا الموضع إلى أن تنصب، كما لا تصلُ

⁶³⁰ : الصراع بين التراكيب النحوية دراسة في كتاب سيبويه، ص: 76.

⁶³¹ : الكتاب، 14/3.

أرى هنا إلى أن تنصب، فهذا تفسيرُ الخليل، وذلك قولك: أنا إذن آتيك، فهي هنا بمنزلة أرى، حيث لا تكونُ إلّا مُلغاةً " ⁶³²، نستنتج من خلال هذا النص أن الخليل هو صاحب فكرة الإلغاء في نظرية العامل، وتحقق له هذا الأمر من خلال نظريته الوظيفية لأنظمة اللغة وأبنيتها، وما تحتمله قواعدها من أسباب مُعللة، وفق افتراض عقلي موضوعي، يصدر عن بناء حكم علمي، وهو نسق اتبعه الخليل في نظريته اللغوية الكلية، مُستقرًا هذه المنظومة مُرصعة الدّوال مُحكمة الصّناعة دقيقة المعاني.

المُصطلح النحوي عند الخليل:

إنّ صناعة المُصطلح بالمفهوم العلمي، وما تتطلبه هذه العملية من إجراءات ذات أبعاد معرفية مُتصلة بالسياق المفاهيمي، كون هذا الأخير (أي؛ المفهوم) يُعدّ صورة ذهنية يُنشئها العقل، وتتشرك فيها سمات مميزة تمتلك الخصائص نفسها، ولكي يتحدّد في عالم التّواصل لا بدّ له من تأطير لغوي، ومعرفي يسمّه بِدالٍ (الاصطلاح)، لذا فإنّ المُصطلح في أوّل صناعته يُشكّل رمزا لغويًا، يستعين به الباحث " للتعبير عن مفهوم أو معنى معيّن، والمفهوم عبارة عن لفظة تعكس تجريدًا، يُلخّص عددا من الملاحظات " ⁶³³، فإنّه من المنطقي أن يتعيّن على واضع المُصطلح معرفة الطّابع التّتميطي، الذي يربط هذه المصطلحات بحقلها العلمي.

1- مفهوم المصطلح:

تتحدّد مادّة " المصطلح لغويًا " عند ابن منظور في لسانه قائلًا : " ... واصطلحوا وصلحوا اصّلعوا، وتصلحوا اصّالحو " ⁶³⁴ ، وقد جاء في المُعجم الوسيط: " ... فنقول

⁶³² : الكتاب، 14/3.

⁶³³ : مصطفى عمر التير، مقدمة في مبادئ أسس البحث الاجتماعي، (ط.1)، المنشأة الشعبية للطبع والتوزيع، طرابلس،

1989، ص:30.

⁶³⁴ : لسان العرب، مادة: (صلح).

اصطلاح قوم أي زال ما بينهم من خلاف، وأما اصطلاح قومٍ على أمر فنعني بهذا أنهم تعارفوا عليه واتَّفَقوا⁶³⁵، فمدلول المصطلح لغويا هو الاتفاق على شيء معيّن، من باب المصلحة، واجتماع الأمر في تحديده ووصفه وإعطائه حكمه إن اقتضى ذلك.

هذا المدلول اللغوي يتوافق والمدلول الاصطلاحي، فقد عرّفه الشريف الجرجاني قائلا: "الاصطلاحُ عبارة عن اتّفاق قومٍ على تسمية شيءٍ باسمٍ ما، ينقل عن موضوع الأول وإخراج اللفظ منه ، وقيل الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى، وقيل الاصطلاح إخراج الشيء من معنى لغوي آخر لبيان المراد، وقيل الاصطلاح لفظ معيّن بين قوم معيّنين⁶³⁶، ومذهب المُحدثين في نظرتهم للمصطلح أنّه عبارة عن " ألفاظ تُستخدم للتعبير عن معانٍ مُحدّدة في إطار علم بعينه، فهي وسيلة تهدف إلى نقل هذه المعاني وتصويرها، بأقصى قدر مُمكن من الوضوح والدقّة والتحديد، بين أبناء هذا العلم والمعنيّين به فهي إذاً ألفاظ من ألفاظ اللّغة، قد تحمل من المعاني ما تحمله في إطار النّشاط اللّغوي العام، ولكنها تفرّغ من هذه المعاني حين تُستخدم في المجالات العلميّة، لتعبّر عن تلك الدلالات الخاصّة التي قد لا يدركها أو يفهمها عادة إلّا المُشتغلون بالعلوم، التي تستخدم فيها⁶³⁷ وما نستخلصه وفق ما تقدّم أنّ مدلول المُصطلح بهذا المعنى ، يستجيب لثنائية التّأطير(اللغوي/المعرفي)، في مجاله التواصلي كي تتحدّد معالمه في سياقه العلميّ المخصوص.

2- مفهوم المصطلح النحوي:

النحو علمٌ له مصطلحاته الخاصّة به، هذه المصطلحات التي نشأت ونمت وتطوّرت بتطوّر علم النحو نفسه، وفي الوقت الذي نجد في ضرورة ارتباط لفظ المصطلح، بدلالاته لا

⁶³⁵ : المعجم الوسيط ، مادة: (صلح).

⁶³⁶ : التعريفات، ص: 32.

⁶³⁷ : علي أبو المكارم، المدخل إلى دراسة النحو العربي، (ط. 1)، دار غريب، القاهرة، 2006، ص: 105.

نرى ضيقاً من تعدد المصطلحات على المعنى الواحد، ولهذا نجد اجتماع أكثر من مصطلح نحوي على مقصود واحد، وهو أمر متفق عليه بين الباحثين لأن طبيعة العربية، وما اتسمت به من تجدد في المعاني، وثرأ في الألفاظ قد أدت إلى أن يكون للمدلول الواحد أكثر من دال⁶³⁸، وعادة ما يُقصد بالمصطلح النحوي ذلك " المصطلح الناتج عن اتفاق النحاة على استعمال ألفاظ فنية، معينة في التعبير عن الأفكار والمعاني النحوية "⁶³⁹، وهو بهذا المفهوم يُشكل مُرتكزاً وظيفياً، يقوم بتحدد البنيات العامة للتركيب اللساني، ضمن سياقه العام مُحاولاً وصفها، وإعطاء الحكم الوظيفي للكلمة.

ولكي نتلمس طبيعة المصطلح النحوي عند الخليل، وجب علينا الوقوف عند مُسلمة مفادها أن التنافس العلمي، الذي شهدته المدرسة البصرية والكوفية، بوصفهما المركز الأول في إنتاج المعارف النحوية، كان له الأثر القوي في ظهور جملة من المصطلحات النحوية، وهذا أمر طبيعي، ما دام لكل مدرسة منهجها ورؤيتها الخاصة، في استقراء المسائل اللغوية ومُستقلة في رأيها العلمي، حُق لها أن تتفرد بمُعجمها الاصطلاحي، لأن هذا الأمر يُعدّ سمة علمية لازمة لكل مدرسة، بكل ما تحمله هذه الأخيرة من خلفيات وأبعاد معرفية.

وعلى رأي الجاحظ (ت:255) فإنّ الخوض في أي علم، يقتضي الخوض فيه بألفاظه، فلكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها⁶⁴⁰، وما دام النحو يعدّ صناعة وآلة عقلية، حدّها العلم بمقاييس مُستنبطة من استقراء كلام العرب، فهذا يعني أنّه ينحو منحى العلميّة، ومفاتيح العلوم مُصطلحاتها، ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى، فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق

⁶³⁸ : هادي نهر، نحو الخليل من خلال مُعجمه، (ط.1)، دار اليازوري العلمي للنشر والتوزيع،الأردن ، 2006 ، ص:21.

:لحسن بلشير، التركيب وعلاقته بالنحو، مجلة المصطلح،جامعة تلمسان، العدد:01، 2002،ص:215.⁶³⁹

⁶⁴⁰ : الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، تح: يحيى الشامي، (ط.3)، دار مكتبة الهلال، القاهرة، 1997،

العلم غير ألفاظه الاصطلاحية⁶⁴¹ ، لأنها " مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما يتميز به كل واحد منها عما سواه، وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية، فإذا استبانَ خَطَرُ المصطلح العلمي في كلِّ علمٍ، توضَّحَ أنَّ السَّجَلَ الاصطلاحية هُوَ الكشف المفهومي، الَّذي يُقيم للعلم سوره الجامع وحصنه المانع، فلا شذوذ إذا اعتبرنا الجهاز المصطلحي لكلِّ علم، صورة مُطابقة لبنية قياساته، متى فسد فسدت صورته"⁶⁴²، والمصطلح بهذا المفهوم تتحدّد أبعاده في تحقيق الوظيفة المعرفية، من حيث إنّ المكوّن المصطلحي يُعدّ لغة العلم والمعرفة، ولا سبيل لانتشار علمٍ وتطوّره دون وجود جهاز مصطلحي مضبوط، كما يسعى في تحقيق الوظيفة التواصلية والكشفية، التي تعمل على إظهار الفروق بين المعاني، درءاً للوقوع في مطبّ الاضطراب الدلالي، وهو بهذه الأبعاد يُحقّق وظيفته الحضارية، لأنّ ثقافة أيّ أمة من الأمم لا يستقيم دورها الحضاري، وطرحها الثقافي إلّا إذا توقّر لجهازها العلمي مجموعة من المصطلحات والمفاهيم، التي تقوم بدورها في إنتاج وإبداع معارف جديدة، تجعل من وحدة المصطلح مادّة ثقافية، تربط بين الأمم والثقافات عبر جسر حضاري.

3-قراءة في بعض المصطلحات النحويّة عند الخليل:

3-أ-: مُصطلح النّسق:

يُعدّ " النّسق " من المصطلحات التي نسبها بعض الباحثين⁶⁴³ إلى الكوفيين، ويُقابلونها عند البصريين بحروف العطف، في حين أنّ هذا المصطلح يعدّ مُصطلحاً بصريّ الأصل خليليّ الصّنع، حيث استخدم الخليل هذا المصطلح في منظومته النحوية

⁶⁴¹ : التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص: 52.

⁶⁴² : محمد ملياني، المصطلح النحويّ الأصل في المعاجم العربية، مجلة المصطلح، جامعة تلمسان، العدد: 02، فبراير 2003، ص: 217.

⁶⁴³ : من هؤلاء الباحثين ، نذكر الدّكتور مهدي المخزومي، أنظر كتابه، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، (ط.2)، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر ، 1958، ص: 305.

تحت (باب النَّسْق) مُستعملاً إيَّاه في ثلاثة أشكال هي: (نسقت - انسق - ناسقة) حيث يقول⁶⁴⁴:

وَإِذَا نَسَقْتَ اسماً عَلَى اسْمٍ قَبْلَهُ ***** أَعْطَيْتَهُ إِعْرَابَ مَا هُوَ مُعَرَّبٌ

وَانْسُقْ وَقُلْ بِالْوَاوِ قَوْلَكَ كُلَّهُ ***** وَبِلا وَثَمَّ وَأَوْ فَلَيْسَتْ تَعْقُبُ

وَالْفَاءُ نَاسِقَةٌ كَذَلِكَ عِنْدَنَا ***** وَسَبِيلُهَا رَحْبُ الْمَذَاهِبِ مَشْعُبٌ

كما استخدم الخليل بن أحمد الفراهيدي هذا المصطلح في معجمه، حيث يقول: " والنسق من كل شيء ما كان على نظام واحد عام من الأشياء، ونسقته نسقا ونسقته تنسيقا ونقول: انتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض، أي تنسقت وهو بهذه الدلالة له علاقة قويّة، بمعنى النسق باعتباره مصطلحا نحويا "⁶⁴⁵، وقد ذكره أيضا في كتابه الجمل حينما قال: " واو العطف وإن شئت قلت واو النسق "⁶⁴⁶.

وبناء على هذه المعطيات نستطيع القول إنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، أول من استخدم مصطلح " النسق " وهذا المصطلح بصريّ النشأة، ليس للكوفيين سبق إليه.

3-ب-: مصطلح الجُحد:

استعمل الخليل هذا المصطلح (الجحد) بمعنى النقي، وهو شائع بين أوساط الباحثين أنّه مصطلح بصريّ يُقابله (الجُحد)، بوصفه من المصطلحات ذات الأصل الكوفي ، وهذا مذهب الدكتور مهدي المخزومي، حين يقرّر عن هذا المصطلح قائلاً: " ويعني الكوفيون به ما يعنيه البصريون من كلمة النقي، والنقي مصطلح بصريّ مُقتبس من ألفاظ المتكلمين وكلامهم، في الثبوت والثابت، والنقي والمنقي، وقد جاءت كلمة الجحد في كلام الفراء وثعلب

⁶⁴⁴ : المنظومة النحوية ،ص:49.

⁶⁴⁵ : العين ، مادة : (نسق).

⁶⁴⁶ : الجمل في النحو العربي، ص:285.

كثيراً، ولا أعلم أنّهما استعملا كلمة النَّفْيِ⁶⁴⁷، فَرُؤْيَةُ المخزومي تذهب إلى أنّ مصطلح (الجُود/الجَد)، كوفي المنشأ يُقابله مُصطلح (النَّفْي) ،الَّذي ينتسب إلى المعجم البصري، وقد علّق على هذا الإقرار الدكتور أحمد عفيفي، حيث يرى بأنّ وُرد هذا المصطلح (الجُود) على لسان الفراء وثعلب بنسبة كثيرة، ليس معناه أن يكون هذا المصطلح كُوفياً، فالفراء وثعلب تتلمذا على يد البصريين، بل إنّ الفراء تتلمذ على كتاب سيبويه عاكفا عليه، ومُبرر آخر يراه الدكتور أحمد عفيفي، أنّ عدم ورود النَّفْي في كلامهما يفسّر دليلاً على ذلك، فمن وجهته ليس لدينا بشكل مُؤكد كلّ تراثهما المخطوط (وجود الدّليل العلمي المادّي) حتى نتيقّن من ذلك، إضافةً إلى أنّ وُجودَ هذا المصطلح المُتكرّر عند الخليل، يؤكّد عدم صحّة أنّ المصطلح (كوفي)، ويذهب الدكتور أحمد عفيفي أنّ الخليل استخدم مصطلح (الجُود أو الجَد) كما استخدم كلمة (النَّفْي)، ومع مرور الزمن شاع مُصطلح (الجُود) للإنكار واستخدمه النّحاة مع (لام الجُود)، الّتي يُنصب المُضارع بعدها بأن مُضمره وجوباً، وشاع مُصطلح (النَّفْي) بمعناه الحقيقي، ضدّ الإيجاب والثبوت، فجاءت لا النّافية وما النّافية... إلخ، حيث كان يستخدم مصطلح (الجَد) بمعنى النَّفْي⁶⁴⁸، ومن أمثلة استعمالاته واستخدامه الوظيفيّ عند الخليل، ما ذكره في منظومته النحوية قائلاً⁶⁴⁹:

وانصب بها الأفعال كيما واجباً ***** وبكى وكَيْلاً والخُروف تُشعّبُ

وبأن ولام الجُد واللام الّتي ***** هي مثل كَيْلاً في الكلام وأُرسبُ

ففي هذا الأبيات يذكر لنا الخليل حروف نصب الفعل المُضارع، ويذكر من بينها لام الجَد الّتي تنصب الفعل المضارع بأن المُضمره وجوباً ، كما استخدم هذا المُصطلح أيضاً في كتابه الجُمْل حيث يقول: " ولامُ الجُود مثل قولك: ما كان زيدٌ ليفعل ذلك... ومعنى الجُود

⁶⁴⁷ : مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو ، 309.

⁶⁴⁸ : المنظومة النحوية ، ص: 54.

⁶⁴⁹ : المصدر نفسه، ص: 53.

إدخال حرف الجدد على الكلام⁶⁵⁰ واستعمال (الجدد) يُبرّره بعض الباحثين أنّه مصطلح مُوفّق يُساير روح اللّغة، أكثر من مُصطلح النّقي الذي يُساير روح الفلسفة⁶⁵¹، وبهذا يمكن لنا الإقرار بأنّ مصطلح (الجدد)، يُعدّ من المصطلحات التي وضعها الخليل، كونها تتناسب مع الوظيفية النّحوية للكلمة ضمن سياقها المخصوص، وهذا الاستعمال أملتة مُعطيات معرفيّة كان من أوّل مصادرها، التّخريخ اللّغوي لهذا المصطلح في مُعجمه (العين)⁶⁵²، واستثماره في وضع مُصطلحات وظيفية في المستوى النحوي، وكان من ضمنها هذا المصطلح البصريّ (الجدد/ الجود).

3-ج-: مُصطلح الغاية:

تتفق معظم التعريفات اللّغوية⁶⁵³، على أنّ الغاية المدلول منها هو المقصد من الأمر ونهايته، وفي ذلك يقول الخليل: " الغاية مدى كلّ شيء وقُصاره "⁶⁵⁴، وقد فرّق بعضهم مثل الكفوي في الكليات بينها وبين " الغرض " حيث يرى أنّ " الغاية هي الفائدة المقصودة سواء أكانت عائدة على الفعل أم لا، والغرض هو الفائدة المقصودة العائدة إلى الفاعل، التي لا يُمكن تحصيلها إلّا بذلك الفعل "⁶⁵⁵، وهذا التفريق يُمكن تحديد سمته المميّزة لاصطلاح الغاية ما أجاد به الشّريف الجرجانيّ في كتابه التعريفات حيث عرّفها بأنّها: " ما لأجله وجود

650 : الجُمْل في النحو العربي، ص: 253.

651 : نحو الخليل من خلال مُعجمه، ص: 23.

652 : العين ، مادة (جدد).

653 : لسان العرب، مادة: (غبي).

654 : العين، مادة: (غبي)

655 : الكفوي أيّوب أبو البقاء الحنفي، الكليات، تح: عدان درويش، ومحمد المصري، (ط. 1)، مؤسسة الرسالة، بيروت،

1998، ص: 307.

الشيء⁶⁵⁶، أما استخدام الخليل لهذا المصطلح فقد ورد عنده في معجمه كما مر معنا منذ قليل، وقد استعمله أيضاً في منظومته تحت باب (باب قبل وبعد إذا كانتا غاية) قائلاً⁶⁵⁷:

وتقول قبل وبعد كُنَّا غايةً ***** من قبل أن يأتي الأمير الأغلب

لما جعلت كليهما لك غايةً ***** أوجبت رفعهما وصح المشعب

كما ذكره في كتاب الجمل في أكثر من موضع، حيث يقول: " والخفض بـ(حتى) إذا كان على الغاية قولهم: (كلمت القوم حتى زيد) معناه؛ حتى بلغت إلى زيد، ومع زيد، وقال الله جلّ ذكره: (سلامٌ هي حتى مطلع الفجر) "⁶⁵⁸، ونجد لهذا المصطلح استعمالاً في كتاب مريده " سيبويه " ناقلاً أمينا على لسان شيخه الخليل، حيث يذكر لنا نصاً عن أحوال (حتى الناصبة)، حيث يقول: " اعلم أنّ حتى تنصب على وجهين، أحدهما أن تجعل الدخول غاية لمسيرك، وذلك قولك: سرت حتى أدخلها، كأنك قلت: سرت إلى أن أدخلها، فالناصب للفعل هنا هو الجار للاسم إذا كان غاية، فالفعل إذا كان غاية نصب، والاسم إذا كان غاية جرّ وهذا قول الخليل⁶⁵⁹

3-د-: مصطلح ما لم يُسم فاعله:

يعدّ هذا المصطلح من المصطلحات الشاملة، التي دلّت على معرفة المعاني وهذا من فطنة النحاة، وهو ما يُطلق عليه بـ(المبنى للمجهول)، غير أنّ هذه التسمية الأخيرة إطلاق قاصر، لأنّ عدم ذكر الفاعل ليس للجهل به بل استعمل كذلك لأغراض محدّدة، وقد ورد هذا المصطلح في كتاب الجمل للخليل حيث قال: " وما لم يُذكر فاعله: ضرب زيد وكسي

⁶⁵⁶ : التعريفات، ص: 175.

⁶⁵⁷ : المنظومة النحوية، ص: 56.

⁶⁵⁸ : الجمل في النحو العربي، ص: 184.

⁶⁵⁹ : الكتاب، 17/3.

عمرو⁶⁶⁰، كما استعمله الخليل أيضا في منظومته تحت باب (ما لم يسم فاعله) حيث يقول⁶⁶¹:

والفاعلون ولم يسموا حُدْهم ***** رفعٌ وبعدَ الرفع نصبٌ يُلحب
فتقولُ قد عَزَلَ الأميرُ وزُوجَت ***** دَعْدٌ وقد ضُربَ العشيّة شَوَزَبُ.

وفق هذه الأبيات التي أوردّها الخليل في منظومته، يتّضح بأنه يقصدُ بنائب الفاعل ، الفعل المبني للمجهول، وقد شَفَّعَ أبياته بضرب أمثلة دالة على ذلك : (عزل الأمير، زوجت دعد، ضرب شوزب).

هذه بعض المصطلحات أحببنا استعراضها، لنفي الانتماء الكوفي عنها وإعادتها إلى أصلها البصريّ الصحيح، وردّها إلى صاحبها صاحب الصنعة، ومُبدعها (الخليل بن أحمد) وتصحيح ما في أذهان الباحثين، ممّا أشيع عن هذه المصطلحات في نسبتها لغير الخليل بن أحمد الفراهيدي ، كما نجدُ مصطلحات عدّة استعملها الخليل، وهي كثيرة مُتباينة في مصادره التي نستعملها شاهدا معرفيًا، فيما نذهبُ إليه في بحثنا نذكرُ منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

التنوين-الجرّ -الصفات والظروف-الصلة-المعكوس (يعني به: المعطوف)-المكني-الموضع-النداء المفرد، إضافة إلى مصطلحات أخرى وردت على لسان مُريده " سيبويه "في الكتاب نقلها عن شيخه بالمعنى نفسه وأحيانا يزيد عليها تعبيرات مصطلحية يوضّح مقصود الخليل من هذا المُصطلح.

⁶⁶⁰ :الجُمْل في النحو العربي،ص:118.

⁶⁶¹ : المنظومة النحوية،ص:73.

خُلاصة واستنتاج:

خُلاصة القول إنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، أسهمَ بشكلٍ معرفيٍّ في وضع مصطلحات متخصصة، واصفةً لمدلول الكلمة ضمن سياقها الوظيفي ، وفق آليات علميّة ورؤى منهجيّة، وهذا إن دلّ فإنّما يدلّ على عبقريّته التي شهد له بها عباقرة عصره، ومن أتوا بعده، ممّن أخلصوا في خدمة اللّغة العالية من كلام العرب، والمتأمّل في هذه المصطلحات خليليّة الصّنع، يُدرك أنّ جهود الخليل العلميّة في هذا الشّأن تستجيب لأبجديات الصّناعة المُصطلحية، حيث نراه يُقيم ترابطاً معرفيّاً بين الظاهرة النّحوية، وما استعمله العرب من ألفاظ موضوعة لمعانٍ محدودة ومدلولات مضبوطة، مؤسّسة بمعايير علميّة في معالجة الظاهرة وتعليلها وتفسيرها، من حيث الوصف والاستقراء، وهو ما أهله لصياغة دوال مُصطلحيّة، وفق نهج من التوليد الدّلالي، يتناغم إجرائياً مع الممارسة التطبيقية المنوطة بالوضع والتصوّر.

ثانياً: المُستوى الصّرفي.

يُمثّل هذا المُستوى اشتغالاً آخرَ تختلف زاويته المنهجية، ووسائله التفسيرية للظاهرة اللّغوية ، على غرار ما تقدّم معنا في المُستوى النّحوي، رغم أنّ هذا المُستوى الأخير والمُستوى الذي نحنُ بصددّه (المُستوى الصّرفي) ، " لا يُمكن فهمه دون دراسة للأصوات وبخاصة في موضوع كالأللال والإبدال، كما أنّ عدداً كبيراً من مسائل النّحو، لا يمكن فهمها إلا بعد دراسة الصّرف، وعلى ذلك يرى معظم اللّغويين المُحدثين، درس النّحو والصّرف تحت قسم واحد يصطلحون عليه بـ: (grammar) كونه يشتمل على عنصرين

أساسين هُما: الصرف-**morphology** والنَّظْم- **synta** ⁶⁶²، ويُعدّ المستوى الصَّرْفِيّ من المباحث اللُّغوية، الّتي اهتمّ فيها المُتخصِّصون بتفسيرِ بنية الكلمة، إفراداً في صور شكلية مُجردة وتركيباً ضمن سياق لغويّ معيّن، غايتهم الأسمى في ذلك البحث هي عن الدّلالة المركزية الّتي تُفرزها هذه البنيات، واحتمالاتها الدّلالية الأخرى الّتي تنتظم تحت ميزان صرفيّ مخصوص.

وعليه فإنّ هذا المُستوى يأخذ أبعاداً علميّة ، من خلال بحثه في " أبنية الوحدة اللُّغوية وتلّوّناتها على وُجوه وأشكال عدّة، بما يكون لأصواتها من الأصالة الزيادة والحذف، والصحة والإعلال والإدغام والإمالة، وبما يعرض لتواليها من التغيّرات، ممّا يُفيد معانٍ مُختلفة ⁶⁶³، وفي تراث الخليل بن أحمد الفراهيدي، نجد هذا التخطيط العلمي لمسائل التّصريف، فقد ساعده تفكيره العقلي الرّياضيّاتي، في الكشف عن مظاهر هذه اللّغة وتحوّلات أبنيتها، وذلك من خلال رؤيته العميقة وتدقيقه الحصيف، في بنية الكلمة ومُلاحظاتة لقوانين التجرد والزيادة الّتي تُلازمها، إضافة إلى إقامته لجهازٍ ضابط مُمثلاً في الميزان الصرفي، يفحص من خلاله أبنية الكلم العربي، مُلاحظاً أوزانها وما تؤدّيه قوانينها إلى صيغ استعمالية، مثل القلب والإعلال والإبدال وغيرها، مُوظّفاً في السياق نفسه بعض الأدوات التفسيرية، مثل القياس لأجل تعليل بعض المظاهر اللُّغوية، الّتي لفتت انتباهه.

هذه الملكة العقلية الّتي امتازَ بها الخليل، وأدواته التحليلية الّتي وُصفت بحس علميٍّ ومعرفيٍّ دقيق، أهّلته لأن يفقه أسرار العرب في كلامهم، واستعمالاتهم التداولية المُتباينة لهجياً، وهو ما يدلّ على اطلّاعه الواسع في هذا الشّأن، يتحقّق منهجياً عبر مسائل علمية مبنية على طرح موضوعيّ، في كتاب مُريده الوفيّ سيبويه في مواضع كثيرة، من كتابه الفريد الّذي فسّر فيه كلام شيخه.

⁶⁶² : عبده الراجحي، التطبيق الصرفي، (ط.1)، دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص: 08.

: عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، (ط.1)، دار أزمنة، الأردن، 1998، ص: 37. ⁶⁶³

والتساؤل الذي نطرحه بناء على ما سبق وبه نوجه ورقات هذا المبحث:

ما الآليات التفسيرية التي استعان بها الخليل في تحليل أبنية الكلم؟

للإجابة عن هذا التساؤل يجدر بنا أن نقف عند بعض المصطلحات المفاتيح مثل: ثنائية الصرف والتصرف - الميزان الصرفي - وبعض المفاهيم والقضايا المتصلة بهذا النسق العلمي، التي سنصلها بسياقها المعرفي، مقارنة مع المعطى الخليلي في هذا المستوى موضوع الدراسة.

1- (الصرف / التصريف):

هذان المصطلحان يُعدّان من المصطلحات، التي شاع استعمالهما عند كثير من الباحثين، والمنظرين من أهل الاختصاص، إطلاقاً دلالياً على الحقل العلمي الذي يختص بدراسة الكلمة وقد راج مصطلح (التصريف) عند المتقدمين بكثرة، حيث استعمله سيبويه في كتابه: " ... ولم يجيء في كلامهم إلا نظيره من غير بابه، وهو الذي يُسميه النحويون التصريف والفعل "⁶⁶⁴، ولعلّ أول مصنف يصل إلينا هو ما خطّه المازني (ت248هـ) في مؤلفه الشهير " التصريف " ، وتابعه في العبارة نفسها شارح كتابه ابن جني في كتابه الموسوم " التصريف الملوكي " ، بعد مصنفه الأول "المُنصف في التصريف" حيث يوضح المراد من هذا المصطلح قائلاً: " ومعنى قولنا التصريف هو أن تأتي إلى الحروف الأصول فتتصرف فيها بزيادة حرف، أو تحريف بضرب من ضروب التغيير ، فذلك هو التصريف فيها والتصريف لها نحو قولك " ضَرَبَ " ، فهذا مثال الماضي فإن أردت المضارع قلت "يَضْرِبُ" ، أو اسم الفاعل قلت " ضَارِبٌ " ، أو اسم المفعول قلت "مَضْرُوبٌ"، أو المصدر قلت "ضَرْباً" ، أو فعل ما لم يُسم فاعله قلت "ضَرِبَ"، وإن أردت الفعل كان من أكثر من واحد على وجه المقابلة قلت "ضَارَبَ"، فإن أردت أنه استدعى الضرب قلت "استَضَرَبَ" فإن

أردت أنه كان فيه الضرب في نفسه، مع اختلاج وحركة قلت "اضطرب"، وعلى هذا عامّة التصريف في هذا النحو من كلام العرب، فمعنى التصريف هو ما أريناك من التلاعب بالحروف الأصول، بما يُراد فيها من المعاني المفادة منها وغير ذلك، فإذا ثبت ما قدمناه فليعلم أن التصريف ينقسم إلى خمسة أضرب: زيادة، بدل، حذف، تغيير حركة أو سكون، إدغام.⁶⁶⁵ هذا التعريف الإجرائي العلمي الذي ذهب إليه ابن جني، لا يختلف عما ذهب إليه النحاة الذين سبقوه، وأقرّوه حول المقصود من هذا المصطلح، مثل إمام النحاة سيبويه والذي يرى أن التصريف هو ما يقع للكلمة، من تصرفات وتغييرات وزنيّة تُبدل أحوالها إلى أحوال أخرى، وهو الفهم نفسه الذي يُروده إلينا شارح كتابه السيرافي، مُبيناً مُراد سيبويه من التصريف حيث يقول: "وأما التصريف فهو تغيير الكلمة بالحركات والزيادات، والقلب للحروف، التي رسمنا جوازها، حتى تصير على مثال كلمة أخرى، والفعل تمثيلها بالكلمة ووزنها به"⁶⁶⁶، وبهذا يتحقّق لنا أن المدلول العام من مصطلح التصريف، حيث يدور حول تغيير الكلمة وتحويلها من بناء إلى آخر.

أما استعمال هذا المصطلح عند الخليل، فقد ورده عنده عبر دلالات يمكن لنا تمييزها على النحو الآتي:

أ- التصريف للدلالة على "التقليب"؛ يقول الخليل: "اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو قَد، دَق، شَد دَش، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه، وتُسمى مسدوسة، وهي نحو: ضرب، ضبر، برض، بضر، رضب، ربض، والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهاً، وذلك أن حروفها هي أربعة أحرف تُضرب، في وجوه الثلاثي الصحيح، وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجهاً، يُكتب مُستعملها ويُلقى

⁶⁶⁵ : ابن جني أبو الفتح عثمان، التصريف الملوكي، تح: دزيرة سقال، ، (ط.1)، دار الفكر العربي، بيروت ، 1998، ص:42،44.

⁶⁶⁶ : السيرافي أبو سعيد الحسن بن عبد الله ، شرح كتاب سيبويه، تح: أحمد حسن مهدي، علي سيد علي، (ط.1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008،5، 210.

مُهمَلها... والكلمة الخماسية تتصرّف على مائة وعشرين وجْهاً، وذلك أنّ حروفها وهي خمسة أحرف تُضرب في وجوه الرباعي، وهي أربعة وعشرون حرفاً، فتصير مائة وعشرين وجهاً يُستعمل أقله ويُلغى أكثره. "667

ب-التصريف للدلالة على " الاشتقاق " ؛ يقول الخليل: " ... واليسار: اليُسرى والياسر كاليامن، والميسرة كالميمنة، مجراها في التصريف واحد. "668

ج- التصريف للدلالة على " الأصل "؛ يقول الخليل : " الزاي والزاء لغتان فالزاي ألفها يرجع في التصريف إلى الياء، فتكون من تأليف زاي وياءين "669

نستنبط من هذا الاستقراء الدلالي، لمضمون مُصطلح (التصريف) عند الخليل، أنّه يدور في فلك بنية الكلمة وتقلباتها ،وأحوال صيغها وذلك قصد معرفتها من خلال جذرها الأصلي، وما تحتمله من أبنية فرعية أخرى، منها ما يدخل قيد المُستعمل المتداول، ومنها ما يدخل ضمن المُهمل غير المستعمل، وهذا المنظور الخليلي للتصريف من هذه الزوايا المُستتبطة، يُمكن القول إنّ البحث لا يتجاوز فيها التركيب اللغوي، بل يبقى حبيس الكلمة مُفردة في ذاتها، وما يطرأ على من تغييرات.

يُمكن لنا وصف هذه المرحلة من عهد الخليل وسيبويه، حتى عهد ابن جنّي تقريباً من خلال رؤيتها لـ (التصريف)، أنّها مرحلة اتّسمت برؤية عملية لهذا الموضوع، لا يخرج مفهوم التصريف فيها عن كونه معرفة الأبنية ، واشتقاق بعضها من بعض، ورصد الاختلافات اللفظية ، التي تطرأ على بنية الكلمة، وهذا المعنى العمليّ للتصريف تمّ تجاوزه إلى معنى علمي، مع نُحاة القرن السابع الهجري أمثال: ابن الحاجب، وابن مالك وابن هشام وابن عصفور وغيرهم، وهي مرحلة شهد فيها التصريف اكتمالاً علمياً، حيث نضجت قضاياها

667 : العين ، 59/1.

668 : العين، مادة: (يسر)

669 :العين، .مادة: (زوي)

واستوت مسائله، ليشهد هُو الآخر استقلالاً علمياً ، حيث لم يعد قسماً من النَّحو بل أصبح قسماً منه، ومثل هذه المناجي العلمية تظهر لنا في تعريف ابن الحاجب (ت: 646هـ) حيث يقول في كتابه الشَّافية في التصريف : " التَّصريف علمٌ بأصول يُعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست إعراباً "⁶⁷⁰، أمّا مُصطلح الصَّرف بهذه التسمية فأخذ هُو الآخر بُعداً علمياً خصوصاً مع الجُرْجاني (ت: 471هـ) في كتابه: " المفتاحُ في الصَّرف " بوصفه المصنّف الأوّل في هذا الباب، وأخذت هذه التَّسمية يجري استعمالها على ألسنة المُحدثين يسمُّون بها مصنّفاتهم فقد استعملها غير واحدٍ منهم، ونجد من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر:

- شذا العُرف في فنّ الصَّرف للحملوي.
- عمدة الصَّرف لكمال إبراهيم.
- التطبيق الصَّرفي لعبده الراجحي.

ومن المُحدثين من سار على نهج الأقدمين في التَّسمية ، مثل فخر الدّين قباوة في كتابه "تصريف الأسماء والأفعال "، ومنهم من جَمع بينهما (الصرف والتصريف) مثل خديجة الحُدثي في كتابها (أبنية الصَّرف في كتاب سيبويه)، حيث تقول: " الصَّرف أو التصريف لغة هُو التغيير، أو التحويل من وجهٍ لوجه ، أو من حالٍ لحال... وللصرف اصطلاحاً معنيان: أحدهما عمليّ وهُو تحويلُ الأصل إلى أمثلة مُختلفة ، لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها كتحويل المصدر ، إلى اسمي الفاعل والمفعول... ، والثَّاني عمليّ وهُو علم بأصول تُعرف بها أحوال أبنية الكلمة، التي ليست بإعراب ولا بناء "⁶⁷¹، وانطلاقاً من هذا العرض المعرفي لمصطلح (الصرف/ التصريف)، يُمكننا الخروج بخلاصة مفادها أنّ هذا المُستوى (الصَّرفي)، يتعيّن على المُتَشغَل فيه البحث عن القيم والخواص الصَّرفية، التي تكتسبها الكلمة، وعليها يتعيّن وجودها الاستعمالي ضمن تركيب لغويّ معيّن، فهو يُعدّ في

⁶⁷⁰ : ابن الحاجب عثمان بن عمر بن أبي بكر، الشافية في علمي النَّصريف والخط، تح: أحمد عثمان شافيجي، (ط. 2، المطبعة العامرة العثمانية، مصر، 2014، ص: 216.

⁶⁷¹ : خديجة الحُدثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، (ط. 1)، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، 1965، ص: 23.

السّياق نفسه مستوىً بحثياً، تُدرس فيه اللّغة بطريقة علميّة يُتناول فيها صيغها، ومقاطعها وعناصرها الرئيسة، وفق رؤية علمية توطّرها ضوابط منهجية مُركّزة، بملاحم موضوعيّة مُحدّدة.

2- (الميزان الصّرفي):

إطلاق كلمة (ميزان) يُعدّ من صميم الخطّاطة الثقافيّة العربيّة، في نظرتها الوظيفيّة للأشياء في العالم الخارجيّ، وربطها بما يُناسبها من علوم الآلة، التي عرفها العرب واشتهروا بصناعتها، وفي هذا يذكّر التّصريفيّون " أنّ صناعة الصّرف شبيهة بالصّياغة، فالصّائغ يصوغ من الأصل الواحد أشياء مُختلفة، والصّرفيّ يُحوّل المادّة (أي؛ الكلمة) إلى صور مُختلفة، لذلك احتاج الميزان الصّرفيّ في عمله، اتّخاذ معيار من الحروف سمّوه بالميزان لمعرفة، الصّورة الصّوتية النهائيّة التي آلت إليها المادّة اللّغويّة، كما احتاج الصّائغ إلى الميزان ليُعرف به مقدار ما يصوغه"⁶⁷²، ويقول عبده الرّاجحيّ مُعلّقاً على هذا الرّأي، الذي أوردناه حول مفهوم الميزان الصّرفيّ قائلاً: "هُوَ مقياسٌ وضعه علماء العرب، لمعرفة أحوال بنية الكلمة، وهُو من أحسن ما عُرِف من مقاييس في ضبط اللّغات، ويُسمّى (الوزن) في الكُتب القديمة أحياناً (مثالاً)، فالمُثل هي الأوزان "⁶⁷³، وهو بهذه النّظرة يُعدّ معياراً لبيان أحوال أبنية الكلمة وصيغها، ومعرفة احتمالاتها من أصول، ولواحق مُؤنمّية بالمعنى المورفولوجيّ الذي يُعبّر عنه في الأدبيّات اللّسانية الحديثة، كما يتحدّد بوصفه معياراً يستطيع الباحث استخدامه وقياس المنطوق إليه، ليتعرّف على المحذوف والأصيل الزائد، وقد حفل مُعجم العين بهذا المبحث الذي يدرس البنية بطريقة علميّة، من خلال الميزان الصّرفيّ المعروف (ف.ع.ل.). إضافةً إلى بعض النّقول التي رواها تلميذه سيبويه عنه في كتابه.

⁶⁷² : بعداش علي، الميزان الصّرفيّ العربي أصوله وتطبيقاته دراسة أنموذجية في ديوان زهير بن أبي سلمى، مذكرة مقدّمة

لنيل درجة الماجستير، كلية الآداب والعلوم الاجتماعيّة، جامعة فرحات عباس (سطيف-الجزائر)، سنة: 2009، ص: 45.

⁶⁷³ : عبده الرّاجحي، التطبيق الصّرفيّ، (ط.1)، دار النهضة العربيّة، بيروت ، 1974، ص: 10.

2-أ- نماذج عند الخليل:

- يقول الخليل مُقرّراً: " ليس للعرب بناءً في الأسماء والأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم، فاعلم أنّها زائدة على البناء نحو: قرعلانة، إنّما هو قرعل ومثل عنكبوت إنّما هو عنكب "674.
- الخليل من خلال هذه القاعدة يُقرّر بأنّه لا بناء فوق خمسة أحرف، وإن وُجد فذلك حشو على الأصل، يكون بزيادة حروف معروفة " سألتمونيها ".
- يقول الخليل: " اللّهُبَةُ: العطشُ، وَقَدْ لَهَبَ لَهَبًا، فَهُوَ لَهَبَانُ أَي؛ عَطْشَانُ جِدًا "675

يَتَّضِحُ لَنَا أَنَّ الْخَلِيلَ مِنْ خِلَالِ شَرْحِهِ لِكَلِمَةِ (لَهْبَةُ)، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْعَطَشِ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي النَّصِّ الَّذِي اقْتَبَسْنَاهُ، نَرَى أَنَّهُ يَسْتَعْرِضُ الْمِيزَانَ الصَّرْفِيَّ لِبَيَانِ الْهَيْئَةِ الْمُشْتَرَكَةِ، الَّتِي تَحْتَمِلُهَا الْكَلِمَاتُ فِي أَوْزَانٍ مُعَيَّنَةٍ، وَلِمَعْرِفَةِ التَّغْيِيرَاتِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَيْهَا أَيْضًا.

- ومن نماذجه الّتي يستعين بها بالميزان الصّرْفِيّ ، لمعرفة أصل الكلمة هي كالاتي:
- يقول الخليل: " مَيّتَ فِي الْأَصْلِ مَوِيّتٌ، مِثْلَ سَيِّدٍ وَسَوِيْدٍ، فَأُدْغِمْتَ الْوَاوُ فِي الْيَاءِ وَثَقَلَتِ الْيَاءُ، وَقِيلَ مَيَوْتٌ وَسَيَوْدٌ "676

- من النماذج الّذي يتّضح فيها استعمال هذا الميزان، كأداة لبيان أصل الكلمة واستعمالاتها واشتقاقها، قول الخليل : " وَالنِّيَّاءُ مُصْدَرٌ لِلشَّيْءِ النَّيِّءِ؛ وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَنْضَجْ، مَهْمُوزٌ وَفَعْلُهُ الصَّحِيحُ مِنْ تَأْلِيفِ حُرُوفِهِ: نَاءٌ يَنْيَاءُ نِيَاءً وَهُوَ نِيَّاءٌ، وَأَنَاءٌ اللَّحْمِ إِنَاءَةٌ إِذَا لَمْ تُنْضَجْهُ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تَسْتَعْمَلَ الْهَاءَ فِي هَذَا الْمَعْنَى

674 : العين ، 16/1.

675 : العين ، مادة: (لهب).

676 : العين ، مادة: (موت).

قالت: :: أَنْهَاتُ اللَّحْمِ إِنْهَاءً، وَهَذَا مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِهِمْ: لَحْمٌ نَهْيٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَنْضَجْ فَهُوَ نَهْيٌ حَتَّى الثَّمَارِ وَغَيْرِهَا... نَهْؤُ يَنْهُؤُ نِهَاءً⁶⁷⁷

تعليق:

بناءً على ماسبق يُمكننا القول إنّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ، استعانَ بالميزان الصّرفي للبحث في بنية الكلمة، من حيث صيغتها ووزنها، وتأتى له ذلك عبر آليات واصفة، مثل وقوفه على التّنوّعات الصّوتية، وما تُحدثه من تغيير للدّلالة في المادّة المعجمية الواحدة، ومسعاها في ذلك الوقوف على استعمالات العرب اللّغوية، وأدلتها المعنوية عبر سياقات مخصوصة.

3- (القلب المكاني):

المقصودُ به: " هُوَ أَنْ يَغْيَرُ تَرْتِيبَ حُرُوفِ الْكَلِمَةِ، عَنِ الصَّيْغِ الْمَعْرُوفَةِ بِتَقْدِيمِ بَعْضِ أَحْرَفِهَا عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ، إِمَّا لِمُضَرَّةٍ لَفْظِيَّةٍ أَوْ لِلتَّوَسُّعِ، أَوْ لِلتَّخْفِيفِ. "⁶⁷⁸، وَهُوَ الْمَعْنَى نَفْسَهُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ جُورْجُ يُول، حِينَما فَسَّرَ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ (القلب المكاني/metathesis) بِأَنَّهَا تَغْيِيرُ صَوْتٍ مَعْيْنٍ يُوَدِّي إِلَى عَكْسِ مَكَانِ الْأَصْوَاتِ فِي الْكَلِمَةِ⁶⁷⁹.

3-أ- نماذجُه عِنْدَ الْخَلِيلِ:

يقول الخليل في تفسيره لكلمة (داء) : " ... وَلَقَدْ دَاءٌ يَدَاءُ دَوْءٌ وَدَاءٌ كُلُّهُ يُقَالُ، وَالِدَوُّهُ أَصَوْبٌ لِأَنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَتَصَرَّفُ عَلَى سِتَّةِ أَوَاجٍ: دَوَّاءٌ، دَوَّاءٌ، وَادٌّ، أَوْدٌ، أَدُو، مُسْتَعْمَلَةٌ فِي أَمَاكِنِهَا "⁶⁸⁰، نلاحظ في هذا النصّ الذي أورده الخليل، أنّ كلمة (

⁶⁷⁷ : العين ، مادة: (نيا).

⁶⁷⁸ : أبنية الصّرف في كتاب سيبويه، ص: 121.

⁶⁷⁹ : yule george, the study of language, Cambridge university press, 3rd edition, (2006), p, 245.

⁶⁸⁰ : العين ، 8 / 93، 94، مادة: (دوو).

داء) تأتي على أوجه متعدّدة من الاستعمال، يوافق واحد منها وجه المعيار اللّغوي، وهُو "الدَّوْءُ " لأنّه يُحمل على المصدر كما جاء على لسان الخليل، والرّجوعُ إلى المصدر هي إحدى الطّرق، الّتي يُعرف بها القلب المكانيّ، وما يُمكننا استنتاجه من هذا التّخريج المُعجمي، أنّ الخليل تفضّل لفكرة " التوسّع في الاستعمال"، وهي حقيقة تلزم كلّ اللّغات الطّبيعية من جهة التداول، والقلب المكاني يعدّ ظاهرة لغوية في العربيّة لا يمكن لأيّ أحد إنكارها.

ومن نماذجهِ أيضاً أنّ القلب في الكلمة، يُعرف عبر اجتماع همزتين، وذلك في نحو " جاء " اسم الفاعل من " جاء "، وأصله " جاييء " بتقديم "الياء" الّتي هي " عينُ " الفعل على الهمزة الّتي هي "لام " الفعل، فلو لم تُقلب "اللام" مكانَ "العين" لادّى تركها إلى انقلاب "الياء" " همزة "، لأنّ اسمَ الفاعل من الأجوف الثلاثي تُقلب "عينه" بعد " أَلِف " " فاعل"، فتجتمع همزتان في كلمة واحدة، وذلك مُستكره، فوجب تقديرُ القلب فيه فيصبح " جاييء ":"جائي"، ثمّ يعلّ إعلال " قاضٍ " فيصبح " جاءٍ " ووزنه "قالٍ"، و " الجائي " " الفاعل"، وهذا على رأي الخليل الّذي يستندُ فيه بطريق القياس الأولويّ، على ما ورد عن العرب من إجراء القلب في اسمِ الفاعل، كراهية الهمزة الواحدة وذلك نحو قول طريف بن تميم العنبري:

فَتَعْرِفُونِي إِنَّنِي أَنَا ذَاكُم *** شَاكٍ سَلَاخِي فِي الْحَوَاثِ مُعْلِمٌ.

وقول العجاج:

لَاثٌ بِهِ الْأَشْيَاءُ وَالْعُبْرِيُّ.

فقدّموا الكاف من " شَائِكٍ " الّتي هي " لَامُ الكلمة " على " الهمزة " الّتي هي " عينُ الكلمة " وقدّموا " الثّاء " من " لائثٌ"، وهي " لَامُ الكلمة " على الهمزة وهي " عينُ الكلمة "، فصارت "شاكِي" و " لاثِي"، فأعلّت إعلال " قاضٍ " فصارت " شَاكٍ " و " لَاثٍ "681.

تعليق:

ما نستنتجه من خلال كلّ هذه التحليلات، أنّ ظاهرة القلب المكاني تمّ معالجتها وفق رؤية تداولية من قبل الخليل، ركّز فيها على قيمة الاستعمال اللّغوي، وما يُمكن للأصوات أن تلعبه من دور وظيفي بوصفها سمات مميّزة من خلال التغيّرات الفونولوجية "phonological change"، التي تطرأ على الكلمة، واشتغال الخليل على الظاهرة من خلال نصوصه التي أوردناها، أو المبنوثة على لسان مُريده سيبويه، نجدها تتفق مع المعطيات اللسانية المُعاصرة في نظرتها لهذه الظاهرة اللغوية، من جانب "الضرورة اللفظية، أو للتوسّع أو التخفيف" كما مرّ معنا، وهو ما أثبتّه دفيد كريستال حيث رأى أنّ هذه الظاهرة اللغوية، تُعدّ تعديلاً في الترتيب الطّبيعي لتسلسل العناصر، داخل الجُملة غالباً في الأصوات، وأحياناً في المقاطع أو الكلمات أو الوحدات الأخرى⁶⁸²، وهي الرّؤية نفسها التي اشتغل عليها الخليل أثناء معالجته لهذه الظاهرة، أثناء تفسيره وتحليله لبعض الكلمات، وما يطرأ عليها من تغييرات مورفولوجية.

4-(القلب):

يُعدّ القلب من أهمّ المباحث الصّرفية، التي اهتم بها علماء اللّغة قديماً وحديثاً، ويُقصدُ به "تقديم بعض حروف الكلمة على بعضها"⁶⁸³، وهذه الظّاهرة تُعدّ من سنن العرب في كلامها مثل قولهم: "جذب وجبذ"⁶⁸⁴، وقد تحدّث عنها الخليل بن أحمد الفراهيدي، في مُعجمه بالمصطلح عينه (القلب) حيث يقول: "أشياء: اسمٌ للجميع، كأنّ أصله فعلاء؛ شَيْئَاء، فاستثقلتِ الهمزتان، فقلّبتِ الهمزة الأولى، إلى أوّل الكلمة، فجعلت لفعاء كما

⁶⁸² :crystal david,adictionary of linguistics and phonetics,(1991),oxford Blackwell publishers,p 217.

⁶⁸³ : عبد الخالق عزيمة، المُعني في تصريف الأفعال، (ط.2)، دار الحديث، القاهرة ، 1999، ص:44.

⁶⁸⁴ : الصاحبى في فقه اللغة، ص:329.

قلبوا أَنُوقَ، فقالوا: أَيْنُقَ، وكما قلبوا قُؤُوسَ فقالوا قِسيَ، وأمّا الدّار فاسمٌ جامع للعَرَصَة والبناء المحلّة، وثلاث أدُور، وجاءت الهمزة لأنّ الألف التي كانت في الدّار صارت في أفْعُل في موضع تحرّك فأُلْقِي عليها الصّرفُ بعَيْنِها ولم تُردّ إلى أصلها فانهَمَزَت، ومُداورة الشّؤون مُعالجَتُها. 685

4-(التصغير):

يُعَدّ التّصغير ظاهرةً من الظواهر الصرفيّة، التي حفلت بها اللّغة العربيّة بدرجة كبيرة، حيث استعملها العرب بوصفها وسيلةً للتعبير، عن معانٍ مختلفة قصد الإيجاز والاختصار فقولهم مثلاً: (رَجُلٌ) استغناءً به عن قولهم: (رجلٌ صغير)، وهذا تأكيداً للدلالاته اللّغويّة التي تأتي بمعنى التقليل والتتقيص والتّزجيم في الحجم⁶⁸⁶، أما في المعنى الاصطلاحيّ فقد عرّفه السّهيلي قائلاً: " التّصغيرُ عبارة عن تغيير الاسم، ليُدلّ على صِغَرِ المُسمّى، وقلة أجزائه"⁶⁸⁷ ويأتي لأغراض بلاغية محدّدة مثل: التقليل والتحبّب والتعظيم والتحقير والتّقريب، وهو ما دلّ عليه الجرجاني، حينما أخذ يشرح مفهوم التّصغير حيث يرى أنّه: "تغيير صيغة الاسم لأجل تغيير المعنى، تحقيراً أو تقيلاً، أو تقريباً أو تكريماً أو تعظيماً"⁶⁸⁸، وعلى العبارة نفسها يذهب الخليل بن أحمد الفراهيدي، إلى أنّ التّصغير يأتي على أربعة أنحاء "تقريب وتقليل وتصغير وتحقير"⁶⁸⁹، وهذا التّغيير الذي يطرأ على الصيغة ينحصر في هذه الأوزان المعروفة: (فُعِيل - فُعَيْل - فُعَيْعِل)، حيث تلعب فيها المصوّتات وفق هذا النمط الشكلي، دوراً مركزيّاً للتّعبير على دلالات خاصّة.

685 : العين ، مادة: (شوي).

686 : لسان العرب، مادة: (صغر).

687 : السهيلي أبو القاسم عبد الرحمن ، نتائج الفكر في النحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، (

ط.1) دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص:89.

688 : التعريفات، ص: 32.

689 : العين ، مادة: (صغر).

4-أ- نماذج عند الخليل:

- يقول الخليل: " ويقولون في تصغير حيتان (حَوَيَات)، والصَّوابُ (أَحْيَاتُ) تردّه إلى (أَحَوَات) لأنه مُنتهى العدد "690
- يقول الخليل: " ويقول بعضهم في تصغير (أُم) : أُمَيْمَة، والصَّوابُ (أُمَيْهَة) تُردّ إلى أصل تأسيسها، ومن قال: أُميمة صغرها على لفظها وهم الذين يقولون في الجمع (أَمَات) "691
- يقول الخليل: " فإذا صَغَرْتَ (الَّذِي) رجعت إلى الأصل، فُقلتَ (اللَّذِيَا) و(اللَّتَيَا)"692

يَبْضَحُ لنا من خلال هذه النماذج، التي سُقناها حول ظاهرة (التّصغير)، أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، يُراعي القاعدة المعيار في استخدام هذه الظاهرة ، وذلك من خلال مُراعاته لبعض الشروط والضوابط، مثل قاعدة الرّجوع إلى الأصل، وذلك لمعرفة الصّواب في الاستعمال، ويظهر لنا ذلك من خلال تعبيره الواصف (والصّوابُ)، وما يُمكن قوله من خلال تتبّعنا لهذه الظاهرة في مُعجم العين، أنّها أخذت حيّزا واسعا في المداخل المُعجمية، وهذا دليل على أهميّتها من جهة التّداول اللّغوي.

لا بأس أن نكتفي بهذه المباحث الصّرفية التي أوردناها، وإن كُنّا قد تطرّقنا لبعض مباحثها التركيبية في المستوى الصّوتي مثل (الإعلال والإدغام والإبدال)، فقط لنبيّن العقلية الخلية وكيفية اشتغالها ، وتفسيرها لبعض الظواهر الصّرفية، مُستكشفين المنهج العلميّ المُتبع ونحن نستقرئ هذا المباحث اكتشفنا جانبا يغفل عنه بعض الباحثين في هذا

690 : العين، مادة: (حيت).

691 : العين ، مادة: (أُم)

692 : العين، مادة: (لذي).

المستوى، ارتأينا أن نورد بعض النماذج منه ألا وهو استعانة الخليل بعلم الصّرف الوظيفي لتفسير المفردة القرآنية.

5- استعانة الخليل بعلم الصّرف الوظيفي لتفسير المفردة القرآنية:

إنّ المتصفّح لمعجم العين سيلاحظ غزارة الآيات القرآنية، واستثمارها كشاهد ودليل لغويّ، يسعى الخليل فيه إلى تفسير بعض الظواهر اللغوية، بطريقة عجيبة تؤكد عبقرية هذا العقل العربيّ الفريد من نوعه، كيف لا والرجل من الحذاق المهرة بكتاب الله وقرآته، وإليه تُنسب بعض الأوجه في القراءات.

كما أنّ التدقيق العلميّ الذي توصّل إليه الخليل، وهو يقومُ بعمليات الاستدلال اللّغوي لتحليل بعض الأبنية والصّيغ، لاسيما الكشف عن بعض معاني مُفردات اللفظ القرآني، جعله يستعين في مقام علميّ مخصوص، بجهاز مُعالجة مُتكامل الآليات (علم الصّرف) فقد "أدرك الخليل أنّ النّظام الصّرفي، يقوم على مجموعة من المبادئ الثّابتة، تُمثّل مجموعة من المعاني في صيغٍ مُجرّدة، أو مُزيدة لتأدية وظيفة التّواصل اللّغوي السّليم، ومن خصائص هذا النّظام تقسيمُ المباني وفق عناصر، ومكونات اللّغة إلى مباني اسمية، وصفية وفعليّة ولكلّ منها خصائصها التّصريفية، في التجرّد والزيادة، ويتغيّر التّشكيل الصّوتي داخل البنية لإنتاج أبنية مُختلفة، وهذا التّغيير يعتمدُ على الصّوائت القصيرة، أو الحركات أساساً في تغيير معاني الجذر اللّغوي الواحد، تبعاً لتغيّر مبانيه، إذ تتقابل الحركات في مباني الألفاظ فتحدث تغييراً واضحاً في معانيها"⁶⁹³، مثل هذا التّصور العلميّ منحه القدرة في استكشاف سبب تغيّر بعض الصّيغ، التي تطرأ على المفردة في آي القرآن، وتهيأ له ذلك من خلال نظريته الشّموليّة للكلمة، وهذه بعضُ نماذجهِ.

⁶⁹³ : الخليل بن أحمد وأصول اللّغة، ص: 101.

5-أ- نماذج:

- قال الخليل: " والعَلَمُ: ما جعلته عَلَمًا لِلشَّيْءِ، ويُقْرَأُ (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ) يعني؛ خُروج عيسى عليه السَّلام، ومن قرأ (لَعَلَمٌ) يقول: يعلم بخروجه اقتراب الساعة "694.

القراءة الأولى التي أوردتها الخليل، بفتح العين واللام (لَعَلَمٌ)، قرأ بها ابن عباس رضي الله عنه (ت68هـ)، وقتادة (ت117هـ)، والضَّحَّاك بن مزاحم (ت105هـ)، على وَزْنٍ (فَعَلَ) وقد عدّها ابن خالويه (ت376هـ) من شواذ القراءات، وإنَّ المُتَأَمِّل في نصِّ الخليل السابق، سيلاحظ توجيه الخليل لمن قرأ بالمصدر (العَلَم) ،أو بالقراءة الأخرى (عِلْم) توجيهها يتناسب والمعنى المناسب لهما⁶⁹⁵، وكان لهذا التوجيه أثره في اختيار ابن قُتَيْبَةَ (ت276هـ)، إذ أفرَّ الفرق بين استعمال الصَّيغَتَيْنِ حينَ وقَفَ عند المُفْرَدَةِ نفسها، في تفسيره لغريب القرآن حيث يقول مفسراً (وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ) أي؛ نُزول المسيح عليه السَّلام-يعلم به قرب الساعة ومن قرأ (لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ) فَإِنَّهُ يعني العلامة والدليل⁶⁹⁶.

- يقول الخليل: " والدَّرْكُ أسفل قعر الشَّيْءِ... والدَّرْكُ: لُغَةٌ في الدَّرْكِ الَّذِي هُوَ مِنَ الْقَعْرِ...والدِّرَاكُ: إِتْبَاعُ الشَّيْءِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ، يَطْعَنُهُ طَعْنًا دِرَاكًا مُتَدَارِكًا، أي: تَبَاعًا وَاحِدًا إِثَرًا وَاحِدًا... قال الله تعالى (حَتَّى إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا) أي؛ تَدَارَكُوا أَدْرَكَ آخِرُهُمْ أَوَّلُهُمْ فَاجْتَمَعُوا فِيهَا...والإِدْرَاكُ فَنَاءُ الشَّيْءِ وقوله عزَّ وجلَّ

694 : العين مادة: (علم).

695 : الخليل بن أحمد الفراهيدي، أوراق الندوة الدولية، تموز 2006، 39/1-40.

696 : ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تفسير غريب القرآن، مر: إبراهيم محمد رمضان، (د.ط)، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003، ص:345.

(بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ) أَي جَهِلُوا عِلْمَ الْآخِرَةِ، أَي؛ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ فِي أَمْرِهَا

697^{١١}

نُلاحظ أَنَّ الخليل وَهُوَ يشرح مادّة (درك)، يستعرض في الوقت نفسه تفسيراً لها، من خلال تنوّعاتها الصوتيّة، انطلاقاً من آي القرآن، حيث أورد صيغتين لهذه المادّة لكلّ منها وجهٌ في القراءة، تفرّد به أئمة القراءات، فصيغة (أدرك) على وزن افْتَعَلَ، تُنسب لعبد الرحمن بن هرمز (ت117هـ)⁶⁹⁸، وقد بيّن معناها في النصّ السابق دلالة على فناء الشّيء وزواله، ومثلها الصّيغة الثانية (دَرَكَ)، بسكون الرّاء على وزن فَعَلَ، فقد قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي⁶⁹⁹، وجاءت هي الأخرى لتدلّ على معنى مُخالف بيّنه لنا الخليل في نصّه الذي اقتبسناه.

خُلاصة واستنتاج:

خلص هذا المبحث إلى مجموعة من النتائج هي:

- 1- انطلق الخليل من بناء منهجي، وهو يعالج بنية الكلمة وفق نظرة وظيفية مُتّسقة الرّؤى، بعد أن بدأ اشتغاله التحليليّ لها في المستوى الصّوتي، الذي يؤهّله عملياً إلى بُعد آخر، من مستويات الدّراسة اللّغوية ألا وهو البعد الصّرفي، وبهذا يتحقّق للخليل فكرة التّكامل البيّني في حقل الدّراسة ، بين المُستويات المطرقة بالتحليل والمُعالجة.
- 2- اعتمد الخليل على المنهج الوصفيّ، في دراسته الصّرفية معتمداً على الاستقراء والتحليل كأداة منهجيّة ساعدته في الكشف عن بعض الظواهر الصّرفية، وذلك

⁶⁹⁷ : العين ، مادة: (درك).

⁶⁹⁸ : المختصر في شواذ القراءات، ص: 110.

⁶⁹⁹ : أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، الحُجّة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم ابن مجاهد، تح: مصطفى كامل هنداوي ، (ط.1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، 98/2.

لتكوين إطار نظريّ، له ما يُبرّره في المستوى الإجرائي بشكل علميّ دقيق، يُناسب في الوقت نفسه طبيعة الدّراسة وأهدافها، مثالها تلك القضايا الصّرفية التي تناولها بالدرس والتحليل.

3- تتمتع نظرية البناء الصّرفي عند الخليل بعقلية رياضية، ساعدته في اكتشاف أبنية اللّغة على نحو إحصائيّ، يتمثّل خصوصاً في تقنية (التقليب)، وذلك للكشف عن الدّلالات المُعجميّة التي تحتلها البنية الواحدة.

4- تبين لنا أنّ التصريف بوصفه اشتغالاً علمياً عند الخليل، أخذ أكثر من منحى في تفسيره لأوجه الكلمة، واحتمالاتها الوُضعيّة فهو يدلّ على الاشتقاق مرّة ، وتارة أخرى يدلّ على التقليب، وفي منحى آخر يُوظّف للدّلالة على أصل الكلمة، وهذا التّراوح الوظيفي أسهم بشكل إيجابي، في بلورة النظرية التصريفية عند الخليل، في نظرتها لبنية الكلمة من زوايا عدّة.

5- أصالة المُصطلحات الصّرفية عند الخليل، تدلّ على عمق معرفيّ وذوقيّ في الآن نفسه، نابع من أعماق البيئة العربيّة، وطريقة اشتغال الخليل فيها تدلّ على تمكّن علميّ، ومنهجيّ دقيق في طريقة المُعالجة، وصحّة هذا الاشتغال تؤكده إقرارات البحث المُورفولوجي المعاصر، في أكثر من مبحث.

6- استعان الخليل بالمستوى الصّرفي، كاشتغال نوعيّ وطريقة جديدة في تفسير أيّ القرآن ، وتخريج كلّ صيغة على نحو دلاليّ معيّن، تُعبّر عنها القيمة المُعجميّة التي تتوفّر عليها تلك المادّة الأصل.

سِمَاتُ الْمُقَارَبَةِ اللّسانية في المُستوى النّحوي والصّرفي.

1- نحو مُقاربة عرفانيّة للنّظام النّحوي.

تُعَدّ العلامة اللّسانية من مُدركات العالم الخارجي، حيث يقتضيها الذّهن عبر تمثّل خارجيّ تكونُ شاهدا على قيمتها، بمُوجب الوضع الاصطلاحي، ومن هذا المُنطلق تنتظم المدلولات عبر جهاز تصوّريّ، يُحدّد الظّاهرة اللّغوية وفق مستوى تجريديّ يسعى إلى استقراء حقائق النّشاط اللّغوي، في ضوء قوانين عامّة يحدّدها منهج الباحث (أي الخليل)، بموجب فحوصاته الكشفية للحدث الكلامي، وتفسيره لضمنيات الدّوال الشّكلية، مثل تفسيره لمخزون كلام العرب، ومعهودها وفق مراتب متفاوتة في مُعجمه ، مثل حديثه عن مراتب الكلام (المُستعمل والمهمّل والغريب والحوشي... إلخ)، وهذه المراتب التّصوّريّة تُعدّ مثالا من جُملة المسائل الدّقيقة، الّتي طرحها الخليل وسنأتي على مُقاربتها، وفق هذا المنظور، حيث نجدها تستند إلى جُملة من المُصادرات الموضوعية، الّتي توصل إليها العقل الخليليّ، وهي وفق هذا المنظور تعدّ نمطا علميّا، يتعلّق بشكل المعرفة اللّغوية وما تُتيحه من تصوّرات عن الواقع الخارجي، وقبل الولوج إلى مضمون هذا المطلب بالمناقشة والتحليل، وجب علينا تبيان مفهوم (التمثّل-representations)، وتوضيح دلّالته حيث رأى الكفويّ في كليّاته بأنّه: " تمثّل حقيقة الشّيء عند المدرك يُشاهدها بما يدرك "700، ويرى سامي أدهم أنّ التّمثّل هو " بداية المعرفة، فالإدراك الحسيّ لا يُفهم إلّا بواسطة التّمثّلات، حيث إنّ الإحساسات الابتدائية ليست بحد ذاتها إحساسات، إلّا بقدر ما هي تُصبح تمثّلات ذهنية، ذلك أنّ التأثير الخارجيّ هو غامض بدون تمثّل، فالتمثّل هو الواسطة الصّورية بين الشّيء والذّات، فالشّيء والذّات هما من طبيعة مُختلفة تماما، والرّبط بينهما لا يتمّ إلّا بتوسّط التّمثّل؛ فالتمثّل هو واقع ذهنيّ لا يُمكن أن يلغى وإلّا تلاشت المعرفة، فهو الشّروط الصّوريّ للإدراك، شرط منطقيّ ومعرفيّ في الآن نفسه، ويُمكن القول بأنّ له وجودا أنطولوجيا على الرّغم من انفلاتاته لكنّ الذّاكرة تستحضره بضرورة التّفعيل "701، ومن خلال هذه التعريفات

700 : الكليّات، ص: 66.

701 : سامي أدهم، إبستمولوجيا المعنى والوجود نقد التطويّة دراسة نقدية للواقعية والمنطقيّ والترسندتالية، (ط.1)، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990 ، ص: 12، 13.

التي أوردناها نتبين أنّ (التمثّل-representation) هو حيلة التصوّر بين الدّهن والذات المدركة، حول موضوع مركزيّ ينشغل فيه العقل بكلّ موضوعيّة قصد الكشف عن الحقائق أو الظواهر ومعرفة قوانينها العامّة، وإذا ما أردنا استحضار واقع هذا التمثّل عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، سنلجأ إلى استعراض مطارحاته المعرفيّة، بوصفها قيمة أوليّة لنظريّة المكاشفة عنده، وهو يشير إلى جملة من الموصفات العلاميّة للغة، بوصفها قضيّة مُلازمة للمجال الدّالي ، تنكشف فيها التّصورات الكامنة خلف المفهوم وذلك بالاعتماد على جملة التجليات الموضوعيّة، بطريقة الاصطلاح مُلازمة لسعة النّظام اللّساني ضمن جهاز تعبيريّ، في مقام تواصلٍ معيّن يختلف باختلاف الذات النّاطقة (المرجعيات الثقافية والدينية والفكرية).

نماذج عند الخليل :

- يقول الخليل: " الحَدْسُ: التوهّم في معاني الكلام والأمر، تقول: بلغني فيه أمرٌ فأنا أَحْدَسُ فيه، أي أقول فيه بالظنّ، والحَدْسُ سرعة في السّير، ومضيّ على طريقة مُستمرة "702.
- يقول الخليل: " الحَشْرَجَةُ: تَرَدُّدُ صَوْتِ النَّفْسِ، وَهُوَ الْغَرْغَرَةُ فِي الصَّدْرِ. "703
- يقول الخليل: " الكهفُ كالمغارة في الجبلِ إلّا أنّه واسعٌ، فإذا صغر فهو غارٌ، وجمعه كُهوف "704.

تعليق:

702 : العين ، مادة: (حدس).

703 : العين ، مادة: (الحاء والجيم).

704 : العين ، مادة: (كهف).

نتبين من خلال هذه النصوص التي اقتبسناها من معجم العين، أنّ ذهنية الخليل بن أحمد الفراهيدي المعرفيّة، تستند إلى علاقة بينيّة بين التأمل والحس والمنطق لشبكة من الدوال وأنسجة المدلولات، بصورة ممثلة عن الموضوع الخارجي، وهو يفسر مجموعة من الظواهر ولا يتأتى له ذلك إلا من خلال فهمه العميق، لشحنتها الاعتبارية في كل حدث تواصلّي، وما تفرزه دوالها التعبيرية من تنويعات معنويّة في سياقات خاصّة.

وهذا التصور المعرفي الذي يرتسم في ذهنية الخليل بن أحمد الفراهيدي، يعدّ من المناويل العرفانيّة في المقام الأول بصفته مستجمعا للمعنى، وهو يتقصّى دلالة المادّة في معجمه، محاولا تفسيرها من منظور مواضعاتي، لا يتهيأ للذهن أن يتمثلها إلا في سياق مشاهدة أو معاينة حسية تكون كفيّلة بفكّ التشفير، عن إحالتها اللسانية ضمن تخاطب لغويّ مشترك.

إضافةً إلى مفهوم (التمثّل - representation) نجد مفهوم (المدلولات) الذي يعدّ من مصطلحات اللسانيات العرفانيّة، والذي اقترحه رونالد لانفاكر، حيث يعتمد فيه وفق (خُطاطة shéma) معيّنة لاختيار تصوّر خاص لدلالة معيّنة ضمن مجال عرفاني⁷⁰⁵، ويتجسّد هذا المفهوم في المنظومة النحوية عند الخليل باعتبارين؛ الأوّل منها باعتبار المنوال النحوي الذي تنتظم فيه السمات الدلاليّة، والاعتبار الآخر " مدلولات العلائق الخاصّة " التي تتمثّل في طريقة التنظيم الذهني، والتشكيل العرفاني لمضمون " عبارة " ما، ومن أمثلته عند الخليل ما يلي:

- في رواية سيبويه عن شيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي أنّ للعرب في " حيثُ لغتان: اللّغة العالية " حيثُ " بضمّ التاء ورفع الاسم بعدها، والثانية " حوثٌ " وهي تميميّة⁷⁰⁶.

⁷⁰⁵ : عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النحو العرفاني، (ط. 1)، دار مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس،

2010، ص: 75، 76.

⁷⁰⁶ : الكتاب، 2/199.

في هذا النص الذي ينتظم تحت منوال " الظُروف"، مخصوصاً في عبارة " حيث " يتبين لنا أنّ عناصر الصورة الإجمالية، التي تنتمي إليها هذا المفهوم، تختلف عناصرها المجردة من لغة إلى أخرى، والبناء الدلالي المأخوذ به في هذه الحالة هو " اللغة العالية " الذي يمثله بناء الضم " حيث "، ذلك أنّها اللغة المشهورة والكلام العالي عند العرب، كما يمكننا تمثّل مقارنة هذا المنحى العرفاني في ثنائية (التّكثير والتّعريف) ودلالاتهما التأليفية عند الخليل، في إحدى نصوصه حيث يقول: " ونقول في النّكرة رجل سوء، وإذا عرّفت قلّت: هذا الرّجل السّوء، ولم تُضف... ونقول هذا عمل سوء ولم تقل العمل السّوء، لأنّ السّوء لا يكون نعتاً للرّجل، ولا يكون السّوء نعتاً للعمل، لأنّ الفعل من الرّجل وليس الفعل من السّوء، كما تقول: قول صدق، والقول الصدق، ورجل صدق، ولا تقول الرّجل الصدق لأنّ الرّجل ليس من الصدق ⁷⁰⁷، وانطلاقاً من هذا النص نتبين أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، قام بتفسير نمط (الاسميّة)، انطلاقاً من مفهوم التّكثير والتّعريف، لفهم كيفية اشتغال الأشكال النّحوية، من خلال المثال الذي ضربه لنا في نصّه، مُرتكزا على العبارة الدّالة والمستقلّة تأليفيّاً، مثل عبارة (الرّجل السّوء) ، وهذا الاشتغال يُمكن القول إنّهُ يتحدّد كمعطى شكليّ في إدراك خصائص المعنى ، وهو ما تُشير إليه ملاحظته السابقة في قوله: (ولا يكون السّوء نعتاً للعمل، لأنّ الفعل من الرّجل وليس الفعل من السّوء)، ليرتسم بعد ذلك إلى تصنيف لسانيّ يحدّد من خلاله الوظيفة الدّلالية، لثنائية التّكثير والتّعريف، وهو بذلك يضع خُطاطة مبدئية لتبيان علاقة السّمة بالوظيفة؛ أي يبيّن الخصائص الدّاتية في اللفظ، سواء كان مُستقلاً أم غير مُستقل، وما لهذه الخصائص من سمات نحويّة تقتضي هي الأخرى سمات معنويّة، تؤدّي إلى رفع الإبهام وتبيّن من جهة أخرى الموضع الإعرابي للفظ، ودلالاته الوظيفية من خلال سياقه، الذي تتحدّد فيه عناصره اللفظية.

2-: الأبنية الإعرابية في الرؤى النحوية عند الخليل؛ من الكفاية الوصفية إلى الكفاية التفسيرية.

أفرز الاشتغال على الظاهرة النحوية، مناويل تفسيرية عدة تمثلت المعطى الواحد تمثلاً مختلفاً، في مستوى التشكل العاملي، ويظهر لنا الاشتغال الخليلي في هذا المنحى، ما تقدّم معنا حول رؤيته لفكرة " العامل "، وتناوله لها بوصفها قضية متعلقة بالتفاعل البنوي والواقع الاستعمالي للغة، عبر بناء تأملي يحقق التناسق المنطقي، بين الواقع العيني بوصفه معطيات مباشرة، تعدّ منطلقاً ضرورياً للمعرفة العلمية، وواقعاً موضوعياً سعى فيه الخليل إلى بناء معرفة عقلانية، بطرق علمية تحاول تفسير هذا النظام اللغوي، من خلال خلفية معرفية.

وانطلاقاً من نتائج المستوى النحوي حول فكرة العامل ، أنّ " الخليل صاحب العقل المنير، قد أخرج إلى الوجود نظرية العامل إخراجاً علمياً دقيقاً، وجعلها أساس البناء النحوي، فهو لم يقيم موضعها هكذا، وإنما جاءت خلاصة لتفكيره النحوي العميق، الموصوف بالعلمية⁷⁰⁸، وبالنظر إلى مجموع النماذج التي أوردناها، أثناء معالجة ظاهرة العامل عند الخليل، يتبين لنا أن منحى الخليل في الاشتغال يتوافق مع ما أقره الخطاب اللساني المعاصر، في نظريته لهذه القضية كونها " تتشكل بالنظر التركيب العربي وفق علائق تركيبية وأخرى ذهنية، تجريدية تتمثل في الاستقراء والسماع والقياس، وهذه الأطر تعمل على تقوية العامل، ودفعه لإصدار حكم نحوي، ينتمي إليه التركيب بعد التشكل النهائي لأسسه المتعددة⁷⁰⁹، ويمكن لنا مقارنة هذا التصور وفق المعطى الخليلي من باب النظام التشرحي لهيئة الجملة، في الكشف عن المعنى العميق الذي يحدّد الاحتمالات الشكلية (السطحية) للجملة الواحدة، من ذلك المثال الذي أورده سيبويه، نقلاً عن شيخه الخليل في

⁷⁰⁸ : طلال علامة، تطوّر النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة، (ط.1)، دار الفكر، بيروت ، ط1، 1993، ص:38.

⁷⁰⁹ : دليلة مزوز، الأحكام النحوية، (ط.1)، عالم الكتب الحديث، مصر ، 2011، ص: 114.

باب ما ينتصب على التعظيم والمدح، حيث يقول سيبويه : " زَعَمَ الخليلُ أَنَّ نصبَ هذا على أَنَّك لم تُرد أن تحدّث النَّاسَ، ولا مَنْ تُخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت فجعله ثناءً وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنه قال: اذكر أهلَ ذاك واذكر المُقيمين، ولكنّه فعلٌ لا يُستعمل إظهاره"⁷¹⁰، هذا التعليق الخليلي المبني على التفسير نجده يتوافق ورؤية "فيلمور" اللسانية، التي ترى أَنَّ العملَ يتمّ رصده وتصنيفه على مستوى التركيب العميق ودلالته⁷¹¹، ويتحدّد في عبارة الخليل (على أَنَّك لم تُرد أن تحدّث النَّاسَ)، حيث يتأسس التفسير العامليّ عند الخليل من فكرة التركيب الباطنيّ أي؛ المعنى المركزيّ الذي يحدّده المُتكلم، والذي يؤكّده ملفوظه العام ضمن سياق معيّن، نلاحظ إذن من خلال هذا المثال الذي أوردناه للخليل وفق المقاربة التي اقترحناها، أَنَّ بلوغ الكفاية الوصفية في تفسير التعالق الحاصل بين مكونات، وأجزاء البنية العامة للتركيب، وقرّ للنظرية الخليلية إيجاد مبرّر وحلول في تفسير مثل هذه الظواهر، وهو تفسير أفضى إلى إغناء منظومة الإعراب، عبر تصوّر كليّ نصفه بالمنهجيّ، من خلال تنظيمه لإسناد ما يُسمّى في الأدبيات اللسانية بالأدوار المحورية، داخل بنية مُحكّمة.

3-: مقارنة المستوى الصرفي .

لا حظنا في المستوى الصرفي أَنَّ الخليل، ذهب إلى تفسير أحوال أبنية العربية وهيئتها المعروفة، ضمن إطار عام يُساعده في الوقوف على اختلاف المعاني، ومنهج اشتغاله اعتمد على دراسة الأشكال اللغوية ، ورصد قوانينها عبر تصوّرات لغوية، مُتّخذاً في ذلك طُرُقاً مُناسبة للتحليل اللغوي، مثل اتّخاذه الأصول الثلاثة (ف-ع-ل) لتحديد أصل المُشتقات وخصائصها المُميّزة، وهذا المنهج صرّحت به الدّراسات اللسانية الحديثة حيث ذهب (ولفنسون)، بأنّه أنسبُ طريقة للتحليل اللغوي، يُمكن من خلالها حصر المُشتقات على

⁷¹⁰ : الكتاب ، 46/2.

⁷¹¹ : جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، تر: حلمي خليل، (ط.1)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1985، ص: 174، 175.

اختلاف أنواعها⁷¹²، إضافةً إلى طريقته الرياضيّة التي ساعدته على توظيف الإحصاء، لجمع اللّغة انطلاقاً من أصل البناء وتقليباته"، حيث فكّر في متن اللّغة تفكيراً حسابياً رياضياً، فتصوّر أنّ حُرُوفَ المُعْجَم، يُمكن تَتَبَعُها فيما يُجُوز أن يتركّب منها، من كلمات...ثمّ يتتبع ما عليه شاهد من كلام العرب، من هذه التّركيبات فيثبته على أنّه مُستعمل، وما لم يدل عليه شاهداً يُثبتُه على أنّه مُهمَل "713، وقد بلغ المُحتوى النّظريّ لمعجمه من خلال هذه العقليّة الحسابيّة، إلى اثني عشر مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمئة، واثني عشر جذراً وهو ممثّل كما يلي من خلال عُنصرين هُما: حروف اللّغة وعدد الأبنيّة، فيكون الحسابُ كالآتي:

- من الثنائي: $28 * 28 = 756$.

- من الثلاثي: $28 * 27 * 26 = 19656$.

- من الرّباعي: $28 * 27 * 26 * 25 = 491400$.

- من الخماسي: $28 * 27 * 26 * 25 * 24$.

- المجموع الكلّي $= 13205412$.

يُمكننا القول إنّ فكرة (التّوفيقات - combinaisons)، التي اعتمدها الخليل لم تُوجد اعتباطاً " إنّما أوجدها الخليل للحفاظ على أصالة الكلام العربيّ المُستعمل، وكانت له نظرة افتراضيّة تجديديّة للصّيغ المُهملة، إذ كان من الواجب توظيفها في واقع التّخاطب، ولقد نالت نظرية التّقليب الخليليّة مكانتها لدى رُعماء النظرية اللّسانية الغربيّة، أمثال سوسير f.saussure ونعوم تشومسكي n.chomsky، ولاقت امتداداً واسعاً في تطبيقاتها

⁷¹² : إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللّغات السّامية، (ط.1)، مكتبة النافذة للنشر، مصر، 2007، ص:14.

⁷¹³ : حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربيّة، (ط.1)، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002، ص:129.

اللُّغوية والاشتقاقية⁷¹⁴، وهذه الخُطوة يُمكننا وصفها بالرؤية التوليدية لأبنية اللُّغة، واشتقاقاتها الأساسية.

وَمِنَ المُقاربات اللسانية المُعاصرة، الَّتِي حاولت أن تقيم قراءة في المعطى الخليلي ومحاولة مقاربتة، من جهة التَّنقيبِ عن ملامحه في النظرية اللسانية الغربية، ما قام به الباحث عبد الكريم مجاهد في بحثه الموسوم: "الأبعادُ اللسانية لنظرية التقلب الخليلية"⁷¹⁵ حيث رأى أن جوهر الثنائية (لغة parole-كلام) الَّتِي عُرِف بها سوسير والَّتِي أخذت حظًا وفيرًا ، في منهجه اللساني تتوضَّح بصورة تقريبية بينَ المُعجم المثالي للغة، الَّذِي تصوَّره سوسير في نظريته للغة، بوصفه ذلك الرِّصيد اللغوي والقواعد المُخزَّنة في أذهان المُتكلِّمين الناطقين بلغة ما، وما ينتجُ عنه من مجموعة لا مُتناهية من الجمل، والتصور الخليلي لأبنية الكلام ، ومجموع مفرداته المستعملة أو المهملة، والَّتِي لا يتأتَّى مُعالجتها إلا بفكرة التقلب بين الجذور، كون هذه الأخيرة تُعدُّ طاقةً توليديةً تصريفيةً تمتازُ بها بنية اللُّغة العربية، أما في جانب الأداء الفعلي التنفيذي، والاستخدام الفعَّال للغة في التصوُّر السوسوري، الَّذِي يدلُّ على المُمارسة الفردية للغة داخل نظام اللُّغة العام، نجد أنَّ الباحث عبد الكريم مجاهد يُقاربه عندَ الخليل بن أحمد الفراهيدي، بفكرة المُستعمل من اللُّغة، وهي تلك الجذور اللُّغوية وامتداداتها، في الاستعمالات اللُّغوية المَوْجودة بالفعل.

أما وجهُ المُقاربة بين الخليل وتشومسكي، رائد المدرسة التوليدية التحويلية فيحدِّده في مفهوم الكفاءة -competence، وهي معرفة المُتكلِّم السَّمع للغة والأداء performance ، الَّذِي يُمثِّل الاستعمال الفعَّال للغة في مواقف واضحة، وهما يُعدَّان وجهان يتكاملان لإنجاز الفعل اللساني أي الكلام، فإذا كانت الأولى معرفة بنظام اللُّغة

⁷¹⁴ : الخليل بن أحمد وأصول اللُّغة، ص: 95.

⁷¹⁵ : الأبعاد اللسانية لنظرية التقلب الخليلية ، ص: 937.

وقوانينها، فإنّ الثّانية انعكاس مُباشر لها⁷¹⁶، ومقاربة هذه الثّنائيّة تتمّ حول ما فسّره الخليل أثناء حديثه، عن الوحدات الصّوتية غير الدّالة إلى المفردة الدّالة، وصُولاً إلى التّركيب، وقد تأتى للخليل هذا العمل، إحطاته بتقليبِ العناصر الصّوتية المؤتلفة في بنى، أو أشكال صرفيّة استوعبَ فيها استعمال العرب في كلامها.

خُلاصة واستنتاج.

أدّت بنا هذه المُقاربة اللّسانية على مُعطيات النّظرية اللّغوية، عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحديداً في المُستوى (النّحوي والصّرفي) إلى هذه النّتائج الآتية:

- إنّ البُعد المعرفي للّغة بوصفها جزءاً من السّلوّك الإنساني، وفق الرّؤية الخليليّة كشفَ عن المنهج العلمي، وطريقة الاشتغال اللّساني في النّظرية اللّغوية العامّة عند الخليل، وهُو نمط في التّفكير اللّغوي يتقاطع والمناهج اللّسانية الحديثة في: (الرّؤية والمنهج وطريقة الاشتغال).
- توصّلت بنا هذه المقاربة إلى أنّ الدّراسة اللّسانية عند الخليل، انطلقت من أسس ومبادئ ذات بُعد معرفي، اتخذت من اللّغة مادّة لمعالجة ظواهر بَيِّنِيّة في أنساق ذات مفاهيم وأطروحات مشتركة، اعتنى فيها الخليل وفق منهج المعالجة، بمسألة القلب النّظري (الجهاز المفاهيمي العام الّتي تتحدّد عبره السّمات)، وهيكلة الإجماليّ؛ وذلك باتخاذ بعض التّقريرات النّظرية، بوصفها قوانين معيارية تصف اللّغة واستعمالاتها من جهة، ثم تحدّد أبعادها الوظيفيّة ورسم ملامحها التّداوليّة من جهة أخرى، وهذه النّظرة الّتي تُوصف بالكلّيّة للّغة تُعدّ سمة منهجية، تُحتسب للخليل كأُسبُقية في البحث اللّغوي ومظهره الدّلالي.

⁷¹⁶ : دروس في المدارس اللّسانية الحديثة التّنظير والمنهج والإجراء، ص: 50، 51.

- إنّ مُحاولَة الخليل تفسير النّظام اللّغوي، وتوجيهه عبر أنظمة علميّة تُحدد نمطه الاستعمالي، يُمثّل من زاوية لسانية منهاجاً علمياً ، فرّق فيه بين القاعدة بوصفها مجموعة أنظمة، والاستعمال كمُنجزٍ فرديّ أثبت قدرة نظريّته اللّغوية، التي امتازت بالأوليّة في تفريقها لأهمّ ثنائية لسانية ألا وهي: (اللغة والكلام).

الفصل الثالث

نحو قراءة لسانية جديدة في الرّوى اللّغوية عند الخليل

مدخل

يتعيّن على القراءة التي توصف بـ " الحديثة " أو " الجديدة " للتراث اللغوي، أن تعي خصوصيّة المعرفة، التي وُجدت فيها مفاهيم ومصطلحات هذا التراث، بمختلف مشاربه ومستوياته، علماً أنّ هذه المعرفة الأخيرة تُمكن من وضع المقاربة، إجراء قراءة منهجية تستجيبُ لشروط، وأساسيات المنهج العلمي القائم على الموضوعية ودقّة التحليل، بعيداً في الوقت نفسه عن إجراء، وممارسة أيّ نوع من طقوس الإسقاط، الذي لا يُمت بأيّ صلة لهذه العملية المعرفية.

وانطلاقاً من هذا المبدأ المعرفي واستناداً إلى منهج (لسانيات التراث)، الذي يسعى إلى قراءة التراث اللغوي، في حلّة تتماشى والمفاهيم المعرفية المعاصرة، ارتأينا أن نعرض قراءتنا لهذا التراث اللغوي (الخليلي على وجه التحديد)، كاستشرافٍ يُسهم في بلورة المدونة اللغوية كافة، وإعادة تنميطها وفق مستجدات لسانية، تسعى للكشف عن أدوات معرفية جديدة، تساعد في تحليل اللّغة وأشكالها الدّلالية، وفق أدوات إجرائية وطرق تحليل، يجمعها معيار (الموضوع والمنهج والغاية).

أولاً:

الرّؤى اللّغوية عند الخليلي؛ البناء وفرضيّة التحقّق.

إنَّ إطلاق مُصطلح الرّؤى وتشغيله في هذا السّياق المعرفيّ، بالدرجة الأولى هُوَ إطلاق يتحدّد بمعايير هذا المُصطلح، وما يحتمله من مجموعة فرضيات ومبادئ وآليات منهجيّة، تسعى لتفسير ظاهرة ما وفق أدوات ، يتحدّد دورها الوظيفيّ في التفسير، والمُعالجة والتعليل بدرجة أكثر، ووفق هذه المنحى فإنّ النظريّة بهذا الشّكل تأخذ بُعدا تقنيا، وإجراءيا في وضع التّصورات، الّتي ينبغي أن تكون عليها حقيقة الشّيء (الظّاهرة اللّغوية).

ولنا أن نتساءل وفق هذا المعطى المنهجي، الّذي ننطلق من خلاله في تحديد معالم، ما أطلقنا عليه بالقراءة اللّسانية الجديدة، وفق نموذج الاشتغال الّذي يُوجّه فصول عملنا (لسانيات التراث) أن نطرح هذه التّساؤلات:

- ما طبيعة هذه الرّؤى اللّغوية الّتي اعتمدها الخليل، وهُوَ يحاول تفسير الواقع اللّغوي؟
- ما صُور التّفاعل بين هذه الرّؤى، والواقع اللّغوي؟ وما المُبررات المنهجية والآليات العلميّة، الّتي استند عليها الخليل؟

إنّ الإجابة عن هذه التساؤلات تستدعي منّا إرساء تصوّرات منهجيّة، تقتصر على تفسير هذا الصّنيع الحضاري بأدوات علميّة، وهذه الخطوة في رأينا ليست بالعادية أو السهلة نظرا للفضول العلميّ، في الكشف عن مسائل هذه النظريّة، وفق منظور نسمةً بالجديد، وعليه سنسعى إلى الكشف عن بعض المظاهر الدّلالية والتركيبية، التي اتسمت بها هذه الرّؤى عند الخليل، في تفسيره للظواهر اللّغوية، نعتدّ في الوقت نفسه على جُملةٍ من المفاهيم اللّسانية، استعانة بها لتحليل التّصوّرات العامة والمفاهيم اللّغوية، التي قامت عليها هذه الرّؤى الخليليّة.

1- الرّؤى اللّغوية عند الخليل؛ مقارنة في مستويات التحليل.

نقترح في هذا المبحث تلبيةً للمسعى الذي ننطلق منه (نحو قراءة لسانية جديدة)، هذه المستويات التّحليليّة التي سنبيّن وظائفها، ومهامها ضمن هذه الرّؤى اللّغوية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، وفق مقارنة نعتمدها لإجراء معالم هذه القراءة :

1-1- مستوى تفاعلي.

1-2- مستوى تخاطبي.

1-3- مستوى قلبي.

يقوم المستوى الأوّل (التّفاعلي) بتحديد السّمات المعيارية المجرّدة (اسم/فعل/حرف) على وجه التّصنيف، وفق انتظام معياري لتحديد أوجه استعمالها، وما تؤدّيه هذه السّمات

المجردة من وظائف معنوية، داخل نسق تركيبّي معيّن، ويتحقّق عنصر (التفاعل) من خلال رصد الأدوار، التي تلعبها هذه السمّات ضمن نظام الاستعمال، ويتمّ ذلك برصد المؤثرات الحاصلة بين هذ السمّات (اسم+فعل)، (حرف+ [اسم، فعل])، ووفق هذا كلّه يمكن رصد التفاعل الحاصل، واستتباط أوجه الاستعمال الجديدة، أمّا المستوى الثّاني (التّخاطبي) فإنّ دوره يتحدّد في بيان وظائف هذه السمّات وفق نظام لساني، ترتبط فيه اللّغة ارتباطاً وثيقاً، بنسق استعمالها ضمن سياق يحدّد مجموعة العبارات المُنتجة، في موقف تواصلٍ، توطّره في الوقت نفسه مجموعة من المعارف، التي يستحضرها المتكلّم والمخاطب في موقفهم الكلامي، أمّا المستوى الأخير (القالبي) حاولنا ابتداء من مفهوم (القالب) الذي استعرناه من أنحاء لسانية مثل النّحو التّوليدي، واشتغالنا فيه سيكون على نحو مغاير يخدم رؤيتنا، حيث أوردنا وحداته وفق تسلسل وظيفيّ، غايتنا فيه الكشف عن الدّور التي تودّيهِ الوحدات اللّغوية، داخل نسق لساني تتحكّم فيه أطر خارجيّة ، تأخذ فيه بنية اللّغة الخصائص التي تخدم أنماط الاستعمال، ومثّلنا لهذه العمليّة بخطاطات إجرائيّة مُقاربة في الرّؤى اللّغوية عند الخليل، ووفق هذه المكوّنات نطمح لبناء جهازٍ لساني واصف، انطلاقاً من هذه الرّؤى التي ستبيّن طرق مقاربتها، بشكل إجرائي وفق نظرتنا المنهجية المُقترحة.

إنّ المتأمّل في الآراء اللّغوية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي ، في معجمه الشّهير (العين)، أو تلك الأمالي التي احتفى بها مُريده المميّز سيبويه، في كتابه وبعض النّقول التي ضمّنها كبار أهل اللّغة، في كتبهم أمثال ابن جنّي وغيره، إضافةً إلى ما تطرّقنا إليه في الفصل التحليلي (المستويات اللّسانية في نظريّة الخليل اللّغوية؛ مُقاربة في أنظمة البنى والدّلالات)، تبيّن لنا أنّ نظام المُعالجة الذي اعتمدَ عليه الخليل، انطلق من نظرة شمولية للّغة، وهذا ما أكّدنا عليه أثناء اشتغالنا المُقارباتي على المستويات التركيبية، ذلك أنّ فكرة المستوى اللّساني، لم تكن معروفةً عند الخليل في تحليله للّغة وأشكالها الدّلالية، ويتّضح لنا هذا الرّأي الذي نذهب إليه من خلال تفسيرات الخليل لبعض الأبنية، حيث لم تكن مخصّصة

نحو تفسير مستوى معيّن، بل كانت مُتداخلة وهذا التّداخل كان وظيفيا إلى حدّ بعيد، ومثال ذلك ما جاء في مُعجمه حيث يقول: (... انطوى ينطوي انطواء فهو منطو، على مُنْفَعِل ويُقال: اَطْوَى يَطْوِي اِطْوَاء إذا أُرِدَتْ به: افْتَعَلَ فأدغم التاء في الطّاء، فهو مُطَوَّر على مُفْتَعِل)⁷¹⁷، نرى من خلال هذا النّص أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأثناء مُعالجته لبعض المداخل المعجميّة، يستعين بعلم الأصوات لتبرير وتفسير الطارئ البنيوي، على مُستوى الكلمة الواحدة وما يحتملها ميزانها الصّرفي، بوصفه المعيار النّموزج لتحديد الاستعمالات الشّكلية لهذا الدّال، ففكرة التخصيص في مُعالجة الوحدات البنوية، لم تكن مُستقلّة عند الخليل، بل كانت خاضعة لتباين الأدوار الوظيفية للمستوى اللّساني (صوت+ صرف)، ووفق هذه الرّؤية فإنّ النزعة الشّمولية، التي يتّسم بها منهج الاشتغال عند الخليل، هي نزعة وظيفيّة تسعى لتقديم احتمالات شّكلية، على نحو من التوصيف للأبنية المُشكلة المُستعملة منها، وغير المُستعملة ضمن العمليّة التواصليّة، وانطلاقا منه يجوز لنا الإقرار بأنّ هذه الرّؤى اللّغوية عند الخليل، يمكن لنا تعيين سماتها مبدئيا من خلال تبيان قُدّرتها، على تفاعلها مع الواقع اللّغوي، وتتبع سيروراتها وتحولاتها لنتمكّن من تحديد مفاهيمها الرّئيسة، كي يتسنى لنا تقديم تصوّرنا الجديد وفق انتظامٍ علميٍّ، يكون مبنيا على روابط منهجيّة لها ما يُبرّرها.

1-1- المُستوى التّفاعلي:

يدلّ هذا المستوى على الأثر الدّلالي (المعنوي) الذي تتفاعل فيه جملة من السّمات المعيارية مثل: نوع البنية المجرّدة (اسم/ فعل/ حرف) ، صنفها (فاعلية/ مفعولية)، فئتها (مفرد/جمع) وعلامتها (الحركة الإعرابية)، وانتظامها (موقعها من حيث التقديم أو التأخير) مع القرائن السياقية والمُحدّدات الاستعمالية للّسان (اللغة/ اللّهجة) بوصفٍ هذا

المكوّن كفاية تفسيرية لوقائع الاستعمال اللّغوي، وتتبعنا لآراء الخليل دلّنا على هذا المستوى الذي حدّدناه، وفق نصوصه التحليلية وتفسيراته لبعض المسائل اللّغوية ومثال ذلك:

1-1-أ- شاهد معجمي:

قال الخليل : " السيّ: المكان المُستوي، وهما سيّان، أي: مثلان، أرادَ بهما: سواءان غير أنّ العرب تقول: هُما سواء، وكذلك في الجميع والواحد، وإذا جمعوا سيّان قالوا: سواسية، ولم يقولوا: سواسين كذا وكذا وهُم سواء، هذا هوّ العالي من كلام العرب ⁷¹⁸، نرى من خلال هذا النصّ المُقتبس من مُعجم العين، أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو يفسّر الكلمة، يسعى إلى استحضار بعض السّمات التي ذكرناها آنفا، وتحقّقها بشكل نسبيّ يمثّل درجة تفعيل هذا المستوى، ويُمكننا استخلاص السّمات وفق هذا الجدول الآتي:

البنية المجرّدة	نوعها	علامتها	صنفها	فتتها	انتظامها	محددات استعمالها
السيّ	اسم: المكان المُسْتَوِي	اقتضاء الرّفْع	Ø	التأنيث والجمع	Ø	العالي من كلام العرب

1-1-ب- شاهد نحويّ:

- قال الخليل مُجيباً سيبويه عن قوله: على كمّ جذع بيتك مبنيّ؟ فقال: القياسُ النَّصبُ وهُوَ قول عامّة النَّاس، فأما الذين جرّوا فإنّهم أرادوا معنى مِنْ، ولكنهم حذفوها هنا تخفيفاً على اللّسان، وصارت على عوضاً منها.

⁷¹⁸ : العين، مادة: (سيي).

نتمثل هذه السمات وفق الجدول المعمول به:

البنية المجردة	نوعها	علامتها	صنفها	فنتها	انتظامها	محددات استعمالها
جذع	اسم	الجر النَّصْب: وهو القياس	الإضافة	مفرد	Ø	قولُ العامّة من الناس

تعليق:

نتبين من خلال إجابة الخليل أنّ هذا المستوى تحقّق بدرجة قويّة ، وهذا التحقّق راجع للكفاية التفسيرية الذي تقتضيها هذه القاعدة (صيغ استعمال كم)، حيث أورد الخليل أوجه الاستعمال التي تحتلها الوحدة البنيوية (جذع)، ذلك أنّها تحتل على تقدير العلامة الإعرابية النَّصْب وهُو القياس، وتأتي مجرورة أيضا، إن كان الاستعمال المُراد بمعنى (من)، وهذا التبرير الذي أورده الخليل يمثل سمة تناسقية، في معالجة العلاقة بين الوحدات البنيوية داخل تركيبية معيّنة، وبهذا يمثل هذا المستوى المقترح (التّفاعلي)، مدخلا تفسيريا يساعدنا في الكشف على مراتب الاتّساع الشكلية، والدّلالية لأجزاء الوحدات البنيوية ضمن تركيب معيّن.

1-2- المستوى التخاطبي:

لاشكّ أنّ هذا المستوى ينتمي لمجال عام يُعرف بـ(الخطاب- Le discours) حيث يتحدّد مفهومه بأنّه " كلّ تَلَفُظ يفترض متكلّما ومستمعا، وعند الأوّل هدف التأثير على الثّاني بطريقة ما "719، وقد حظي هذا المجال في المدوّنة التراثية، من خلال الاعتناء بالخطاب اللّغوي فهما وتأويلا، حيث كان الإجراء فيه مُنصبا على تفكيك هذا الخطاب وبيان

719 : إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، (ط.1)، دار الآفاق للنشر، الجزائر، 1998، ص: 09.

وظائفه، وحاولنا في هذا المستوى إبراز السمات اللغوية، وأدوارها الوظيفية ضمن مقام تواصلية معين، وما الذي يمكن أن تحققه القرائن الدلالية، في الكشف عن الاستعمالات اللغوية المتباينة، ذلك أن المتأمل في المدونة الخليلية، سيدرك الجهاز المفاهيمي الذي اشتغل عليه الخليل، محاولة منه في تفسير الأنظمة اللغوية، وقوانينها العلاماتية ضمن قالب تواصلية، وما تُحيل إليه من من تحويلات دلالية، وفق تنظيم لسانی مُحكم، ولا يتسنى لنا معرفة هذا المظهر المعرفي، إلا من خلال الوقوف على تقريباته التداولية، بحيث "لا سبيل إلى معرفة الممارسة التراثية، بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميز عن غيره، من طرق معالجة المنقول باستناده إلى قوانين مخصوصة، يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار بوظائف المجال التداولي، فضلاً عن استناده إلى آليات صورية مُحددة"⁷²⁰، وسنتوضّح هذه الممارسة بشكل منهجي، في محاولات الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو يفسّر الاستعمالات اللغوية وأنماطها المختلفة، ضمن مقارنة وظيفية، نختارها لأجل الوقوف على نتائج منهجية مُحددة.

إنّ استقراءنا في بعض النصوص الخليلية، أو تلك التي نقلها عنه مُريده سيبويه في كتابه، كشفت لنا اعتناء الخليل بهذا البُعد المنهجي، في تفسير أنماط الاستعمال اللغوي ضمن سياقات مُختلفة، قد يفتح معناها بحسب معرفة المتلقي ودرجة فهمه، ولهذا فإنّ لجوء الخليل لمثل هذا النوع من التعليل، ما هو إلا وسيلة إجرائية وظّفها واستعان بآلياتها، ليجيب عن تساؤلات، منطلقة من واقع الاستعمال اللغوي، في بعض الظواهر التخاطبية.

ومن النصوص الشواهد التي تدلّ على هذا الاشتغال، ما أورده سيبويه حول تفسير الخليل لأحد الاستعمالات اللغوية، في باب ما ينتصب على التعظيم والمدح⁷²¹، حيث يقول سيبويه: وزعم عيسى أنّه سمع ذا الرمة، يُنشد هذا البيت نصبا:

⁷²⁰ : طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، (ط.2)، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1993، ص: 243.

⁷²¹ : الكتاب، 2/ 45، 46.

لقد حملت قيسُ بن عيلانَ حربها *** على مُستقلِّ للنَّوائب والحرب

أخاها إذا كا عِضاضا سمالها *** على كلِّ حالٍ من ذلول ومن صعب.

زعم الخليل أنَّ نصبَ هذا على أنَّك لم تُرد أن تُحدِّث النَّاسَ، ولا من تُخاطب بأمر جهلوه ولكنهم قد علموا من ذلك، ما قد علمتَ فجعله ثناءً وتعظيماً، ونصبه على الفعل كأنَّه قال: أذكر أهلَ ذاكَ وأذكر المقيمين، ولكنَّه فعل لا يستعمل إظهاره.

يُمكننا مُقاربة هذا النَّص واستنتاج طرائق الاشتغال اللَّساني فيه، حصراً في إجابة الخليل أنَّه يذهبُ مذهباً تداولياً، حيث نجده يختار الإعراب على التَّعظيم والمدح، لأنَّ المقام هُنا مقام ثناء، وهذا الإعراب التَّداولي الَّذي اختاره الخليل، مبنيٌّ على إدراكِ المقام التَّداولي الواردة فيه الملفوظات الدَّالة، بوصفها قرائن مشروطة تداولياً، إضافةً إلى إدراكِ المُتلقِّي مقصديات الخطاب، والدَّليل على ذلك ما جاء على لسان الخليل قوله: (ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ)، واعتمادُ هذا النَّوع من التعليل يوحى لنا أنَّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، يفقه حقاً مفهوم مقام التَّلَفُّظ وعناصره، الَّتِي تتكفَّل بإقامة التفاعل بينَ الوحدات اللُّغوية، داخل مجال التركيب ضمن مُعطيات سياقية، تُسهم في وضع المدلولات طبقاً لأحوال المُتكلِّمين، وصيغ استعمالاتهم اللُّغوية.

وفي الباب نفسه يجيبُ الخليل تلميذه سيبويه، عن بيت شعريٍّ لأُمِّية بن أبي عائذ يقول فيه:

ويأوي إلى نسوة عطِّلٍ *** وشُعنا مراضيع مثل السَّعالي

قالَ الخليل: كأنَّه قال: واذكرهنَّ شُعنا إلَّا أنَّ هذا فعل لا يُستعمل إظهاره، وإن شئت جررت على الصِّفة⁷²².

تتمحور إجابة الخليل بن أحمد الفراهيدي في هذا المستوى، ضمن نوع آخر يُطلق عليه (التأويل التداولي pragmatically interpretation)⁷²³، إشارة إلى استعماله إحدى الآليات ألا وهي تقنية (التوسيع expansion)⁷²⁴، والتي دلت عليها صيغة (كأنه قال)، حيث استنبطها الخليل وفق معلومات مفهومة، من خلال السياق المقامي، ويتهياً له هذا النوع من الإجراء، من خلال نظريته الوظيفية للغة، بوصفها أداة حيّة تُستعمل بين ناطقين في مقام تواصل، يلعب جهاز التأويل فيه دور المفتش، عن قصدية المتكلم، وهنا يجد الخليل نفسه يوظف آلية أخرى، ألا وهي وسيلة (التكميل completion)⁷²⁵؛ بتقديره للعنصر المحذوف بعد الواو، وهو الفعل (اذكرهن)، حيث ساعدته هذه الآلية اعتماداً على السياق، في تحديد الكلام الناقص، الذي يتضح به قصد المتكلم.

ومن النصوص التي تدلّ على نباهة الخليل بن أحمد الفراهيدي، في تفسيره لبعض المظاهر الطارئة على بنية التراكيب اللغوية، محاولاً توضيح نواميس الحدث التخاطبي، ما ورد في باب الحكاية، التي لا تتغير فيها الأسماء عن حالها في الكلام⁷²⁶، وكما جاء على لسان مريده سيبويه قائلاً: "وسألت الخليل عن رجل يُسمّى من زيد فقال: أقول: هذا من زيد وعن زيد، وقال أغیره في ذا الموضع، وأصيرّه بمنزلة الأسماء كما فعل ذلك به مفرداً، يعني عن ومن، ولو سمّيته قط لقلت زيد لقلت: هذا قط زيد ومررت بقط زيد، حتّى تكون بمنزلة حسبك، لأنك قد حولته وغيّرتّه، وإنما عمله فيما بعده كعمل الغلام، إذا قلت: هذا غلام

⁷²³ : التأويل التداولي pragmatically interpretation: آلية يلجأ إليها المخاطب إذا كان قصد المتكلم غير واضح، أو يفقد للمعايير التالية (الصدق، الإفادة، الترابط، الوضوح، الملاءمة)، محروس السيد بريك، التأويل التداولي في كتاب سيبويه، المؤتمر الدولي السادس لقسم النحو والصرف، سيبويه إمام العربية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 2010، ص: 1045.

⁷²⁴ : التوسيع expansion: وسيلة من وسائل التأويل التداولي، تتعلّق بمعلومات مفهومة من السياق بشقيه المقالي أو المقامي، المرجع السابق، ص: 1046.

⁷²⁵ : التكميل completion: وسيلة من وسائل التأويل التداولي، تتحقّق عن طريق المعرفة والافتراض المُسبق. المرجع السابق، ص: 1046.

⁷²⁶ : الكتاب 3/ 256.

زيد، ألا ترى أنَّ من زيدٍ لا يكون كلاماً، حتَّى يكون معتمداً على غيره، وكذلك قط زيدٍ كما أنَّ غلام زيدٍ لا يكون كلاماً، حتَّى يكون معه غيره، ولو حكيتَه مضافاً، ولم أغَيِّره لفعلت به ذلك مفرداً، لأنِّي رأيت المضاف لا يكون حكايةً، كما لا يكون المفرد حكايةً، ألا ترى أنَّك لو سمَّيت رجلاً، وزن سبعة قلت: هذا وزن سبعة فتجعله بمنزلة طلحة، والدَّليل على ذلك أنَّك لو سمَّيت رجلاً، خمسة عشر زيد لقلت: هذا خمسة عشر زيد تغير كما تغيَّر، أمس لأنَّ المضاف من حدِّ التسمية.⁷²⁷ فهذا التفسير الذي أدلى به الخليل حول مسألة الحكاية الواقعة في الاسم هُنا، سيَتَّين أنَّ منهج الاشتغال عنده ثابت في رؤيته للغة، التي تتجاوز التجريد إلى مُستوى الاستعمال، علماً أنَّ هذا الأخير يفرض على المُتكلِّم أنماطاً، تتجاوز هي الأخرى سلَّم المعيار نحو واقع تداولي، يفرضه مقام التَّخاطب، ومعروف بين أوساط النِّحاة أنَّ الحكاية هي "ضربٌ من التَّغيير، إذا كان فيها العدول عن مُقتضى عمل العامل"⁷²⁸ وتساؤل سيبويه كان مُنطلقه من هذا التَّغيير، في الاستعمال الذي يقع في الأسماء، وكانت إجابة الخليل تنحو منحىً تداولياً، في مُعالجة هذه الظَّاهرة اللُّغوية، بوصف هذا المؤشر الطَّارئ (عنصر الحكاية)، قد يأتي من باب الأنماط التداولية عُنصرًا لرفع التَّوهم، وهذا ما أشار إليه الخليل تمثيلاً في معرض ردِّه حينما قال: (ألا ترى أنَّك لو سمَّيت رجلاً وزن سبعة قلت: هذا وزن سبعة فتجعله بمنزلة طلحة)، وحول هذه الفكرة يبرِّر لنا النِّحاة هذا الاستعمال حيث أكَّدوا أنَّ الطَّبِيعَةَ الاشتقاقِيَّةَ للأعلام، هي سبب هذا التسويغ ، وفي هذا الشأن يصرِّح ابن يعيش قائلًا: " إنَّما سوَّغُوا الحكاية فيها لما توهموه من تنكيرها، ووجود التَّراحم لها في الاسم، فجاءوا بالحكاية لإزالة توهم ذلك، وهذا المعنى ليس موجوداً في غيرها من المعارف"⁷²⁹، إذن فإنَّ التعليل التداولي الذي أتى به الخليل، يستجيب لشروط التداول اللُّغوي الذي يطرأ على بعض الأنماط التركيبيَّة، وهذا التوجيه الخليلي يُمكن القول إنَّه يهتم

⁷²⁷ : المصدر نفسه ، 3 / 256.

⁷²⁸ : شرح المفصل، 4 / 19.

⁷²⁹ : المصدر نفسه ، 4 / 19.

بطرفي الخطاب (المتكلم والمُخاطَب)، أثناء أفعال مُنجزة بينهم تلزم المتكلم إلى القيام بأفعال، تتحدّد وفق مقصدياته التي يودّ تحقيقها، ومن جهة أخرى يُمكننا الإقرار أنّ عنصر الحكاية، يُعد من أنماط الاستعمال اللّغوي التي يُحيل فيها المتكلم المُتلقّي، على أمور يريد توضيح مقصودها ، وما أشار إليه الخليل من خلال تفسيره ،يؤكد ما توصلنا إليه أنّ فضاء الاستعمال اللّغوي يتحقّق بمقصدات يريدها المتكلم، وقد تتحقّق وفق هذه الأنماط الخارجة عن قياس الاستعمال ، مثل عنصر الحكاية بدرجة تحدّد العلاقة التواصلية، بين المتكلم والمتلقي للخطاب والمعنى الذي يُستفاد من استعمال هذا النمط، وانطلاقاً من هذا المستوى المُقترح، للكشف عن معالم هذه الرّؤى اللّغوية عند الخليل، توصلنا إلى نتيجة مفادها أنّ المدوّن اللّغوية عند الخليل، أخذت بُعداً وظيفياً في تفسير أنماط الاستعمال اللّغوي، والنشاط التخاطبي وفق نظرة شموليّة للغة، انطلقت من خصوصيتها الاجتماعية، حيث راعى الخليل أجزاء الخطاب (متكلم/ خطاب/ مخاطب) وشروط إنتاجه وتحقيق هدفه، استناداً إلى أحد أهمّ العناصر التي أكّدت عليها الأنحاء اللّسانية الحديثة، لتحقيق العملية التخاطبيّة ألا وهو عنصر التأطير، حيث " يوجّه المتكلم المخاطب ليُمكنه من التعرّف على محطّ الخطاب، قبل أن يشرع في الخطاب نفسه "730، والنصوص السابقة التي أوردناها للخليل، كشفت أنّها تستجيب لمبدأ تبعيّة البنية لمبدأ الوظيفية، ويظهر لنا لك في التفسيرات الخليليّة من خلال تأكّيده بصورة غير مباشرة ،أنّ مقياس نجاح عمليّة التواصل مرهون بتقليل العوائق البنوية،التي تحدث في التركيب والتي تنتج عن عمليّات الحذف، أو الإضافة مثلاً، إضافة إلى الغرض التخاطبي نفسه ،باعتبار البنية وأهداف التواصل المستهدف مثل " إضافة معلومة غير متوافرة في مخزون المخاطب، أو تعويض إحدى معلومات المخاطب بمعلومة يعتقد المتكلم أنّها معلومة واردة "731، ودلّ على هذا عند الخليل تفسيره لواقع الاستعمال

730 : محمد حسن مليطان، نظريّة النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، (ط.1)، منشورات الاختلاف، الجزائر،

2014، ص:61.

731 : المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي القديم الأصول والامتداد، ص: 31،32.

اللّغوي، أثناء تفسيره لأحد الأنماط التخاطبية، مثل الثناء والتعظيم كما مرّ معنا، ومنهج الاشتغال الذي تميّز به الخليل أكدت عليه الدراسات اللسانية الحديثة، في اعتنائها بموضوع اللّغة لا الكلام لتفسير النّشاط الإنساني⁷³²، وبهذا يمكن القول إنّ المنهج الخليلي اعتنى بفكرة استعمال اللغة وأبعادها الوظيفيّة ، داخل نسقها التركيبيّ بوصفها مجموعة من العلاقات، والقوانين التي تساعدنا في تفسير النظام اللّساني بوجه عام.

1-3- المستوى القالبي:

يُعدّ مفهوم القالب من المفاهيم المتّصلة بالأنحاء الإجرائية، التي تتجاوز جانب الوصف إلى الصّورنة والتفسير، وارتأينا تفعيله هنا وفق مبادئ اللّسانيات التوليدية، لبيان القدرة المعرفية لما أطلقنا عليه بالرّؤى اللّغوية عند الخليل، والاشتغال في هذا المستوى سيتحدّد وفق مجموعة من الإجراءات، على نحوٍ مغاير نسعى من خلاله بيان وصف اللّغة، وفق المفاهيم الخيلية، وهذا الإجراء ستوجّه جملة من العتبات المفاهيمية، نلجأ إليها في تحليلنا هذا لبيان سمات هذا المستوى وتحقّق عناصره، واختيارنا لهذا الأخير لم يكن عشوائياً بل انطلق من رؤية منهجيّة، لما يتضمّنه هذا المستوى (Tagmeme) ووحداته التي تردّ على شكل تسلسليّ، وإبراز دورها الوظيفي في إعطاء نموذج يحدد فاعلية الأشكال اللّغوية .

1-3-أ- الموقع اللّساني⁷³³ من الكون الذهني إلى الكون اللّغوي⁷³⁴:

⁷³² : خليفة بوجادي، اللسانيات النظرية دروس وتطبيقات، (ط.1)، بيت الحكمة، الجزائر، 2012، ص: 30، 31.

⁷³³ : يدلّ مصطلح (الموقع اللّساني) على الرّتبة التي تأخذها العناصر البنوية داخل التركيب. ينظر: عبد العزيز

المسعودي، المعاني الجهيّة والمظهرية بحث لساني في المَقُولَة الدلالية، (د.ط)، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2013.

⁷³⁴ : (الكون الذهني/ الكون اللّغوي) : ثنائية الكون الذهني والكون اللّغوي من المفاهيم المتّصلة باللّسانيات العصبية حيث يعنى بالكون الأوّل ذلك البرنامج الجيني الموجود بدماع الإنسان والأبنية العصبية المتأزرة لإنتاج الطاقة اللّغوية التصويّية من خلال مجموع المعطيات والمحتويات الموجودة في ذهن الإنسان من عادات وأعراف مكتسبة، أمّا الكون الثاني هو الصورة الميكانيكية في جانبها اللّساني لهذه التمثيلات الذهنية بصورة متقرّدة . يُنظر: عبد الرحمن طعمة، البناء الذهني للمفاهيم بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان، (ط.1)، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، 2019.

نشتغلُ على مفهوم الموقع اللّساني وفق هذه الأكوأُن؛ من خلال تحديد الوحدات العامليّة المُنتظمة مع عناصر بنوية أخرى، عبر خصائص مؤلّفة وأخرى فارقة، وذلك بضبط اللّوازم الذّهنية العامّة، الّتي تتطلّبها عمليّة إنتاج الكلام وفهمه، فمن دون تلك العمليّات العقليّة تفقد المكوّنات اللّغوية، قدرتها الأدائيّة في الاستعمال، وبهذا تتحدّد وظيفة هذه الثّنائيّة في تفسير السلوك اللّغوي عند الإنسان، من خلال مجموع الدلالات والمعارف المختزنة في أذهان النّاطقين ، وطريقة تجسيد هذا الرصيد والمخزون، للتعبير عن مدلولات متواضع عليها، وللتوضيح أكثر نأخذ الجُملة الآتية :

• هذا كتاب زَيْد.

إذا أردنا تبيان سمات الموقع اللّساني فيكون كالآتي:

(العناصر البنوية) ← ع1: هذا / ع2: كتاب / ع3: زيد.

(الوحدات العامليّة) ← و1: [هذا كتاب] ، و2: [كتاب زيد] .

← وحدة رئيسيّة: [كتاب].

(الخصائص المؤلّفة / الفارقة) ← الخلل المعياري (تقديم / تأخير)

← موقعُ الإسناد.

يتّخذُ هذا الموقع دوراً مُزدوجاً ، من خلال عملية الانتقال من الكون الذهني؛ والمقصود به تلك السمات غير المتناهية، الّتي يحدّدها الناطق أو القرائن اللفظية (الصّورة المترسّخة في الذهن) إلى الكون اللّغوي، بوصف هذا الأخير تلك المفردات المسموعة، وشرط ارتسامها المصطلحي وجود مبدأ دلالي يربط بينهما، وللتوضيح أكثر نستكمل الشرح في المثال السّابق، بأخذ الوحدة العامليّة الرّئيسيّة [الكتاب]، بوصفها نواة الإجراء.

[الكتاب]		
وحدة كونية مجردة	وحدة دلالية مفهومة	وحدة قولية مسموعة
صورة الكتاب	أوراق مجموعة بين دفتين تتحد في موضوع معيّن	الحروف المؤلفة لهذه الكلمة بحسب تواضع الناطقين (ك+ت+ا+ب)= كتاب

وفق هذا المنظور فإنّ تفاعل هذه العناصر، بوصفها وحدات مجردة دالة، تكتسب موقعها الدلالي الفرعي، أثناء التركيب من خلال ما تحيل إليه الوحدات العاملة ، وموقع المبدأ الدلالي تحدده مادة المحتوى، وما تحيل إليه في الأعراف اللغوية، فعلى سبيل المثال قد تعني الوحدة العاملة الرئيسة [كتاب]، عند ناطقين معيّنين [صحيفة]، وهذا الوسم الدلالي راجع إلى الاصطلاح اللغوي، الذي تمّ الاتفاق عليه بشكل معيّن، وتحدد خصائصها كما بيّناه آنفاً، عبر عناصر مؤلفة وأخرى فارقة، وفحوى هذا كلّ، هو إرساء منهج إجرائي يمكننا من فهم بنية اللغة، وفق نظام منطقيّ يمكننا من إحصاء إمكانات التأليف التركيبي، للوحدة اللغوية أيّا كان شكلها ونوعها : (جُملة / نص).

نقترحُ هذا الإجراء ، لأجل معرفة تحقّق هذه النظرية ، وعليه نطرحُ التساؤل الآتي:

- هل كان لهذا الموقع القالبي وحدات إجرائية نموذجية في هذه (الرّؤى اللغوية) عند الخليل ؟

لا شكّ أنّ الإجابة عن هذا التساؤل، يتطلب منا الوقوف عند النصوص الخليلية، التي حاولت في ضوء هذا المنظور تفسير بنية اللغة، وفق تسلسلها " الفونولوجي والنّحوي والدلالي"⁷³⁵ ، وهو ما نقترحه بـ: (الوحدة القالبيّة) وهذه التسمية تنطلق من الرّابط الوظيفي

⁷³⁵ : نعتمد على هذا التسلسل من منظور اللساني الأمريكي " بايك " ، ينظر، حازم علي كمال الدين، نظرية القوالب من نظريات علم اللغة الحديث، (د.ط)، مكتبة الآداب، القاهرة، 2002، ص: 10.

الذي يجمع بين هذه المكونات ، وسنتبين اشتغال هذه الوحدة وإجراءاتها، عند الخليل من خلال هذه الشواهد التطبيقية الآتية :

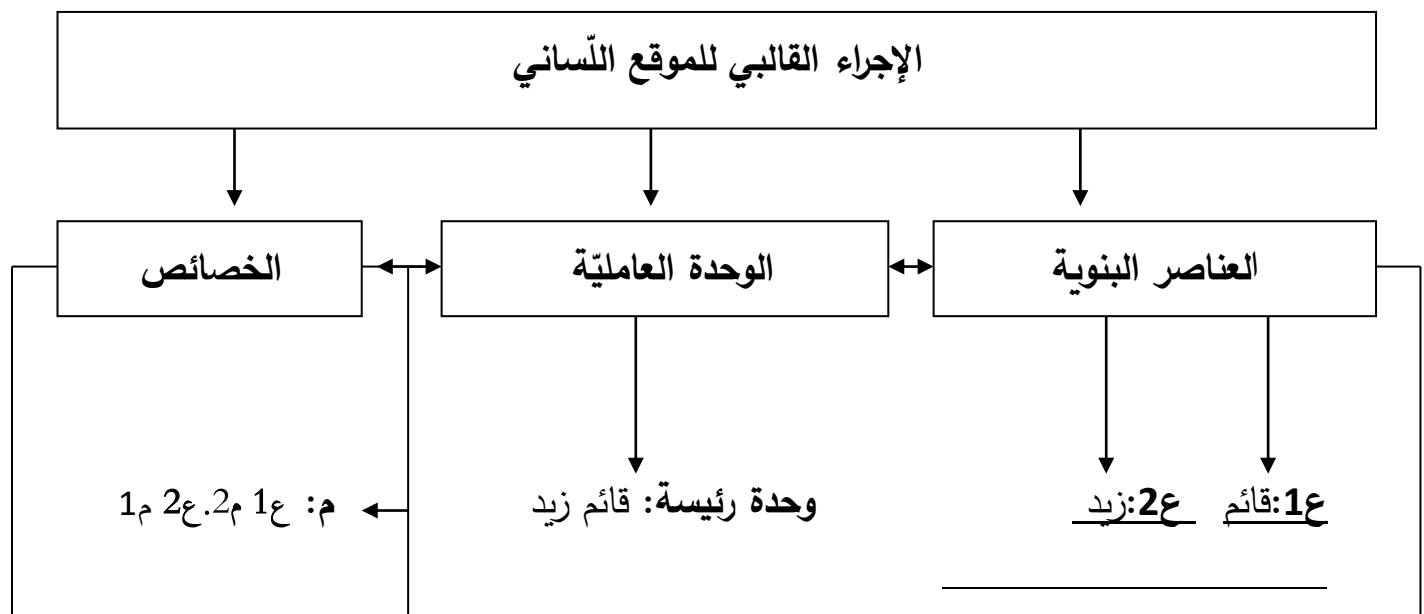
• - ش1- : قال الخليل: " والعربُ تشتق في كثيرٍ من كلامها أبنية المضاعف، من بناء الثلاثي المُثقل بحرفي التضعيف، ومن الثلاثي المُعتل، ألا ترى أنهم يقولون: صلَّ اللّجام يصلُّ صليلاً، فلو حكيتَ ذلك قلتَ: صلَّ تمدَّ اللّام وتثقلها، وقد خففتها في الصلصلة وهما جميعاً صوت اللّجام، فالثقل مدّ والتضاعف ترجيع يخفّ فلا يتمكّن لأنه على حرفين، فلا يتقدّر للتصريف حتى يُضاعف أو يُثقل فيجيء كثير منه مُتّفقا على ما وصفتُ لك، ويجيء منه كثير مختلف نحو قولك: صرَّ الجُنْدب صريراً، وصرّصر الأخطبُ صرّصرةً، فكأنهم توهّموا في صوتِ الجُنْدب مدّاً، وتوهّموا في صوتِ الأخطبِ ترجيعاً، ونحو ذلك كثير مختلف⁷³⁶

هذا النصّ الخليلي الذي يُعدّ تبريراً فونولوجياً بالدرجة الأولى، يسعى لبناء معايير دلالية قادرة على وصف الاستعمال اللّغوي، من خلال حديثه عن ظاهرة معروفة في اللّغة العربية (الاشتقاق)، حيث تناول فيها الوحدة الصرفيّة، وما تؤديه أوزانها من دلالات تتحدّد وفق علل الاستعمال، مثل التكرار والتثقل، تُظهر أنّ الخليل يعتمد بشكل مباشر على العنصر الصّوتي، في تفسير الوحدة العاملة الطّارئة، وهذا التوصيف سببه تلك التغيرات الحاصلة على مستوى العناصر الدّنيا، التي يتكوّن منها العنصر البنوي، وأمّا قوله: (توهّموا) فهذه إحالة على أنّ المنهج الخليلي، يمتاز بمبدأ المعيارية في تعليليه لسمات " الكون اللّغوي" الذي يفرض وحدات مسموعة، ذات إعراب بنيوي مشترك " إمّا علامة أو زيادة حرف " .

• - ش2- : وزعمَ الخليل رحمه الله أنّه يستبجح أن يقول قائم زيد، وذلك إذا لم تجعل قائماً، مقدّماً مبنيّاً على المبتدأ كما تؤخّر وتقدّم، فنقول: ضرب زيداً عمرو، وعمرو

على ضرب مرتفع، وكان الحدّ أن يكون مقدّما ويكون زيدٌ مؤخّرا، وكذلك هذا الحدّ فيه أن يكون الابتداء فيه مقدّما، وهذا عربيّ جيّد.⁷³⁷

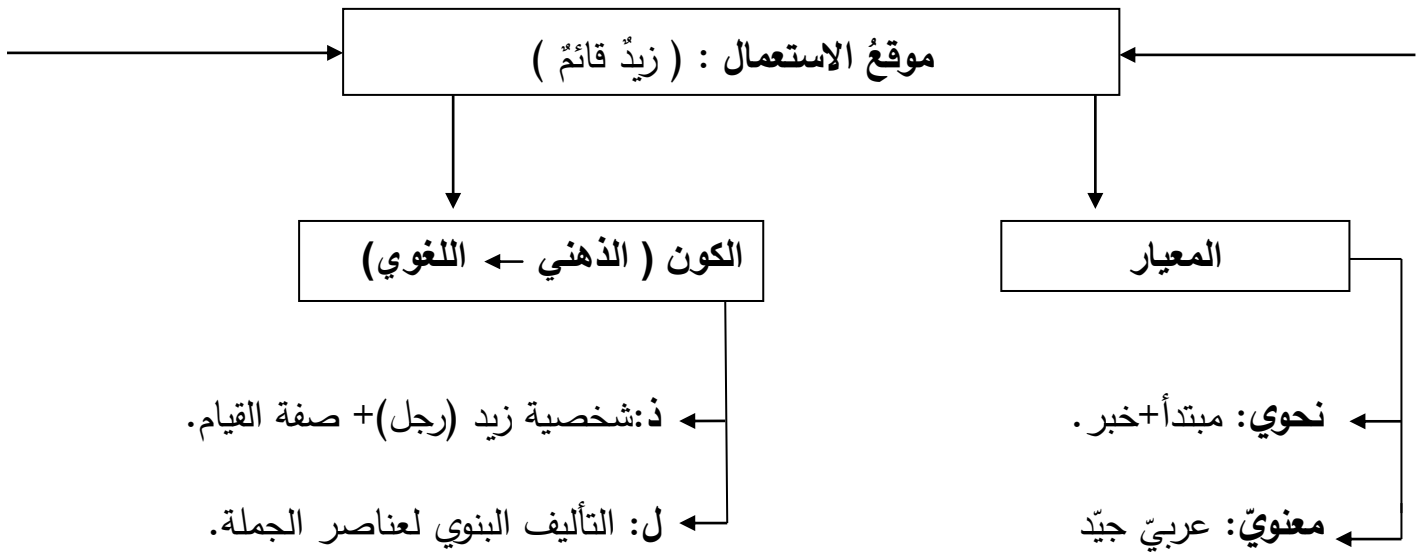
المتفحص لهذا النصّ، الذي يجمع بين البنية الدلالية التي تبين نظام الحدث، والبنية النحوية التي تنتظم فيها العناصر البنوية، الخاضعة لمنطق الاستعمال، سيدرك للوهلة الأولى تركيز الخليل على عنصر الاستقامة، الخاصة بمراتب الكلام، كما حدّدها بعد ذلك تلميذه سيبويه⁷³⁸، من خلال تعليقه على جملة (قائم زيد) أنّه استعمال قبيح، وهذا الوصف النحوي، يُعدّ نمطا وظيفيا يُحدّد علاقة اللفظ بالمعنى، من مُستواه الشكلي (المعيارى) إلى مستواه المعنوي (الدلالي)، وتشكّل الوحدة العاملة (قائم زيد) في نظر الخليل خلافاً معيارياً، حيث إنّ منطق استعمالها حسب الخليل يستوجب تقديم العنصر البنوي 2 (زيد) في مرتبة العنصر البنوي 1(قائم)، وهُو ما دلّت عليه العبارة التوضيحية [الحدّ]، في نصّ الخليل، وما يُمكننا استنتاجه وفق هذا المنظور أنّ مستوى التحليل اللساني، للاستعمال اللغوي ينطلق من رؤية منهجية، تقوم على التفريق بين التحليل اللفظي النحوي (Grammar analysis)، والتحليل المعنوي (Meanings analysis)، وتبعا لهذه المقاربة المُقترحة يمكننا تمثيل هذا المعطى وفق الخطاطة التمثيلية التالية:



⁷³⁷ : الكتاب، 2 / 90.

⁷³⁸ : المصدر نفسه، 1 / 49.

← ف: زيدٌ



وفق هذه الخُطاطة التي تأتي على نموذج صوريّ إلى حدّ ما، يمكننا بيان النموذج الدّلالي فيها، عبر شبكة مُبنّية ترتكز مُكوّناتها على الوحدة العامليّة باعتبارها " فعلا دلاليًا " يعدّ تمثيلًا لنشاطٍ معرفيّ، يجعل من الاستعمال اللّغوي نظامًا إدراكيًا، يتمّ وصفُ وحداته الوظيفيّة (بنية + دلالة)، بواسطة شبكة معانٍ، تنتظم عناصرها في صورة تركيبية، حيث يتدخّل فيها تفاعل المستوى المقترح (الكون-الذهني/ اللّغوي)، لإفراز وحدة دلالية عامة "مُشتركة " تحدّد نظام الاستعمال.

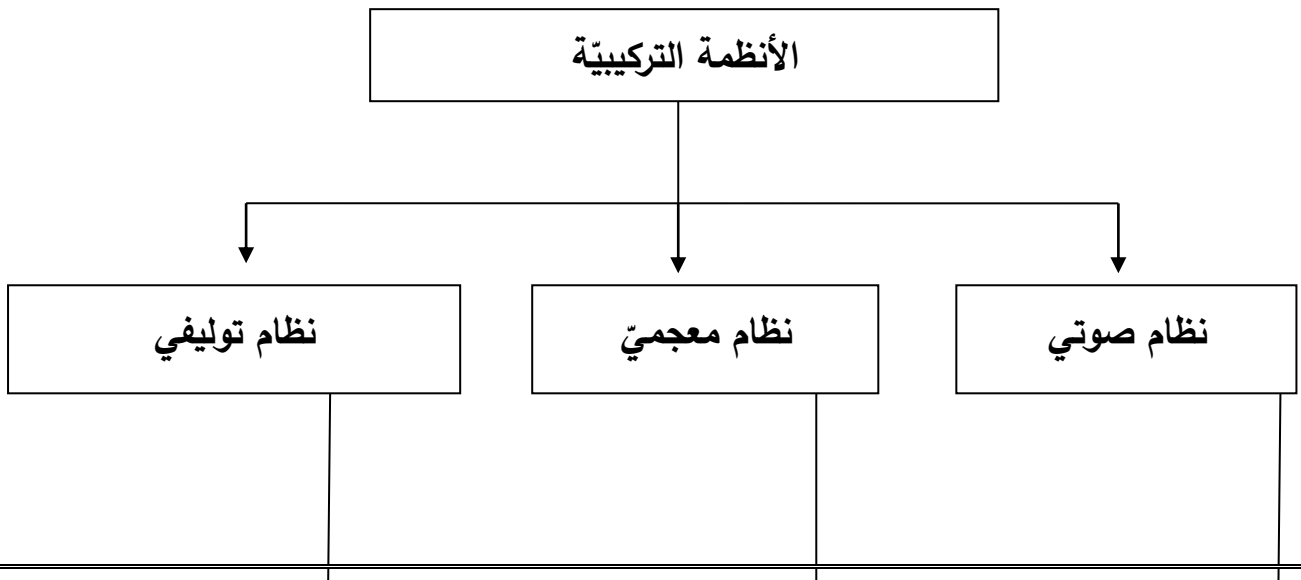
هذا النظام التّصوريّ للوحدة اللّغوية عند الخليل، تمّ الاشتغال عليه على نحو معياريّ تمّت المُرعاة فيه على ما يُسمّى " مراتب الكلام "، وبناءً عليه يُمكن القول إنّ المستوى القالبي، لم يتحقّق بصورة مُنظمة، في التّصوّر الخليلي لشبكة الفعل الدّلالي، نظرًا لافتقاره للسمات الدّلالية، التي تحدّد الأشكال التمثيليّة للغة، وتحقّقه إنّما اقتصر على المستوى المعياري فقط، في الكشف عن انتظام العناصر البنيوية، التي يتألف منها " الكلام " ، وبناءً على هذا يُمكننا تفعيل وحداتها، واستثمارها لجعلها قادرة على تقديم كفاية تفسيريّة، لأبنية اللّغة وأنماط الدّلالة.

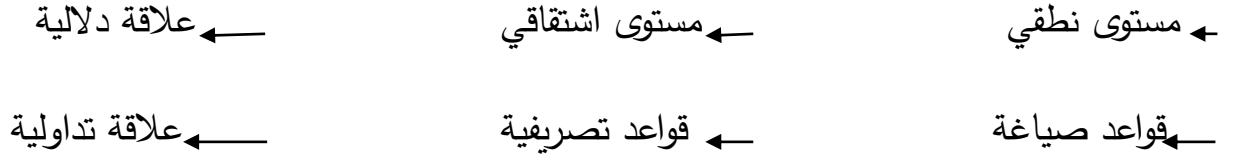
2- النموذج اللغوي الخليلي ؛ مقارنة في آلية الاشتغال.

يُشكّل مفهوم النموذج اللغوي في ضوء لسانيات التراث، قراءة في مسالك المنهج العلمي الذي تتبني عليه النظرية في شكلها الكلي ، وإذا كانت السمة العامة لهذا النموذج لغوية، فمن غير شك أنّ سماتها الفرعية هي موضوع الدراسة، " مستوياتها اللسانية " إذ الهدف من وراء تفكيك هذا النموذج ، هو بيان الروابط الوظيفية التي تجمع مفاهيمه العامة، وبيان عناصر الاشتغال ، والكشف عن هذه العناصر وفق شكل منتظم هو بيان آلية هذا النموذج، ووفق هذه البنية المنهجية المقترحة، ارتأينا أن نكشف عن آلية النموذج اللغوي عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، من خلال رصد معالم الاشتغال التي حاول بواسطتها تحليل الظواهر اللغوية، ومسائلها التركيبية ضمن مسلكها الدلالي العام، وما يهمنّا في هذا المبحث ،هو تشخيص آليات هذا النموذج اللغوي، وبيان العمليات التي يُجريها، وهي تؤلّف جهازا واحدا.

2-1- الأنظمة التركيبية:

المقصود بها انتظام المكونات اللغوية، وتفاعل عناصرها عبر اشتغال وظيفي، يتيح لها تفسير قوانين لسانية، تُشخص هي الأخرى نظام الاستعمال اللغوي، القائم على إنتاج عدد غير محصور، من الأنماط البنوية واضحة الدلالة، ونُمثّل لجهازها وفق هذه الخُطاة المفاهيمية الآتية:





وفق هذه الخُطاطة التي نقترحها ، لتبيان هذه الأنظمة التركيبية في النظرية اللغوية عند الخليل، واستنادًا للنتائج التي توصلنا إليها أثناء مقاربتنا، للمستويات اللسانية التي فصلنا فيها بالتحليل والتفسير، تبين لنا أنّ جهاز الاشتغال عند الخليل، تمّ وفق هذه الأنظمة التي فسّرت بها الأشكال اللغوية عبر رابط وظيفي، وما توصلنا إليه ونحن نستقرئ نصوص الخليل ، أنّ التوجيه التداولي لبعض الاستعمالات اللغوية، التي أشار إليها الخليل مثل لغات العرب أو بعض صيغ الاستعمال، التي تحتمل تأويلا للمحذوف، أو وجها آخر تنتظم فيه العناصر البنيوية الدالة، تبين لنا أنّ محتوى هذه المفاهيم التركيبية عند الخليل، انقسمت إلى عنصر إلزامي خاضع لعناصر القواعد الثابتة (معيار الفصاحة)، وآخر اختياري غير مشروط فيه أمّا الأول فيتخصّص بمقام التواصل العادي، الذي يجمع بين المتكلم والمخاطب، والثاني الاختياري يقتصر على لغة ذات نمط مخصوص (لغة الشعر / لغة الأمثال والحكم)، وهذه المكونات التركيبية المستنتجة (إلزامي / اختياري)، تكفّلت بإنتاجها الأنظمة الفرعية، (صوتية/ معجمية/ تأليفية)، وفق نظام تفاعليّ ضمن قوالب متعدّدة، والذي توصلنا إليه من خلال استقراء مفاهيم هذا النموذج ، أنّ الخليل أقام من خلالها علاقة تفاعلية أسهمت في إنتاج قالب تداولي، يفسّر اقتضاء أفعال اللغة وعلاقة المتخاطبين، عبر نسق تحويليّ تتولّى فيه المعطيات المعجمية، تحديد عالم الخطاب الذي تُنتج فيه العبارة اللغوية معنى ومبنى.

2-2- الكفاية التفسيرية⁷³⁹ للنموذج اللغوي عند الخليل.

نستعمل مفهوم "الكفاية التفسيرية"، لقياس تحقّق ما نحنُ بصدّد التحقق منه، "الرّؤى اللّغوية" ونجاعة فرضيّاتها، وقدرتها التحليليّة، حيث إنّ إطلاقنا لمفهوم "الرّؤى اللّغوية" قائم على توفير آليات قادرة على وصف نسق لغويّ، له خصوصيّة معرفيّة، وهذه الآليات ستتيحُ لنا مقاييس نضبطُ بها تحقّق هذه الرّؤى الخليلية، بوصفها أنظمة لسانية قائمة على مبدأ الانسجام، ومعالجة المُعطيات بقدر من التناسق المنهجي والعلمي.

يقتضي التحقق من هذه الخصائص والمقاييس، الكشف عن نسق القواعد التي تتحكّم في الجهاز المفاهيمي لهذا النموذج اللّغوي، ومن خلال ما توصّلنا إليه من نتائج وتحليلات سابقة لأراء الخليل، ومُحاولاته التفسيرية لأنظمة اللّغة، تبين لنا أن نسق القواعد ينقسم إلى:

- **قواعد تصنيفيّة:** سعت لتفكيك البنية العامّة للخطاب اللّغوي، وفق آليات علميّة راعت في ذلك الواقع اللّغوي للمتكلم، وتميّزت بالسّمة (المعيارية/ الوصفية) مثل حديثه عن المحذوف، ونائب الفاعل وتفسيراته الوظيفية في مسألة العامل.
- **قواعد مُدمجة:** اشتغل فيها الخليل بتفسير أنماط البنى اللّغوية، لتبرير مجال الاستعمال، مثل تفسيره لبعض الألفاظ وما تقتضيه صيغها المعجميّة، وتفاعلها مع المكوّنات الصرفيّة حيث تمّ إدماجهما في حقل وظيفيّ واحد.
- **مثال:** قال الخليل: " الوصاءُ كالوصيّة، والوصايةُ مصدر الوصيّ، والفعل أَوْصَيْتُ ووصيّته توصيّة، في المُبالغة والكثرة "⁷⁴⁰، نلاحظ من خلال هذا المثال أنّ الخليل استعانَ بمقولتين، نحوية وصرفيّة لتبرير مجال استعمال هذه اللفظة، وهو يفسرها معجميًا.

⁷³⁹ : مصطلح (الكفاية التفسيرية) يعدّ مؤشرًا لضبط تحقق الجهاز النظري والإجرائي للأنحاء اللسانية في وصفها للوقائع اللّغوية. ينظر: سمّية المكي، الكفاية التفسيرية للنحو العربي والنحو التوليدي، (ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013.

⁷⁴⁰ : العين، مادة: (وصي).

هذه القواعد التحليلية وفق نظرتنا لمعايير ومقاييس تحقّق الرّؤى اللّغوية، بوصفها قراءة علميّة، لم تستجب لمبدأ الاختزالية القائم على الانتظام في تمثّل الواقع اللّغوي، حيث يتمّ إشراك مجموعة من السّمات لتبرير مجال لغويّ مجرد، مثل مسألة الابتداء، كأن تقع عوامل كثيرة يُبرّر بها وقوع ما يُسمّى بالابتداء، وقد مرّ معنا التفصيل فيها، ووفق هذه المقاييس يمكننا الحكم عليها بأنّ فرضيّتها، غير مُستقلة موضوعيًا من حيث تحديد دلالة التشكّل العاملي.

يفضي بنا هذا الاستنتاج إلى أنّ النظرية اللغوية عند الخليل، وفق هذه القواعد التحليليّة، لم تتمكّن من تجاوز المستوى الوصفي إلى مستوى التفسير، بوصفه تمثلاً معرفيًا يقوم على ركنين أساسيين هما: الوحدة والانتظام.

السؤال المطروح: ما الذي يمكن أن نصف به هذه (الرّؤى اللّغوية) عند الخليل؟

يمكننا وصف صنيع الخليل بأنّه "نموذج معرفي"، حيث يُعدّ هذا الأخير تخطيطاً علمياً يسعى لوصف البنية الداخلية للظاهرة المدروسة، وفق مجال من التنسيق والتصميم، يسعى إلى عرض أجزاء مهمّة، تتّصل بالموضوع والمنهج برؤية كلّية، قائمة على وصف شبكة العلاقات المُتحمّكة في الظاهرة⁷⁴¹، ووفق هذا فإنّ صنيع الخليل قائم على بنية فكرية تصوّريّة للواقع اللّغوي، من خلال تحديده وتفسيره لجملة من المسائل التركيبية، تحكمه مجموعة مفاهيم وإجراءات، تتحكّم فيها معايير ذاتية تسعى لتفسير عدد من الظواهر اللّغوية (مثل بعض الظاهر الصّوتية، التي تتمايز من استعمال لغوي إلى آخر، وهو ما يُطلق عليه بلغات العرب)، وهو ما أنتج له هذه الرّؤى اللّغوية، التي أتت على شكل قراءات إجرائية للواقع اللّغوي، في تصوّرها للعلاقة بين البنى والدلالات، ضمن إطار كلّيّ أتاح له مجموعة

⁷⁴¹ : بوننج كارل ديتير، المدخل إلى علم اللّغة، تر: حسن سعيد بحيرى، (ط.1)، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2003، ص:27.

قوانين علميّة، مكّنته هي الأخرى من تفسير بعض الأنظمة والظواهر اللّسانية، اختصرتها
جُملة الآراء والتصورات النظريّة، التي يمكن القول إنّها سبقت زمانها.

ثانيًا

اللُّغة ونِظامُ الخطابِ

مُقاربة وظيفيّة في تصوّر اللّساني عند الخليل

أولاً: اللّغة والإيقاع ؛ مقارنة في المنجز العروضي عند الخليل.

تقدّم معنا أثناء ترجمتنا للخليل أنّه مُكتشف، ومُبتكر ما يُسمّى بـ: (العروض) وهُو علم لم يُسبق إليه، ولم تعرفه العرب كما عرفت وأبدعت في سائر الفنون، وقصّة هذا العلم أنّ الخليل دعا الله أن يرزقه بعلم لم يُسبق إليه، ودعاؤه في هذا المقام أشبه دعاء سيّدنا سليمان عليه السّلام، حينما قال: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥) ⁷⁴²، فكانت استجابة الله له وهُو جزاء الصّالحين، ورزق الخليل هذا العلم كرامةً، وبُشْرَى وفتحاً مِنَ الله هِبَةً لعبده المشهود له، بالتّقوى والزُّهد والورع، وتيمّناً بمكان الدّعاء "العروض" ، أطلق الخليل هذا الاسم على مولوده العلميّ الجديد، فقد نُقل " أنّه تعلّق بأستار الكعبة وقال:اللَّهُمَّ ارزقني علماً لم يسبقني إليه الأوّلون، ولا يأخذه عنّي إلّا الآخرون ثمّ رجّع وعمل العروض ⁷⁴³، وتأتى له هذا الأمر بفضل معرفته العميقة لمسائل الإيقاع والعلم بها، وحسّه المُرهِف الذّواق لذبذبات الصّوت العربيّ، فقد ذكّر أنّ له كتاب اسمه (النّغم) وهذا الصّنيع وصفه الجاحظ قائلاً : " وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان

⁷⁴² : سورة: ص، الآية: 35.

⁷⁴³ :الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض، ص: 112.

القصيد وقصار الأرجاز ألقاباً، لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد، والوافر والكامل وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف⁷⁴⁴، وأورد في حقه ابن خلكان قائلاً: "إن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم، التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض".⁷⁴⁵، وتابعه القفطي جمال الدين في عبارات التركيبية العلمية قائلاً: "نحوي لغوي، عروضي استنبط من العروض وعلمه ما لم يستخرجه أحد، ولم يسبقه إلى علمه سابق من العلماء كلهم"⁷⁴⁶، فمثل هذه الشهادات تؤكد أصالة هذا العلم الذي أبدعته عقلية عالم، وصفت بعبقرية زمانها، رغم وجود بعض الأصوات المنكرة لهذا الصنيع، وهذا طبيعي في النفس البشرية، المكتشفة لكل شيء جديد لم يعهده نسقها المعرفي.

هذا النموذج الخليلي الذي لم يستطع أن يغيّره الباحثون، منذ أن وضعه صاحبه، مبني بدون شك على نظرية لا تبوح بأسرار قواعدها، سواء كانت هذه القواعد لا شعورية أو شعورية غير مصرح بها، والذي يحملنا على تقديم هذه الفرضية، هو أن كل شيء في النموذج النهائي الذي عرضه الخليل، مرتب ترتيباً دقيقاً: الأسباب، الأوتاد، التفاعيل، البحو، الزحافات والعلل...، حتى الألفاظ التي اختيرت للدلالة على العناصر، خاضعة لنوايا معينة تتعدى ببساطة التعبير، عما تُوحى به وظيفة الشيء الذي يرمز إليه⁷⁴⁷، وتتحقق لنا النظرة الشمولية في هذا المقام، إذا ما أردنا أن نصف هذا المنجز العروضي، حيث "تبدو براعة الفكر الإنساني، في نتاج ممن أخذوا على عاتقهم أن تكون رؤيتهم، رؤية تسير تجاه الشمول وتنزع إلى الوعي، بكل أطراف موضوعاتهم نظرياتهم، والخليل بن أحمد الذي يحقّ للحضارة

⁷⁴⁴ : البيان والتبيين، ص: 92.

⁷⁴⁵ : وفيات الأعيان، 245/2.

⁷⁴⁶ : إنباه الرواة على أنباه النحاة، 377/1.

⁷⁴⁷ : مصطفى حركات، نظرية الإيقاع الشعر العربي بين اللغة والموسيقى، (د.ط)، دار الآفاق، الجزائر، (د.ت)، ص:

العربية أن تجعله مفخرة لها، ومصادقا على نضوجها ووعيها، رائدٌ من رُوادِ الفكر الإنسانيّ الذي وعى في نتاجه طاقة الشّمول، ومصادق ذلك أنّ رؤيته لنظام الإيقاع الشعريّ تجمع بين جانبِ المثال وجانبِ الواقع، أي تجمع بين الواقع والاستعمال، في صورة تُنبئ عن نفاذ بصيرة تؤكد الإحساس بما هو موجود، والتطلّع إلى ما يُمكن وجوده، وفي سبيلِ هذا الجمع لم يكُنْ نظامُ الخليل في رصدِ إيقاعِ الشّعر، وتفسيره مُعتمدا على منظور واحد فحسب، بل بان حدّ العروض عنده منوطا بفهم يأخذ من الرياضة تجريدها، ومن اللّغة واقعها ومن الموسيقى فنّها"⁷⁴⁸، وإنّ الارتباط بين الموسيقى والشّعر، هو ارتباط يسعى لتفسير أشكال العالم الخارجي، وما يدور في النّفس البشرية وما يختلج في خلدها، من مشاعر وأحاسيس، يجعل من اللّغة في مُستواها الصّوتي، مادّة مركزية للتعبير عن انطباعات إنسانية معيّنة، من حزن وفرح، مُستعملا إيّاها كلغة تخاطب وفق نسق خاص، وبنية ذات قالب مخصوص "لغة مسبوكة وفق نظام مؤزّون"، تكشف هي الأخرى من خلال مُفردات ذات قاموس شعريّ عن معانٍ جمالية، تسعى إلى تفسير أكبر عدد ممكن من المُدركات الحسيّة وضروريّات الحياة اليومية، التي تُواجه الإنسان.

وإنّ استقرارنا لمنهج الخليل المعرفي في هذا المُستوى، أحالنا على خُطاطة منهجيّة استعان بها هذا العبقرى، ليضع مجموعة مفاهيم بكلّ إجراءاته، تماشيا مع نظامه الرياضي الذي يركّز على أسس عقلية، في مُعالجة اللّغة انطلاقا من مُستواها الصّوتي، حيث اعتمد على رُكن الاستقرار في أوّل العمليّة، من خلال جمعه لمدوّنة مُعتبرة من الشّعر العربي مكّنه من معرفة المُستعمل منها، الذي بقي جاريا على اللّسان العربي، وقد لعب هذا الكَم من الشّعر عند الخليل ركيزة منهجية، ساعدته في حصر جميع الإيقاعات، وهو ما أهله لوضع مجموعة من الدوائر العروضية، تنحصر فيها عدد من التفعيلات، كلّ مجموعة تمثّل جزءا معيّنا، وبعد ذلك لجأ إلى محطة مُهمّة ذات بُعد منهجي، تمثّلت في تحليل المدوّنة وتفكيك

⁷⁴⁸ : أحمد كشك، محاولات للتجديد في إيقاع الشّعر، (ط. 1)، مطبعة المدينة، القاهرة، 1985، ص: 07.

أجزائها وبنياتها العامة ، من خلال معرفة المقاطع ومكونات التفعيلات ورصد الأوتاد والأسباب، وتصنيف ما يعترضها من زحافات وعلل، عبر خلفيات هندسية رياضية يُمثله قانون التباديل والتوافيق ، وبلغة خاصة " لُغَةُ السَّاكنِ وَالْمُتَحَرِّكِ -/0 " ، وهو الأمر الذي شكّل له دفعة قويّة، في تحقيق رؤيته على أكمل صورة، ممّا جعله في آخر المطاف يضع مجموعة من القوانين والأدوات، التي تُساهم في الكشف عن منهجه العام من خلال تصنيفه لأقسام البيت الشعري، من حيث موقعه وأسمائه ومن حيث تمامه ونقصانه، إضافةً إلى ألقاب لدوائر العروض والقافية، وحركاتها وما يتخلل التفعيلات من زحافات وعلل، كلّ هذا يدخل ضمن منهجه الشمولي الذي يعدّ بؤرة منهجه اللغوي العام، الذي بنى عليه نموذج اللغوي العام.

نتبيّن وفق ما سبق أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي، كان على دراية بتلك العلاقة التي تجمع بين اللغة والموسيقى، بوصف هذا المكوّن الأخير جزءاً مهماً يُساعد الخليل في فهم مسألة الوزن الشعري، ذلك أنّ إيقاع الشعر العربي من حيث التركيب والتأليف، تتكوّن إيقاعاته من " مجموعاتٍ حركيّة، يطلق عليها التّركيبات الإيقاعيّة ، وتختلف هذه التّركيبات في عدد عناصرها ونظامها ، وكميّاتها بما تختلف به كميّاتها، وما من إيقاعٍ إلّا ويُشكّل وحدةً نوعيّة، إن قبلت التجزئة في شكلها فإنّها لا تقبلها في جوهرها " ⁷⁴⁹، وهذا الإقرار العلمي يؤكد هذه الصّلة القويّة، التي تُقرّر لنا لغة غنائية ذلك أنّ " لكلّ تجربة إنسانية لحناً، وإيقاعاً يُناسبها وهذا سرّ تعدّد أوزان الشعر، فأوزانٌ تتسم إيقاعاتها بالتنوّع والطول، وأخرى تتميّز بالهدوء والرتابة، وثالثة بالخفّة والتوثّب وأخرى قصيرة الإيقاع " ⁷⁵⁰، وبناءً على هذا فإنّ المستوى الموسيقي، هو سرّ جمالية اللغة التي يتّخذها الشعر أداة للتعبير، عبر نغمٍ متوازن

⁷⁴⁹ : العروض والإيقاع في النظريات الحديثة للشعر العربي، ص: 277.

⁷⁵⁰ : محمد علي سلطاني، العروض وإيقاع الشعر العربي، (ط. 2)، دار العصماء للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق،

تحدث من خلالها إيقاعات مُعَيَّنة، تختصّ بالشعر دون الكلام العادي من حيث الوقع والتأثير.

ثانيا: البُعد التداولي في الرؤى اللغوية عند الخليل.

إنّ المتأمل في المدونة الخليلية سيُدرِك الجهازَ المفاهيمي، الذي اشتغلَ عليه الخليل مُحاولَة منه في تفسير الأنظمة اللغوية، وقوانينها العلاماتية ضمن قالب تواصلِي، وما تُحيل إليه من من تحولات دلالية، وفق تنظيم لساني مُحكم، ولا يتسنى لنا معرفة هذا المظهر المعرفي إلّا من خلال الوقوف على تقريباته التداولية، بحيث " لا سبيلَ إلى معرفة الممارسة التراثية، بغير الوقوف على التقريب التداولي الذي يتميَّز عن غيره من طرق مُعالجة المنقول، باستناده إلى شرائط مخصوصة، يفضي عدم استيفائها إلى الإضرار، بوظائف المجال التداولي، فضلاً عن استناده إلى آليات صورية مُحدّدة"⁷⁵¹، وسنتوضّح هذه الممارسة بشكل منهجي في مُحاولات الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وهو يفسّر الاستعمالات اللغوية وأنماطها المُختلفة، ضمن مُقاربة وظيفية نختارها لأجل الوقوف على نتائج منهجية مُحدّدة، تدخل بصفة عامّة ضمن النموذج المُقارباتي، الذي نشتغل عليه في بحثنا هذا ألا وهو (النموذج اللغوي في لسانيات التراث) .

1- السّياق وعناصر الموقف التواصلِي في المدونة الخليلية:

يُعدّ السّياق من المفاهيم الرّكائز في البحث التداولي، بوصفه بؤرة التفاعل مع جميع المُكوّنات التداولية، التي تتحد كلّها في تفسير الاستعمالات اللغوية، ضمن مقامات تواصلية مُعَيَّنة، وعادةً ما يتمثل السّياق بأنّه تجريدٌ للموقف التواصلِي، وهو على نوعين " الأول منهما يعني جزءاً من نصّ، يحيط بكلمة أو قطعة مُعَيَّنة ويحدّد معناها، وهو ما يُعرف بالسّياق اللغوي للنصّ، والثّاني منهما يعني الطّروف المُختلفة، التي يقع فيها حدث معيّن وتحدّد

⁷⁵¹ : تجديد المنهج في تقويم التراث، ص: 243.

معناه، سواء أكانت هذه الظروف مُستقرّة أم متغيّرة، فالسّياق عندهم نوعان؛ نوع داخلي له علاقة بما يسبق النص أو يلحقه وهو السّياق اللّغوي (verbal context)⁷⁵²، ونوع خارجي يشمل سّياق الموقف⁷⁵³ (context of situation)⁷⁵⁴، إضافة إلى نوع آخر وهو سّياق الثّقافة (context of culture)، ويُتّصّد به تحديد المُحيط الثّقافي الذي نشأ فيه النص⁷⁵⁵ ونظرة الخليل بن أحمد الفراهيدي للسّياق، تتحدّد من رؤيته الاجتماعيّة للغة، وهو ما تؤكّده النظريّة السّياقية في الأدبيات اللّسانية الحديثة، ذلك أنّ اللّغة عندهم هي حصيلة العلاقة القائمة بين الفرد والمُجتمع، ودراستها تتمّ وفق الظروف الاجتماعيّة المحيطة بها، من خلال معرفة العادات والأعراف وعناصر الثّقافة، التي تجمع ذلك المُجتمع، لبيان مقاصد الملفوظ المُنتج وما يحيل إليه من معانٍ⁷⁵⁶، وهذا المُنتقل اللّغوي الموسوم بالنّزعة الاجتماعيّة، سلكه الخليل بن أحمد الفراهيدي، لتحديد المعاني المُتعدّدة التي يقصدها المُتكلّم، وقد ينحصر المعنى في بيئة لغويّة لوحدها، من ذلك قول الخليل: "وأهل البصرة في أسواقهم يُسمّون السّاقى، الذي يطوف عليهم بالماء بيّاباً"⁷⁵⁷، ففي هذا النّص نبيّن قيمة الكلمة ضمن سّياق استعمالها، وتقطّن الخليل لهذه المسألة ضمن مجال لغويّ عام، يُعرف عنده بلُغات العرب، لأنّ المعنى لا ينكشف إلّا من خلال تسييق الوحدة اللّغوية، وهذا الاستعمال للوحدة اللّغوية المُشار إليها، في النّص (بيّابا) قد يأخذ معنى آخر ضمن استعمال تداوليّ، في بيئة لغويّة مُغايرة.

⁷⁵² : السّياق اللّغوي (verbal context) : " البيئة اللّغوية للنّص من مُفردات وجُمْل وخطاب ". عرفات فيصل المنّاع،

السّياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي، (ط.1)، مؤسسة السيّاب للطباعة والنّشر، لندن، 2013، ص: 13.

⁷⁵³ : سّياق الموقف (context of situation) : " البيئة غير اللّغوية التي تُحيط بالخطاب وتبيّن معناه، وتشمل هذه

البيئة زمن المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحدّثين، والقيم المشتركة بينهما والكلام السّابق للمحادثة ". المرجع نفسه، ص: 25.

⁷⁵⁴ : المرجع نفسه، ص: 11.

⁷⁵⁵ : أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، (ط.5)، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص: 71.

⁷⁵⁶ see: john Rupert Firth, paper in linguistics, oxrord university London, 2000, p:184

⁷⁵⁷ : العين، مادة : (بيب).

وتتجلى وظيفة السياق ودوره التداولي عند الخليل، تحديداً في تفسيراته النحوية لأنماط العبارات، ووقوع القرائن الحالية والمقامية ، التي يتحدّد بها المعنى ضمن تركيب مُعيّن، ومن ذلك إجابته على تساؤلات مُريده سيبويه، في مسألة ما ينتصب في إضمار الفعل المتروك من خلال نصّ الآية (أَنْتَهُوَ خَيْرًا لَكُمْ)⁷⁵⁸، قال الخليل مُجيباً: "كَأَنَّكَ تَحْمِلُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى، كَأَنَّكَ قُلْتَ: أَنْتَ وَادْخُلْ فِيهَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فَنَصَبْتَهُ، لِأَنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ إِذَا قُلْتَ لَهُ: أَنْتَ، أَنَّكَ تَحْمِلُهُ عَلَى أَمْرٍ آخَرَ، فَلِذَلِكَ انْتَصَبَ وَحَذَفُوا الْفِعْلَ لِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهُ، فِي الْكَلَامِ، وَلَعَلَّ الْمُخَاطَبَ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى أَمْرٍ حِينَ قَالَ: أَنْتَ، فَصَارَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: أَنْتَ خَيْرًا (لَكَ) وَادْخُلْ فِيهَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ"⁷⁵⁹، تُعدّ إجابة الخليل بن أحمد الفراهيدي، في تحليل ظاهرة إضمار الفعل أو ترك إضماره، نموذجاً دالاً على تفسير الاستعمالات اللغوية، ضمن قالب تداولي يركّز على مؤشر السياق، ويتّضح لنا من خلال النصّ السابق في نصب الوحدة اللغوية (خيراً)، بتأثر من وحدة العمل؛ ألا وهو الفعل المُضمر (انتَه)، الذي دلّ عليه ما قبله ، وهذه الدلائل تلعب في الوقت نفسه، دور القرائن في هذه العملية، وهي ما يُمثلها سياق الموقف، من خلال معرفة المُخاطَب مقصد المُخاطَب أو (المتكلّم).

2-معالجة الخليل للحدث الكلامي وتداوليّة المتكلّم:

لقد اهتمّ الخليل بدور المتكلّم كونه يلعب مكانة بارزة، وسُمّي المتكلّم بذلك إشارة للفعل الذي يُؤدّيه، بوصفه الفاعل الرئيس والعارف الحقيقي بمقاصد كلامه، و" لا فصل بين المتكلّم والسماع؛ إذ المتكلّم ذاته عُدّ لأنه فاعل الكلام، ولأنّه يتكلّم إلى سامعٍ أيضاً، وبالتالي فإنّ حضوره يستدعي وجود السامع والعكس وارد"⁷⁶⁰، وشرط القصد واجب بينهما كي يُعتدّ

⁷⁵⁸ : سورة النساء، الآية: 171.

⁷⁵⁹ : الكتاب، 1/ 246.

⁷⁶⁰ : في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص: 178.

بالكلام، لأنّ الكلام كما عرّفه النّحاة هو " القول المفيد بالقصد"⁷⁶¹، ومعنى هذا أنّ عنصر الإفادة هي " الثمرة التي يجنيها المخاطب من الخطاب "⁷⁶²، ويتّضح لنا بجلاء اشتغال الخليل في هذا الجانب من خلال الاستفسارات العلميّة، والتساؤلات التوضيحيّة التي يطرحها عليه في كلّ مرّة تلميذه الوفي سيبويه، ومن ضمن أسئلته عن قوله تعالى (لَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ)⁷⁶³ ، فكان ردّ شيخه قائلاً: " إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الجواب في كلامهم، لعلم المُخبر لأيّ شيء وضع هذا الكلام "⁷⁶⁴، يمثّل ردّ الخليل وإجابته على سؤال تلميذه اهتمامه بفكرة المقام، بوصفه يُمثّل دوراً مركزيّاً في تفسر الظواهر اللّغوية التركيبيّة، حيث " إنّ استعمال صيغة لغويّة يُحدّد مجموعة من المعاني، وبإمكان المقام أن يُساعد على تحديد عدد من المعاني "⁷⁶⁵، إضافة إلى ذلك تُشير إجابة الخليل إلى اعتنائه بالعلاقة الموجودة بين المتكلم والمخاطب، ضمن حدث كلاميّ معيّن موضحاً تقنية أو أسلوب " الإيجاز " ، وما يحيل إليه من اختصار من غير أيّ تطويل لا مُوجب له، لأنّ المخاطب ضمن هذا المقام التّواصلي ، يعي تماماً أجزاء الكلام ومقصدياته دون أيّ تقديرات، أو تأويلات لا نفع فيها.

3- التفسير الخليلي لدور الإشارات التداولية في تحديد البعد التّخاطبي:

تُعَدّ (الإشاريّات - deixis) من موضوعات الدّرس التّداولي، التي تتّسم بطابع إجرائي في تحليلها لمكوّنات العمليّة التّخاطبية، ضمن مقام تواصلي مُحدّد بسياق معيّن، إضافة إلى مرجعيّات تحيل إليه، ليتّمّ بعد ذلك تحديد أدوارها والتي تُعَدّ "من العلامات

⁷⁶¹ : ابن هشام جمال الدّين بن يوسف الأنصاريّ، مغني اللّبيب عن كُتب الأعراب، تح: محمد محي الدّين عبد الحميد، (د.ط)، المكتبة العصرية، لبنان، 1991، 431/2.

⁷⁶² : التداولية عند علماء العرب، ص: 185.

⁷⁶³ : سورة الأنعام، الآية: 27.

⁷⁶⁴ : الكتاب، 1/ 403.

⁷⁶⁵ : جون بول براون، جورج يول، تحليل الخطاب، تر: مصطفى الزليطني، ومنير التريكي، (د.ط)، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1997، ص: 32.

اللَّغوية، الَّتِي لَا يَتَحَدَّدُ مَرَجِعُهَا إِلَّا فِي سِيَاقِ الْخَطَابِ التَّدَاوُلِيِّ، لِأَنَّهَا خَالِيَةٌ مِنْ أَيِّ مَعْنَى فِي ذَاتِهَا، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ارْتِبَاطِهَا بِمَرَجِعٍ إِلَّا أَنَّهُ مَرَجِعٌ غَيْرُ ثَابِتٍ ⁷⁶⁶، وَيَتَحَدَّدُ مَفْهُومُهَا اللَّسَانِي مِنْ خِلَالِ هَذَا الْبَعْدِ الْوُظُفِيِّ، بِأَنَّهَا "كُلُّ الْعُنَاوَرِ اللَّغَوِيَّةِ الَّتِي تُحِيلُ مُبَاشَرَةً عَلَى الْمَقَامِ، مِنْ حَيْثُ وَجُودِ الذَّاتِ الْمُتَكَلِّمَةِ أَوْ الزَّمَنِ أَوْ الْمَكَانِ، حَيْثُ يُنْجَزُ الْمَلْفُوظُ وَالَّذِي يَرْتَبِطُ بِهِ مَعْنَاهُ، مِنْ ذَلِكَ: أَنَا، أَنْتَ، الْآنَ، وَهَذَا، وَهَنَّا، وَهَنَّاكَ، وَهَذَا، وَهَؤُلَاءِ، وَهَذِهِ الْعُنَاوَرُ كُلُّهَا تَلْتَقِي فِي مَفْهُومِ التَّعْيِينِ، أَوْ تَوْجِيهِ الْإِنْتِبَاهِ إِلَى مَوْضُوعِهَا بِالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ ⁷⁶⁷، وَوَفْقَ هَذَا الْمَفْهُومِ نَتَبَيَّنُ أَنَّ الْإِشَارَاتِ تُسَاهِمُ فِي تَحْوِيلِ اللَّغَةِ، إِلَى خَطَابٍ مِنْ خِلَالِ تَوْفِيرِهَا لِأَدْوَاتِ تَحْوِيلٍ مَعْيَنَةٍ، وَعُنَاوَرِ أُسَاسِيَّةٍ مُشْرُوطَةٍ (الْمُتَكَلِّمُ - الْمُتَلَقِّي - زَمَانٌ وَمَكَانُ الْخَطَابِ)، تُسْتَعْمَلُ بِحَسَبِ نَمَطِ الْخَطَابِ، بِوَصْفِهَا أَيْضًا مَرَجِعِيَّاتٍ تَلْفُظِيَّةٍ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ الْمُؤَشِّرِ (أَنَا) " لَهُ دَلَالَةٌ عَامَّةٌ وَحِيدَةٌ وَثَابِتَةٌ، تَدَلُّ عَلَى مُوجِّهِ الرِّسَالَةِ، وَعَلَى مُتَلَقِّيِّهَا (أَنْتَ)، لَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَجِعِيَّاتِ لَا تَسْتَطِيعُ اسْتِقْبَالَ مَعْنَى مُحَدَّدٍ، إِلَّا إِذَا كَانَتْ عِلَاقَةً وَجُودِيَّةً مَعَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي تُمَثِّلُهُ ⁷⁶⁸، وَهِيَ بِهَذَا الشَّكْلِ تَمَثِّلُ مَسَافَةً فَاصِلَةً، بَيْنَ مَكُونَاتِ الْخَطَابِ؛ أَيِّ بَيْنِ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُتَلَقِّيِّ وَمَوْقِعِ الْإِشَارَةِ، وَتَأْمُنُنَا فِي أَمَالِي الْخَلِيلِ لِتَلْمِيزِهِ سَيَبُويَه، إِضَافَةً إِلَى نَصُوصِهِ الْمَعْجَمِيَّةِ، دَلَّنَا ذَلِكَ عَلَى اعْتِنَاءِ الْخَلِيلِ إِشَارَةً بِهَذَا الْمَكُونِ التَّدَاوُلِيِّ، الَّذِي اصْطَلَحَ عَنْدهُمْ عَادَةً بِ (الْمُبْهَمَاتِ)، وَتَجَسَّدَ اشْتِغَالُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ بِوَصْفِهِ يُمَثِّلُ شَكْلًا إِحَالِيًّا، يُسَهِّمُ فِي تَحْدِيدِ الْمَعْنَى ضَمْنَ بَنِيَّةٍ خَطَابِيَّةٍ، تَتَمَظَّهَرُ فِيهَا كَعِلَاقَاتٍ وَظُفِيَّةٍ بَيْنَ الْوَحَدَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَسِيَاقِ مَعْيَنٍ.

قَالَ سَيَبُويَه: " وَزَعَمَ الْخَلِيلُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ سَمِعَ بَعْضَ الْعَرَبِ يَقُولُ: يَا أَنْتَ، فَزَعَمَ أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ مَوْضِعَ الْمُفْرَدِ، وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: (يَا) فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ يَا زَيْدَ، ثُمَّ يَقُولُ: إِيَّاكَ، أَيَّ إِيَّاكَ

⁷⁶⁶ : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004، ص: 80.

⁷⁶⁷ : الأزهر الزناد، نسيج النص بحث ما يكون به الملفوظ نصًا، (ط.1)، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص: 116.

⁷⁶⁸ : استراتيجيات الخطاب، ص: 81.

أعني. هذا قول الخليل رحمه الله في الوجّهين⁷⁶⁹، تتحدّد الطبقة الإشارية وفق المفهوم الخليلي من خلال الوحدة اللغوية المركّبة (يا أنت)، وتمثّل الإجابة التي أوردّها الخليل إشارة واضحة إلى الجوانب الإشارية، في الخطاب بوصف النداء وهو " إشارة إلى المخاطب لتبنيه أو توجيهه أو استدعائه⁷⁷⁰، حيث يُعدّ في هذا الموقف الخطابي أداة إشارية شخصية تتحقّق وظيفتها التداولية، في ارتباطها بالضمير (أنت) الذي يساهم عبر سياق التّلفظ، في تحويل اللّغة إلى خطاب، و إجابة الخليل في قوله (ثمّ تقول: إياك، أي إياك أعني)، تمثّل مرجعا تشير إليه العناصر الإشاريّة المضمّرة (أي؛ إياك أعني أنت) عبر مكوّن النداء الذي يجسّد الوظيفة التّبليغية إزاء ممارسة التّلفظ التي يؤدّيها المرسل في دورة التّخاطب.

قال سيبويه: " وسألته (أي؛ الخليل) عن قولهِ في الأزمِنَة: كانَ ذاكَ زَمَنَ زَيْدٍ أَمِيرٌ؟ فقال: لَمّا كانت في معنى إذُ أضافوها إلى ما قد عمل بعضه في بعض، كما يُدخلون إذ على ما قد عمل بعضه في بعض ولا يُغيّرونه فشَبّهوا هذا بذلك.⁷⁷¹

جُملة هذا الباب الذي استفسر حوله سيبويه شيخه الخليل؛ أنّ الزّمان إذا كانَ ماضيا أضيف إلى الفعل وإلى الابتداء والخبر لأنّه في معنى إذ، فأضيفَ إلى ما يُضاف إليه إذ، ومعلوم عند جمهور النّحاة أنّ إذ تُستعمل ظرفية للزمان (الماضي والمستقبل)، وتتموضع إجابة الخليل في هذا المقام ضمن نوع آخر من الإشارات هو (الإشارات الزّمانية) بوصفها عناصر لغوية تُحيل إلى لحظة التّلفظ بالخطاب، حيث إنّ تفسيره العامليّ للوظيفة إذ في هذا الموضع، جمع بين زَمَين، زمن نحويّ وآخر كونيّ يُشير إليه المحذوف في

⁷⁶⁹ : الكتاب، 1/ 252.

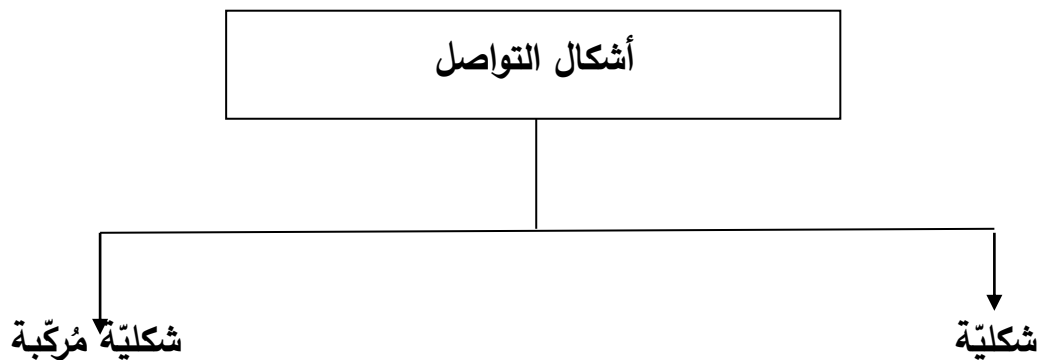
⁷⁷⁰ : محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، (ط.1)، دار المعرفة الجديدة، مصر، 2002، ص:

⁷⁷¹ : الكتاب، 3/ 89.

جملة الاستفهام تقديره: (يومَ إذ زيدٌ أمير)، وهذا النوع من الإشارات الزمانية يُطلق عليه في اللسانيات الحديثة بالزمن المُدمج حيث يتم تناوله عبر إحيالات معينة وفق ما يُسمى بـ(أفعال المواقف - attitudes)⁷⁷²، ولهذا تُعدّ إجابة الخليل نموذجاً يتمثل في بعد تداولي يُولي أهمية للمرجع الرئيس في هذه المتوالية ألا وهو " لحظة التلفظ " لفكّ الالتباس الزمني حتى لا يقع المُتلقّي في تأويل لمكونات التلفظ اللغوية، وسؤال سيبيويه يشير إلى نوع من المعرفة المشتركة وهو تقنية من استراتيجيات الخطاب.

ثالثاً : أنساقُ التّواصل في النموذج اللّغوي عند الخليل.

لا شكّ أنّ الوظيفة الرئيسة للغة هي " التّواصل " ، وإدراك هذه الوظيفة معلوم لدى كلّ ناطق ومخاطب، والمقصود بنسق التّواصل تلك الآليات والأدوات المُسخّرة، لتحقيق هذا الغرض وفق نمط معيّن، وإنّ تأملنا في النموذج اللّغوي الخليلي، جعلنا ندرك أنساقاً مُتباينة النمط استعان بها الخليل، لتفسير مظاهر اللّغة، وأنظمة الخطاب بوصفها أدوات تُفسّر أشكال التّواصل بشكل عام، يُمكننا تقسيمها إلى أشكال شكليّة وأخرى شكليّة مُركّبة.



⁷⁷² : امحمد الملاح، الزمن في اللغة العربية؛ بنياته التركيبية والدلالية، (ط.1)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009، ص:403.

1-شكليّة: مجموع الأشكال التّواصلية ذات التّوافق الاصطلاحي، بين ناطقيها مثل الأفعال الصّريحة، ودلالة الأحرف، وأساليب الاستعمال اليومي، مثل الأمر والنّهي والاستفهام.

حيث وردَ بكثرة هذا النوع من الأنساق في النموذج اللّغوي عند الخليل، وهو ما دلّ عليه أكثر من نصّ سواء في مُعجم العين، أو من خلال إجابات الخليل الواردة في كتاب مُريده، تفسيراً لبعض الظواهر اللّغوية المنتظمة ضمن أبواب معيّنة، وتمثّل هذه الأشكال في مُجملها، النّظام اللّساني العام الذي تسير وفقه دوال العربيّة من حيث الاستعمال، ومثال ذلك استفسار سيبويه له ، عن الإضافة إلى حيّة فكان ردّه قائلاً: " حَيَوِيّ، كراهية أن تجتمع الياءات ، والدليل على ذلك قولُ العربِ في حيّة بنِ بهدلة: حَيَوِيّ، وحُرّكت الياء لأنّه لا تكون الواو ثابت وقبلها ياءٌ ساكنة "773

هذا المثال يُعدّ شكلاً تواصلياً يوضّح أهميّة معرفة ما انتحتّه العرب، في صيغ ألفاظها مثل مسألة الإضافة إلى ما كان وزنه " فَعِيل وفُعِيل "، وإجابة الخليل اهتمت بشكل أساسي بهذا النوع من أشكال التّواصل، على سبيل توحيد الاستعمال (وفق ما نطقت به العرب) لتجنّب الكراهية، الناتجة عن الخلط الحاصل في بنية اللفظ مثلاً، كي لا يتوهّم السّامع قصد المُتكلّم، وحينها قد لا يتحقّق غرض الاتصال، والأمثلة في هذا السّياق كثيرة حاول فيها الخليل، تفسير الأنظمة اللّغوية وما تُتيحها أبنيتها النموذجية، ومواضعاتها الاجتماعيّة من إنتاج أنماط لسانية، في إطار تواصلٍ بشكل عام.

2- شكليّة مُركّبة: أشكال ذات فحوى دلالي معيّن، يسعى من خلالها المتكلّم إلى تمرير قصد معيّن، يلائم قصده التداولي.

لم يتردّد هذا الشّكل بصورة كبيرة، مثل الشّكل السّابق في النموذج الخليلي، ويمكن لنا تحديد الاشتغال فيه، ما قام به الخليل من تفسير لبعض الاستعمالات اللّغوية، وما تحمله من دلالة يختلف معناها، باختلاف المنوال النّظامي للوحدات الدّالة، داخل سياقات استعمالية تُوجّهها وحدات لسانية أخرى، راجعة هي الأخرى إلى اختلافات سوسيوثقافية في العشيرة اللّغوية الواحدة، مثل حديثه عن تركيب العناصر اللّغوية، لبناء نسق دلالي توطّره الجُملة وإعطاء توصيف له، يتقيّد بمجال الاستعمال مثل معيار " الغلط " في وصفه لبعض لغات العرب، مثال ذلك ما نقله سيبويه عنده كلامه على الخفض على الجوار في مثل (هذا جُحر ضبّ خرب) أنّه قال - أي الخليل - : " لا يقولون إلّا هذان جُحرا ضبّ خربان، من قبل أنّ الضبّ واحدٌ والجحر جحران، وإنّما يغلطون إذا كان الآخر بعدّة الأول، وكان مذكّراً مثله أو مؤنثاً"⁷⁷⁴، وما نستنتجه من كلام الخليل أنّه إذا اختلف المُضاف والمُضاف إليه، من حيث العدّة أو التذكير والتأنيث، فإنّ العرب يجرون الصّفة على صاحبها وهو المُضاف، لأنّ الخلاف بين المُضاف والمُضاف إليه لافت للنظر، أمّا إذا كانت العدّة واحدة واستويا في التذكير والتأنيث، فإنّ التّشابه الشّديد بينهما يوقع في الغفلة والنسيان، فيسبق إلى الوهم أنّ الصّفة للأقرب وهو المُضاف إليه، وعلى هذا تتوجّه كلمة الغلط هنا⁷⁷⁵، ومن نماذج اشتغال هذا النوع من الشّكل التّوصلي عنده الخليل، نجد على سبيل المثال تحليلاته التركيبية، لبعض العناصر الصّوتية مثل ظاهرة النّبر والتّنعيم، التي تُعدّ شكلاً مُركّباً حيث ينوب عنصرها الإيقاعي عن بعض السّمات الشّكلية البسيطة، إضافة إلى تفسيره لأنظمة التركيب النّصي ووحدات السلسلة الكلامية، اعتماداً على صفات الأصوات وذلك لبيان أسس ترتيب النّسق اللّغوي، وهذا النوع من الاشتغال مكّن الخليل من إجراء تحليل دلالي، لمكوّنات الملفوظ ضمن سياقاته المُختلفة، أدّى به إلى وضع احتمالات معنوية للفظ الواحد، وفق ما يُجريه المتكلم بالاعتماد على قرائن معيّنة، لتمرير قصد مخصوص، حيث عمل الخليل إلى توثيق

⁷⁷⁴ : الكتاب، 211/03.

⁷⁷⁵ : الخليل بن أحمد الفراهيدي صانع النحو وواضع العروض، ص: 52.

هذا الشّكل التّواصلي بتحليلات تداولية، راعى فيها العنصر المضمّر في هذا النّسق الشّكلي المركّب، مُدعّمًا أحيانًا ما ذهب إليه بشواهد يُحتج بها على لسان العرب الفصيح، شعرا كان أو نثرا، لتأكيد تداولية هذا الشّكل اللّغوي التواصلي، وهذا في رأينا يُعدّ كشفًا حضاريًا.

ثالثًا:

إجراء مقارنة لسانية مقترحة لتطوير النموذج اللغوي عند الخليل

1- نحو مقارنة تُوليفية.

يُعدّ النحو التوليقي من الأنحاء اللسانية المعاصرة، التي شهدت تطوّراً في رؤيتها لأنظمة الاستعمال اللغوي، حيث قامَ صاحب هذا المشروع -الدكتور محمد الأوراعي -، من خلال مشروعه (اللسانيات النسبية)⁷⁷⁶، إعادة النظر في كثير من المُسلّمات، والمعطيات المعرفية، جعلته يقيم قراءة لسانية مبنية على نظر علمي، في المُدوّمة اللغوية (النحوية

⁷⁷⁶ : محمد الأوراعي، الوسائط اللغوية؛ أفول اللسانيات الكلية، (ط.2)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013، ص:25.

خصوصاً)، حيث قامَ باقتراح نموذج لساني أطلقَ عليه (النّحو التوليفي)، وهذا الأخير يُعدّ وليد نظريّة اللّسانيات النسبيّة، اجتهدَ فيه صاحبه في وضع نموذج نحويّ جديد، يقومُ على وصف اللّغة العربيّة وصفا علميّا، ليستلزم فضلاً عن الاستجابة لنظريّة لسانية، وحبك لبنيته الداخليّة، حيث أخضع نحو اللّغة العربيّة التوليفي، لسلسلة من الاختبارات التّطبيقية التي تكشف قدراته العلميّة، المحصورة أولاً في مجال وصف اللّغة العربيّة، وثانياً في استخدام وصف العربيّة الجديد، في مختلف الحقول المعرفيّة المُجاورة⁷⁷⁷، وقد تسنّى له ذلك من خلال وسائل اختبار تُثبت قدرة النّحو العمليّة، على الوصف العلمي للّغة العربيّة، واستثمار مفاهيمه الإجرائيّة في وصف ظواهرها.

يقوم نموذج نحو التّوليفي على عددٍ من الفصوص، اقترحها الأوراعي لوصف العربيّة وتفسير أنظمتها اللّسانية، ومختلف ظواهرها، وسنذكرها اختصاراً وتبياناً لوظيفتها وكيفية اشتغالها⁷⁷⁸:

1-الفص النّصفي: تتحصّر مهمّته في إمداد المُعجم بمقولات المداخل المعجميّة الأصول وبالصّيغ المعجميّة الأصول أيضاً، ويتألّف من مكوّنين: الأوّل نطقي يضمّ عدداً غير محصور من الصّوامت والصّوائت، والثّاني مكوّن نصّتي يضمّ قواعد التّأليف، ويسعى هذا الفص أيضاً في إمداد الفص التّحويلي، بالصّيغ الصّرفيّة التي بواسطتها يتمّ تحويل المداخل المعجميّة الأصول إلى مداخل فروع.

2-الفص المُعجمي: يستلم من الفص السابق الجذور والصّيغ الأصول، لإفراغها في الصّيغة القالب، ويكونُ الناتج قولاً منطوقة مسموعة، وهي جاهزة للاقتران بالكلمة المفهومة لتكوين مدخل معجمي.

⁷⁷⁷ : محمد الأوراعي، مُحاضرات في تطبيقات النّحو التّوليفي، (ط.1)، منشورات ضفاف، بيروت، 2018، ص:33.

⁷⁷⁸ : المرجع نفسه، ص: 16، 24.

3- موقع الفصّ التحويلي ووظيفته: موقعه الفصّ المعجمي ويتألف من مكونين اثنين:

مكوّن اشتقاقيّ؛ محتواه قواعد اشتقاقية ذات طبيعة دلالية لتوليد بعض الكلمات المفهومة، ومكوّن صرفي؛ محتواه قواعد بنائية ذات طبيعة صورية لنقل قولة المدخل من صيغة وزنية إلى أخرى منها.

4- الفصّ التركيبي: يقوم هذا الفصّ بشكل عام على تفسير الجملة من حيث بنيتها

المكوّنة والإعرابية والموقعية وعلاقاتها الدلالية والتداولية⁷⁷⁹.

هذا تعريف بسيط لمكوّنات نموذج النّحو التّوليّفي، ولم نشأ الاستطراد والتعليق لأنّ المجال فيها واسع ، يقتضي منّا منهجيّا عرض مشروع اللّسانيات النسبية كمبرر منهجي للانتقال لجهاز هذا النموذج، وسياخذ منّا مساحة واسعة واستطرادا مفاهيميّا، ينزاح بنا عمّا نحن بصدد معالجته، وإنّ المتأمّل في هذا النموذج سيلاحظ للوهلة الأولى المفاهيم والمصطلحات العميقة والغامضة أحيانا، التي يحتويها هذا النموذج اللّساني وهذا ليس بغريب لأنّ لكلّ نظرية منهجها الخاص ، ومصطلحاتها ومفاهيمها الخاصّة بها، وغايتها ليس الوقوف لعرضها وإعادة تحليلها، بل الهدف هو الانطلاق من عناصرها المنهجية (البناء الدّخلي للنموذج، معالجة المعرفة اللّغوية، اللّغة الاصطلاحية الواصفة) ، بوصفها اشتغالا لسانيا لمحاكمة النماذج اللّغوية العربيّة ، ننطلق منها لمقاربة النموذج موضوع الدّراسة (النموذج اللّغوي عند الخليل) ، وعليه فإنّنا نقترح هذه المقاربة ليس لإقامة نحوٍ بديل بقدر ما نجعلها أداةً منهجية لإعادة قراءة هذا النموذج موضوع الدّراسة، وذلك لإحراز هذه الكفايات الثلاث: الوصفية، والتفسيرية، والنفسية، لغرض تطوير جهازه المفاهيمي والعلمي، ذلك أنّ هذا النموذج اللّغوي يُضمّر داخله أنحاءً ضمنيّة تحتاج منّا، إعادة صياغتها على نحوٍ إجرائيّ لجعلها قادرة على وصف اللّغة العربيّة.

وعليه ننطلق من هذه العناصر الآتية، لإجراء هذه المُقاربة تماشيا مع مقترح النّحو التّوليّفي:

⁷⁷⁹ : مُحاضرات في تطبيقات النّحو التّوليّفي، ص: 24، 18.

1- البناء الداخلي للنموذج:

يُقصد به في النحو التوليقي " تنظيم الظواهر اللغوية موضوع المعالجة "780 وبناء النموذج يُعدّ من صميم العمل العلمي حالياً، ويظهر لنا هذا في الأنحاء اللسانية المعاصرة مثل النحو التوليدي والنحو الوظيفي وغيرها، لأنّ تنظيم الظواهر اللغوية المعالجة، بقدر ما يكون تاماً في النماذج النحوية المبنية بناء اللغة، قد يكون جزئياً في الأنحاء غير المنظّمة تنظيماً داخلياً781، ويقضي هذا البناء ضرورة تصنيف المستويات ، إلى موضوعات مستقلة في حدّ ذاتها، لكلّ مستوى وظيفته المنوطة به مثل المستوى الصوتي والمُعجمي والنحوي، حيث تلعبُ في مجموعها وحدة كلّية تمثّل بناء النموذج اللساني العام.

2- معالجة المعرفة اللغوية:

تُعَدّ معالجة المعرفة اللغوية من المقاييس العلمية والمنهجية، التي اعتمدها النحو التوليقي لمقاربة النماذج اللغوية التراثية، والمقصود بها كيفية استقراء مجموع المعارف اللغوية المتحصّل عليها، لبناء نسق نظريّ يقتنص المعرفة النسيقية المتميّزة باليقين الرياضي والحقّ الوجودي782، والهدف من وراء هذا كلّه وضع معالجة موضوعيّة، قائمة على منهج علميّ تكون نتائجه دقيقة غير متفاوتة، لتجاوز المنهجية الكلاسيكية التي تختلف نتائجها، باختلاف المعرفة المستتبطة.

3- اللغة الاصطلاحية الواصفة:

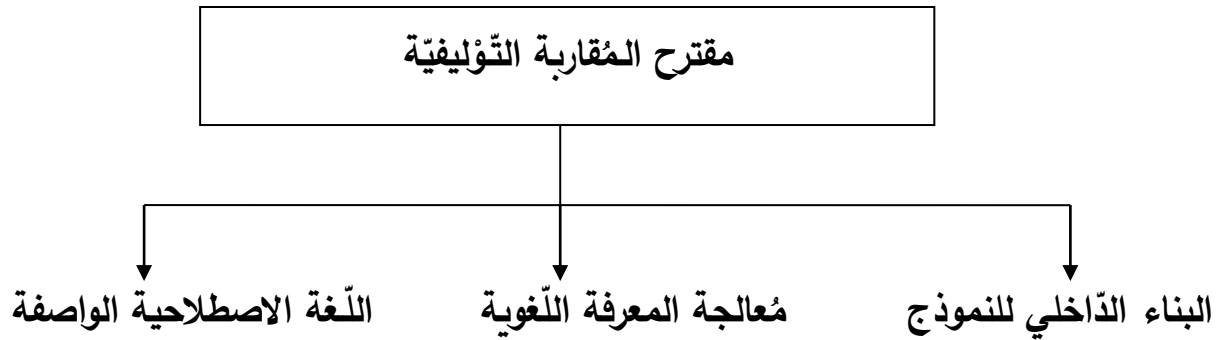
المقصود بها وضوح العبارة الواصفة للمضامين اللغوية، ويتحقّق هذا المطلب من خلال تبسيط الوصف وتقريب الموضوع من الأذهان، ولا يحتاج لترابطه المنطقيّ إلى

780 : مُحاضرات في تطبيقات النحو التوليقي، ص: 117.

781 : المرجع نفسه، ص: 117.

782 : مُحاضرات في تطبيقات النحو التوليقي، ص: 118.

جهد كبير من أجل اختزان مفاهيمه، في الملكة الذهنية المكلفة بالتذكير⁷⁸³، واللغة الاصطلاحية من شروط بناء النماذج اللغوية، وهذا المقياس عُرف قديما في المدارس النحوية، مثل اختصاصهم في وضع بعض المصطلحات مثل " الجر " عند البصريين ويقابله الخفض عند الكوفيين، وغيرها من المصطلحات التي كانت من أوليات النحويين، والشرح أثناء قراءاتهم للمعرفة النحوية.



1- البناء الداخلي للنموذج:

نشتغل على مفهوم البناء الداخلي للنموذج، كونه يُعدّ " تنظيمًا للظواهر اللغوية موضوع المعالجة"⁷⁸⁴ وهذا الأمر يُعدّ من صميم العمل العلمي، وإن تأملنا في البناء الداخلي للنموذج اللغوي عند الخليل، جعلنا ندرك على وجه الاستقراء أنّ البناء الداخلي لهذا النموذج، لم يتم بشكل نهائي مُحدّد، ذلك أنّ منواله المعرفيّ قام على استقراء الظاهرة اللغوية وفق نسق شمولي، حيث نجد أنّ الخليل أثناء تحليلاته اللسانية لبعض الظواهر، يُفاعل بين مستويات بنيوية داخل النسق اللغوي نفسه، مثل مُعالجته لبعض الظواهر المورفولوجية بتفسيرات صوتية يمازج بينها، مع مفاهيم نحوية لتفسير بعض الأنماط الاستعمالية للغة، ويمكننا على وجه المقاربة وسمّ هذا البناء، بوصفه بُعدًا منهجيًا في النموذج اللغوي عند الخليل، ما تضمّنته مُقدّمة مُعجم العين من مادّة صوتية قائمة بذاتها، يُمكننا عدّها في هذا المقام مؤشرًا لفكرة

⁷⁸³ : المرجع نفسه، ص: 118، 152.

⁷⁸⁴ : نفسه، ص: 117.

(البناء الدّاخلِيّ للنّموذج) ، إضافة إلى ما تضمّنته الأبواب الأخيرة من مُعجم العين من مادّة صرفيّة ، عالَجَ فيها الخليل بعض الصّيغ مُعلّلاً حدوثها، وعليه يمكننا القول إنّ إعادة البناء الدّاخلِيّ للنموذج الخليلي، يمكننا الشّروع فيه من خلال وضع مفاهيم تصنيفيّة تختصّ كلّ واحدة منها عبر مجموعات وظيفيّة للمستوى اللّساني الذي تنتمي إليه: (مفاهيم صوتيّة- مفاهيم صرفيّة- مفاهيم نحويّة- مفاهيم معجميّة)، وبهذا يُمكننا تحديد البناء الدّاخلِيّ للنموذج اللّغوي عند الخليل.

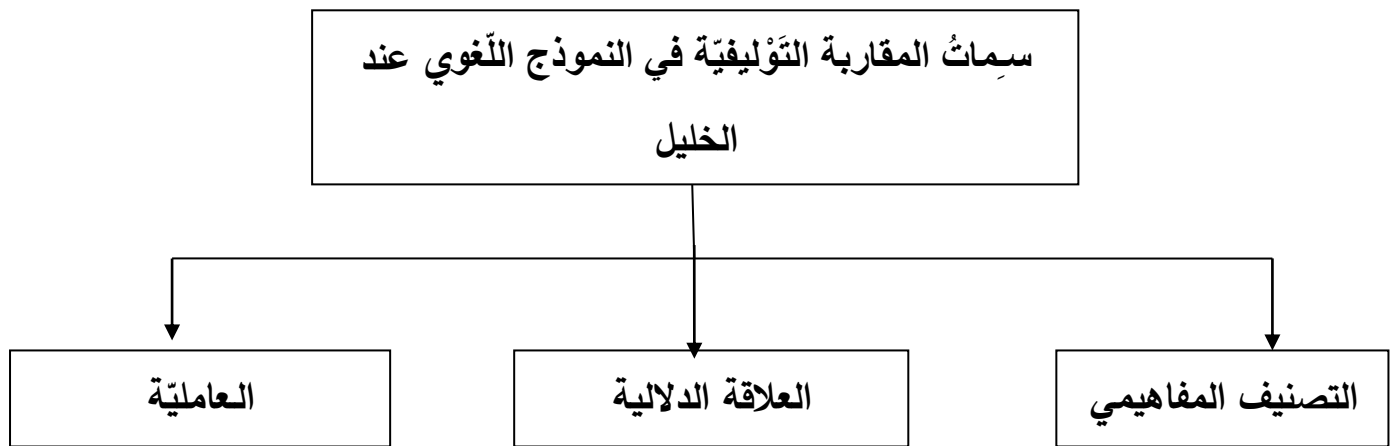
2- مُعالجة المعرفة اللّغوية :

من حيث المنهجية المُستخدمة لمُعالجة المعرفة اللّغوية، في النموذج اللّغوي عند الخليل تبين لنا أنّها قامت على نزعة نمطيّة، معمول بها في جمع المُعطيات اللّغوية (سماع النصوص الفصيحة)، وإخضاعها للمُعالجة العقلية، وهي بهذا الشّكل لم تخرج عن النّمط المنهجي السائد آنذاك، بوصفه معياراً منهجياً لمُعالجة المعرفة اللّغوية في شكلها الكلّي، إلّا أنّ المُنعطف المنهجي في مُعالجة المعرفة اللّغوية، في النموذج الخليلي تمثّل في تلك الخلفيات التقنيّة، التي استعان بها الخليل لمُعالجة الظاهرة اللّغوية، مثل اعتماده على القوانين العقلية المُتمثّلة في القياس والتعليل، لتفسير ما تكلمت به العرب وما جرى على ألسنتها، إضافة إلى مُمارساته الحسابية التي أتت على شكل مُتواليات رياضيّة، يُمكن اختصارها في قانون (التبادل والتقايب) لحصر أوجه اللفظ ، أضف إلى ذلك سمة التّصنيف، التي عُرف بها هيكل مُعجمه العين (الترتيب الصوتي)، مُروراً بعد ذلك إلى مُعالجته الفريدة لأحد أنماط الكلام العربي (الشعر العربي) ، من خلال إقامته جُدولة للبحور الشعريّة العربيّة.

3- اللّغة الاصطلاحيّة الواصفة:

نسعى في هذا العنصر وهُوَ ما سنتبيّنه في المحطّة الثانية، من سمات المُقاربة إلى الكشف عن العبارة الواصفة في النموذج اللّغوي الخليلي، ومدى تطابق مضامينها مع الواقع

اللّغوي، وجعلها في المقام نفسه موضوعا للمقاربة مع مفاهيم النّحو التّوليّفي، لبيان قدرتها التفسيرية في معالجة الواقع اللّغوي، ولتطوير جهازها المفاهيمي، لأجل أن يكون قادرا على وصف اللّغة وصفا علميّا، يُمكننا توظيف واستثمار نتائجه، في قطاعات إجرائية تُستخدم فيها اللّغة، كمجال لتأدية العديد من الأغراض والأهداف.



نشتغل على هذه السّمات المُقترحة في إطار النّحو التّوليّفي، بوصفها معيارا منهجيّا لمقاربة النّماذج اللّغوية القديمة، كونها تُعدّ مقارنة تسعى لتقويم المعرفة اللّغوية التّراثيّة، وفق منهجيّة تُوفّر إمكانية وصف العربية على نحوٍ جديد، وعليه سنتبيّن كلّ سمة ومدى توافرها في النّموذج موضوع الدّراسة (النّموذج اللّغوي عند الخليل)، لمقاربتها وفق ما يقترحه لنا النّحو التّوليّفي، كي سنكتشف حركة هذه السّمات داخل المعطيات المفاهيميّة، للنموذج اللّغوي عند الخليل.

1-التّصنيفُ المفاهيمي:

ننطقُ من هذه السّمة في إطار النّحو التّوليّفيّ " ، لإبرازِ علاقة الانتظام القائمة بين فصوص اللّغة وعلومها ⁷⁸⁵ ، في النّموذج موضوع الدّراسة " النموذج اللّغوي عند الخليل " ومن أولى الملاحظات الّتي يُمكن رصدها في هذا الجانب، وجود تفاوتٍ في تركيب الأنساق النّظرية في النموذج اللّغوي عند الخليل، حيث إنّ تصنيف المفاهيم بوصفها أنظمة لسانية تحتلّ المرتبة الأولى، في بناء الأنحاء أو النماذج اللّغوية، ويُمكن في إطار المُقاربة التّوليّفيّة أن نُسجّل ملاحظاتٍ تخصّ النّسق المفاهيمي لهذا النّموذج، مُرتبطة في المقام نفسه بمنهجية استقراء المعرفة ولغة الوصف، ومدى ارتباطها بالواقع اللّغوي، وهي كالآتي:

أ- التصنيف :

يمكننا كشف التّصنيف في النموذج اللّغوي عند الخليل، وإعادة صياغته وفق المُقاربة التّوليّفيّة، من مُنطلق مبدأ الأكون الثلاثة (كُونٌ وُجودي / كُونٌ ذهني / كُونٌ لّغوي)، بواسطة علاقة رياضيّة في دوالٍ محصورة منطقيّاً، تُوجّها المعرفة الكسبيّة الّتي تُطابق واقع هذه الأكون، وعليه فإنّ الصّياغة الجديدة لهذا النّموذج وفق هذه المُعطيات، تكون بإعادة تصميم التّركيب، وتخصيص كلّ قسمٍ بوسيلة مُتبعة منهجيّاً لمعرفته (مفاهيم صوتيّة - مفاهيم صرفيّة - مقولات نحويّة - مفاهيم معجميّة - مفاهيم دلاليّة)، وتحقّق مبدأ الأكون يكون بتفعيل كلّ وحدة، وجعلها بنيات مُستعملة تربطها علاقة وظيفيّة بالمُجتمع اللّغوي، وأمثلة ذلك على سبيل المثال في المفاهيم النّحويّة، أن يحقّق النّسق النّحوي مبدأ الرّبط الوظيفي بين المعطيات المعجميّة من جهة، والتركيب من جهة أخرى شريطة عدم إهمال وظيفة أيّ كُونٍ من الأكون المذكورة آنفاً .

ب-الإجراء :

يكونُ إجراء هذه المفاهيم بتعريف " خصائصها الدلالية وسلوكها، في البنية المكوّنية للجملة "786 كأن يراعى إعادة النظر في بعض الحدود المُصطلحية. غير المُستوفية لشروط الوصف الدقيق، مثل مصطلح (الاسم وأسماء الإشارة)، مثلاً في النموذج اللغوي عند الخليل، وإعادة تنميط بعض المفاهيم مثل (باب الإسناد)، وجعله من صميم الجملة النواة.

2-العلاقة الدلالية:

الاشتغال على هذه السمة يكمن في إيجاد علاقة تأليفيّة، تكون مصدراً لاستخلاص خصائص الانتماء الدالة، على تبعيّة ما في الكون الذهني إلى موقع (الاستعمال)، في البنية النواة، بتعبير آخر أن ننقل من التصرّو المجرّد القائم على خصائص صورّيّة، إلى الكون الموضوع القائم، على سمات تأليفيّة ذات بعد وظيفي، ومقاربة هذا الوسم التّوليّفي في النموذج اللّغوي عند الخليل، على سبيل التمثيل يمكن توضيح معالمها المُصطلحية، بوصفها مُسمّيات دالة على مفاهيم "لغوية " ، معيّنة ومخصوصة بالوصف، حيث إنّ لغة هذه المفاهيم والمصطلحات في هذا النموذج، ذات طبيعة صورّيّة يتوقّف وصفها الصّوري عند سرد الخصائص البنيوية للموضوعات اللّغوية، وأحياناً يكتفي بسرد السمات العامّة، ومن أمثلة ذلك عند الخليل قوله رحمه الله في تعريف الرّفع : " والرّفْعُ نقيضُ الحَفْضِ "787، ولعلّنا نلاحظ هذه اللّغة الواصفة في النموذج اللّغوي عند الخليل، ليست باللّغة الاصطلاحية المُستوفية لشروط الوصف الدقيق، حيث لجأ إلى تعريفه بالضدّ أو النقيض، ويقترح النّحو التّوليّفي مفهوماً اصطلاحياً للرّفع على أنّه "حالة تركيبية عارضة، عاملها علاقة الإسناد وقابلها، ما يحلّ من الكلم في نواة الجملة، وعلامة حالة الرّفع الضمّة المنطوقة في صورة تّووين، أو تفريد أو ما قد ينوب عنها، وتكون الضمّة علامة الرّفع ظاهرة على حرف الإعراب

786 : مُحاضرات في تطبيقات النّحو التّوليّفي ، ص: 122.

787 : العين، مادّة: (رفع)

في آخر الكلم أو مُقدّرة عليه لمانع صوتي⁷⁸⁸، وعليه يمكننا القول من مبدأ المقاربة بين النموذجين (الخليلي) و(التوليّفي) من خلال هذه اللغة الاصطلاحية، أنّ مقاربة هذا المصطلح كنموذج، يجب أن يتعدّى هذا الوصف إلى ربط الخصائص البنوية بالمعاني الدلالية والأغراض التداولية، وذلك لتحقيق شموليّة اللغة، وتحليل خصائص بنية الموضوع اللغوي على نحوٍ وظيفي، له رابط منطقي من حيث مبدأ الأكوان الذي ذكرناه آنفاً، والمثال الذي انتخبناه (مفهوم الرفع) من النموذج اللغوي عند الخليل، يُعدّ مثلاً بسيطاً يتطلّب منّا النظر في تعريفه، والأمثلة التي تحتاج منّا وقفات مقارباتية كثيرة، وحافلة في هذا النموذج مثل بعض المفاهيم التركيبية كالقياس والتعليل، وغرضنا من اقتراح هذه المقاربة هو تطوير النموذج الخليلي في مُعالجته لظواهر اللغة وأشكالها الدلالية، وتفعيل النموذج المُطوّر يكون بالانتقال من البناء الاستدلالي، لتفسير النسق الصوري للغة، إلى نسقٍ منطقيّ يسعى لصياغة الظواهر اللغوية، بشكل مُفعّل يُراعي الخصائص الدلالية والتداولية، التي يقوم عليها منطق استعمال هذه اللغة.

3-العامليّة:

تشكّل العامليّة المحور الرئيس، الذي قام عليه النموذج اللغوي عند الخليل، كأداة من أدوات التفسير كونها تُمثّل " مفهوماً محوريّاً، يُبنى عليه المستوى التركيبي للغة فبفضله يستطيع اللغوي أن يرتقي إلى مُستوى أكثر تجريداً، من المستويات السفلى التي تحتوي على الوحدات الخطابية ومقوماتها القريبة"⁷⁸⁹، ومن ناحية الضبط المنهجي الذي نتوخّاه في هذه المقاربة، وخصوصاً في هذه الفكرة (العامليّة) موضوع المقاربة ارتأينا أن نشتغل عليها لتطوير هذا النموذج، وهذا الاشتغال نصفه

: مُحاضرات في تطبيقات النحو التوليّفي ، ص: 127.788

789 : المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ص: 102.

بالجديد والمُحدث استنادًا لاطّلاعنا القاصر، أنّنا لم نجد دراسة أو بحثًا فعّل هذا الاشتغال في مقاربتة لهذا النموذج موضوع الدّراسة (النّمودج اللّغوي عند الخليل).

وبناء عليه نقترح هذه المحطات المنهجية، لأجل وضع هذه المُقاربة وأجراء مفاهيمها لأجل تفسير عوارض اللّغة ومظاهرها اللّسانية، وهي كالآتي:

3-1- تراتبية النّسق العاملي:

بناءً على ما تمّ الاشتغال عليه في جُزئية العامل عند الخليل، ضمن فصول هذا البحث، يمكننا إجراء تراتبية النّسق العاملي كمقترح توليفي، للكشف عن التمثيل المنطقي الدّلالي لعناصر التّركيب اللّغوي، في هذا النموذج موضوع المُقاربة، والتي تمثّل علاقات قائمة فيما بينها، يحدّد بها دلالة اللفظ، وانطلاقاً من معطيات العامل، في النموذج اللّغوي عند الخليل، نقترح هذه المُعادلة (علاقات تركيبية + وسيط العلامة اللّغوي) بحيث يتكوّن الأوّل من علاقيتين تعملان بالتتابع أولاًهما:

علاقة الإسناد: موقعها في نواة الجُملة بين عنصري المُسند والمُسند إليه ، وعملها حالة الرّفع في الطّرفين.

وثانيها **علاقة الإفضال:** موقعها بين نواة الجُملة وفضلتها، وعملها بعدّ عمل علاقة الإسناد وأثرها هو حالة النّصب في الفضلات، والعلاقتان التركيبيتان من كليات اللّغة البشرية؛ بمعنى لا تقومُ الجملة في أيّ لغةٍ بشريّة، من غير انتظام مكوّناتها بتتكمّل العلاقتين ويُشكّل وسيطُ العلامة اللّغوي عاملاً وضعياً، يخصّ اللّغات التوليفيّة مثل العربية ونحوها من اللّغات البشرية، ويكون اشتغاله بعدّ انتهاء العلاقتين التركيبيتين من عملهما⁷⁹⁰

⁷⁹⁰ : مُحاضرات في تطبيقات النّحو التّوليفي ، ص: 150.

بناءً على هذا الكشف المفهومي فيما يقترحه لنا النحو التوليقي، يمكننا تمثّل نسقه الأولي وفق هذه الخُطاطة الآتية⁷⁹¹:

قائم	زيد	Ø
قائم	زيداً	إنّ
قائماً	زيد	كان
قائماً	زيداً	حسبت
قائماً	زيداً	أعلّمت عمراً
3	2	1

حسب هذه الخُطاطة فإنّ العناصر الموجودة في العمود (1)، لفظة كانت أو تركيباً تُسمّى عاملاً لأنها تؤثر على بقية التركيب، أمّا العناصر الموجودة في العمود (2)، تعدّ معمولات الأولى، ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تُقدّم على عاملها، ولهذا يشكل كلّ واحد منها مع عامله (زوجاً مُرتّباً - couple ordonné)، في حين تشكّل العناصر الموجودة في العمود (3)، معمولات ثانية قد تتقدّم كلّ العناصر إلا في حالة جمود العامل، أمّا العنصر (المشار إليه ب Ø)، فهو خلق موضع العامل من العنصر الملفوظ، وهو ما يُسمّى بالابتداء، وهو عدم التبعيّة التركيبيّة، وليس معناه بداية الجملة كما يعتقد بعضهم، والإجراء المنهجي انطلاقاً من العلاقتين (علاقة الإسناد والإفضال)، يمكننا من تحديد الأنماط الجُمليّة التي تُعدّ بمثابة النّموذج، الذي على أساسه يُنتج المتكلم عبارته عن طريق وسيط لغويّ، يُعين المتكلم في وصل كلامه بأثر من العامل، وفكرة الوسيط اللّغوي، التي تُعدّ جزءاً جوهريّاً في تراتبيّة هذا النّسق ، أتت على شكل فكرة مُبلورة في النّموذج اللّغوي، عند الخليل وفق نظرته الصّوتية، التي تقرّ أنّ الحركات الإعرابيّة تفسّر وظيفيّاً كمؤثّر خارجي تحدّده هذه الحركات، أو بنوي يحدّد الشّكل الإيقاعي لاستعماله بعض الظواهر التركيبيّة كالإشمام ، وهذا الوسيط الطارئ لم يتمّ التطرّق إليه في النحو التوليقي .

⁷⁹¹ : بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، 1/ 223.

والأنماط الجُمليّة المُنتجة وفق تلك العلاقات ودور الوسط اللّغوي، تجوِّز لمستعمل اللّغة مسافة اختياريّة، يتمّ تصوُّرها في البنية العامليّة وتمثّلات هذا العنصر العاملي، في النّموذج اللّغوي عند الخليل، يكمن في تقديره للعوامل المحذوفة والمُفترضة، الّتي تُقدَّر استنادًا للمعنى الّذي يقتضيه السّياق، مثل النّصب على المدح أو الذّم، والشّاهد في هذا ما نقله سيبويه في تعليق الخليل على بيت ذي الرّمة حيث يقول : " زَعَمَ الخليلُ أنّ نَصَبَ هذا على أنّك لم تُرد أن تحدّث النّاس، ولا مَن تُخاطب بأمر جهلوه ولكنّهم قد علموا من ذلك، ما قد علمت فجعله ثناءً وتعظيمًا، ونصبه على الفعل كأنّه قال: اذْكُرْ أَهْلَ ذاك واذْكُرْ المُقيمين، ولكنّه فعلٌ لا يُستعمل إظهاره"⁷⁹²، فمن خلال هذا التّفسير الّذي بيّنه الخليل، يتوضّح لنا مدى مُراعاة بيان مكان المقدّر في البنية العامليّة، أثناء تحديدها للعلاقات الحادثة في الأشكال الكلامية.

3-2- دلالة الوظيفة:

المقصود بها تلك الانتظامات المُحتملة، الّتي تُنتجها البنية الوظيفية للجملة، وتأمّلا في بعض المقولات اللّسانية في النّموذج اللّغوي عند الخليل، رصدنا اشتغال الخليل وتحليله لهذه الانتظامات، وفق نسق عامليّ، مكنّه من الكشف عن نسق البعد التّداولي، للعاملية العلاقية وكيفية إجراء عناصرها.

3-2-1- شاهد لساني:

- " وزعمَ الخليل: أنّ لا جرمَ إنّما يكونُ جوابا لما قلبها منَ الكلام، يقول الرّجل كانَ كذا وكذا فتقول: لا جرمَ أنّهم سيندمون أو أنّه سيكون كذا وكذا."⁷⁹³

الصيغة العامليّة ل: لا جرمَ هنا وفق التّصوّر الخليلي، تأتي لتحقيق علاقة التوازي البنيوي بين المعطيات الوظيفيّة، لتحقيق المعنى التداولي الّذي تلعبه البنيات الوظيفيّة

⁷⁹² : بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، 46/2.

⁷⁹³ : المرجع نفسه ، 105/3.

المُشكّلة لهذه الجُملة، وهذه البنية المؤوّلة تُعدّ مدخلا مُعجميًا، بحيث تلعب دورا تَأوّلًا يتكفّل في ملء المسافة العامليّة، وفق بنيات لغوية مُنتجة تتأسّس عبر قواعد صوتية وصرفيّة.

وبناء عليه يمكننا استثمار هذا الشّاه، ضمن هذه المقاربة، بوصفه مثالاً لسانيا يُحدّد أحد نماذج الاستعمال الّتي اشتغل عليها الخليل، وغيره من النماذج المعيارية، أنّ ترتيبَ مكوّنات الجُملة يكون من اختصاص العامل التّداولي، وهذا الأخير يعدّ معطى ضمنيّ لم يبيح به النموذج الخليلي، ومن خلاله يتمّ تشغيل المستوى التخاطبي بشكل عام، وفق مؤشّر الترتيب والدّلالة، في افتراض تصوّر جديد لبناء جُمْل ذات نمط وظيفي، تلعب مكوّناتها الحرّة رتبا مؤقتة لتأدية أغراض تخاطبيّة، كما يُمكننا استثمار سمات هذه المقاربة لأجل تطوير هذا النموذج اللّغوي مثلاً، في تحليلاته لعلاقات الإسناد وأحوال الفعل وثنائية البناء والإعراب، بوصفها مادّة خام حفل بها نموذج اللّغوي، تمثل هي الأخرى معطيات استشرافية لما تتمتّع به من كفاية تفسيريّة ، يحظى بها جهازها المفاهيمي في شكله الكلّي.

رابعاً : خاتمة واستنتاج

لقد مكّنا البحث في هذا النموذج اللغوي عند الخليل، من خلال مستويات تصوّره للظواهر اللغوية وتحديد أشكالها الدلالية، وانطلاقاً لما اقترحناه وأطلقنا عليه بـ: " القراءة الجديدة " المؤسسة على منهج معرفي، إلى جملة من الاستنتاجات والاستشرافات البحثية، في هذا المجال وهي كالآتي:

1-يتأسس النموذج اللغوي عند الخليل على منهج علمي خاص، في النظر إلى عوالم اللغة وأنظمة الدوال، والعلم بطبيعة هذه الخصوصية المعرفية لا يجدر على الباحث أن يتجاوزها، في كشفه عن منهج وسمات هذا النموذج، لإقامة قراءته وضبط اشتغاله ووضع مقارباته للكشف عن طبيعة المستويات، التي تناولها هذا النموذج في تحليله للظواهر التركيبية.

2- أتاحت لنا المقاربة اللسانية لهذا النموذج اللغوي ، وضع بناء منطقي لآلية المعرفة اللغوية المخترنة بالاكْتساب في أذهان الناطقين بالعربية، ويتحقّق لنا هذا الأمر بإعادة صياغة المعطيات اللسانية التي احتواها هذا النموذج، وتنميطها وفق قوالب جديدة تكون قادرة على وصف العربية من حيث الاستعمال.

3-أفضى بنا التأمل النظري أنّ البنية المفهومية، في النموذج اللغوي عند الخليل، تتأسس على مفاهيم ذات نسق محدّد، موجّهة نحو الكشف عن ظواهر تركيبية في اللغة العربية، ويتطلّب تحليل مكونات هذه البنية من جهة الإجراء والوصف، تحديد خصائصها الدلالية والمنطقية، للوقوف على إمكان تقويم كفايتها المفهومية.

4-توصّل بنا الاستقراء والتّحليل في هذا النّموذج الخليلي، إلى الكشف عن مفاهيم لسانية مُضمرة، تقع مُعالجتها في هذا النّموذج بصفة متكافئة بين مُستوياته اللّسانية المعروفة، كما تنزع عناصرها إلى الاشتراك في التّصوّر الوظيفي، للمسارات الاستدلالية التي تُنتجها مسائله التركيبية.

5- إنّ إقامتنا لقراءة لسانية وسمناها بالجديدة للنموذج اللّغوي عند الخليل، بوصفها مُقترحا منهجيا، لم ننو بها إقامة نموذج لغويّ بديل، بل أردنا من خلالها تفعيل الجهاز المفاهيمي لهذا النموذج، وذلك بتحيين مفاهيمه اللّغوية العامّة، واستثمارها على نحو تفاعلي مع المُعطيات اللّسانية بنماذجها المنهجية الحديثة، لجعلها قادرة على وصف اللّغة، ومُعالجتها على نحو علمي، لرصد مُختلف الظواهر اللّسانية .

الـخاتمة

الخاتمة:

أفضى بنا موضوع البحث إلى جُملة من النتائج والاستنتاجات، نُجملها كالآتي:

1- يُعدّ التراث اللّغوي العربي القديم، جزءاً من الخطاب العلمي حول اللّغة وأشكال الدّلالة، وليس عالماً مُنقطعاً عن الفكر الألسني، ولهذا وجب وصغ النظرية اللّغوية القديمة، في قالب جديد يُتيح المقارنة بينها، وبين الحديث من النظريات وذلك بتطعيمها بروافد هذه النظرية، لأجل تأسيس نموذج لغويّ عربي يضطلع بوصف اللغة العربيّة، انطلاقاً من المفاهيم اللّسانية المعاصرة، وشرط قراءة التراث اللّغوي بمختلف مستوياته، يجب التقيد بخصوصيّتها المعرفية والحضاريّة، والإبقاء على هويّتها دون الوقوع في إسقاطات، لا تمتّ بصلة إلى سمات البحث العلمي والمقاربة الموضوعية.

2- إنّ المتأمّل في المسيرة العلميّة للخليل بن أحمد الفراهيدي، سيدرك أنّ هذا الرّجل يمثّل

مدرسة علمية، متفرّدة في رؤيتها لأنظمة اللغة وكيفية اشتغالاتها، كتأملاته الصوتية وإدراكه لأبعاد هذا المستوى، الذي بنى عليه مُعجمه، إضافة إلى تحليلاته العقلية والعلمية التي فعلها في معجمه " العين "، في حصره لكلام العرب وأنماط استعمالاتهم، وفق عقلية رياضية حسابية، ومناقشاته لبعض المسائل اللسانية التركيبية، وبهذا يمكننا القول إنّ زادا معرفيا مثل مشروع الخليل، يمثل في حقيقته منصّة معرفية تستدعي من القراء الباحثين، التفاتة ثقافية علمية لإعادة قراءة هذا المضمون العام، قراءة نقدية واعية مُراعية في ذلك الخصوصية المعرفية لهذا الإرث العلمي، ومحاولة مقارنته مع المعطيات اللسانية المعاصرة، وذلك لإخراجه من الحلة المحليّة إلى العالميّة.

3- توصّل بنا البحث أثناء الاستقراء في المستويات اللسانية عند الخليل، أنّه اعتمدَ المنهج الوصفيّ في تفسيره للظاهرة اللغوية، وعدّت تحليلاته وتفسيراته للظواهر التركيبية منهاجا علميا، يدلّ على وعي معرفيّ مثل ملاحظاته للصوت اللغوي، وتحديد صفاته ومخارجه ومعالجاته لبعض الظواهر التشكيلية، على نحو تحليليّ مُستخدما في الوقت نفسه مصطلحات علمية، دالة على اشتغاله في هذا الحيز العلمي المتخصّص.

4- قامَ البناء المعرفي لمعجم الخليل " العين "، على أبعاد منهجية وتأليفية في الصناعة المُعجمية، مثل معالجاته لبعض المداخل المعجمية، وتضمينه لمواد معرفية سعت إلى وصف العربية واستعمالاتها، وفق طرائق مُبتطّرة مثل حصره للمستعمل والمهمّل، مستدلاّ في ذلك على شواهد علمية كمصار للاحتجاج، تدعّم مساره المنهجي واشتغاله في هذا المجال.

5- أسهم الخليل في نموذج اللغوي، في وضع مجموعة المصطلحات، واصفة لمدلول المعاني ضمن سياقاتها الوظيفية، وسمة هذه المصطلحات تقوم على علاقة ترابطية بين الظاهرة اللغوية ومجالها التداولي، قائمة على معايير علمية، وفق نهج من التوليد الدلالي يتناغم إجرائيا، مع المعالجة التطبيقية المنوطة بالوضع والتصور.

6- قام المنهج اللساني عند الخليل، على أسس ومبادئ معرفية من خلال معالجته لظواهر دلالية، ذات أنساق مشتركة أثبت فيها الأبعاد التداولية لأنظمة الاستعمال، مثل تقريراته

لبعض القوانين المعيارية، التي تحدّد المجال التخاطبي بين مستعملي اللغة.

7- يعدّ النموذج اللغوي عند الخليل نموذجاً معرفياً، يقوم على تصوّرات منهجية محدّدة للواقع اللغوي، حيث توجّهه مجموعة من المفاهيم والتصورات، القائمة على استدلالات علمية تحاول الكشف عن سيرورة اللغة، ومعالجة ظواهرها المتعدّدة.

8- توصّلت بنا القراءة التحليلية للنموذج اللغوي عند الخليل، أنّ إعادة قراءته وفق معطيات لسانيات التراث، ووضع مقاربات لسانية تسعى لتطويره، وتفعيل أنظمتها في السوق المعرفية للنظريات اللسانية الإجرائية، يجب أن تضع وعياً منهجياً لفهمه وتوظيفه، ويتحقّق هذا الأمر بالوقوف عند مراحل إنتاج، وظهور هذا النموذج مثل مرحلة الإحياء التي حقّق، ونشر فيها تراث الخليل تحقيقاً علمياً، للوقوف على مصادره الحقيقية، ثم مرحلة الوصف القائمة على التعريف بتراثه اللغوي، وتحديد محتوياته وقضاياها، وبعد ذلك مرحلة التأويل القائمة على وضع تصوّرات، استقرائية وتحليلية لاستكشاف خصائص هذا التراث اللغوي، وتوضيح أسسه النظرية والمنهجية ووضعها في إطار الفكر اللساني، وبعد الوقوف عند هذه المحطات يُشرع في إيجاد مقاربة لسانية مقترحة، قادرة على إعادة قراءة هذه التصوّرات وفق مميّزات نظرية وأبعاد منهجية، تراعي حدود النظرية اللسانية العامة، وتكيفها مع معطيات هذا النموذج لاستثمارها نظرياً، كمعالجة مقترحة للظواهر والمسائل اللغوية التركيبية، وإجرائها في قطاعات وظيفية أخرى، تشترك سماتها مع تصوّر هذا النموذج المطوّر.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

(أ) : القرآن الكريم.

(1) - المصادر:

- 1- أحمد بن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، مهدي النجم، (ط.1) دار الكتب العلمية، لبنان، 2010.
- 2- أيوب الكفوي ، الكليات، تح: عدان درويش، ومحمد المصري، (ط.1)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1998.
- 3- أبو البركات عبد الرحمن بن أبي سعيد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، تح: حسن حمد، وإميل بديع يعقوب (ط.1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.
- 4- جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمد البجاوي، (ط.3)، مكتبة دار التراث، مصر، 2008.
- 5- ابن جنّي أبو الفتح عثمان ، سر صناعة الاعراب، تح:مصطفى السقا، (ط.1)، دار إحياء التراث القديم، القاهرة، 1954.
- 6- ابن الحاجب عثمان بن عمر ، الشافية في علمي التصريف والخط، تح: أحمد عثمان شافيجي، (ط.2)، المطبعة العامة العثمانية، مصر، 2014.
- 7- ابن حزم الأندلسي، التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العاميّة والأمثلة الفقهية، تح: إحسان عباس، (ط.1)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959.
- 8- أبو الحسن الورّاق ، علل النّحو، تح: محمود محمد محمود نصّار، (ط.3)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

- 9- أبو حيان الأندلسي، تذكرُ النحاة، تح: عفيف عبد الرحمن، (ط.1) مؤسسة الرسالة، بيروت ، 1986.
- 10- ابن خلدون ، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، (ط.1) دار يعرب، سوريا، 2004.
- 11- ابن خلكان ، وفياتُ الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزّمان ، تح: إحسان عبّاس ، (دط) دار الصّادر، بيروت، 1972.
- 12- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب الجمل، تح: فخر الدين قباوة، (ط.1)، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
- 13- معجم العين، تح : مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، (ط.1)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2003.
- 14- الذهبي شمس الدّين محمد بن عثمان ، سِيَرُ أعلام النّبلاء، (ط.11) ،اعتنى به: محمد بن عيادي بن عبد الحليم ، مكتبة الصّفا ، دار لبنان الحديثة، 2006.
- 15- رضي الدّين الأسترآبادي ، شرح الشافية، تح: محمد نور الحسن ، (د.ط)، مطبعة حجازي، القاهرة، مصر، 1982.
- 16- الزّجاج إبراهيم أبو إسحاق ، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد العزيز عبده شلبي، (ط.1) عالم الكتب، 1988.
- 17- زكرياء بن محمد الأنصاري، الدقائق المُحكمة في شرح المقدمة الجزرية، تح: زكرياء توناني، (ط.1)، مكتبة الإمام مالك، الجزائر، 2009.
- 18- الزمخشري جار الله أبو القاسم ، المفصّل في علم العربيّة، تح: سعيد محمود عقيل، (ط.2) ، دار الجيل، بيروت ، 2003.
- 19- أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبان السّيرافي، شرح كتابِ سيبويه، تح: أحمد حسن مهدي، علي سيد علي، (ط.1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.
- 20- سيبويه أبو بشر عثمان بن قنبر ، الكتاب، تح: محمد عبد السلام هارون، (د.ط) ، دار التاريخ، بيروت، 2011.
- 21- ابن سيده عليّ بن إسماعيل ، المخصص، تح: خليل إبراهيم جفال، (ط.1)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1996.

- 22- الشريف الجرجاني، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، (د.ط)، دار الفضيلة، القاهرة، 2011.
- 23- شهاب الدين القرافي، شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول، تح: مكتب البحوث والدراسات، (دت) دار الفكر، بيروت، 1997.
- 24- الصّاحب بن عبّاد، المُحيط في اللغة، تح: محمد آل ياسين، (ط.1) عالم الكتب، القاهرة، 1994.
- 25- الصّغاني ، الشّوارد أو ماتفرّد به بعض أئمة اللغة ، تح : مصطفى حجازي، مر:محمد مهدي عزام، (ط.1)، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.
- 26- ابن الصّلاح عثمان أبو عمرو ، مقدّمة ابن الصّلاح في علوم الحديث، تح: عائشة عبد الرحمن، (ط.1)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974.
- 27- طاهر أحمد بن بابشاد، شرح المقدمة المحسبة، تح: خالد عبد الكريم، (ط.1)، المطبعة العصرية، الكويت، 1977.
- 28- أبو طيب اللّغوي، مراتب النحويين، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط.1)، المكتبة العصرية، بيروت، 2002.
- 29- عبد الحي بن أحمد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، (ط.1)، دار ابن كثير، 1986.
- 30- عبد القاهر الجرجاني، العوامل المئة النحوية، شر: الشيخ خالد الجرجاوي، (ط.3)، دار المعارف، القاهرة، 1988.
- 31- عبد الله ابن عباس ، كتاب اللغات في القرآن برواية إسماعيل بن حسنون المقرئ، تح:صلاح الدين المنجد، (ط.1) مطبعة الرسالة، القاهرة ، 1946.
- 32- أبو عليّ الفارسي، الحُجّة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم ابن مجاهد، تح: مصطفى كامل هنداوي ، (ط.1)، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.
- 33- أبو عليّ القالي ، البارع في اللّغة، تح: هاشم الطّعان، (ط.1)، دار الحضارة العربية، بيروت، 1975.
- 34- الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب ، البلّغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تح: محمد المصري، (ط.1) دار سعد الدين للطباعة والنشر، 2000.

- 35- أبو القاسم السُّهيلي ، نتائج الفكر في النحو، تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، (ط.1) دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
- 36- القاضي عياض ، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، (ط.3)، دار النفائس،بيروت، 1979.
- 37- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ، تفسير غريب القرآن، مر: إبراهيم محمد رمضان، (د.ط)، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت،2003.
- 38- القفطيّ عليّ بن يوسف ، إنباهُ الرواة على أنباء النحاة، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم،(ط.1)، دار الفكر العربي،القاهرة، 1986.
- 39- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، (د.ط) دار المدني، جدة، 2010.
- 40- محمّد بن محمّد بن الجزري ، النشر في القراءات العشر، تح: على محمّد الطّبّاع، (د.ط)، دار الفكر،1997.
- 41- المرزباني محمد بن عمران، نُور القبس المختصر من المقتبس في أخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء، تح: رودلف زلهام، (د.ط)، فارنتس شتاينر للنشر، ألمانيا، 1964.
- 42- ابن مضاء القرطبي أحمد بن عبد الرحمن، الرّد على النحاة، تح: شوقي ضيف، (ط.1) ، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947.
- 43- ابن المعتز عبد الله أبو العباس، طبقات الشعراء ، تح: صلاح الدّين الهواري،(ط.1)، مكتبة الهلال،بيروت، 2002.
- 44- مكّي بن أبي طالب القيسي، العُمدة في غريب القرآن، تح: يوسف المرعشلي، (ط.2)، مؤسسة الرسالة،القاهرة، 1984.
- 45- أبو منصور الأزهري ، تهذيب اللّغة ، تح: عبد السّلام هارون، مر: محمّد علي النّجار ، (دط) ، الدّار المصرية للتأليف والترجمة،1967.
- 46- ابن منظور جمال الدّين أبو الفضل ، لسان العرب، تح: عبد الله عليّ الكبير، ومحمّد أحمد حسب الله وهاشم محمّد الشاذليّ، (د.ط)، دار المعارف، القاهرة، مصر، (د.ت).
- 47- ابن النديم محمد بن إسحاق ، الفهرست في أخبار العلماء المصنفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم،، تح:رضا تجدد ، (د.ط) ، طبعة طهران، 1971.

- 48- ابن هشام الأنصاري، قطر الندى وبل الصدى، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، (ط.1)، دار الخير، بيروت، 1990.
- 49- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993.
- 50- ابن يعيش أبو البقاء، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، (ط.1) دار الكتب العلميّة، بيروت، 2014.

(2)- المراجع :

- 1- إبراهيم السامرائي، الإبداع والمحاكاة في كتاب العين، (ط.1)، دار الكرمل، عمان ، 2005.
- 2- إبراهيم بن مراد، من المعجم إلى القاموس ، (ط.1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2010.
- 3- إبراهيم صحراوي، تحليل الخطاب الأدبي، (ط.1)، دار الآفاق للنشر، الجزائر، 1998.
- 4- إبراهيم محمد نجا، المعاجم اللغوية، (ط.1)، مطبعة السعادة، مصر، 1970.
- 5- أحمد البدوي، سبويه حياته وكتابه، (ط.1) مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1960.
- 6- أحمد العطار، الصّاح ومدارس المعجمات العربية، (ط.1)، دار العلم للملايين، 1967.
- 7- أحمد المتوكّل ، المنحى الوظيفي في الفكر اللّغوي القديم.الأصول والامتداد ، (ط.1) دار الأمان، الرباط، 2006.
- 8- أحمد جلايلي، مقدّمة لأصول النحو العربي، (ط.1) ، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2013.
- 9- أحمد عبد الله الباتلي، المعاجم وطرق ترتيبها، (ط.1)، دار الراية، الرياض، 1992.
- 10- أحمد عفيفي، المنظومة النحوية للخليل بن أحمد الفراهيدي؛دراسة وتحقيق، (ط.2)، وزارة التراث والثقافة،سلطنة عمان، 2015.
- 11- أحمد كشك، محاولات للتجديد في إيقاع الشّعر، (ط.1)، مطبعة المدينة، القاهرة، 1985.
- 12- أحمد محمد المعتوق، الحصييلة اللغوية، (د.ط)،سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992.
- 13- أحمد مختار عمر ، دراسة الصّوت اللغوي، (د.ط)عالم الكتب، القاهرة، 1997.

- 14- الأزهر الزنّاد، نسيج النصّ بحث ما يكون به الملفوظ نصّا، (ط.1)، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993.
- 15- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اللّغات السّامية، (ط.1)، مكتبة النافذة للنشر، مصر، 2007.
- 16- أيمن سويد، النّجويد المصوّر، (ط.2)، مكتبة ابن الجزري، سوريا، 2011.
- 17- إيميل بديع يعقوب، المعاجم اللغوية العربية بداءتها وتطوّرها، (ط.2)، دار العلم للملايين، بيروت، 1985.
- 18- براجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، تر: رمضان عبد التواب، (د.ط)، مكتبة الخانجي، مصر، 1994.
- 19- برتيل مالمبرج، علم الأصوات، تر: عبد الصبور شاهين، (ط.1)، مكتبة الشباب، القاهرة، مصر، 1984.
- 20- بونتج كارل ديتز، المدخل إلى علم اللّغة، تر: حسن سعيد بحيرى، (ط.1)، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2003.
- 21- التّواتي بن تواتي، المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، (ط.1) دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.
- 22- جان بيير ديكلي وآخرون، في بنية الحدث التركيبيّة والدّلالية، تر: أحمد بريسل، (ط.1) دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2013.
- 23- جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية، (د.ط)، مؤسسة هنداوي، مصر، 2012.
- 24- جورج مونين، تاريخ علم اللّغة، تر: بدر الدّين القاسم، (د.ط)، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، 1972.
- 25- جون بول براون، جورج يول، تحليل الخطاب، تر: مصطفى الزليطني، ومنير التريكي، (د.ط)، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، 1997.
- 26- جون ليونز، نظريّة تشومسكي اللّغوية، تر: حلمي خليل، (ط.1)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1985.
- 27- حازم علي كمال الدين، نظريّة القوالب من نظريات علم اللّغة الحديث، (د.ط)، مكتبة الآداب، القاهرة، 2002.

- 28- حافظ إسماعيلي علوي ،أسئلة اللّغة أسئلة اللّسانيات،(ط.1) منشورات الاختلاف،الجزائر، 2009.
- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة ؛ دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته ،(ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2018.
- 29- حسام البهنساوي، علم الأصوات، (ط. 1)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، 2004.
- 30- حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي، (ط. 1)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1980.
- 31- حسان تمام، اللغة بين الوصفية والمعارية، (ط. 1)، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1958.
- 32- حسن جعفر نور الدين، المعاجم والموسوعات بين الماضي والحاضر،(ط.1)، راشد برس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2003.
- 33- حسن خميس الملح، شخصية الخليل بن أحمد الفراهيدي في كُتُب التراجم؛ دراسة تحليلية مُلحقة بترجمتين له، (ط.1)، دار عالم الكتب الحديث، الأردن، 2018.
- 34- حسن ظاظا، كلام العرب من قضايا اللغة العربية، (ط. 1)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2002.
- 35- حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوّره، (ط.4)، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1988.
- 36- حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللّغة، (ط.4)، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي ، مصر، 2015.
- 37- حلمي خليل، التفكير الصّوتي عند الخليل، (ط.1) دار المعرفة الجامعة، مصر، 1988.
- 38- خديجة الحديثي، أبنية الصرف في كتاب سيبويه، (ط. 1)، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، 1965.
- 39- خليفة بوجادي، اللسانيات النظرية دروس وتطبيقات ، (ط. 1)، بيت الحكمة ، الجزائر، 2012.

- 40- خليل إبراهيم العطية، في البحث الصوتي عند العرب، (د.ط) منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، 1983.
- 41- خليل أحمد عمايرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل النحوي، (ط. 1)، دار الفكر ناشرون وموزعون، بيروت، 1987.
- خليل بن أحمد الفراهيدي؛ صانع النحو وواضع العروض، (ط. 1)، الأنيس للنشر والطباعة، الجزائر، 2013.
- 42- خير الدين معوش، خليل بن أحمد وأصول اللغة؛ دراسة وصفية تحليلية لأعمال الندوة الدولية حول خليل بن أحمد، منشورات مخبر الممارسات اللغوية - جامعة مولود معمري (تيزي وزو)، الجزائر.
- 43- دليلة مزوز، الأحكام النحوية، (ط. 1)، عالم الكتب الحديث، مصر، 2011.
- 44- راجح بوحوش، المناهج النقدية وخصائص الخطاب اللساني، (ط. 1) دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.
- 45- رحاب خضر عكاوي، موسوعة عباقر الإسلام، (ط. 1)، دار الفكر العربي، بيروت، 1990.
- 46- رشيد الدين محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، (ط. 1) المطبعة الحيدرية، بغداد، 1956.
- 47- رمضان عبد التّواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، (ط. 3) مكتبة الخانجي، مصر، 1997.
- 48- زين كامل الخويسكي، الأصوات اللغوية، (د.ط)، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2008.
- 49- سامي أدهم، إبستمولوجيا المعنى والوجود نقد التطويع دراسة نقدية للواقعية والمنطقتاني والترسنتالية، (ط. 1)، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990.
- 50- سعيد الزبيدي، القياس في النحو العربي؛ نشأته وتطوره، (ط. 1)، دار الشروق للنشر والتوزيع، القاهرة، 1997.
- 51- سعيد الصقلاوي، شعراء عمانيون، (د.ط)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1996.

- 52- سلوى النجار، الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار، (ط.1)، دار التنوير، بيروت، 2010.
- 53- سميّة المكي، الكفاية التفسيرية للنحو العربي والنحو التوليدي، (ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2013.
- 54- سمير شريف استيتية، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، (ط.1)، علم الكتب الحديث، الأردن ، 2015.
- 55- شفيقة علوي، دروس في المدارس اللسانية الحديثة التنظير المنهج والإجراء، (ط.1) مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، 2013.
- 56- شوقي ضيف، المدارس النحوية، (ط.7) دار المعارف، مصر، 2011.
- 57- صالح بلعيد ، في أصول النّحو ، (ط.1)، دار هومة ، الجزائر، 2005.
- 58- طلال علامة، تطوّر النحو العربي في مدرستي البصرة والكوفة، (ط.1)، دار الفكر، بيروت ، ط1، 1993.
- 59- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، (ط.2)، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1993.
- 60- طيّب البكوش، التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، (ط.2)، الشركة التونسية، تونس، 1987.
- 61- عبد الجبار بن غريبة، مدخل إلى النّحو العرفاني، (ط.1)، دار مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، 2010.
- 62- عبد الخالق عزيمة، المغني في تصريف الأفعال، (ط.2)، دار الحديث، القاهرة ، 1999.
- 63- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (د.ط)، موفم للنشر، الجزائر، 2012.
- 64- عبد الرحمن بودرع، محمد الحافظ الروسي، مركزية سيويه في الثقافة العربية، (ط.1)، مطبعة الهداية، المغرب، 2017.
- 65- عبد الرحمن طعمة، البناء الذهني للمفاهيم بحث في تكامل علوم اللسان وآليات العرفان، (ط.1)، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الأردن، 2019.

- 107- عبد السلام المسدي، اللسانيات وأسسها المعرفية ، (ط.1) ،دار التونسية للنشر ، 1986.
- 108- عبد الصاحب عمران الدجيلي، أعلام العرب في العلوم والفنون، (ط.2)، مطبعة النعمان،العراق، 1966.
- 109- عبد العزيز المسعودي، المعاني الجهيّة والمظهريّة بحث لساني في المَقولة الدّلالية، (د.ط)، الدار التونسية للكتاب، تونس، 2013.
- 110- عبد القادر أبو شريفة وآخرون، علم الدّلالة والمعجم العربيّ، (ط.1)، دار الفكر، عمان، 1979.
- 111- عبد القادر عبد الجليل، علم الصرف الصوتي، (ط. 1)، دار أزمنة، الأردن، 1998.
- 112- عبد القادر مرعي، المصطلح الصّوتيّ عندَ علماء العربيّة القُدّماء في ضوء علم اللغة المُعاصر،(ط.1)، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2016.
- 113- عبد الكريم بكري، أصول النّحو العربي في ضوء مذهب ابن مضاء القرطبي، (ط. 1)، منشورات الدار الجزائرية، الجزائر، 2015.
- 114- عبد اللطيف حماسة، النحو والدلالة، (ط.1)، دار الشروق، القاهرة، 2000.
- 115- عبد الله محمد طالب الكناعنة، الصراعُ بين التراكيب النحوية؛ دراسة في كتاب سيبويه، (ط.1)، دار الكتاب الثقافي، الأردن، 2007.
- 116- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، (ط.1)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004.
- 117- عرفات فيصل المنّاع، السّياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي، (ط. 1)، مؤسسة السيّاب للطباعة والنّشر، لندن، 2013.
- 118- عصام نور الدّين، علم الأصوات اللغوية؛ الفونيتيكا، (ط. 1)، دار الفكر اللبناني، بيروت ، 1992.
- 119- علي أبو المكارم، المدخل إلى دراسة النحو العربي، (ط. 1)، دار غريب، القاهرة، 2006.
- 120- علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعاجم، (ط.2)، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، 1991.
- 121- علي النجدي ناصف، سيبويه إمّام النحاة، (ط. 2)،عالم الكتب،القاهرة، 1979.

- 122- عمر مذكور، الدلالة في المُعجم العربي، (ط.1)، دار البصائر، القاهرة، 2008.
- 123- عيد محمد الطيّب، المُعجمات اللّغوية ودلالات الألفاظ، (ط.1)، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، 2007.
- 124- فخر صالح سليمان قدارة ، مسائل خلافية بين الخليل و سيبويه، (ط.1) ، دار الأمل، الأردن، 1990.
- 125- قاسم البريسيم، علم الصوت العربي في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، (ط.1)، دار الكنوز الأدبية، 2005.
- 126- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تح: عبد الحليم النجار، رمضان عبد التواب، (ط.1)، دار المعارف، مصر، 1977.
- 127- كمال بشر، علم الأصوات، (د. ط) دار غريب للنشر والطباعة والتوزيع، القاهرة، 2000.
- 128- مارك روبنسون، اللغة نظريا، تر: خالد شاكر حسين، (ط.1)، دار أوما، العراق، 2012.
- 129- ماريوباي، أسس علم اللغة، تر: أحمد مختار عُمر، (ط.8)عالم الكتب، القاهرة، 1998.
- 130- مازن الوعر، قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، (ط.1)، دار طلاس ، دمشق، 1988.
- 131- محمد أحمد دويس، شذرات ونظرات في علوم اللّغة العربية، (ط.1)، دار الخلدونية، الجزائر، ط1، 2018.
- 132- محمّد الأوراعي، الوسائط اللّغوية؛ أقول اللّسانيات الكلّية، (ط.2)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2013.
- مُحاضرات في تطبيقات النّحو التّوليفي، (ط.1)، منشورات ضفاف، بيروت، 2018.
- 133- محمّد الحيرش ،النّص وآليات الفهم في علوم القرآن ،(ط.1) دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، 2010.
- 134- محمّد الطنطاوي ، نشأة النّحو و تاريخ أشهر النّحاة (ط.2) ، دار المعارف ،القاهرة، 1995،
- 135- محمد الملاخ، الزمن في اللغة العربية؛ بنياته التركيبية والدلالية، (ط.1)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009.

- 136- محمد بازي، العنوان في الثقافة العربية التشكيل ومسالك التأويل، (ط.1) ، منشورات الاختلاف ، الجزائر، 2012.
- 137- محمد بن موسى الشرويني الجراي، تجويد القرآن الكريم على رواية ورش عن نافع بطريق الأزرق، (ط.1)، دار الهدى، الجزائر، 2008.
- 138- محمد جواد النوري، دراسات صوتية وصوتية صرفية في اللغة العربية، (ط.1)، دار الكتب العلمية، 2018.
- 139- محمد حسن مليطان، نظرية النحو الوظيفي الأسس والنماذج والمفاهيم، (ط.1)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2014.
- 140- محمد خميس القطيطي، أسس الصياغة المعجمية في كشف اصطلاحات الفنون، (ط.1)، دار جرير للنشر والتوزيع، الأردن، 2010.
- 141- محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، (د.ط) دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2011.
- 142- محمد رشاد حمزاوي، المعجم العربي إشكالات ومقاربات، (ط.1)، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق والدراسات ، تونس، 1991.
- 143- محمد علي سلطاني، العروض وإيقاع الشعر العربي، (ط.2)، دار العصماء للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2003.
- 144- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، (ط.1)، دار المعرفة الجديدة، مصر، 2002.
- 145- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، (ط.2)، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.
- 146- مخلوف بن لعلام ، مبادئ في أصول النحو، (ط.1) ، دار الأمل، الجزائر، 2012.
- 147- مسعود بودوخة، محاضرات في الصوتيات، (ط.1)، بيت الحكمة ، الجزائر، 2013.
- 148- مصطفى بن حمزة، نظرية العامل في النحو العربي دراسة تأصيلية تركيبية، (ط.1)، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، 2004.
- 149- مصطفى حركات، نظرية الإيقاع الشعر العربي بين اللغة والموسيقى، (د.ط)، دار الآفاق، الجزائر، (د.ت).

- 150- مصطفى عمر التير، مقدمة في مبادئ أسس البحث الاجتماعي، (ط.1)، المنشأة الشعبية للطبع والتوزيع، طرابلس، 1989.
- 151- مصطفى غلفان، اللسانيات العربية أسئلة المنهج ، (ط.1)، دار ورد للنشر والتوزيع ، الأردن، 2013.
- 152- منذر عياشي ، قضايا لسانية وحضارية ، (ط.1) دار طلاس، دمشق ، 1995.
- 153- منقور عبد الجليل ،النص والتأويل دراسة دلالية في الفكر المعرفي التراثي، (ط.1)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
- 154- منى إلياس، القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي، (ط.1)، دار الفكر المعاصر، سوريا، 1987.
- 155- مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق، (ط.2)، دار الرائد العربي، بيروت، 1986.
- 156- ميدني بن حويلي، المعجم اللغوي من النشأة إلى الاكتمال ، (ط.1)، دار هومة، الجزائر، 2003.
- 157- ميرزا محمد باقر الموسوي الأصبهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، (ط.1) الدار الإسلامية، بيروت، 1991.
- 158- نعيم سليمان البديري، كتاب العين في ضوء النقد اللغوي، (ط.1)، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، 2000.
- 159- هادي حسين حمودي، الخليل وكتاب العين، (د.ط)، التراث العماني، لندن، 1994.
- 160- هادي نهر، نحو الخليل من خلال مُعجمه، (ط.1)، دار اليازوري العلمي للنشر والتوزيع، الأردن ، 2006.

(3)- المراجع الأجنبية:

- 1- David Crystal, dictionary of linguistics and phonetics, oxford Blackwell publishers, (1991).
- 2- Dominique Maingueneau, encyclopédie philosophique universelle, les notions philosophiques, 1, press, universitaires de France, (1990)

George Yule, the study of language, Cambridge university press, 3rd edition, (2006).

John Rupert Firth, paper in linguistics, oxford university London, 2000.

(4)- الرسائل العلميّة:

1- بعداش علي، الميزان الصّرفي العربي أصوله وتطبيقاته دراسة أنموذجية في ديوان زهير بن أبي سلمى، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير (منشورة)، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس ، الجزائر، سنة: 2009.

2- عبد الله بوخلخال، التحليل الصّوتي للتغيّرات الصّرفية عند النّحاة العرب، رسالة مقدّمة لنيل درجة الدّكتوراه، (منشورة)، كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، سنة: 1988.

(5)- المجلات العلميّة:

1- محمد عدلي ، التّأصيل لعلاقة العامل بالتعليل في الدرس النحوي، مجلة جامعة الأنبار لغات والآداب، كلية الآداب، العراق، العدد 01، 2009.

2- محمد ملياني، المصطلح النحوي الأصيل في المعاجم العربية، مجلة المصطلح، كلية الآداب واللّغات، جامعة تلمسان، الجزائر، العدد: 02، فبراير 2003.

فهرس الموضوعات

مقدمة: أ

المدخل: اللسانيات والتراث اللغوي؛ الإشكال المنهجي ومُسوّغات القراءة.....08

مقدّمات منهجيّة.....09

ما المقصود باللسانيات.....09

مفهوم اللسانيات العربيّة؛ توضيح منهجيّ.....10

التّصنيف المنهجيّ لأنماط الخطاب اللّساني في اللّسانيات العربيّة.....11

لسانيات التراث؛ المفهوم واتّجاهاتُ القراءة.....14

إشكالية المنهج في لسانيات التراث؛ بين مسوّغ القراءة ومأزق الإقصاء.....16

العلاقة بين النّحو واللسانيات مثلاً.....18

المأزق المنهجي لقراءة النموذج الواحد في لسانيات التراث؛ محاولة تقييميّة.....20

نحو منهج قرائي نموذجي وفق معطيات لسانيات التراث؛ المقاربة الوظيفيّة لأحمد المتوكّل

نموذجاً.....21

الفصل الأوّل: الخليل بن أحمد الفراهيدي؛ معالم شخصيّته ومسيرة حياته....39

أوّلاً: مولده ونشأته.....26

اسمه.....	26
ولادته.....	28
مذهبه وعقيدته.....	28
ثانيا: مكانته العلمية وإبداعاته اللغوية.....	29
شيوخه.....	29
مُريدوه.....	30
عطاءاته العلميّة.....	31
مصنّفاته.....	33
شعره وحكمه المنثورة.....	35
ثالثا: وفاته وثناء العلماء عليه.....	37
وفاته.....	37
سبب موته.....	37
ثناء العلماء عليه.....	38
رابعا: قراءة نقدية في المنظومة المعرفية للفرايدي؛ من البنية العقلية التكوينية إلى البنية الحضارية.....	41
البنية العقلية (مرحلة التكوين المعرفي).....	42
بنية الاشتغال (مرحلة التأسيس العلمي)	43

البنية الحضاريّة (مرحلة الإنتاج والفاعليّة)45

حوصلة واستنتاج.....48

الفصل الثّاني: المستويات اللّسانية في الرّؤى اللّغوية عند الخليل؛ مقارنة في

أنظمة البنى والدّلالات.....50

مدخل: وصف الدّراسة.....50

المُعطيات الأولى.....50

آليّة الاشتغال.....50

سماتُ المقاربة.....51

أولاً: المُستوى الصّوتي.....69

مدخل.....69

قضايا الصوت اللّغوي في النموذج الخليلي.....72

مفهوم الصّوت اللّغوي.....72

الصّوت اللّغوي؛ عناصر إنتاجه وكيفيّة حدوثه.....76

موقف الخليل من مفهوم الصّوت اللّغوي.....77

ثنائية الصّوت والحرف (مرحلة الاستقراء الأولى).....77

ثنائية الصّوت والحرف (مرحلة انفتاح الدّلالة العلميّة).....79

81.....	الدراسة الصوتية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي
83.....	جهاز النطق ومكوناته
85.....	جهاز النطق عند الخليل
90.....	مخارج الأصوات العربية
91.....	مفاهيم أولية
94.....	بيان مخارج الأصوات
102.....	صفات الأصوات
107.....	الدراسة الفونولوجية عند الخليل
107.....	الفونولوجيا (علم وظائف الأصوات)؛ المفهوم والاشتغال
109.....	الظواهر التركيبية الفونولوجية عند الخليل
115.....	وجه المقاربة
115.....	جهاز النطق
116.....	العملية النطقية
117.....	الأنماط النطقية
117.....	حوصلة واستنتاج
120.....	ثانيا: المستوى المُعْجَمِي
120.....	مدخل

124.....	تعريف المُعجم
124.....	التَّسمية
125.....	المعنى اللُّغوي
126.....	المعنى الاصطلاحي
127.....	مراحل التَّأليف المُعجمي
127.....	مرحلة غريب القرآن
129.....	مرحلة غريب الحديث
131.....	مرحلة الرِّسائل اللُّغوية
132.....	التَّأليف المُعجمي؛ أسبابه وأبعاده الوظيفية
132.....	أسبابه
134.....	أبعاده الوظيفية
135.....	البناء المُعجمي عند الخليل؛ الخطوات ومنهج التَّأليف
135.....	الترتيب الصَّوتي
136.....	نظامُ الأبنية
139.....	نماذج من معجم العين
161.....	نظام التَّقاليب
143.....	نماذج من كتاب العين

148.....	طريقة البحث عن المادّة اللّغوية في كتاب العين
149.....	كلمة (قرعلانة)
149.....	كلمة (عطية)
149.....	كلمة (فرط)
151.....	وجه المقاربة وفق معطيات نموذج لسانيات التراث
151.....	تحديد المعجم؛ المفهوم والوظيفة
151.....	المفهوم
152.....	الوظيفة
152.....	بيان المعنى
152.....	بيان النطق
153.....	بيان الهجاء
153.....	التأصيل الاشتقاقي
155.....	المعلومات الصّرفية والنّحوية
157.....	معلومات الاستعمال
157.....	معلومات تتعلق باستخدام اللفظ
158.....	معلومات تتعلّق بحظر الاستخدام
159.....	المعلومات الموسوعية

التصنيف المُعجمي عند الخليل؛ مُقاربة منهجية في طرائق الوضع التعريفية.....	161
التعريف الصوتي.....	163
التعريف الصرفي.....	163
التعريف بالمُترادف.....	164
التعريف بالتضاد.....	164
التعريف المنطقي.....	165
التعريف النحوي.....	166
التعريف بالشاهد.....	167
حوصلة واستنتاج.....	168
ثالثاً: المستوى النحوي والصرفي.....	170
أ-المستوى النحوي.....	170
في نشأة النحو.....	170
بدايات نحوية قبل عهد الخليل؛ مرحلة تمهيدية مؤسّسة.....	173
مرحلة النّضج في عهد الخليل.....	175
الخليل بن أحمد وأصول النّحو.....	175
السّماع.....	176
القياس.....	192

198.....	التعليل
205.....	الخليل بن أحمد ونظرية العامل
206.....	تعريف العامل
208.....	أقسامه
212.....	فكرة العامل بين القبول والرفض
215.....	نماذجه عند الخليل
218.....	المصطلح النحوي عند الخليل
218.....	مفهوم المصطلح
219.....	مفهوم المصطلح النحوي
221.....	قراءة في بعض المصطلحات النحوية عند الخليل
221.....	مصطلح النسق
222.....	مصطلح الجود
224.....	مصطلح الغاية
225.....	مصطلح " ما لم يسم فاعله "
227.....	خلاصة واستنتاج
227.....	ب-المستوى الصرفي
229.....	(الصرف / التصريف)

230.....	دلالة استعماله عند الخليل
233.....	الميزان الصّرفي
234.....	نماذجه عند الخليل
235.....	القلب المكاني
235.....	نماذجه عند الخليل
237.....	القلب
238.....	التّصغير
239.....	نماذجه عند الخليل
240.....	استعانة الخليل بعلم الصّرف الوظيفي لتفسير المفردة القرآنية
241.....	نماذجه
242.....	خلاصة واستنتاج
244.....	سمات المقاربة اللّسانية في المستوى النّحوي والصّرفي
244.....	نحو مقارنة عرفانية للنّظام النّحوي
248.....	الأبنية الإعرابية في الرّؤى النّحوية عند الخليل؛ من الكفاية الوصفية إلى الكفاية التّفسيرية
249.....	مقاربة المستوى الصّرفي
252.....	خلاصة واستنتاج

الفصل الثالث: نحو قراءة لسانية جديدة في الرؤى اللغوية عند الخليل بن أحمد

الفراهيدي.....254

مدخل.....255

الرؤى اللغوية عند الخليل؛ البناء وفرضية التحقق.....256

الرؤى اللغوية عند الخليل؛ مقارنة في مستويات التحليل.....258

المستوى التفاعلي.....260

المستوى التخاطبي.....262

المستوى القالبي.....267

الموقع اللساني من الكون الذهني إلى الكون اللغوي.....268

الإجراء القالبي للموقع اللساني.....272

النموذج اللغوي الخليل؛ مقارنة في آلية الاشتغال.....273

الأنظمة التركيبية.....274

الكفاية التفسيرية للنموذج اللغوي عند الخليل.....275

اللغة ونظام الخطاب؛ مقارنة وظيفية في التصور اللساني عند الخليل.....278

اللغة والإيقاع؛ مقارنة في المنجز العروضي عند الخليل.....279

البعد التداولي في الرؤى اللغوية عند الخليل.....282

أنساق التواصل في النموذج اللغوي عند الخليل.....288

292.....	إجراء مقارنة لسانية مقترحة لتطوير النموذج اللغوي عند الخليل
293.....	نحو مقارنة توليفية
296.....	مقترح المقاربة التوليفية
296.....	البناء الداخلي للنموذج
297.....	معالجة المعرفة اللغوية
298.....	اللغة الاصطلاحية الوصفة
298.....	سمات المقاربة التوليفية في النموذج اللغوي عند الخليل
299.....	التصنيف المفاهيمي
300.....	العلاقة الدلالية
301.....	العاملية
306.....	خاتمة واستنتاج
309.....	خاتمة
313.....	قائمة المصادر والمراجع
328.....	فهرس الموضوعات
337.....	ملخص

ملخص

نسعى من خلال هذه الدراسة قراءة التصورات اللغوية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتأويلها وفق ما وصل إليه البحث اللساني الحديث، لإخراج هذه القراءة في حلة جديدة تبين قيمتها التاريخية والحضارية، وقد ركّزنا في هذه الدراسة على نمط من القراءة يمثل اتجاها قائما بذاته يُصطلح عليه بلسانيات التراث نركّز فيه على أحد مراتب القراءة التي تنطوي تحته وهي قراءة النموذج الواحد؛ التي تتّجه إلى دراسة شخصية لغوية عربية قديمة بحيث يُدرس فكرها اللغوي، وطريقة تصوّرها وكيفية تناولها لقضايا اللغة العربية، ولهذا حاولنا إجراء مقارنة لسانية لهذا النموذج مضبوطة وفق قواعد علمية ومعايير معرفية ومنهجية، لأجل تطوير هذا النموذج واستثماره في ميادين قطاعية مختلفة.

Abstract:

We endeavor through this study to read the linguistic perceptions in Al Khalîl Ibn Ahmad Al Farâhîdî and to interpret them according to the recent Linguistic research, in order to get this reading out in a new way that shows its historical and cultural value. In this study, we focused on a pattern of reading that represents a self-standing trend, which is referred to as the patrimony linguistics, in which we focus on one of the reading levels, which includes reading the one model; mainly directed to studying an old Arabic linguist personality, so that it studies its linguistic thought, how it is conceived and how it deals with the issues of the Arabic language. We have therefore tried to make a systematic approach to this model, which is based on scientific bases, as well as cognitive and methodological norms, in order to develop and invest this model in different sectoral fields.

Résumé

Nous nous proposons, dans la présente étude, d'interpréter les conceptions linguistiques d'Al-ḫalîl bni Aḥmad Al-farâhîdî, à la lumière des acquis de la linguistique contemporaine, dans le but d'y apercevoir leur valeur historique et civilisationnelle. Nous nous sommes concentrés sur un type de lecture,

communément appelé « la linguistique de la tradition », en ne prenant en considération qu'une seule personnalité linguistique arabe. Il s'agira donc de la pensée linguistique d'Al-farâhîdî, de sa manière de penser ainsi que de sa façon de d'appréhender les questions relatives à la langue arabe. Nous nous sommes soumis à une approche linguistique basée sur des lois scientifiques et des critères méthodologiques précis, à même d'être utilisée dans d'autres domaines de la pensée.